التدبر والبيان

في

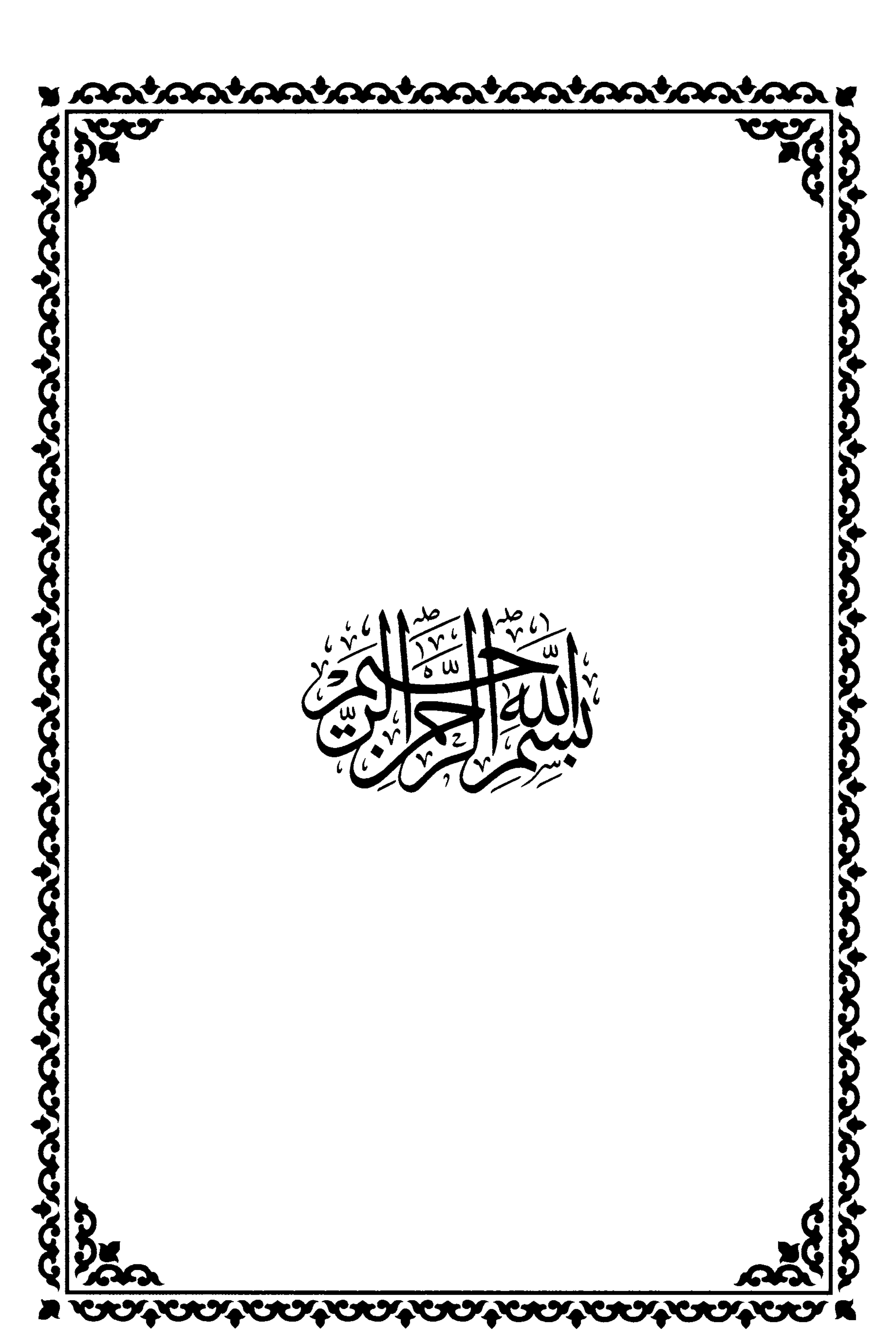
تفسير القرآن بصحيح السنن

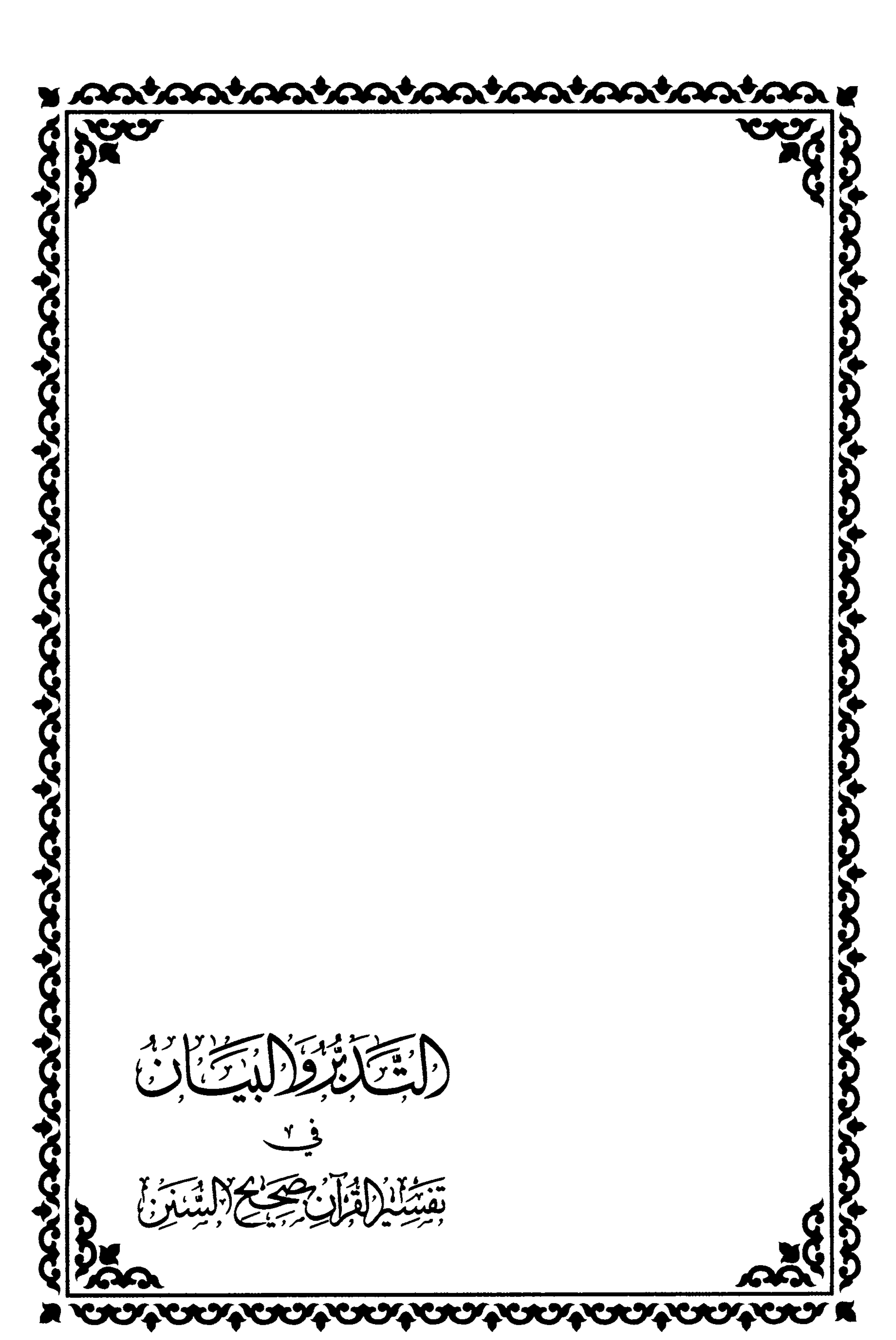
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الحادي عشر

سورة الأعراف


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

التصنيف : تفسير
Classification: Exegesis

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي
Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٩٧٨ ـ ٩٩٥٤ ـ ٣٣ ـ ١٤٧ ـ ٧



سورة الأعراف

أغراض السورة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «. . . سورة (الأعراف) مشتملة على أصول الدين، والاعتصام بالكتاب، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله؛ كالشرك وتحريم الطيبات، أو خالفوا ما شرعه اللَّه من أمور دينهم؛ كإبليس، ومخالفي الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكتاب؛ فاشتملت السورة على ذم من أتى بدين باطل ككفار العرب، ومن خالف الدين الحق كله كالكفار بالأنبياء؛ أو بعضه ككفار أهل الكتاب.

وقد جمع سبحانه في هذه السورة وفي (الأنعام) وفي غيرهما ذنوب المشركين في نوعين؛ أحدهما: أمر بما لم يأمر اللَّه به كالشرك، ونهي عما لم ينه اللَّه عنه كتحريم الطيبات؛ فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به اللَّه، والثاني تحريم لما لم يحرمه الله»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة (الأعراف)

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٣)، والطحاوي في شرح المشكل (٣/ ٤٠٧-٤٠٨/ ١٣٧٧-١٣٧٨)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٦٨/ ١٢٠٣)، والحاكم (١/ ٥٦٤) وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٢) وعزاه لأحمد والبزار وقال: «ورجال البزار رجال الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة».

★ غريب الحديث:

حبر: بفتح المهملة وكسرها؛ أي: عالم.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: فضيلة ظاهرة لسورة (الأعراف)؛ لأنها من جملة السبع الطوال التي من حفظها وعلم معانيها صار من الأحبار العلماء.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءته ﷺ سورة (الأعراف) في صلاة المغرب

* عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: ما لَك تقرأ في المغرب بقصار (المفصل) وقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يقرأ في المغرب بطولى الطوليين؟ قال: قلت: ما طولى الطولَيين؟ قال: (الأعراف) والأخرى (الأنعام)، قال: وسألت أنا ابن أبي مليكة، فقال لي من قبل نفسه: (المائدة)، و(الأعراف)[1].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**ما لك تقرأ في المغرب بقصار (المفصل)؟**»:

قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: دائمًا بحيث كأنه اللازم ولا يجوز غيره، فالإنكار على التزام القصار وفيه أنه ينبغي للإمام أن يقرأ ما قرأه -صلى اللَّه تعالى عليه وسلم- أحيانًا تبركًا بقراءته ﷺ وإحياء لسنته وآثاره الجميلة»[2].

قال ابن بطال: «وأما طولى الطوليين فإن العلماء قالوا: هي سورة (الأعراف)، ذكر ذلك النسائي في حديث زيد بن ثابت من رواية ابن وهب، ومن رواية ابن جريج.

وقال أبو سليمان الخطابي: (طولى) تأنيث (أطول)، و(الطوليين) تثنية (الطولى)، يريد أنه كان يقرأ فيها بأطول السورتين، يعني (الأنعام) و(الأعراف).

قال غيره: فإن قيل: هي (البقرة)؛ لأنها أطول السبع الطوال.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٧)، والبخاري (٢/ ٣١٣/ ٧٦٤)، وأبو داود (١/ ٥٠٩/ ٨١٢)، والنسائي (٢/ ٥١٠/ ٩٨٨-٩٨٩).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (٢/ ٥١٠).

قيل: لو أراد (البقرة) لقال: بطول الطول، فلما لم يقل ذلك دل أنه أراد (الأعراف)، وهي أطول السور بعد (البقرة)، ويحتمل أن يكون قرأها في الركعتين من المغرب؛ لأنه لم يذكر أنه قرأ معها غيرها»[١].

قال السندي: «وصِدْقُ هذا الوصف -يعني أطول الطوليين- على غير (الأعراف) لا يضر؛ لأنه عينها بالبيان»[٢].

قال ابن المنير: «تسمية (الأعراف) و(الأنعام) بالطوليين إنما هو لعرف فيهما، لا أنهما أطول من غيرهما، والله أعلم»[٣].

قال الحافظ: «استدل بهذا الحديث على امتداد وقت المغرب، وعلى استحباب القراءة فيهما بغير قصار (المفصل)»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فعلم أن وقتها -أي: المغرب- يمتد بقدر قراءة سورة (الأعراف)»[٥].

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (٢/ ٣٨١).
(٢) حاشية السندي على النسائي (٢/ ٥١٠).
(٣) فتح الباري (٢/ ٣١٥).
(٤) المصدر السابق بتصرف.
(٥) شرح العمدة (٤/ ١٨٧).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ۝١﴾

تقدم بسط الكلام على الحروف المقطَّعة أوائل السور في أول سورة (البقرة).

* * *

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

★ غريب الآية:

حرج: أي: ضيق؛ أي: لا يضيق صدرك بالإبلاغ. ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا: الشك، وليس هذا شك الكفر، وإنما هو شك الضيق، وهو تفسير باللازم؛ لأن الشاك يضيق صدره بخلاف المتيقن؛ فإنه ينفسح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: هذا القرآن، -يا محمد- في كتاب أنزله اللَّه إليك. . . ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: فلا يضق صدرك -يا محمد- من الإنذار به من أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه من أمرتك بإبلاغه إياه، ولا تشك في أنه من عندي، واصبر بالمضي لأمر اللَّه، واتباع طاعته فيما كلفك وحمّلك من عبء أثقال النبوة، كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن اللَّه معك. . . ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني بذلك -تعالى ذكره-: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتنذر به من أمرتك بإنذاره، وذكرى للمؤمنين، وهو من المؤخَّر الذي معناه التقديم، ومعناه: كتاب أنزل إليك لتنذر به، وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه»[١].

قال إلكيا الهراسي: «﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ ظاهره النهي، ومعناه نفي الحرج عنه؛ أي: لا يضيقن صدرك أن لا يؤمنوا به، فعليك البلاغ، وليس عليك شيء من إيمانهم وكفرهم سوى الإنذار به، ومثله قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾[٢] الآية. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[٣]»[٤].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١١٦-١١٧).
(٢) الكهف: الآية (٦).
(٣) الشعراء: الآية (٣).
(٤) أحكام القرآن (٣/ ١٣١).

قال القرطبي: «وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الماوردي: «﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾وفي الحرج ههنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الضيق، قاله الحسن، وهو أصله.

قال الشماخ بن ضرار:

ولو ردت المعروف عندي رددتها ... لحاجة لا العالي ولا المتحرج

ويكون معناه: فلا يضيق صدرك خوفًا ألا تقوم بحقه.

والثاني: أن الحرج هنا الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي.

قال الراجز:

آليت لولا حرج يعروني ... ما جئت أغزوك ولا تغزوني

ومعناه: فلا تشك فيما يلزمك فيه؛ فإنما أنزل إليك لتنذر به.

والثالث: فلا يضيق صدرك بأن يكذبوك، قاله الفراء»[(٣)].

قال الشنقيطي: «وجمهور العلماء على أن المراد بالحرج في الآية: الضيق؛ أي: لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أُمرت به لشدة تكذيبهم لك؛ لأن تحمل عداوة الكفار، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر. وقد قال ﷺ: «**إذًا يثلغوا رأسي فيدَعُوه خبزة**»[(٤)]، أخرجه مسلم. والثلغ: الشدخ، وقيل: ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر.

ويدل لهذا الوجه الأخير في الآية قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[(٧)]، وقوله:

---

(١) الحجر: الآية (٩٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٦١).
(٣) النكت والعيون (٢/ ١٩٩).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠/ ٨٠٧١) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.
(٥) هود: الآية (١٢).
(٦) الحجر: الآية (٩٧).
(٧) الكهف: الآية (٦).

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[(١)].

ويؤيد الوجه الأخير في الآية أن الحرج في لغة العرب: الضيق. وذلك معروف في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾[(٤)]؛ أي: شديد الضيق، إلى غير ذلك من الآيات، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة، أو جميل:

فخرجت خوف يمينها فتبسمت ... فعلمت أن يمينها لم تحرج

وقول العرجي:

عوجي علينا ربة الهودج ... إنك إلا تفعلي تحرجي

والمراد بالإحراج في البيتين: الإدخال في الحرج، بمعنى الضيق كما ذكرنا»[(٥)].

وقال: «قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لم يبين هنا المفعول به لقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾، ولكنه بينه في مواضع أُخر كقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾[(٦)]، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾[(٧)]، إلى غير ذلك من الآيات. كما أنه بيّن المفعول الثاني للإنذار في آيات أُخر، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾[(٨)]، وقوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾[(٩)]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾[(١٠)] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾[(١١)]، وقوله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(١٢)]، وقوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[(١٣)].

---

(١) الشعراء: الآية (٣).
(٢) النور: الآية (٦١).
(٣) الحج: الآية (٧٨).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٥).
(٥) أضواء البيان (٢/ ٣-٤).
(٦) مريم: الآية (٩٧).
(٧) يس: الآية (٦).
(٨) الكهف: الآية (٢).
(٩) الليل: الآية (١٤).
(١٠) النبأ: الآية (٤٠).
(١١) مريم: الآية (٩٧).
(١٢) الذاريات: الآية (٥٥).
(١٣) ق: الآية (٤٥).

ولا ينافي ما ذكرنا من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[1]؛ لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصورًا عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم؛ لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم.

ومن أساليب اللغة العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

وحاصل تحرير المقام في هذا المبحث: أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين:

أحدهما: عام لجميع الناس، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[3].

وهذا الإنذار العام: هو الذي قصر على المؤمنين قصرًا إضافيًا في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ الآية؛ لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم.

والثاني: إنذار خاص بالكفار؛ لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبينًا أنه خاص بالكفار دون المؤمنين، كقوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[4]، وقوله هنا: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اهـ.

والإنذار في اللغة العربية: الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الحرج في الآية

* عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه -قال: والتحنث: التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود بمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) يس: الآية (١١).
(٢) المدثر: الآيتان (١و٢).
(٣) الفرقان: الآية (١).
(٤) مريم: الآية (٩٧).
(٥) أضواء البيان (٢/ ٤-٥).

ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١]. فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع. قال لخديجة: أي خديجة، ما لي لقد خشيت على نفسي؟ فأخبرها الخبر. قالت خديجة: كلا أبشر. فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتُكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفل، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت خديجة: يا عم، اسمع من ابن أخيك، قال ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا. ليتني أكون حيًّا -ذكر حرفًا- قال رسول الله ﷺ: أومخرجيَّ هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حيًّا أنصرك نصرًا مؤزّرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قلت: والشاهد من الحديث ما أخبر به ورقة الرسول ﷺ فيما سيقع له من مضايقة قومه إذا ظهرت دعوته؛ فإنهم سيقاومونه ويردون دعوته، وهذا الكلام قاله ورقة بناءً على ما قرأه في الكتب السابقة وما يعلمه من دعوات الأنبياء الماضين، وأنهم وجدوا تضييقًا من أممهم ومعارضة ومطاردة بكل الوسائل؛ كما ذكر الله

---

(١) العلق: الآيات (١-٥).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٩٢٦-٩٢٧/ ٤٩٥٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٣/ ١٦٠).

عنهم في القرآن بالأقوال والأفعال، فرسول اللَّه محمد ﷺ وهو من أعظمهم؛ لا بد أن يناله ما نالهم وأكثر، وقد تعجب رسول اللَّه ﷺ من كلمة ورقة: «**إذ يخرجك قومك**» فما ظن أن الأمر قد يبلغ إلى هذا الحد، وهو الطرد والإبعاد لما يعلمه ﷺ من عصبية قومه بعضهم لبعض، ولا سيما وهو ﷺ من أشرف أسرة التي هي أسرة بني هاشم، وكانت أعز أسرة وأمنعها، وأشهرها في الكرم والضيافة والسقاية والرفادة وغيرها من خدمة البيت وخدمة الحجاج الذين كانوا يفدون على البيت من كل فج عميق، وهذا هو الذي جعل رسول اللَّه ﷺ يتعجب من كلمة ورقة، ولهذا قال له: «**أو مخرجي هم؟**» فبين له ورقة أن الأمر أعظم من ذلك، وأن هذه المباينات والمفارقات حاصلة لا محالة: إذا أنت أتيتهم بهذه الدعوة التي ذكرت لي، وهي نتيجة حتمية عند ورقة؛ لما يعلمه من تواريخ الأنبياء، فلا تردد عنده في هذه النتيجة، فكان كما قال رضي الله عنه، وقد تمنى أن يكون من أنصار رسول اللَّه ﷺ وأصحابه الذين يكونون في صفه، ولكن الأجل وافاه؛ كما ذكر في الحديث.

فالداعية إلى اللَّه تعالى على بصيرة بالتوحيد والسنة؛ لا بد أن يجد هذه المواجهات من عدة جهات، فلهذا لا يكن في صدره ضيق وحرج؛ بل ينبغي أن يشرح صدره وأن يعيش على الفأل المتواصل وأن يتفاءل ولو بإيمان نفسه، فضلًا عن أن تكون له زوجة، أو أب أو ابنة، أو جار أو جارة، أو تلميذ أو تلميذة، يشاركونه دعوته، فهذا كله مكسب له، وأما إن كان له وقع في المجتمع، وشريحة اجتماعية تدعو بدعوته على السنة، فهذا ينبغي له أن يكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار كما قال تعالى لنبيه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾[١].

* * *

(١) النصر: الآية (٣).

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «هذا بيان للإنذار العام الذي أمر الرسول بتبليغه إلى جميع الأنام، وهو على تقدير القول الذي يكثر حذفه في مثل هذا المقام، لما يدل عليه من الأسلوب وسياق الكلام؛ أي: قل: يا أيها الناس اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، الذي هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم؛ فإنه هو الذي له وحده الحق في شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم، والتحليل لما ينفعكم، والتحريم لما يضركم؛ لأنه أعلم بمصلحتكم منكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ تتخذونهم من أنفسكم، ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم، بما يزين لكم ضلال تقاليدكم والابتداع في دينكم، فتولونهم أموركم، وتطيعونهم فيما يرومون منكم، من وضع أحكام، وحلال وحرام، زاعمين أنه يجب عليكم تقليدهم لأنهم أعلم منكم، أو للاقتداء بما كان عليه آباؤكم، فإنما على العالم بدين اللّٰه تبليغه وبيانه للمتعلم لا بيان آرائه وظنونه فيه، ولا أولياء تتخذونهم لأجل إنجائكم من الجزاء على ذنوبكم، وجلب النفع لكم أو رفع الضر عنكم، زاعمين أنهم بصلاحهم يقربونكم إليه زلفى، أو يشفعون لكم عنده في الآخرة أو الدنيا، فإن اللّٰه ربكم هو الولي؛ أي: الذي يتولى أمر العباد بالتشريع والتدبير، والخلق والتقدير، فله وحده الخلق والأمر وبيده النفع والضر»[1].

قال ابن القيم: «أمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله، ونهى عن اتباع غيره؛ فما هو إلا اتباع المنزل، واتباع أولياء من دونه؛ فإنه لم يجعل بينهما واسطة؛ فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل، واتبع أولياء من دون اللّٰه، وهذا بحمد اللّٰه

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

ظاهر لا خفاء به.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[1]. فكل من اتخذ غير الرسول بترك لأقواله وآرائه وما جاء به الرسول ﷺ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم (فلان)؛ إذ لكل متبع أولياء من دون اللَّه فلان وفلان.

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ. ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع، وحال من تبعوهم، في غير موضع من كتابه، وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[3]. تمنى القوم طاعة اللَّه ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء، وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾. وفي بعض هذا عبرة للعاقل، وموعظة شافية، وباللَّه التوفيق»[4].

قلت: ما أحسن ما قاله العلامة ابن القيم في توجيه هذه الآية، وأنه لا واسطة بين النبي ﷺ وبين غيره في البلاغ، فيجب أن يكون البلاغ نقلًا مباشرًا لنصوص وحيه دون واسطة رأي أو فهم سقيم، أو نظرية تفسد الوحي، ولهذا قرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالاستدلال بآيات الفرقان والأحزاب أن كل من فعل ذلك يتبرأ من صاحبه في الآخرة، فلهذا الذين يؤلفون المتون الشرعية بزعم أنهم يقربون الشرع للناس، ويخلون ذلك من الأدلة من القرآن والسنة، فربما يصدق عليهم هذا، فإن الواجب على الداعية أن يربط الناس في عقائدهم وعباداتهم بنصوص الوحي، وأن لا

---

(١) الفرقان: الآيات (٢٧-٢٩).

(٢) الزخرف: الآية (٦٧).

(٣) الأحزاب: الآيات (٦٦-٦٨).

(٤) زاد المهاجر (ص: ٣١-٣٢).

يربطهم برأيه ولا بكلامه، حتى يبرئ ذمته، ويبرأ هو بذلك. وهذا هو الاعتصام بالكتاب والسنة حقًّا. ولقد أحسن من قال:

العلم قال اللَّه قال رسوله   قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلافة سفاهة   بين الرسول وبين رأي فقيه

وقال ابن كثير: «﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[3]»[4].

قال محمد رشيد رضا: «المتبادر هنا من النهي عن اتباع الأولياء من دونه تعالى هو النهي عن طاعة كل أحد من الخلق في أمر الدين غير ما أنزله اللَّه من وحيه، كما فعل أهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلّوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات وما حرموا عليهم من المباحات، كما ورد في الحديث المرفوع في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5]، وكل من أطاع أحدًا طاعة دينية في حكم شرعي لم ينزله ربه إليه، فقد اتخذه ربًّا. والآية نص في عدم جواز طاعة أحد من العلماء ولا الأمراء في اجتهاده في أمور العقائد والعبادات والحلال والحرام تديّنًا. وما على العلماء إلا بيان ما أنزله اللَّه وتبليغه وإرشاد الناس إلى فهمه، وما عسى أن يخفى عليهم من تطبيق العمل على النص وحكمة الدين في الأحكام، كبيان سَمْتِ القبلة في البلاد المختلفة، فهم لا يتبعون في ذلك لذواتهم، بل المتبع ما أنزله اللَّه بنصه أو فحواه، على حسب روايتهم له وتفسيرهم لمعناه، وإنما يطاع أولو الأمر من الأمراء وأهل الحل والعقد في تنفيذ ما أنزله اللَّه تعالى، وفيما ناطه بهم من استنباط الأحكام في سياسة الأمة وأقضيتها التي تختلف المصالح فيها باختلاف الزمان والمكان. والآية نص في بطلان القياس ونبذ الرأي في الأمور الدينية المحضة، وقد فصلنا القول في ذلك وما يتعلق به من الأصول والفروع في تفسير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ

(١) يوسف: الآية (١٠٣).
(٢) الأنعام: الآية (١١٦).
(٣) يوسف: الآية (١٠٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٧).
(٥) التوبة: الآية (٣١).

مِنكُمْ﴾[١] الآية[٢]، وتفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٣] الآية[٤].

ولا شك في أن اتباع الرسول ﷺ فيما صح عنه من بيان الدين داخل في عموم ما أنزل إلينا على لسانه، وكذا اتباعه في أحكامه الاجتهادية؛ فإنه تعالى أمرنا باتباعه وبطاعته، وأخبرنا بأنه مبلغ عنه، وقال له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٥]، والجمهور على أن الأحكام الشرعية الواردة في السنة موحى بها، وأن الوحي ليس محصورًا في القرآن، والإمام الشافعي يقول: إنها مستنبطة من القرآن. وقد قال ﷺ: «**إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر**»[٦]، رواه مسلم من حديث رافع بن خديج في مسألة تأبير النخل، وروى من حديث موسى بن طلحة عن أبيه أنه ﷺ قال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه؛ فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إن حدثتكم عن اللَّه شيئًا فخذوا به؛ فإني لن أكذب على اللَّه ﷻ**»[٧]، وإذا كان -عليه أفضل الصلاة والسلام- قد أذن لنا أن لا نأخذ بظنه في أمور الدنيا وقال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[٨] كما في حديث عائشة وثابت عن أنس عند مسلم، فما القول بظن غيره؟ ومنه اجتهاد العلماء فيما ذكرنا آنفًا»[٩].

* * *

(١) النساء: الآية (٥٩).
(٢) تفسير المنار (٥/ ٢١٧).
(٣) المائدة: الآية (١٠١).
(٤) تفسير المنار (٧/ ١٥١).
(٥) النحل: الآية (٤٤).
(٦) أخرجه: مسلم (٤/ ١٨٣٥-١٨٣٦/ ٢٣٦٢).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ١٨٣٥/ ٢٣٦١) من حديث طلحة ﷺ.
(٨) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٢) (٦/ ١٢٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٦/ ٢٣٦٣)، وابن ماجه (٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧١) من حديث عائشة وأنس ﷺ.
(٩) تفسير المنار (٨/ ٣٠٨-٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

بأسُنا: البأس: العذاب الآتي على النفس، وهو الاستئصال.

بَيَاتًا: أي: ليلًا. ومنه البيت؛ لأنه يبات فيه؛ يقال: بات يبيت بيتًا وبياتًا.

قائلون: مأخوذ من القيلولة، وهي الراحة والدعة وسط النهار، وإن لم يكن معها نوم. وقيل: هي نوم وسط النهار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «خوّف اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة الكفّار الذين كذبوه ﷺ، بأنه أهلك كثيرًا من القرى بسبب تكذيبهم الرسل، فمنهم من أهلكها ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: ليلًا، ومنهم من أهلكها و﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾؛ أي: في حال قيلولتهم... يعني: فاحذروا تكذيب رسولي ﷺ لئلّا أنزل بكم مثل ما أنزلت بهم. وأوضح هذا المعنى في آيات أُخر، كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾[4]، ثم بيّن أنه يريد تهديدهم بذلك بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد هدد تعالى أهل القرى بأن يأتيهم عذابه ليلًا في حالة النوم، أو ضحى في حالة اللعب، في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧

---

(١) الأنعام: الآية (١٠).
(٢) الحج: الآية (٤٥).
(٣) القصص: الآية (٥٨).
(٤) محمد: الآية (١٠).

أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[(١)]، وهدّد أمثالهم من الذين مكروا السيئات بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال محمد رشيد رضا: «والمعنى: وكثيرًا من القرى أهلكناها لعصيان رسلها فيما جاؤوها به من عند ربها، فكان هلاكها على ضربين بأن جاء بعضهم بأسنا حال كونهم مبيتين أو بائتين ليلًا كقوم لوط، وجاء بعضهم وهم قائلون آمنون نهارًا كقوم شعيب. والوقتان وقتا دعة واستراحة، ففيه إيذان بأنه لا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي ولا مواتاة الأيام، ولا يغتر بالرخاء فيعده آية على الاستحقاق له الذي هو مظنة الدوام، وقد يعذر بالغفلة قبل مجيء النذير، وأما بعده فلا عذر ولا عذير، وفيه تعريض بغرور كفّار قريش بقوتهم وثروتهم وعزة عصبيتهم، وبما كانوا يزعمون أنها آية رضى اللّه عنهم، ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[(٤)]، وليس أمرهم بأعجب من الأقوام التي عرفت هداية القرآن، أو سنن اللّه في نوع الإنسان، ثم هي تغتر بما هي عليه وإن كان دليلًا على الهلاك، ولا ترجع عن غيها حتى يأتيها العذاب»[(٥)].

قال ابن عاشور: «ففي الآية أخبر عن كيفية إهلاكهم بعد الخبر بالإهلاك، وهذا الترتيب هو في الغالب تفصيل بعد إجمال، فيكون من عطف المفصل على المجمل، وبذلك سماه ابن مالك في «التسهيل»، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا﴾[(٦)] الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[(٧)]، أو قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[(٨)]؛ لأن الإزلال عن الجنة فصل بأنه الإخراج، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[(٩)]، وهذا من أساليب الإطناب، وقد يغفل عنه»[(١٠)].

---

(١) الأعراف: الآيتان (٩٧و٩٨).
(٢) النحل: الآيات (٤٥-٤٧).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٥-٦).
(٤) سبأ: الآية (٣٥).
(٥) تفسير المنار: الآية (٨/ ٣١٠-٣١١).
(٦) الواقعة: الآيات (٣٥-٣٧).
(٧) غافر: الآية (٧٦).
(٨) البقرة: الآية (٣٦).
(٩) القمر: الآية (٩).
(١٠) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٢١).

قال أبو منصور الماتوريدي: «وفي الآية دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ؛ لأنه أخبر عن إهلاك الأمم الخالية بتكذيبهم الرسل، وهو لم ينظر في كتبهم ولا اختلف إليهم ليُعلموه عن ذلك، ثم أخبرهم بذلك، فدل أنه إنما عرف ذلك بالله ﷻ»[١].

* * *

(١) تأويلات أهل السنة (٢/ ٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكناها إذ جاءهم بأسنا وسطوتنا بياتًا أو هم قائلون إلا اعترافهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مسيئين، وبربهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين.

وعنى بقوله -جل ثناؤه-: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في هذا الموضع: دعاءهم.

وللدعوى في كلام العرب وجهان، أحدهما: الدعاء، والآخر: الادعاء للحق. ومن الدعوى التي معناها الدعاء قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾[1]. . . وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول اللَّه ﷺ من قوله: «**ما هلك قوم حتى يُعذِروا من أنفسهم**»[2]. . .

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؟ وكيف أمكنتهم الدعوى بذلك وقد جاءهم بأس اللَّه بالهلاك؟ أقالوا ذلك قبل الهلاك؟ فإن كانوا قالوه قبل الهلاك فإنهم قالوا قبل مجيء البأس، واللَّه يخبر عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قبل ذلك، أو قالوه بعدما جاءهم، فتلك حالة قد هلكوا فيها، فكيف يجوز وصفهم بقيل ذلك إذا عاينوا بأس اللَّه وحقيقة ما كانت الرسل تعدهم من سطوة الله؟

قيل: ليس كل الأمم كان هلاكها في لحظة ليس بين أوله وآخره مهل، بل كان منهم من غرق بالطوفان، فكان بين أول ظهور السبب الذي علموا أنهم به هالكون

---

(١) الأنبياء: الآية (١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٤/ ٥١٥/ ٤٣٤٧) من حديث أبي البختري الطائي عن رجل من الصحابة لم يسمّه. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسّنه القاري في «المرقاة» (٨/ ٨٧٩)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٨٢٠/ ٣٦٥٣).

وبين آخره الذي عمّ جميعهم هلاكه المدة التي لا خفاء بها على ذي عقل، ومنهم من متع بالحياة بعد ظهور علامة الهلاك لأعينهم أيامًا ثلاثة، كقوم صالح وأشباههم، فحينئذ لما عاينوا أوائل بأس اللَّه الذي كانت رسل اللَّه تتوعدهم به، وأيقنوا حقيقة نزول سطوة اللَّه بهم، دعوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[١]، فلم يك ينفعهم إيمانهم مع مجيء وعيد اللَّه وحلول نقمته بساحتهم، فحذر ربنا -جل ثناؤه- الذين أرسل إليهم نبيه محمدًا ﷺ من سطوته وعقابه على كفرهم به وتكذيبهم رسوله ما حلّ بمن كان قبلهم من الأمم إذ عصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «والعبرة في الآية أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنبه في الدنيا يندم ويتحسر ويعترف بظلمه وجرمه إذا علم أنه هو سبب العقاب، وما كل معاقب يعلم ذلك؛ لأن من الذنوب ما يجهل أكثر الناس أنه سبب للعقاب، وأما الذنوب التي مضت سنة اللَّه تعالى بجعل عقابها أثرًا لازمًا لها في الدنيا، فلا تطّرد في الأفراد كاطّرادها في الأمم، ولا تكون دائمًا متصلة باقتراف الذنب، بل كثيرًا ما تقع على التراخي، فلا يشعر فاعلها بأنها أثر له، مثال ذلك أن ما يتولد من شرب الخمر من الأمراض والآلام لا يعرف أكثر السكارى منه غير ما يعقب الشرب من صداع وغثيان، وهو ما يسهل عليهم احتماله وترجيح لذة النشوة عليه، وأما ما يولده السكر من أمراض القلب والكبد والجهاز التناسلي، وما يترتب عليه من ضعف النسل واستعداده للأمراض، وانقطاعه أحيانًا، وغير ذلك من الأمراض الجسدية والعصبية (العقلية) فهي تحصل ببطء، وقلما يعلم غير الأطباء أنها من تأثير السكر، ثم قلما يفيد العلم بها بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة أن تحمل السِّكُورَ على التوبة؛ لأن داء الخمار يزمن، وحب السكر يضعف الإرادة، ومضار الزنا الجسدية أخفى من مضار الخمر والميسر، ومفاسده الاجتماعية أخفى من مضاره الجسدية، فما كل أحد يفطن لها. ويا ليت كل من علم بضرر ذنبه بعد وقوعه يرجع عنه ويتركه ويتوب إلى اللَّه تعالى منه، ولا يكتفي بالاعتراف بظلمه، ولا بالإقرار بذنبه، فإن هذا لا فائدة له فيه لا في دنياه ولا في دينه، وإذا كان الراسخ في الفسق لا يتوب من ذنب وقع عليه ضرره وعلم به، فكيف يتوب مِنْ ذنبٍ لم يصبه منه ضرر أو أصابه من

---

(١) الأنبياء: الآية (١٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ١١٩-١٢٠).

حيث لا يدري به؟ إنما تسهل التوبة على المؤمنين الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، وإلا فهي لأولي العزائم القوية الذين تقهر إرادتهم شهواتهم، وهم الأقلون.

وأما ذنوب الأمم فعقابها في الدنيا مطّرد، ولكن لها آجالًا ومواقيت أطول من مثلها في ذنوب الأفراد، وتختلف باختلاف أحوالها في القوة والضعف، كما تختلف في الأفراد، بل أشد. فإذا ظهر الظلم واختلال النظام وفشا الترف وما يلزمه من الفسق والفجور في أمة من الأمم، تمرض أخلاقها، فتسوء أعمالها، وتنحلّ قواها، ويفسد أمرها، وتضعف منعتها، ويتمزق نسيج وحدتها، حتى تحسب جميعًا وهي شتى، فيغري ذلك بعض الأمم القوية بها، فتستولي عليها، وتستأثر بخيرات بلادها، وتجعل أعزة أهلها أذلة. فهذه سنة مطردة في الأمم على تفاوت أمزجتها وقواها، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع عقوبتها، ولا ينفعها بعده أن يقول العارفون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1]. على أنه قد يعمها الجهل حتى لا تشعر بأن ما حلّ بها، إنما كان بما كسبت أيديها، فترضى باستذلال الأجنبي، كما رضيت من قبل بما كان سببًا له من الظلم الوطني، فينطبق عليها قولنا في المقصورة:

من ساسه الظلم بسوط بأسه ... هان عليه الذل من حيث أتى

ومن يهن هان عليه قومه ... وعرضه ودينه الذي ارتضى

وقد تنقرض بما يعقبه الفسق والذل من قلة النسل، ولا سيما فشو الزنا والسكر، أو تبقى منها بقية مدغمة في الكثرة الغالبة، لا أثر لها تُعَدُّ به أمةً. وقد تتوالى عليها العقوبات حتى تضيق بها ذرعًا فتبحث عن أسبابها، فلا تجدها بعد طول البحث إلا في أنفسها، وتعلم صدق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2]، ثم تبحث عن العلاج فتجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3]، وإنما يكون التغيير بالتوبة النصوح، والعمل الذي تصلح به القلوب، فتصلح الأمور، كما قال العباس عم الرسول ﷺ إذ توسل به عمر والصحابة بتقديمه لصلاة الاستسقاء بهم: «**اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم**

(١) الأنبياء: الآية (١٤).
(٢) الشورى: الآية (٣٠).
(٣) الرعد: الآية (١١).

يرفع إلا بتوبة»[1]، خلافًا للحشوية[2] الذين يستدلون به على أن البلاء إنما يرتفع كرامة للصالحين الذين يتوسل بهم المذنبون المفسدون. ومتى علمت الأمة داءها وعلاجه، فلا تعدم الوسائل له.

فلينظر القارئ أين مكان الشعوب الإسلامية من هذه العبرة، والشعور بعقوبة الجناية والحاجة إلى علاج التوبة، وقد ثلت عروشها، وخوت صروح عظمتها على عروشها، وكانت أجدر الشعوب بمعرفة سنن الله في هلاك الأمم واتقائها، وأسباب حفظ الدول وبقائها، فقد أرشدها إليه القرآن، ولكن أين هي من هداية القرآن، وقد ترك تذكيرها به العلماء، فهجره الدهماء، وجهل أحكامه وحكمه الملوك والأمراء، ثم نبتت فيها نابتة لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، أقنعهم أساتذتهم أعداء الإسلام، بأن لا سبب لهبوطها وسقوطها إلا اتباع القرآن!! فأضلوهم السبيل، ولفتوهم عن الدليل، فذنب هؤلاء أنهم يجهلونه، وذنب أولئك أنهم لا يقيمونه، هؤلاء مقلدة للأجانب الطامعين الخادعين، وأولئك مقلدة لشيوخ الحشوية الجامدين، فمتى تنتشر دعوة المصلحين أولي الاستقلال، فتجمع الكلمة بما أوتيت من الحكمة والاعتدال، على قول الكبير المتعال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[3]»[4].

قلت: ما أحسن ما قال الشيخ محمد رشيد رضا في هذا التوجيه الطيب، وأن الناس قد انفصلوا عن الوحيين، فطائفة رضعت من ثدي الكفرة من المستشرقين والمبشرين والشيوعيين والبعثيين والاشتراكيين والعلمانيين، وظنوا أن هذا هو التقدم، وهذه هي الحضارة، وما سواها ظلام دامس، ومن اتبع الإسلام ضاع وضيع، وتخلف وأصبح رجعيًا يرجع بالناس إلى عصور الجهل والظلام ومقالاتهم وكتبهم وأشخاصهم هذه هي شعاراتها وهذه هي عناوينها من بداية ظهور هذه الفتنة في مطلع القرن الرابع عشر هجري وإلى يومنا هذا، وهي سلسلة من القردة

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٦٣٢) نقلاً عن الزبير بن بكار في الأنساب، وصححه الشيخ الألباني في رسالة «التوسل» (ص: ٦٨).

(٢) لو قال: «خلافاً للصوفية»؛ لكان أولى.

(٣) الرعد: الآية (١١).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٣١٢-٣١٤).

والخنازير يتناسلون من بعضهم، وغالب أسمائهم مع الأسف أسماء إسلامية: كطه وإبراهيم ومحمود وغيرها!

والصنف الثاني، وهم دعاة الشهوات الذين أطلقوا لشهواتهم العنان بدون حصر، ووضعوا للشهوة كل وسيلة تقربها، فوضعوا التمثيليات والمسرحيات والأفلام، وأسسوا لها دور الأزياء والدعارة، ودور الميسر والقمار، وضيعوا الناس بوسائل الرياضة من كرة وغيرها من الوسائل التي ضاعت بها الأمم، وأقيمت عليها دول، ولكن اللَّه ابتلاهم بأمراض عجزوا عنها، وما تزال تنتشر انتشار النار في الهشيم، وما يزالون يكذبون على الناس بتأسيس مؤتمرات وندوات ويقترحون على الزناة وسائل واقية بزعمهم، وهي في الحقيقة هالكة ولا تغني من شيء، فهلاكهم قريب متوقع، فلن تجد لسنة اللَّه تبديلًا؛ فإنه أهلك من هو أقوى وأشد.

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البيات، أو في حال القيلولة، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين.

وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾[١]»[٢].

* * *

(١) الأنبياء: الآيات (١١-١٥).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

فلنسألنّ: السؤال: طلب الجواب على شيء معين.

فلنقصنّ: القصص: الأخبار المتتابعة. أصله من قَصَّ الأثرَ؛ أي: تَتَبَّعَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني، فخالفوا ذلك؟ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم، هل بلغتهم رسالاتي، وأدّت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك، ففرّطوا ولم يبلغوهم؟ . . .

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: يقول -تعالى ذكره-: فلنخبرنّ الرسل ومن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها.

فإن قال قائل: وكيف يسأل الرسل والمرسل إليهم وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟

قيل: إن ذلك منه -تعالى ذكره- ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تعرُّف منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير، معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: ألم أحسن إليك فأسأت؟ وألم أصلك فقطعت؟ فكذلك مسألة اللّه المرسل إليهم بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتنذركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كفر بي وعبد غيري؟ كما أخبر -جل ثناؤه- أنه قائل

لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(١)، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهرُ المسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بَعْدُ توبيخ وتقرير.

وأما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في القيامة، قيل لها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾(٢)؟ أنكر ذلك كثير منهم، وقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقيل للرسل: هل بلغتم ما أرسلتم به؟ أو قيل لهم: ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به؟ كما جاء الخبر عن رسول اللَّه ﷺ، وكما قال -جل ثناؤه- لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٣)، فكل ذلك من اللَّه مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر.

فأما الذي هو عن اللَّه منفيّ من مسألته خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول ليعلم السائل علم ذلك من قبله، فذلك غير جائز أن يوصف اللَّه به؛ لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها -جل ثناؤه- عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾(٤)، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٥)؛ يعني: لا يسأل عن ذلك أحدًا منهم بمسألة مستثبت ليعلم علم ذلك من قبل من سأل منه؛ لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره.

وقد ذكرنا ما روي في معنى ذلك من الخبر في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته.

وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقول في معنى قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أنه ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم.

وهذا قول غير بعيد عن الحق، غير أن الصحيح من الخبر عن رسول اللَّه ﷺ أنه

---

(١) يس: الآيتان (٦٠و٦١).
(٢) الزمر: الآية (٧١).
(٣) البقرة: الآية (١٤٣).
(٤) الرحمن: الآية (٣٩).
(٥) القصص: الآية (٧٨).

قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول له: أتذكر يوم فعلت كذا وفعلت كذا؟ حتى يذكره ما فعل في الدنيا»[١]، والتسليم لخبر رسول اللَّه ﷺ أولى من التسليم لغيره»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «المراد بالذين أرسل إليهم: جميع الأمم التي بلغتها دعوة الرسل، يسأل تعالى كل فرد منهم في الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته، وبماذا أجابوهم وما عملوا من إيمان وكفر، وخير وشر، ويسأل المرسلين عن التبليغ منهم، والإجابة من أقوامهم.

بين هذا الإجمال في آيات، منها قوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[٣]، وفي سورة (القصص): ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٤]، وفي سورة (العنكبوت): ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[٥]، ومثله في سورة (النحل): ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[٦]، وهو ما ابتدعوه في الدين كجعلهم لمعبوداتهم نصيبًا مما رزقوا من الحرث والأنعام، يتقربون إليهم بها بنذر أو غيره ويتقربون بهم إلى اللَّه، كما تقدم في سورة (الأنعام)، ومنه ما ينذره القبوريون لأوليائهم، وأعم منه قوله تعالى في (النحل) أيضًا: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٧]، وهو خطاب لجميع الناس، ومثله في التأكيد والعموم قوله في سورة (الحجر): ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٨]، ومنه في السؤال عن المشاعر الظاهرة والباطنة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٩]، وقال تعالى في سؤال الرسل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٥٦-٣٧٧)، والبخاري (١١/ ٤٨٨/ ٦٥٣٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤/ ١٠١٦[٦٧])، والترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤١٥)، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥)، وليس فيه: «أتذكر يوم فعلت كذا . . .» إلى آخر ما ذكر؛ وإنما لفظه بشيء من الاختلاف عند هؤلاء: «ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة».

(٢) جامع البيان (٨/ ١٢٠-١٢٢).

(٣) الأنعام: الآية (١٣٠).

(٤) القصص: الآية (٦٥).

(٥) العنكبوت: الآية (١٣).

(٦) النحل: الآية (٥٦).

(٧) النحل: الآية (٩٣).

(٨) الحجر: الآيتان (٩٢و٩٣).

(٩) الإسراء: الآية (٣٦).

ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «وهنا إشكال معروف: وهو أنه تعالى قال هنا: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وقال أيضًا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(٣)]، وقال: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾[(٤)]، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، مع أنه قال: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[(٥)]، وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾[(٦)].

وقد بينا وجه الجمع بين الآيات المذكورة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، وسنزيده إيضاحًا هنا إن شاء اللَّه تعالى.

اعلم أولًا: أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة أخص من السؤال المثبت فيها؛ لأن السؤال المنفي فيها مقيد بكونه سؤالًا عن ذنوب خاصة؛ فإنه قال: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، فخصه بكونه عن الذنوب، وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾، فخصه بذلك أيضًا. فيتضح من ذلك أن سؤال الرسل والموءودة مثلًا ليس عن ذنب فعلوه، فلا مانع من وقوعه؛ لأن المنفي خصوص السؤال عن ذنب. ويزيد ذلك إيضاحًا قوله تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾[(٧)] الآية، وقوله -بعد سؤاله لعيسى المذكور في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾[(٨)] الآية-: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾[(٩)] الآية.

والسؤال عن الذنوب المنفيُّ في الآيات؛ المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأنه -جل وعلا- محيط علمه بكل شيء، ولا ينافي نفي هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع؛ لأنه نوع من أنواع العذاب. ويدل لهذا أن سؤال اللَّه للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع؛ كقوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[(١٠)]، وقوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَـٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾[(١١)]،

---

(١) المائدة: الآية (١٠٩).
(٢) تفسير المنار (٨/ ٣١٥-٣١٦).
(٣) الحجر: الآيتان (٩٢ - ٩٣).
(٤) الصافات: الآية (٢٤).
(٥) القصص: الآية (٧٨).
(٦) الرحمن: الآية (٣٩).
(٧) الأحزاب: الآية (٨).
(٨) المائدة: الآية (١١٦).
(٩) المائدة: الآية (١١٩).
(١٠) الصافات: الآيتان (٢٤ و ٢٥).
(١١) الطور: الآية (١٥).

إلى غير ذلك من الآيات.

وباقي أوجه الجمع مبين في كتابنا المذكور، والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

وذكر في دفع إيهام الاضطراب الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه:

أولها: الذي ذكر هنا من سؤال التوبيخ. وقال في الوجهين الآخرين:

«**الوجه الثاني**: أن في القيامة مواقف متعددة؛ ففي بعضها يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي، من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]. والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه -جل وعلا- لم يكن غائبًا عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا؛ بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير، وجليل وحقير، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[6].

تنبيه: في هذه الآية الكريمة الرد الصريح على المعتزلة النافين صفات المعاني، القائلين: إنه تعالى عالم بذاته، لا بصفة قامت بذاته، هي العلم، وهكذا في قولهم:

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٨٩-٢٩١).
(٢) القصص: الآية (٦٥).
(٣) دفع إيهام الاضطراب (ص: ١١٦).
(٤) المجادلة: الآية (٧).
(٥) الحديد: الآية (٤).
(٦) يونس: الآية (٦١).

قادر مريد، حي سميع، بصير متكلم، فإنه هنا أثبت لنفسه صفة العلم بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[١] الآية، وهي أدلة قرآنية صريحة في بطلان مذهبهم الذي لا يشك عاقل في بطلانه وتناقضه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم المسؤولية في الدعوة والبلاغ

* عن معاوية بن حيدة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن ربي داعي وإنه سائلي هل بلغت عباده؟ وإني قائل: رب إني قد بلغتهم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ثم إنكم مدعوون مفدمة أفواهكم بالفدام، ثم إن أول ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

مفدمة أفواهكم بالفدام: الفدام: ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه؛ أي: أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، فشبه ذلك بالفدام.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفوائد: أن اللَّه ﷻ يسأل النبي ﷺ يوم القيامة هل بلّغ، وأنه يقر بالبلاغ، وهو ﷺ داخل في عموم المرسلين الذين ذكر اللَّه أنه يسألهم عما بلغوا أممهم.

قال تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي أرسل إلينا نحن معاشر المسلمين هو خير خلق اللَّه محمد رسول اللَّه ﷺ فبلغ إلينا كل ما أنزل اللَّه عليه، واللَّه يشهد وأهل العلم يشهدون أنه لم يكتم شيئًا من ذلك، فإذا سأله اللَّه تعالى شهد له المؤمنون. إذا سئلنا نحن هل بلغكم رسولكم ما أرسلته به إليكم فلا سبيل إلى الجحود، فمن اتبعه

---

(١) النساء: الآية (١٦٦).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٩١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٦٤)، والطبراني (١٩/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٩٦٩) في حديث طويل. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٥١) وقال: «رواه أحمد في حديث طويل، ورجاله ثقات». وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٩-٤٤٠) ووافقه الذهبي. وأخرجه دون موضع الشاهد: النسائي (٥/ ٧و٨٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٦).

بصدق وإخلاص سعد وفاز، ومن اتخذ من دون اللَّه أولياء أئمة وشيوخًا ورؤساء أحزاب، وهوى وشهوات، حقت عليه كلمة العذاب»[١].

* عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٢].

* عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن اللَّه سائل كل راع عما استرعاه: أحفظ ذلك أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[٣].

★ غريب الحديثين:

الراعي: هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره[٤].

★ فوائد الحديثين:

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث ابن عمر: «هذا تمثيل لا يرى في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه، ولذلك أجمل أولًا، ثم فصله، ثم أتى بحرف التنبيه مكررًا وبالفذلكة كالخاتمة»[٥].

وقال البغوي: «معنى الراعي ههنا: الحافظ المؤتمن على ما يليه، أمره النبي ﷺ بالنصيحة فيما يلونه، وحذرهم الخيانة فيه، بإخباره أنهم مسؤولون عنه،

(١) سبيل الرشاد (٣/ ٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥و٥٤-٥٥و١١١)، والبخاري (٥/ ٢٢٢-٢٢٣/ ٢٥٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٢٩٢٨)، والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٤/ ٩١٧٤-٩١٧٥) وصححه ابن حبان (١٠/ ٣٤٤/ ٤٤٩٢). وله شاهد من حديث أبي هريرة عند: أحمد (٢/ ٢٩٧)، والبخاري (٦/ ٦١٢-٦١٣/ ٣٤٥٥)، ومسلم (٣/ ١٤٧١/ ١٨٤٢).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٢/ ١٨٠).

(٥) شرح الطيبي (٨/ ٢٥٦٩).

فالرعاية حفظ الشيء وحسن التعهد، فقد استوى هؤلاء في الاسم ولكن معانيهم مختلفة، فرعاية الإمام ولاية أمور الرعية، والحياطة من ورائهم وإقامة الحدود والأحكام فيهم، ورعاية الرجل أهله بالقيام عليهم بالحق في النفقة وحسن العشرة، ورعاية المرأة في بيت زوجها بحسن التدبير في أمر بيته، والتعهد لخدمه وأضيافه، ورعاية الخادم حفظ ما في يده من مال سيده، والقيام بشغله، واللَّه أعلم»[١].

وقال ابن أبي جمرة: «فائدة الإخبار بهذا الحديث تنبيهًا على المذكورين لأنه أمر يعقل لأن الناس لا يحسبون الراعي لهم إلا الخليفة، ليس إلا، وأن غيره ممن ذكر بعد لا يدخل عندهم في باب الرعاية ولا في باب الأمانة؛ لأن الرجل يقول: أهلي قد أبيحوا لي، وليس لهم قبلي شيء غير الذي يجب علي من نفقة أو غير ذلك مما جرت به العادة، وهي مسؤولة عن نفسها، ولا يفكر أن عليه شيئًا مما يزيد على ذلك، والابن يقول: مال أبي ما علي أنا منه بل هو الحاكم علي، وتقول الزوجة مثل ذلك، والعبد مثلهم، فتضيع بين ذلك الحقوق، ويسألون عنها وهم قد أغفلوها، فجاء التنبيه على ذلك من باب توفية النصح لمن استرعي، وهو ﷺ أكبر الرعاة توفية»[٢].

قوله: «فالأمير الذي على الناس فهو راع، وهو مسؤول عنهم»:

قال الطيبي: «فيه أن الراعي ليس بمطلوب لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فعلى السلطان حفظ الرعية فيما يتعين عليه من حفظ شرائعهم والذب عنها لكل متصدّ لإدخال داخلة فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، وترك حماية من جار عليهم، ومجاهدة عدوهم، أو ترك سيرة العدل فيهم، فينبغي أن لا يتصرف في الرعية إلا بإذن اللَّه ورسوله، ولا يطلب أجره إلا من اللَّه كالراعي»[٣].

قال الحافظ: «وقال غيره: دخل في هذا العموم المنفردُ الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه، حتى يعمل المأمورات ويجتنب المنهيات، فعلًا ونطقًا واعتقادًا، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته، ولا يلزم

---

(١) شرح السنة (١٠/ ٦٢).
(٢) بهجة النفوس (٢/ ٤٦).
(٣) شرح الطيبي (٨/ ٢٥٦٩).

من الاتصاف بكونه راعيًا أن لا يكون مرعيًا باعتبار آخر»[١].

قوله: «والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم»:

قال ابن أبي جمرة: «فأما ما يجب على الرجل من الحق في زوجه وولده وعبيده، فمنه ما هو عند الناس كلهم عالمهم وجاهلهم معروف كالكسوة والنفقة والسكنى، لا خفاء به، وهذا بعض من كل، فإن الذي يجب عليه -زائدًا على ذلك- حفظهم في دينهم حتى يحملهم عليه فرضه وندبه، كل على وجهه، وهو آكد من النفقة والكسوة بدليل أن الكسوة والنفقة قد تسقط عنه بالعسر، والإرشاد إلى الدين وتعليمه لا يسقط عنه بوجه، وما لا يسقط آكد ضرورة مما يسقط، لكن لما رأى الناس الحكام يحكمون في النفقة والكسوة، وما يتعلق بالأمور الدنيوية ولم يحكموا في غيرها على الرعاة لم يبقوا يجعلون الواجب إلا ما حكم فيه ليس إلا، وغاية الذين ينسبون إلى العلم والخير في الأغلب منهم ينسبون ما زاد على ما حكم به أن الكلام فيه من قبيل المندوب الذي إذا فعلوه كانوا مأجورين، وإن لم يفعلوه لم يأثموا، وهذا جهل محض وغلط ظاهر بدليل الكتاب والسنة، وقول الأئمة»[٢].

قلت: ويستفاد من الآيات والأحاديث وما ذكر فيها من شرح وفوائد: أن الدعوة إلى الله، وإلى دينه وكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، أمر عظيم كبير، يجب على كل أب وأم ورئيس لقوم وإمام ومدرس، ومحتسب وحاكم وقاض، وكل من ولاه الله مسؤولية أن يجتهد في البلاغ لمن ولاه الله أمره، فلا يقتصر الأب والأم على مجرد الإطعام والشراب والكسوة فحسب، بل ينبغي أن يتجاوزا هذا الأمر إلى ما هو أهم منه من التربية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ إذ البلاغ أساس في الأبوة والأمومة، وفي كل مسؤولية تولاها الإنسان؛ حتى ينتشر هذا الدين ويورث، ويحفظه الآخِر عن الأول، وينتشر ويشتهر، وتثار محاسنه ومناقبه في المجالس والمناسبات، وأن لا يهمل وينسى، وكأن المسلم لا صلة له بهذا الدين علمًا وتعلمًا.

* * *

(١) فتح الباري (١٣/ ١٤٢).

(٢) بهجة النفوس (٢/ ٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

الوزن: في الأصل: هو معرفة قدر الشيء بآلة خاصة.

الحق: هو وضع الشيء في موضعه على وجه تقتضيه الحكمة.

فمن ثقلت موازينه: أي: رجحت. والثقل يقابل الخفة، فكل ما رجح غَيْرَهُ بوزن أو مقدار فهو أثقل منه. وأصله في الأجسام، ويستعمل في المعاني.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾: بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن وزنه للأعمال يوم القيامة حق؛ أي: لا جور فيه، ولا ظلم، فلا يزاد في سيئات مسيء، ولا ينقص من حسنات محسن.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر، كقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾، بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من ثقلت موازينهم أفلحوا، ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، ولم يفصّل الفلاح والخسران هنا.

---

(١) الأنبياء: الآية (٤٧). (٢) النساء: الآية (٤٠).

وقد جاء في بعض المواضع ما يدل على أن المراد بالفلاح هنا كونه في عيشة راضية في الجنة، وأن المراد بالخسران هنا كونه في الهاوية من النار، وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[1].

وبيّن أيضًا خسران من خفت موازينه بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على ثبوت الميزان والرد على من أنكره وبيان صفته

* عن عمر بن الخطاب قال: «بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ في أناس إذ جاء رجل ليس عليه عناء سفر، وليس من أهل البلد، يتخطى حتى برك بين يدي رسول الله ﷺ كما يجلس أحدنا للصلاة، ثم وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج وتعتمر، وتغتسل من الجنابة، وتتم الوضوء، وتصوم رمضان. قال: فإن فعلت هذا فأنا مسلم؟ قال: نعم. قال: صدقت يا محمد. قال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: فإذا فعلت هذا فأنا مؤمن؟ قال: نعم. قال: صدقت»[4].

* عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه

---

(١) القارعة: الآيات (٦-١١).

(٢) المؤمنون: الآيتان (١٠٣و١٠٤).

(٣) أضواء البيان (٢/٨-٩).

(٤) أخرجه: اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (٦/ ١٢٣٠/ ٢١٨٠)، وصححه ابن حبان (١/ ٣٩٧-٣٩٨/ ١٧٣)، وهو عند مسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨[٤]) بسنده ولم يسق المتن.
وللحديث ألفاظ بنحوه دون ذكر الشاهد عند: أحمد (١/ ٢٧و٥١-٥٢و٥٣)، ومسلم (١/ ٣٦/ ٨)، وأبي داود (٥/ ٦٩/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٤٩٩٤)، وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣).

السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[١].

* عن أنس قال: «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قال: قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط. قال: قلت: فإن لم ألقَكَ على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان. قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث مواطن»[٢].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[٣].

* عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[٤].

* عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقلُ من حسن الخلق»[٥].

---

(١) أخرجه: اللالكائي في «شرح السنة» (٦/ ١٢٤٤/ ٢٢٠٨)، وصححه الحاكم (٤/ ٥٨٦) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٨)، والترمذي (٤/ ٥٣٧/ ٢٤٣٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (١١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٦٤٠٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢/ ٢٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤٧٨/ ٣٤٦٧) وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٥١/ ٣٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٧-٢٠٨/ ١٠٦٦٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢-٣٤٣و٣٤٤)، ومسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣)، والترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٢و٤٤٦و٤٤٨)، وأبو داود (٥/ ١٤٩-١٥٠/ ٤٧٩٩)، والترمذي (٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٣)، وصححه ابن حبان (٢/ ٢٣٠/ ٤٨١).

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم اللَّه شيء»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند اللَّه جناح بعوضة. وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[2]»[3].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه «أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول اللَّه ﷺ: ممّ تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله! من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١-٢٢٢)، والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٣٩) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧/ ٤٣٠٠)، وصححه الحاكم (١/ ٦) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وفي موضع آخر (١/ ٥٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) الكهف: الآية (١٠٥).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٤٤/ ٤٧٢٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٥).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٠-٤٢١)، وصححه ابن حبان (١٥/ ٥٤٦/ ٧٠٦٩)، وأخرجه الطيالسي في مسنده (٣٥٥)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٢٠٩-٢١٠/ ٥٣١٠)، والبزار (٥/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٨٢٧ البحر الزخار)، والطبراني في الكبير (٩/ ٧٨/ ٨٤٥٢) وغيرهم، من طريق عاصم عن زر بن حبيش عنه. وله عنه طرق أخرى. قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٨٩): «وأمثل طرقه فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح». وانظر الصحيحة (٢٧٥٠).

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث فوائد:

الفائدة الأولى: إثبات الميزان والرد على من أنكره وتأوله وقال: هو بمعنى العدل والقضاء.

قال ابن أبي العز: «ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[2].

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها»[3].

قال الحافظ: «قال أبو إسحق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال، وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن اللَّه أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين»[4].

قال ابن جرير بعد ذكره اختلاف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال: «والصواب من القول في ذلك عندي: القول الذي ذكرناه عن عمرو ابن دينار، من أن ذلك هو الميزان المعروف الذي يوزن به، وأن اللَّه -جل ثناؤه- يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ موازين عمله الصالح ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات، لتظاهر الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ بقوله: «ما وضع في الميزان شيء أثقل من حسن

---

(١) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٢) المؤمنون: الآيتان (١٠٢و١٠٣).
(٣) شرح الطحاوية (ص: ٤١٧).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٦٥٩).

الخلق»(١) ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزان يوزن به الأعمال على ما وصفت، فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر اللّٰه عن الميزان، وخبر رسوله ﷺ عنه وجهته، وقال: أَوَباللّٰه حاجة إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبَعْدَهُ وفي كل حال، أو قال: وكيف توزن الأعمال والأعمال ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة والكثرة والقلة؟ قيل له في قوله: وما وجه وزن اللّٰه الأعمال وهو العالم بمقاديرها قبل كونها، وزن ذلك نظير إثباته إياه في أم الكتاب، واستنساخه ذلك في الكتب من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف من نسيانه، وهو العالم بكل ذلك في كل حال، ووقت قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه كما قال جل ثناؤه- في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾(٢) الآية. فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان حجة عليهم ولهم إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميم، وأما وجه صحة ذلك فإنه كما حدثني موسى بن عبدالرحمن المسروقي قال: ثنا جعفر بن عون قال: ثنا عبدالرحمن بن زياد الإفريقي عن عبد اللّٰه بن يزيد عن عبد اللّٰه بن عمرو قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان فيوضع في الكفة فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً فيها خطاياه وذنوبه، قال: ثم يخرج له كتاب مثل الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، قال: فتوضع في الكفة فترجح بخطاياه وذنوبه(٣). فكذلك وزن اللّٰه أعمال خلقه بأن يوضع العبد وكتب حسناته في كفة من كفتي الميزان، وكتب سيئاته في الكفة الأخرى، ويحدث اللّٰه تبارك وتعالى ثقلاً وخفة في الكفة التي الموزون بها أولى احتجاجًا من اللّٰه بذلك على خلقه كفعله بكثير منهم من استنطاق أيديهم وأرجلهم استشهادًا بذلك عليهم، وما أشبه ذلك من حججه. ويسئل من أنكر ذلك فيقال له: إن اللّٰه أخبرنا -تعالى ذكره- أنه يثقل موازين قوم في

---

(١) أخرجه من حديث أبي الدرداء ﷺ: أحمد (٦/ ٤٤٢-٤٤٨-٤٥٢)، وأبو داود (٥/ ١٤٩-١٥٠/ ٤٧٩٩)، والترمذي (٤/ ٣١٨-٣١٩/ ٢٠٠٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، و(٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٣)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٣٠/ ٤٨١).

(٢) الجاثية: الآيتان (٢٨و٢٩).

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

القيامة ويخفف موازين آخرين، وتظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ بتحقيق ذلك، فما الذي أوجب لك إنكار الميزان، أن يكون هو الميزان الذي وصفنا صفته الذي يتعارفه الناس، أحجة عقل؟ فقد يقال: وجه صحته من جهة العقل، وليس في وزن الله -جل ثناؤه- خلقه وكتب أعمالهم لتعريفهم أثقل القسمين منها بالميزان خروج من حكمة، ولا دخول في جور في قضية، فما الذي أحال ذلك عندك من حجة أو عقل أو خبر، إذ كان لا سبيل إلى حقيقة القول بإفساد ما لا يدفعه العقل، إلا من أحد الوجهين اللذين ذكرت، ولا سبيل إلى ذلك، وفي عدم البرهان على صحة دعواه من هذين الوجهين وضوح فساد قوله، وصحة ما قاله أهل الحق في ذلك، وليس هذا الموضع من مواضع الإكثار في هذا المعنى على من أنكر الميزان الذي وصفنا صفته، إذ كان قصدنا في هذا الكتاب البيان عن تأويل القرآن دون غيره، ولولا ذلك لقرنا إلى ما ذكرنا نظائره، وفي الذي ذكرنا من ذلك كفاية لمن وفق لفهمه إن شاء الله»[1].

قال صديق حسن خان: «وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها، فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاءت البدع كالليل المظلم، وقال كلٌّ ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم، ولَيْتَهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، ويتحد قبولهم لها، بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه، ومن هو تابع له، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم، يعرف هذا كل منصف، ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه، وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[2]، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ

(١) جامع البيان (٨/ ١٢٣-١٢٤). (٢) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٣) المؤمنون: الآيات (١٠١-١٠٣).

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾(١)، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾(٢)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا، مذكورة في كتب السنة المطهرة، وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرهما، فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه مع قول اللَّه تعالى ورسوله الصادق المصدوق، والصباح يغني عن المصباح»(٣).

الفائدة الثانية: الحكمة من وضع الموازين يوم القيامة:

قال ابن ناصر الدين الدمشقي: «ونصب ميزان الحق يوم القيامة بين الخلق لفوائد عظيمة، وحكم بهية، اقتضتها الحكمة الإلهية مع علم اللَّه العليم الخبير بمقادير الأعمال، الصغير والكبير، لا يغيب عن نظره غائب، ولا يفوته هارب، ولا يؤوده حفظ ما خلق، وهو رب العرش العظيم، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، وإنما الحكمة في وزن أعمال العباد، أن ذلك لامتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وهذا أحد الأقوال في معنى ذلك، وقيل: لإظهار علامة السعادة والشقاوة يوم القيامة، وقيل: ليعرف العباد ما لهم من خير وشر، وقيل: لإقامة الحجة عليهم، وقيل: للإعلام بأن اللَّه جل جلاله عادل لا يظلم من خلقه أحدًا، متفضل يربي الحسنات لصاحبها ويضاعفها»(٤).

وقال ابن بطال: «قال المهلب: فأخبر اللَّه تعالى أنه يضع الموازين لتوزن أعمال العباد بها، فيريهم أعمالهم ممثلة في الميزان لأعين العاملين، ليكونوا على أنفسهم شاهدين؛ قطعًا لحججهم، وإبلاغًا في إنصافهم عن أعمالهم الحسنة، وتبكيتًا لمن قال: إن اللَّه لا يعلم كثيرًا مما يعملون، وتقصيًا عليهم لأعمالهم المخالفة لما شرع لهم، وبرهانًا على عدله على جميعهم، وأنه لا يظلم مثقال حبة من خردل حتى يعترف كل بما قد نسيه من عمله، ويميز ما عساه قلم احتقروه من فعله، ويقال له عند اعترافه: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا»(٥).

---

(١) النساء: الآية (٤٠).
(٢) القارعة: الآيات (٦-٩).
(٣) فتح البيان (٤/ ٣٠٥).
(٤) منهاج السلامة في ميزان القيامة (ص: ١١٩-١٢٠).
(٥) شرح ابن بطال (١٠/ ٥٥٩).

الفائدة الثالثة: اختلاف أهل العلم في الموزون يوم القيامة ما هو؟

قال ابن كثير: «والذي يوضع في الميزان يوم القيامة، قيل: الأعمال، وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجسامًا. قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن (البقرة) و(آل عمران) يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف[(١)]، ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن، وأنه يأتي صاحبَه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك، وأظمأت نهارك[(٢)]، وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق[(٣)].

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها «لا إله إلا الله»، فيقول: يا رب! وما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[(٤)] رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه، وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»[(٥)]، ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[(٦)]، وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة

---

(١) أخرجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه: أحمد (٤/ ١٨٣)، ومسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٥)، والترمذي (٥/ ١٤٧-١٤٨/ ٢٨٨٣).

(٢) أخرجه من حديث بريدة رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٣٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٢/ ٣٧٨١)، وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٢٥٨): «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وقال ابن كثير في التفسير (١/ ٣٢): «وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر بعضه، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم»، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٥٤/ ١١٩٠) وقال: «حسن غريب»، وصححه الحاكم (١/ ٥٦٠) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

ومن التخريج يتبين أن عزوه للصحيح ليس بصحيح.

(٣) أخرجه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧-٣٨) وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه مختصراً: النسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠)، وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٩)، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٧٨).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) الكهف: الآية (١٠٥).

ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أُحُد»[١]، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن مَحَالُّها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم»[٢].

قال الحكمي: «والذي استظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله، كل ذلك يوزن؛ لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل لذلك ما رواه أحمد[٣] -رحمه الله تعالى- عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: **«توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه، فيمايل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار، قال: فإذا أدبر، إذا صائح من عند الرحمن ﷻ يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان»**، فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة»[٤].

الفائدة الرابعة: هل توزن أعمال الكفار؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين: فقالت طائفة: إن الوزن خاص بأعمال المؤمنين. وقالت طائفة أخرى: إن الكفار توزن أعمالهم كذلك.

قال الألوسي: «وظاهر النظم الكريم أن الوزن ليس مختصًا بالمسلمين، بل الكفار أيضًا توزن أعمالهم التي لا توقف لها على الإسلام، وإلى ذلك ذهب البعض، وادعى القرطبي أن الصحيح أنه يخفف بها عذابهم، وإن لم تكن راجحة، كما ورد في حق أبي طالب[٥]. وذهب الكثير إلى أن الوزن مختص بالمؤمنين، وأما

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٣) في المسند (٢/ ٢٢١-٢٢٢) وكذا الترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٣٩)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٢) وقال: «رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٢/ ٢٣). وقد تقدم قريباً.

(٤) معارج القبول (٢/ ٢٧١-٢٧٢).

(٥) أخرجه من حديث العباس بن عبد المطلب: أحمد (١/ ٢٠٦)، والبخاري (١٠/ ٧٢٣/ ٦٢٠٨)، ومسلم (١/ ١٩٤-١٩٥/ ٢٠٩).

الكفار فتحبط أعمالهم كيفما كانت، وهو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(١) ولا يخفف بها عنهم من العذاب شيء، وما ورد من التخفيف عن أبي طالب فقد قال السخاوي: إن المعتمد أنه مخصوص به»(٢).

وقال الحليمي: «وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهارها معانيها دُبُرَها ليكون الجزاء بحسبها قال -جل ثناؤه-: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾(٣)، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾(٤)، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(٥)، وفي هذه الآيات كلها إخبار بوزن أعمال الكفار؛ لأن غاية المعنيين بقول اللَّه تعالى: ﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ في هذه الآيات هم الكفار، فإن في إحداها: ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، والظلم بآيات اللَّه الاستهزاء بها وترك الإذعان لها، وفي الثانية: ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(٦)، وفي الثالثة: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، فهذا الوعيد بالإطلاق لا يكون إلا للكفار، فإذا جمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٧)، ثبت أن الكفار يسألون عن كل ما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه؛ إذ لو لم يسألوا عما وافقوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم، ولم يحاسبوا بها لم يعتد بها في الوزن، وإذا كانت موزونة في وقت الوزن دل ذلك على أنهم محاسبون بها

---

(١) الكهف: الآية (١٠٥).
(٢) روح المعاني (٨/ ٨٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٤٧).
(٤) المؤمنون: الآيات (١٠١-١٠٤).
(٥) القارعة: الآيات (٦-١١).
(٦) المؤمنون: الآيات (١٠٣-١٠٥).
(٧) الأنبياء: الآية (٤٧).

في موقف الحساب، والله أعلم»[1].

وقال البيهقي: «وهذا على قول من قال في الكفار: إنهم مخاطبون بالشرائع، وهو الصحيح؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]، فتوعدهم على منع الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾[3]، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان بالبعث وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها مخاطبون بها، مُجْزَوْنَ على ما أخلوا به منها، والله أعلم»[4].

الفائدة الخامسة: هل الميزان واحد، أم هي موازين متعددة؟

سيأتي بحث هذه المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ الآية (٤٧) من سورة (الأنبياء)؛ إذ هو أنسب مكان لمناقشتها، وبيان وجه الصواب فيها، وبالله التوفيق.

* * *

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) فصلت: الآيتان (٦و٧).

(٣) المدثر: الآيات (٤٢-٤٧).

(٤) شعب الإيمان (١/ ٢٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

مكّنّاكم: أي: ملكناكم وجعلناكم متمكنين من المكان الذي وليناكم إياه؛ أي: قويناكم. من تمكن فلان من كذا: إذا قدر عليه وأطاقه. وأصله من المكان. والمكان لغة هو: الحاوي للشيء.

جعلنا: الجعل: التصيير.

معايش: جمع معيشة، وهو ما يُعَاشُ به؛ أي: يحيا من زرع وضرع وغيرهما. وهي في الأصل: مصدر لعاش يعيش عيشًا وعيشةً ومعاشًا ومعيشًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «تقدم أن اللَّه تعالى بدأ هذه السورة بذكر إنزال القرآن على خاتم الرسل؛ لينذر به جميع البشر فيما يدعوهم إليه من دينه، وبيان أساس الدين الإلهي، وهو أن واضع الدين هو اللَّه تعالى رب العباد، فالواجب فيه اتباع ما أنزله إليهم، وأن لا يتبعوا من دونه أولياء يتولونهم، ويعملون بما يأمرونهم به من عبادة وحلال وحرام، وأنه قفى على ذلك ببيان نوعي العذاب الذي أنذر به من يتبعون أولئك الأولياء؛ أي: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فهذا موضوع الآيات السابقة.

ولما كان الدين الذي أمر تعالى باتباع التنزيل فيه دون غيره -إلا ما بينه من سنة الرسول المنزل عليه بأمره- هو دين الفطرة المبين لكل ما يوصلها إلى كمالها، والناهي لها عن كل ما يحول بينها وبين هذا الكمال، وكان افتتان الناس بأمر المعيشة من أسباب إفساد الفطرة بالإسراف في الشهوات، من حيث إنه يجب أن تكون نعم اللَّه عليهم بما يحتاجون إليه من أمر المعيشة سببًا لإصلاحها بشكر اللَّه عليه الموجب للمزيد منه؛ لما كان الأمر كذلك ذكر سبحانه الناس في هذه الآية بنعمه عليهم في

التمكين في الأرض، وخلق أنواع المعايش فيها، وهو بدء سياق طويل فيه بيان خلق نوعهم الإنساني مستعدًا للكمال وما يعرض له من وسوسة الشيطان التي تصده عنه، وما ينبغي لأفراده من اتقاء فتنة هذه الوسوسة، وعدم اتخاذ شياطينها الملقين لها أولياء يتبعونهم دون ما أنزل إليهم من ربهم؛ فإنهم هم الذين يحملونهم بذلك على كفر النعم عوضًا عن الشكر، وعلى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه، ويتلوه ما شرعه لهم من الزينات والطيبات، وما حرمه عليهم فيهما.

فهذا السياق الاستطرادي أو المشبه للاستطراد يبتدئ من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والثلاثين، ثم يعود الكلام إلى ذكر دعوة الرسل للأمم وجزاء من آمن بهم واتبعهم ومن كفر بهم وعصاهم، وفيه تفصيل لما أجمل في الآيتين اللتين قبل هذه الآية من جزاء الآخرة. فتأمل دقة بلاغة التناسب بين آيات القرآن؛ فإنها نوع خاص من أنواع إعجازه الكثيرة»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد وطنّا لكم أيها الناس في الأرض، وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها، ومهادًا تمتهدونها، وفراشًا تفترشونها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب نعمة مني عليكم، وإحسانًا مني إليكم، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول: وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم؛ لعبادتكم غيري، واتخاذكم إلهًا سواي»[2].

وقال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا كيفية هذه المعايش التي جعل لنا في الأرض، ولكنه بيّن ذلك في مواضع أخر، كقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[3]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[5]، وذكر كثيرًا من ذلك في سورة (النحل)، كقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٢٥-٣٢٦).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٢٥).
(٣) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).
(٤) السجدة: الآية (٢٧).
(٥) طه: الآيتان (٥٣و٥٤).

فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات»[٢].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام، وبقبول دعوتهم ثم خوفهم بعذاب الدنيا، وهو قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾[٣]، ثم خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين: أحدهما: السؤال، وهو قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤]. والثاني: بوزن الأعمال، وهو قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[٥]، رغبهم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية بطريق آخر وهو أنه كثرت نعم الله عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، فقوله: ﴿مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، ومكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها، وجعلنا لكم فيها معايش. والمراد من المعايش: وجوه المنافع، وهي على قسمين؛ منها ما يحصل بخلق الله تعالى ابتداءً؛ مثل خلق الثمار وغيرها، ومنها ما يحصل بالاكتساب، وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل الله وإقداره وتمكينه، فيكون الكل إنعامًا من الله تعالى، وكثرة الإنعام لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد، ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال والإنعام عالم بأنهم لا يقومون بشكره كما ينبغي، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. وهذا يدل على أنهم قد يشكرون والأمر كذلك، وذلك لأن الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلة عقل كل عاقل، ونعم الله على الإنسان كثيرة، فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه، إنما التفاوت في أن بعضهم قد يكون كثير الشكر، وبعضهم يكون قليل الشكر»[٦].

وقال ابن عاشور: «وفي التعقيب بهذه الآية لآية ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾[٧] إيماءً إلى أن إهمال شكر النعمة يعرض صاحبها لزوالها، وهو ما دل عليه قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾»[٨].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٥).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٩).
(٣) الأعراف: الآية (٤).
(٤) الأعراف: الآية (٦).
(٥) الأعراف: الآية (٨).
(٦) التفسير الكبير (١٤/ ٣١).
(٧) الأعراف: الآية (٤).
(٨) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝١١﴾

★ **غريب الآية:**

خلقناكم: الخلق: إحداث الشيء على تقدير تقتضيه الحكمة. وأصل الخلق: التقدير المستقيم. ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، كقوله: ﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ . . .

صوّرناكم: التصوير: جعل شيء على صورة.

اسجدوا: السجود: أصله الخضوع والتذلل. وخص ذلك شرعًا بعبادة اللَّه، فلا يجوز السجود لغير اللَّه تعالى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتخويف أولًا ثم بالترغيب ثانيًا على ما بيناه، والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم اللَّه تعالى على الخلق، فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾(١)، ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجودًا للملائكة، وإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات. ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة (البقرة): ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾(٢)، فمنع تعالى من المعصية بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، وعلل ذلك المنع بكثرة نعمه على الخلق، وهو أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم، ثم خلق لهم ما في الأرض جميعًا من المنافع، ثم أتبع تلك المنفعة بأن جعل آدم خليفة في الأرض مسجودًا للملائكة، والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجحود، فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا

---

(١) الأعراف: الآية (١٠).
(٢) الآية (٢٨).

المعنى بغير هذا الترتيب، فهذا بيان وجه النظم على أحسن الوجوه»[(١)].

وقال ابن كثير: «ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾[(٢)] الآية، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ بيده من طين لازب، وصوره بشرًا سويًا، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة (البقرة). وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم ﷺ.

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ قال: «خُلِقوا في أصلاب الرجال، وصُوِّروا في أرحام النساء»، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضًا أن المراد بـ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾: الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك: آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع؛ لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾[(٣)]، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ٣٢).

(٢) الحجر: الآيات (٢٨-٣٠).

(٣) البقرة: الآية (٥٧).

سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[(١)]؛ فإن المراد من آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: الجنس، لا معينًا، والله أعلم»[(٢)].

قال ابن جرير: «وأما قوله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فإنه يقول -جل ثناؤه-: فلما صورنا آدم، وجعلناه خلقًا سويًا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ابتلاءً منّا واختبارًا لهم بالأمر؛ ليعلم الطائع منهم من العاصي، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ يقول: فسجد الملائكة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنه ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم حين أمره الله مع من أمر من سائر الملائكة غيره بالسجود. وقد بيّنّا فيما مضى المعنى الذي من أجله امتحن جل جلاله ملائكته بالسجود لآدم، وأمر إبليس وقصصه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع»[(٣)].

قال أبو السعود: «وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم ﷺ وتصويره حتمًا توفية لمقام الامتنان حقه، وتأكيدًا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظًا من خلقه ﷺ وتصويره لما أنهما ليس من الخصائص المقصورة عليه ﷺ كسجود الملائكة له ﷺ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعًا؛ إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه على نمطه، ومصنوع على شاكلته، فكأنهم الذي تعلق به خلقه وتصويره؛ أي: خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصور، ثم صورناه أبدع تصوير، وأحسن تقويم سارٍ إليكم جميعًا»[(٤)].

* * *

---

(١) المؤمنون: الآيتان (١٢و١٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩١-٣٩٢).
(٣) جامع البيان (٨/ ١٢٨).
(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره-، عن قيله لإبليس إذ عصاه فلم يسجد لآدم إذ أمره بالسجود له، يقول: ﴿قَالَ﴾ اللَّه لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ أيّ شيء منعك ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أن تدع السجود لآدم، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أن تسجد، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ يقول: قال إبليس: أنا خير من آدم ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ .

فإن قال قائل: أخبرنا عن إبليس، ألحقته الملامة على السجود أم على ترك السجود؟ فإن تكن لحقته الملامة على ترك السجود فكيف قيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ؟ وإن كان النكير على السجود، فذلك خلاف ما جاء به التنزيل في سائر القرآن، وخلاف المسلمون.

قيل: إن الملامة لم تلحق إبليس إلا على معصيته ربه، بتركه السجود لآدم إذ أمره بالسجود له، غير أن في تأويل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بين أهل المعرفة بكلام العرب اختلافًا..

والصواب عندي من القول في ذلك أن يقال: إن في الكلام محذوفًا قد كفى دليل الظاهر منه، وهو أن معناه: ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد، فترك ذكر (أحوجك) استغناءً بمعرفة السامعين، قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾أن ذلك معنى الكلام من ذكره، ثم عمل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ في أن ما كان عاملًا فيه قبل (أحوجك) لو ظهر، إذ كان قد ناب عنه.

وإنما قلنا: إن هذا القول أولى بالصواب؛ لما قد مضى من دلالتنا قبل على أنه غير جائز أن يكون في كتاب اللَّه شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنى صحيحًا، فتبين بذلك فساد قول من قال: (لا) في الكلام حشو لا معنى لها، وأما قول من قال: معنى المنع ههنا: القول، فلذلك دخلت (لا) مع (أن)، فإن المنع وإن كان قد

يكون قولًا وفعلًا، فليس المعروف في الناس استعمال المنع في الأمر بترك الشيء؛ لأن المأمور بترك الفعل إذا كان قادرًا على فعله وتركه، ففعله لا يقال: فعله، وهو ممنوع من فعله إلا على استكراه للكلام، وذلك أن المنع من الفعل حول بينه وبينه، فغير جائز أن يكون، وهو محول بينه وبينه فاعلًا له؛ لأنه إن جاز ذلك، وجب أن يكون محولًا بينه وبينه لا محولًا، وممنوعًا لا ممنوعًا، وبعد: فإن إبليس لم يأتمر لأمر اللَّه تعالى بالسجود لآدم كبرًا، فكيف كان يأتمر لغيره في ترك أمر اللَّه وطاعته بترك السجود لآدم، فيجوز أن يقال له: أي شيء قال لك: لا تسجد لآدم إذ أمرتك بالسجود له؟ ولكن معناه إن شاء اللَّه ما قلت: ما منعك من السجود له فأحوجك أو فأخرجك أو فاضطرك إلى أن لا تسجد له على ما بينت.

وأما قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فإنه خبر من اللَّه -جل ثناؤه- عن جواب إبليس إياه، إذ سأله ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أن لا يسجد له واضطره إلى خلافه، أمره به وتركه طاعته، أن المانع كان له من السجود، والداعي له إلى خلافه أمر ربه في ذلك، أنه أشد منه يدًا وأقوى منه قوة وأفضل منه فضلًا؛ لفضل الجنس الذي منه خلق وهو النار، من الذي خلق منه آدم وهو الطين، فجهل عدو اللَّه وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب؛ إذ كان معلومًا أن من جوهر النار: الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من اللَّه في الكتاب السابق على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلومًا أن من جوهر الطين: الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت، وذلك الذي في جوهره من ذلك كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة، ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس، يعنيان بذلك القياس الخطأ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله وبعده من إصابة الحق في الفضل الذي خص اللَّه به آدم على سائر خلقه: من خلقه إياه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمهُ أسماء كل شيء مع سائر ما خصه به من كرامته، فضرب عن ذلك كله الجاهل صفحًا، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خلقه من نار، وخلق آدم من طين، وهو في ذلك أيضًا له غير كفء، لو لم يكن لآدم من اللَّه ﷻ ذكره تكرمة

شيء غيره، فكيف والذي خص به من كرامته يكثر تعداده ويُمل إحصاؤه..

وهذا الذي قاله عدو اللَّه ليس لما سأله عنه بجواب؛ وذلك أن اللَّه -تعالى ذكره- قال له: ما منعك من السجود؟ فلم يجب بأن الذي منعه من السجود أنه خلقه من نار، وخلق آدم من طين، ولكنه ابتدأ خبرًا عن نفسه، فيه دليل على موضع الجواب، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾»[1].

قال صديق حسن خان: «والاستفهام: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك، وقال هنا: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي سورة (الحجر): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2]، وقال في سورة (ص): ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[3]، واختلاف العبارات عند الحكاية، يدل على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، والاستكبار مع تحقير آدم، وقد وبخ على كل واحدة منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاءً بما ذكر في موطن آخر، وقد تركت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة (البقرة) و(الإسراء) و(الكهف) و(طه)»[4].

قال القرطبي: «قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدل على ما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضي الوجوب، بمطلقه من غير قرينة؛ لأن الذم علق على ترك الأمر المطلق، الذي هو قوله ﷻ للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، وهذا بين»[5].

قال ابن القيم: «أخبر اللَّه أن امتناع إبليس من السجود كان كبرًا منه وكفرًا ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتًا، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه، وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة: أحدها: أن دعواه كونه خيرًا من آدم، دعوى كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقًا من نار، وآدم من طين،

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٢٩-١٣١).

(٢) الحجر: الآية (٣٢).

(٣) ص: الآية (٧٥).

(٤) فتح البيان (٤/ ٣١٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٧٠).

استدلال باطل، وليست النار خيرًا من الطين والتراب، بل التراب خير من النار وأفضل عنصرًا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور، فلا تدعوه إليها الضرورة، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار، في بعض الأحيان.

الخامس: أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفًا، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملًا لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها.

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونًا من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب، وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى، فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب، وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب، قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباه واصطفاه، فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال فزال، وكان الثبات والرزانة أصليًا له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع، فالشر فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه، كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته، فأين أحدهما من الآخر؟

العاشر: أن اللَّه تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا، وبساطًا وقرارًا، وكفاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها، وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب، إلا موضعًا أو موضعين، ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان، وهم المقوون النازلون بالقوا، وهي الأرض الخالية، إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟

الحادي عشر: أن اللَّه وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا، وأخبر أنه بارك فيها عمومًا، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[1]، فهذه بركة عامة، وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾[3]، وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[4]، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلًا، بل المشهور أنها مذهبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه، إلى مزيل البركة وماحقها.

الثاني عشر: أن اللَّه تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه، وهدى للعالمين خصوصًا، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا على النار.

---

(١) فصلت: الآيتان (٩و١٠).
(٢) الأنبياء: الآية (٧١).
(٣) سبأ: الآية (١٨).
(٤) الأنبياء: الآية (٨١).

الثالث عشر: أن اللَّه تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن، والأنهار والعيون والثمرات، والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان، والرياض والمراكب البهية، والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئًا منه، فأي روضة وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة، أو عين فوارة، أو نهر مطّرد، أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة، أو لباس وسترة.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه، ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين: الماء الذي جعل اللَّه تعالى منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة، فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته، لرأى أنه خير من النار وأفضل، وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها، وجدتها كثيرة جدًا، وإنما أشرنا إليها إشارة، ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين، لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقًا وخلقًا؟ وقد خلق اللَّه تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب، فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين، وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم، فعارض حكمة اللَّه وأمره، برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصًا وعقلًا، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ باللَّه من الخذلان، ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشرّ منه، ولأن يلقى اللَّه

بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به أسلم له من أن يلقى اللَّه وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه، ورأي بني جنسه. وهل طرد اللَّه تعالى إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس، ثم قدمه عليه، واللَّه يعلم أن شُبه عدو اللَّه مع كونها داحضة باطلة، أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم، فالعالم يتدبر سر تكرير اللَّه تعالى لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر، فقد أقسم عدو اللَّه أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة اللَّه عن عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله، دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان، قبل أن يوزن يوم القدوم على اللَّه، واللَّه المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

قلت: رحمة اللَّه على الإمام ابن القيم حيث أوتي علمًا وعملًا وفهمًا وتوفيقًا، فكل ما ذكر من أغلاط إبليس في قياسه نفسه على النار ومقارنتها بالطين والتراب توجد في بني آدم وقد انتقلت إليهم، ولو تتبعت أحوالهم وجدت المتكبرين المغرورين فيهم كثر على تنوع أحوالهم، فبعضهم يغتر بالملك والمنصب كما حصل لفرعون اللعين الذي قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[2]. فما هي المقارنة بين نبي وبين كافر زنديق يسبح في غروره؟! وفي غرور قارون بماله حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[3]، فكم بين قارون وبين أهل العلم الذين أوتوا الهداية والتوفيق، الذين قالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[4]؟! وكم من المقارنة بين قول كفار قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[5] وبين شمس الهداية وقمرها وباعث روحها ولبها محمد ﷺ؟! وهكذا نجد في بني آدم من أنواع ما ابتلي به إبليس من

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٩-١٤٣).
(٢) الزخرف: الآية (٥٢).
(٣) القصص: الآية (٧٨).
(٤) القصص: الآية (٨٠).
(٥) الزخرف: الآية (٣١).

الغرور ما لو تمتحنه لوجدت هذا يفتخر بنسبه، وآخر بلونه، وآخر بجماله، وآخر بوطنه، وهذا يفتخر بزمانه، وهذا يفتخر بمبدئه وانتمائه، وظهر هذا جليًّا في اليهود الذين قالوا: نحن أبناء اللَّه وأحباؤه، وكما سبق أن هذا كثير في بني آدم فيفضلون ما هو مفضول، ويفتخرون بما هو مفخور، والأصل هو امتثال أمر اللَّه واجتناب نهيه واتباع أنبيائه ورسله، فإذا كان الفضل فبهذه الصفات وإلا فكلنا من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وما نبه عليه الإمام ابن القيم من معارضة الوحي بالعقل والقياس فهو بحر لا ساحل له وكل الفرق والطوائف التي نشأت فهي من هذا الوادي ومن هذا المسلك. خرجت فتأسست لمعارضة الكتاب والسنة ولفهم سلف الأمة، وهكذا الجماعات المعاصرة على اختلاف انتماءاتها والمفكرون المعاصرون كلهم -إلا من رحم اللَّه- لا تكاد تجد في ألسنتهم إلا: «هذا في نظري»، و«أما أنا فلا أسلم بهذا النص، والعقل لا يصدقه»... وهم كما وصف اللَّه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[2] واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان العناصر التي خلق اللَّه منها آدم والجان والملائكة

* عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[3].

★ غريب الحديث:

مارج من نار: المارج: نار لا دخان لها منها الجان، وفي «اللسان»: مارج النار: لهبها المختلط بسوادها.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفقه: إخبار النبي ﷺ عن بدء الخلق، وبيانه للعناصر التي

---

(١) الحجرات: الآية (١٣). (٢) البقرة: الآية (١٧١).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٣، ١٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦).

خلق اللَّه منها الملائكة والجن وآدم، قال ابن عثيمين: «فذكر النبي ﷺ أن الملائكة خلقوا من النور، ولذلك كانوا كلهم خيرًا، لا يعصون اللَّه ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فالملائكة خلقوا من نور، أما الشياطين -الجن- فقال: إنهم خلقوا من نار، وفي هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر، الذي أبى أن يسجد لآدم وقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، فالجن كلهم مخلوقون من النار، ولهذا كثر منهم الطيش والعبث والعدوان على كل من يستطيعون العدوان عليه... وخلق آدم مما ذكر لكم؛ يعني: خلق من طين من تراب، من صلصال كالفخار؛ لأن التراب صار طينًا ثم صار فخارًا، فخلق منه آدم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1]»[2].

وفيه: «بيان قدرة اللَّه تعالى في خلقه، وأنه يخلق ما يشاء مما يشاء، فله العظمة والكبرياء، وأنه قادر على كل شيء، فعال لما يريد، فيجب الإيمان بكل ما أخبر عنه ﷺ»[3].

* * *

(١) طه: الآية (٥٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) انظر نزهة المتقين (ص: ٦٦٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الصاغر: الذليل. والصَّغار: الذلة. والصاغر: الراضي بالمنزلة الدنية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدري كوني: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى، ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين؛ معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده»[١].

وقال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه اللَّه صاغرًا حقيرًا ذليلًا، متصفًا بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾[٢]، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك؛ وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[٣].

وبيّن في مواضع أخر كثيرًا من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر، أعاذنا اللَّه والمسلمين منه، فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات اللَّه، والاهتداء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٣).

(٢) الأعراف: الآية (١٨).

(٣) غافر: الآية (٥٦).

بها كما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١) الآية، ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٣) ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه اللّه تعالى كما في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(٤)، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعاذ إلا مما هو شر، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾(٥)، إلى غير ذلك من نتائجه السيئة، وعواقبه الوخيمة، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله -جل وعلا- يرفعه اللّه.

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أُخر كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾(٦)، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧)، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(٨)، وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى صفحات الجو وهو وضيع»(٩).

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٦).
(٢) الزمر: الآية (٦٠).
(٣) الصافات: الآية (٣٥).
(٤) النحل: الآية (٢٣).
(٥) غافر: الآية (٢٧).
(٦) الفرقان: الآية (٦٣).
(٧) القصص: الآية (٨٣).
(٨) أخرجه: مسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٩/ ٢٨٦٥[٦٤])، وأبو داود (٥/ ٢٠٣/ ٤٨٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٩/ ٤١٧٩) من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه.
(٩) أضواء البيان (٢/ ١٠-١١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾

★ **غريب الآية:**

أنظرني: الإنظار: الإمهال والتأخير.

يُبعثون: البعث: أصله الإثارة والتوجيه. يقال: بعثته فانبعث، ويختلف باختلاف متعلقاته، فبعثت البعير: أَثَرْتُهُ وسيّرته، وبعثت رسولي: أرسلته، وبعث اللَّه الموتى: أي: أقامهم للحشر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه أيضًا جهلة أخرى من جهلاته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق اللَّه إليه، وذلك أنه سأل النَّظِرَة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق، ولو أعطي ما سأل من النظرة كان قد أعطي الخلود، وبقاء لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث، فقال -جل ثناؤه-: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[1]، وذلك إلى اليوم الذي قد كتب اللَّه عليه فيه الهلاك والموت والفناء؛ لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى غير ربنا الحيّ الذي لا يموت؛ يقول اللَّه -تعالى ذكره-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2]، والإنظار في كلام العرب: التأخير، يقال منه: أنظرته بحقي عليه أنظره به إنظارًا.

فإن قال قائل: فإن اللَّه قد قال له إذ سأله الإنظار إلى يوم يُبعثون: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟

قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنك من المنظرين إلى الوقت الذي سألتَ، أو: إلى يوم البعث، أو: إلى يوم يُبعثون، أو ما أشبه ذلك مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظرة، وأما قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ

---

(١) الحجر: الآيتان (٣٧و٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٨٥).

﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾ فلا دليل فيه لولا الآية الأخرى التي قد بين فيها مدة إنظاره إياه إليها، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ على المدة التي أنظره إليها؛ لأنه إذا أنظره يومًا واحدًا، أو أقل منه أو أكثر، فقد دخل في عداد المنظرين، وتم فيه وعد اللَّه الصادق، ولكنه قد بين قدر مدة ذلك بالذي ذكرناه، فعلم بذلك الوقت الذي أنظره إليه، وبنحو ذلك كان السدي يقول.

حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو، قال: حدثنا أسباط، عن السدي: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[1]، فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، فصَعِق من في السموات ومن في الأرض، فمات.

فتأويل الكلام: قال إبليس لربه: ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ أي: أخّرني وأجّلني، وأنسئ في أجلي، ولا تُمِتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يقول: إلى يوم يبعث الخلق، فقال -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى يوم ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه.

فإن قال قائل: فهل أحد مُنظَر إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: إنك منهم؟

قيل: نعم، من لم يقبض اللَّه روحه من خلقه إلى ذلك اليوم ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بآجالهم إليه، ولذلك قيل لإبليس: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ بمعنى: إنك ممن لا يميته اللَّه إلا ذلك اليوم»[2].

قال الزمخشري: «فإن قلت: لِمَ أجيب إلى استنظاره وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟ قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد في مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذّ والملاهي وما ركّب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده»[3].

قال ابن المنير: «وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على اللَّه تعالى رعاية المصالح في أفعاله. وأما أهل السنة فقد أصغوا حق

(١) الحجر: الآيات (٣٦-٣٨).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٣٢-١٣٣).
(٣) الكشاف (٢/ ٦٩).

الإصغاء إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[(١)]، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق»[(٢)].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال [(٢/ ٦٩) الكشاف].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: قال إبليس لربه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ يقول: فبما أضللتني.. وكان بعضهم يتأول قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ بما أهلكتني من قولهم: غوى الفصيل يغوى غوىً، وذلك إذا فقد اللبن فمات، من قول الشاعر:

معطفة الأثناء ليس فصيلها برازئها برا ولا ميت غوىً

وأصل الإغواء في كلام العرب: تزيين الرجل للرجل الشيء حتى يحسنه عنده غارًّا له، وقد حكي عن بعض قبائل طيئ أنها تقول: أصبح فلان غاويًا؛ أي: أصبح مريضًا، وكان بعضهم يتأول ذلك أنه بمعنى القسم، كأن معناه عنده: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، كما يقال: باللَّه لأفعلن كذا، وكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى المجازاة، كأن معناه عنده: فلأنك أغويتني، أو فبأنك أغويتني، لأقعدن لهم صراطك المستقيم، وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقول القدرية، من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض اللَّه أسباب ذلك إليه، وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان، هو السبب الذي به يصل الكافر إلى الكفر، وذلك أن ذلك لو كان كما قالوا، لكان الخبيث قد قال بقوله: فبما أغويتني: فبما أصلحتني؛ إذ كان سبب الإغواء هو سبب الإصلاح، وكان في إخباره عن الإغواء إخبار عن الإصلاح، ولكن لما كان سبباهما مختلفين، وكان السبب الذي به غوى وهلك من عند اللَّه، أضاف ذلك إليه فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾»[1].

وذهب الزمخشري إلى أن المعنى: فبسبب وقوعي في الغي، لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم[2].

قال أحمد بن المنير: «تحت كلام الزمخشري هذا، نزغتان من الاعتزال

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٦٩).

خفيتان: إحداهما: تحريفه الإغواء إلى التكليف؛ لأنه يعتقد أن اللَّه تعالى لم يغوه؛ أي: لم يخلق له الغي، بناءً على قاعدة التحسين والتقبيح، والصلاح والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود؛ لأنه كان سببًا في غيه، وكثيرًا ما يؤول أفعال اللَّه تعالى، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة، إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية؛ لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول، والزمان والمكان والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز، ويجعل الفعل مسندًا إلى اللَّه تعالى؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله، وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيدًا محبوسًا في مال عليه: هذه وضعت القيود في رجليك، وأشار إلى سلة فيها أخبصة، وألوان مختلفة رآها عند المسجون؛ أي: اعتناؤك بهذه الأطعمة، كان سببًا في تبذير المال، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجليك، فعلى هذا يروم حمل هذه الآية؛ يعني: بما كلفتني من التكليف الذي كان سببًا في خلقي الغيَّ النفسي، ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة، وأما إسناد الفعل إلى اللَّه تعالى فمجاز، هذه إحدى النزغتين، والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال؛ لأنه يزعم أن كلام اللَّه تعالى محدث، من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان، جمع القدرية بينهما، وإبليس لعنه اللَّه لم يرض واحدة منهما؛ لأنه نسب الإغواء إلى اللَّه تعالى؛ إذ هو خالق كل شيء، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك، ما لم يسبق به إبليس، نعوذ باللَّه من التعرض لسخطه»[1].

وقال القرطبي: «مذهب أهل السنة أي أن اللَّه تعالى أضله وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى اللَّه تعالى، وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى، وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخَهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم ولم يطاوعوه في هذه المسألة، ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه تعالى اللَّه عن ذلك، فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلًا للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو نوح ﷺ حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٢/ ٦٩-٧٠) (حاشية الكشاف).

﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١]، وقد روي أن طاوسًا جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهمًا بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه فقال له طاووس: تقوم أو تقام؟ فقيل لطاووس: تقول هذا لرجل فقيه. فقال: إبليس أفقه منه: يقول إبليس: رب بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي»[٢].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنه يقول: لأجلسن لبني آدم صراطك المستقيم؛ يعني: طريقك القويم، وذلك دين اللَّه الحق، وهو الإسلام وشرائعه، وإنما معنى الكلام: لأصدن بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني ولأضلنهم كما أضللتني، وذلك كما روي عن سبرة بن الفاكه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة عداوة إبليس

* عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، قال: فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال، قال: فعصاه فجاهد**، فقال رسول اللَّه ﷺ: **فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة**»[٤].

★ غريب الحديث:

بأطرقه: جمع طريق على التأنيث؛ لأن الطريق تذكر وتؤنث، فجمعه على

---

(١) هود: الآية (٣٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٧٥).
(٣) جامع البيان (٨/ ١٣٤).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٣) واللفظ له، والنسائي (٦/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٣١٥٤)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٤٥٣-٤٥٤/ ٤٥٩٣)، وحسن الحافظ إسناد النسائي في الإصابة (٤/ ١٢٠).

التذكير أطرقة، كرغيف وأرغفة، وعلى التأنيث: أطرُق، كيمين وأيمُن.

الطِّوَل: الطِّوَل والطِّيَل بالكسر الحبل الطويل، يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس، ليدور فيه ويرعى ولا يذهب.

قال السندي: «وهذا من كلام الشيطان، ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيد في بلاد الغربة، لا يدور إلا في بيته، ولا يخالطه إلا بعض معارفه، فهو كالفرس في طول لا يدور ولا يرعى إلا بقدره، بخلاف أهل البلاد في بلادهم، فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم، فأحدهم كالفرس المرسل»[(١)].

وقصته دابته: الوقص: كسر العنق.

★ **فوائد الحديث**:

في هذا الحديث من الفوائد: «أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير ويدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن شيطانًا تفلت عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي»[(٢)] الحديث. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر.. فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير»[(٣)].

وقال الألوسي: «ولعل الاقتصار منه ﷺ على هذه المذكورات للاعتناء بشأنها، والتنبيه على عظم قدرها لما أن المقام قد اقتضى ذلك لا الحصر»[(٤)].

❁ عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»**[(٥)].

---

(١) حاشية سنن النسائي (٦/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٨)، والبخاري (١/ ٧٢٩/ ٤٦١)، ومسلم (١/ ٣٨٤/ ٥٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣/ ١١٤٤٠).

(٣) قاله ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٠-١٥١).

(٤) روح المعاني (٨/ ٩٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩-٤١-٧٦) واللفظ له، وأبو يعلى (٢/ ٤٥٨/ ١٢٧٣)، و(٢/ ٥٣٠/ ١٣٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٧٦/ ١٢٩٣)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٦١)، ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث بيان قوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى قوله: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من قبل الآخرة، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من قبل الدنيا، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من قبل الحق، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾من قبل الباطل... وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من قبل دنياهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من قبل آخرتهم... وقال آخرون: معنى ذلك من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون... وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معناه: ثم لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق وأحسن لهم الباطل، وذلك أن ذلك عقيب قوله: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم اللَّه أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين اللَّه الحق، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، من الوجه الذي أمرهم اللَّه به، فيصدهم عنه، وذلك من بين أيديهم وعن أيمانهم، ومن الوجه الذي نهاهم اللَّه عنه، فيزينه لهم ويدعوهم إليه، وذلك من خلفهم وعن شمائلهم، وقيل: ولم يقل: من فوقهم؛ لأن رحمة اللَّه تنزل على عباده من فوقهم»[١].

وقال ابن القيم: «السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان رصدًا له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملًا له خادمًا ومعينًا وممنيًا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك»[٢].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٣٥-١٣٧) بتصرف. (٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٦٦).

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ خبر أن سعايته تفعل ذلك ظنًّا منه وتوهمًا، في خلقة آدم، حين رأى خلقته من أشياء مختلفة، فعلم أنه ستكون لهم شيم تقتضي طاعته، كالغل والحسد والشهوات ونحو ذلك... وما ظنه إبليس صدقه الله ﷻ، ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فجعل أكثر العالم كفرة، ويبينه قول النبي ﷺ في الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم! أخرج بعث النار، فيقول: يارب! وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وواحد إلى الجنة»[2]، ونحوه مما يخص أمة محمد ﷺ: «ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعائه ﷺ بالعفو والعافية

* عن ابن عمر يقول: «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: **اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي -وقال عثمان: عوراتي- وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**»[5].

★ **غريب الحديث:**

عوراتي: ساكنة الواو: جمع عورة، وأراد كل ما يستحيى منه، ويسوء صاحبه أن يرى ذلك منه.

روعاتي: جمع روعة، وهي المرة الواحدة من الروع، وهو الفزع.

---

(١) سبأ: الآية (٢٠).

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣)، والبخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨)، ومسلم (١/ ٢٠١/ ٢٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) جزء من الحديث المتقدم تخريجه قبله.

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨١).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥)، وأبو داود (٥/ ٣١٥/ ٥٠٧٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٣-١٢٧٤/ ٣٨٧١)، وصححه الحاكم (١/ ٥١٧-٥١٨) ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٤١/ ٩٦١).

أن أغتال من تحتي : أي : أدهى من حيث لا أشعر، يريد به الخسف، والاغتيال هو أن يخدع ويقتل في موضع لا يراه فيه أحد.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «ورد في هذا الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها»(١).

وقال الطيبي: «قوله: «**من بين يدي ومن خلفي**» استوعب الجهات الست بحذافيرها؛ لأن ما يلحق الإنسان من نكبة وفتنة، فإنما يحيق به، ويصل إليه من إحدى هذه الجهات، والفرق بين استعمال «من» مع قوله: «**من بين يدي ومن خلفي**» وحروف المجاوزة مع «**عن يميني وعن شمالي**» قد مضى، وأما تخصيص جهة السفل بقوله: «**وأعوذ بعظمتك أن أغتال**» فليدمج معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾(٢)، وما أحسن موقع قوله: «**بعظمتك**» في هذا المقام، فليتدبر»(٣).

وقال الصنعاني: «وسأل الله الحفظ له من جميع الجهات؛ لأن العبد بين أعدائه من شياطين الإنس والجن كالشاة بين الذئاب، إذا لم يكن له حافظ من الله فما له من قوة، وخص الاستعاذة بالعظمة عن الاغتيال من تحته؛ لأن الاغتيال أخذ الشيء خفية، وهو أن يخسف به الأرض، كما صنع الله تعالى بقارون، أو بالغرق كما صنع بفرعون، فالكل اغتيال من التحت»(٤).

وقال العيني: «قوله: «**اللهم احفظني من بين يدي**» إلى آخره، طلب من الله أن يحفظه من المهالك التي تعرض لابن آدم على وجه الغفلة من الجهات الست بقوله: «**من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي**» ولا سيما من الشيطان، وهو المزعج لعباد الله بدعواه في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ الآية. وأما من جهة فوق فإن منها ينزل البلاء والصواعق والعذاب»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (بتصرف).
(٢) الأعراف: الآية (١٧٦).
(٣) شرح الطيبي (٦/ ١٨٨١-١٨٨٢).
(٤) سبل السلام (٤/ ٤٠٥).
(٥) العلم الهيب (ص: ١٥٠-١٥١).

قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره-، عن إحلاله بالخبيث عدو اللَّه ما أحل به من نقمته ولعنته، وطرده إياه عن جنته؛ إذ عصاه وخالف أمره، وراجعه من الجواب بما لم يكن له مراجعته به؛ يقول: ﴿قَالَ﴾ اللَّه له عند ذلك: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول: معيبًا، والذأم: العيب، يقال منه: ذأمه يذأمه ذأمًا، فهو مذؤوم، ويتركون الهمز فيقولون: ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا، والذأم والذيم أبلغ في العيب من الذم، وقد أنشد بعضهم هذا البيت:

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي أذيمُها

وأكثر الرواة على إنشاده: ألومها. وأما المدحور فهو المقصيّ، يقال: دحره يدحره دحرًا ودحورًا: إذا أقصاه وأخرجه؛ ومنه قولهم: ادحر عنك الشيطان. .

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: وهذا قسم من اللَّه -جل ثناؤه-، أقسم أن من اتبع من بني آدم عدو اللَّه إبليس وأطاعه وصدق ظنه عليه أن يملأ من جميعهم، يعني من كفرة بني آدم تُبّاع إبليس، ومن إبليس وذريته جهنم، فرحم اللَّه امرءًا كذّب ظن عدو اللَّه في نفسه، وخيّب فيها أمله وأمنيته، ولم يكن ممن أطمع فيها عدوه، واستغشّه ولم يستنصحه، وإن اللَّه -تعالى ذكره- إنما نبه بهذه الآيات عباده على قدم عداوة عدوه وعدوهم إبليس لهم، وسالف ما سلف من حسده لأبيهم، وبغيه عليه وعليهم، وعرّفهم مواقع نعمه عليهم قديمًا في أنفسهم ووالدهم ليدّبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، فينزجروا عن طاعة عدوه وعدوهم إلى طاعته وينيبوا إليها»[1].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٣٨-١٣٩).

وقال الشنقيطي: «بيّن في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس: اخرج منها في حال كونك مذؤومًا مدحورًا، والمذؤوم: المعيب أو الممقوت، والمدحور: المبعد عن الرحمة، المطرود، وأنه أوعده بملء جهنم منه. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[2]، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

خاتمة الآيات

قال محمد رشيد رضا: «وقد استشكل بعض المفسرين -ولا سيما المتكلمين منهم- خطاب الرب سبحانه للشيطان في هذا التحاور الطويل، واختلفوا فيه: هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسل البشر، أم بغير واسطة؟ وكيف وهو يقتضي التكريم؟ وتحكموا في الجواب حتى قال بعضهم: إن الشيطان كان يطلع على اللوح المحفوظ فيعلم مراد اللّه في جواب أسئلته، واستشكلوا أمر اللّه تعالى إياه بإغواء البشر وإضلالهم المبين في سورة (الإسراء) بقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[5] الآية، مع قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[6]، وإنما يشكل هذا كله على ما جروا عليه من جعل الخطاب للتكليف. وأما إذا جعل الخطاب للتكوين -كما صرح به ابن كثير- فلا إشكال؛ لأنه عبارة عن بيان الواقع من صفة طبيعة البشر وطبيعة الشيطان، واستعدادهما وأعمالهما الاختيارية. وللأشعرية والمعتزلة فيها جدل طويل، فالأولون يثبتون الإغواء والإضلال لله تعالى، وينفون رعاية الرب لمصالح العباد في كل من دينهم ودنياهم، ويجعلون الإنسان مجبورًا في صورة مختار، والآخرون يخالفونهم، فندع أمثال هذه المباحث الجدلية لابني بجدتها الرازي والزمخشري، ونختم تفسير هذه

---

(١) ص: الآيتان (٨٤و٨٥).

(٢) الإسراء: الآيتان (٦٣و٦٤).

(٣) الشعراء: الآيتان (٩٤و٩٥).

(٤) أضواء البيان (٢/ ١١-١٢).

(٥) الإسراء: الآية (٦٤).

(٦) الأعراف: الآية (٢٨).

الآيات ببيان حكمة اللَّه تعالى في خلق إبليس وذريته الشياطين، وكشف شبهة المستشكلين له ولخلق الإنسان مستعدًّا لقبول إغوائه؛ فإنها مما يحتاج إليه هنا حتى على القول بأن السياق كله لبيان حقيقة التكوين.

حكمة خلق اللَّه الخلق واستعداد الشيطان والبشر للشر:

اعلم أن الحكمة العليا لخلق جميع المخلوقات هي أن يتجلى بها الرب الخالق لها بما هو متصف به من صفات الكمال ليعرف ويعبد، ويشكر ويحمد، ويحكم ويجزي فيعدل، ويغفر ويعفو ويرحم.. إلخ، فهي مظهر أسمائه وصفاته، ومجلى سننه وآياته، وترجمان حمده وشكره، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(١)، لذلك كانت في غاية الإحكام والنظام الدالّين على العلم والحكمة والمشيئة والاختيار، ووحدانية الذات والصفات والأفعال، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٢)، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(٣)، كما نطق القرآن، الخير كله بيديه، والشر ليس إليه، كما ورد في الحديث. بل ليس في خلقه ما هو شر محض في نفسه، وإنما الشر أمر اعتباري مداره على ما يؤلم الأحياء أو تفوت به مصلحة أو منفعة على أحد منهم، فيكون شرًّا له إن لم يترتب على ذلك منفعة أعظم، أو دفع مفسدة أكبر؛ فإن الإنسان قد يتألم من الدواء الذي يزيل مرضه الذي هو أشد أو أطول إيلامًا منه، وقد تفوته منفعة صغيرة يكون فوتها سببًا لمنفعة أكبر منها، كالذي يبذل ماله في المصلحة العامة لملته ووطنه، فيكرم ويكون قدوة في الخير، وحظه من كرامة الأمة وعمران الوطن أعظم مما بذل من المال، وفوق ذلك من يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه، وهي سبيل الحق والخير وسعادة الدارين ابتغاء مرضاته والزلفى عنده.

وقد كان مقتضى تحقق معاني أسماء اللَّه الحسنى وصفاته العلى أن يخلق ما علمنا وما لم نعلم من أنواع المخلوقات، وأن تكون المقابلات والنسب بين بعضها مختلفة من توافق وتباين وتضاد، ويترتب على ذلك في نظام الخلق، أن الضد يظهر حسنه الضد، وأن تكون مصائب قوم عند قوم فوائد، وأن يسيء بعضهم إلى نفسه أو إلى غيره، وأن يكون بعضهم مفطورًا على طاعة ربه، دائبًا على عبادته وحمده

(١) الإسراء: الآية (٤٤).
(٢) النمل: الآية (٨٨).
(٣) السجدة: الآية (٧).

وشكره، وأن يكون بعضهم مختارًا في عمله، مستعدًا للأضداد في ميله وطبعه، يتنازعه عاملا الكفر والشكر، وتشتبه عليه حقيقتا التوحيد والشرك، وتتجاذبه داعيتا الفجور والبر، فيكون لشكره وبره وطاعته لربه من عظم الشأن مع معارضة الموانع ما ليس للمفطور على ذلك، وقد يعصي فيفيده العصيان خوفًا ورهبة، ويحمله على التوبة، فيكون له أوفر حظ من اسمي (العفو الغفور)، وقد يستكبر عن الطاعة والإيمان، ويصر على الفسوق والعصيان، فيكون موضعًا لعقاب (الحكم العدل)، وآية فيه على تنزهه تعالى عن الجور والظلم.

ولا نعرف نوعًا من أنواع الخلق مفطورًا على الباطل والشر، مجبورًا على الفسق والكفر، فهو غير موجود على أنه لو وجد لما صح أن يعترض به العبد المربوب على الرب المعبود، وهذه الآيات المبينة لمعصية إبليس -وهو شر أفراد هذا النوع المسمى بالجن- تدل على أنه كان مختارًا في عصيانه بانيًا إياه على شبهة احتج بها عليه، وكذلك خلق اللَّه نوعه فكانوا كالبشر منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما يعلم من السورة التي سميت باسمهم (الجن)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1]، الفسق: الخروج من الشيء، فهو يدل على أنه كان قبل ذلك يطيعه ويعبده كما يدل عليه وجوده مع الملائكة، وعقوبته بإخراجه منهم بعد المعصية. وقد عصى آدم ربه بعد عصيان إبليس، وكان الفرق بينهما أن آدم تاب إلى ربه فتاب عليه وهداه واجتباه، وجعله موضع مغفرته ورحمته، وأن إبليس أصر على عصيانه واحتج على ربه فلعنه وأخزاه، وجعله موضع عدله في عقابه، وقص قصصهما على المكلفين من ذريتهما بما أظهر حقيقة النوعين، ومآل العملين؛ عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين، وابتلاءً (اختبارًا) للعالمين، يميز اللَّه به المحسنين والمسيئين، ويزيّل بين الطيبين والخبيثين؛ إذ كان من سننه فيهما أن الحياة جهاد، يظهر به ما أودع من النفوس من الاستعداد، وأن من حكم تفاوت البشر فيه أن يكون منهم العالم والجاهل، والحكيم والحاكم، والمسوس والسائس، والقائد والجندي، والمخدوم والخادم، والزارع والصانع، والتاجر والعامل، فلولا العمال -مثلًا- لما اتسعت

(١) الكهف: الآية (٥٠).

مسائل العلوم بالأعمال، ولما أمكن الانتفاع بما كشف العلماء من أسرار الطبيعة وخواص المخلوقات، ولولا ذلك لما عرفت نعم الخالق وسننه ودقائق علمه وحكمته في الأشياء، وغير ذلك من معاني الصفات ومظاهر الأسماء، وموجبات الحمد والشكر والثناء.

وجملة القول: أن كل ما خلقه اللّٰه تعالى فهو حسن في نفسه، متقن في صنعه، مظهر لنوع أو أنواع من حكمه في خلقه، ومن كماله في ذاته وصفاته، ولا شيء منه بباطل ولا بشرّ محض، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

وإذا كان من حكمته تعالى فيما ذكر من معصيتي أبوي الإنس والجن ظهور استعدادهما وإظهار حكمه تعالى في الجزاء على الذنوب في حالي التوبة منها والإصرار عليها، والعبرة والموعظة، وحسن الأسوة، وسوء القدوة، والابتلاء والجهاد وغيره مما بيّنّا -وإذ كانت معصية الأول بسبب وسوسة الآخر- فلا خفاء في استمرار ذلك في ذريتهما؛ لأنه من مقتضى فطرة نوعيهما، التي هي مظهر أسماء اللّٰه وصفاته فيهما، فجنس الجن أو الجنة الغيبي الروحاني نوعان أو صنفان: صنف ملكي يلابس بعضه أرواح البشر الميالة إلى الحق والخير، فتقوى داعيتهما فيها، وصنف شيطاني يلابس أرواح البشر الميالة إلى الباطل والشر فتقوى داعيتهما فيها»[3].

* * *

(١) الحجر: الآية (٨٥).

(٢) ص: الآية (٢٧).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٣٣٩-٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول اللَّه -تعالى ذكره-: وقال اللَّه لآدم: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما، فأسكن -جل ثناؤه- آدم وزوجته الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه منها، وأباح لهما أن يأكلا من ثمارها، من أيّ مكان شاءا منها، ونهاهما أن يقربا ثمر شجرة بعينها.

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في ذلك، وما نرى من القول فيه صوابًا، في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: فتكونا ممن خالف أمر ربه، وفعل ما ليس له فعله»[1].

قال ابن عاشور: «وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة؛ لأن إعطاء النعم لمرضي عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقَب، وإظهار للتفاوت بين مستحق الإنعام ومستحق العقوبة، فلا يفيد الكلام من المعاني ما أفاده العطف على المقول المحكي، ولأنه لو أريد ذلك لأعيد فعل القول. ثم إن كان آدم خُلق في الجنة، فكان مستقرًّا بها من قبل، فالأمر في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ إنما هو أمر تقرير: أي: ابق في الجنة، وإن كان آدم قد خُلق خارج الجنة فالأمر للإذن تكريمًا له، وأيًّا ما كان ففي هذا الأمر، بمسمع من إبليس، مقمعة لإبليس؛ لأنه إن كان إبليس مستقرًّا في الجنة من قبل، فالقمع ظاهر؛ إذ أطرده اللَّه، وأسكن الذي تكبر هو عن السجود إليه في المكان المشرف الذي كان له قبل تكبره. وإن لم يكن إبليس ساكنًا في الجنة قبلُ، فإكرام الذي احتقره وترفع

(١) جامع البيان (٨/ ١٣٩).

عليه قمع له. فقد دل موقع هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس، زائد على ما في آية سورة (البقرة)، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع، وهذا من بدائع إعجاز القرآن.

ووجد إيثار هذه الآية بهذه الخصوصية أنّ هذا الكلام مسوق إلى المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليًّا من دون اللَّه، فأما ما في سورة (البقرة) فإنه لموعظة بني إسرائيل، وهم ممن يحذر الشيطان ولا يتبع خطواته.

والنداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملأ. والإتيان بالضمير المنفصل بعد الأمر، لقصد زيادة التنكيل بإبليس؛ لأن ذكر ضميره في مقام العطف يذكر غيره بأنه ليس مثله؛ إذ الضمير وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهوم مخالفة فإنه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض، ولا يمنع من هذا الاعتبار في الضمير كون إظهاره لأجل تحسين أو تصحيح العطف على الضمير المرفوع المستتر؛ لأن تصحيح أو تحسين العطف يحصل بكل فاصل بين الفعل الرافع للمستتر وبين المعطوف، لا خصوص الضمير، كأن يقال: ويا آدم اسكن الجنة وزوجك، فما اختير الفصل بالضمير المنفصل إلا لما يفيد من التعريض بغيره»[1].

وقال مبيِّنًا الفرق بين هذه الآية ونظيرتها التي في (البقرة): «الذي وقع في سورة (البقرة): ﴿وَكُلَا﴾[2] بالواو، وهنا بالفاء، والعطف بالواو أعم، فالآية هنا أفادت أن اللَّه تعالى أذن لآدم بأن يتمتع بثمار الجنة عقب أمره بسكنى الجنة. وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام، ولما كان ذلك حاصلًا في تلك الحضرة، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس، الذي تكبر وفضل نفسه عليه، كان الحال مقتضيًا إعلام السامعين به في المقام الذي حُكي فيه الغضب على إبليس وطردُه، وأما آية (البقرة) فإنما أفادت السامعين أن اللَّه امتن على آدم بمنة سكنى الجنة والتمتع بثمارها؛ لأن المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، والتحذير من كيد الشيطان ذلك الكيد الذي هم واقعون في شيء منه عظيم.

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٥٣-٥٤).
(٢) البقرة: الآية (٣٥).

على أن آية (البقرة) لم تخل عن ذكر ما فيه تكرمة له وهو قوله: ﴿رَغَدًا﴾؛ لأنه مدح للممتن به أو دعاء لآدم. فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم، وقد وزعت على عادة القرآن في توزيع أغراض القصص على مواقعها؛ ليحصل تجديد الفائدة؛ تنشيطًا للسامع، وتفننًا في أساليب الحكاية؛ لأن الغرض الأهم من القصص في القرآن إنما هو العبرة والموعظة والتأسي.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أشد في التحذير من أن يُنهى عن الأكل منها؛ لأن النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها، وقد تقدم نظيره في سورة (البقرة)»[١].

قال أبو منصور الماتوريدي: «ثم فيه -أي: في إسكانهما الجنة وتأمينهما من الخوف مما ينغص النعم ويذهب بلذتها- أن أول المحنة والابتلاء من اللّه تعالى لعباده إنما يكون بالإنعام والإفضال عليهم، ثم الجزاء والعدل لسوء ما ارتكبوا؛ لأنه ﷺ امتحن آدم أولًا بالإنعام والإفضال عليه حين أسجد ملائكته له، وأسكنه جنته ووسع عليه نعمه، ثم امتحنه بالشدائد وأنواع المشقة، وجزاء ما ارتكبا من التناول من الشجرة التي نهاهما عن قربها فهو ما ذكرنا أن شرط امتحانه عباده في الابتلاء يكون بالإفضال والإنعام، ثم بالعدل والجزاء لسوء صنيعهم. ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[٢]، أخبر أن ما يصيبنا هو من كسب أيدينا، وهو جزاء ما كسبنا، وفيه وفي غيرها من القصص الذي ذكر دليل إثبات رسالة محمد ﷺ ونبوته؛ لأنه لما أخبر عما كان من غير أن اختلف إلى أحد ممن يعرف ذلك، ولا نظر في الكتب التي فيها، دل أنه عرف ذلك باللّه تعالى»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «الآية ترشد إلى أن المرأة تابعة للرجل في السكنى والمعيشة باقتضاء الفطرة، وهو الحق الذي يعد ما خالفه شذوذًا»[٤].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٥٤).
(٢) الشورى: الآية (٣٠).
(٣) تأويلات السنة (٢/ ٢١٤-٢١٥).
(٤) تفسير المنار (٨/ ٣٤٦).

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

فوسوس: قال الليث: الوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي من ريح تهز قصبًا ونحوه كالهمس. والوسواس: اسم الشيطان. قال أبو عبيدة: الوسوسة في التنزيل: هي ما يلقيه الشيطان في القلب.

ليُبدي: الإبداء: الإظهار، خلافه: الإخفاء.

ما ووريَ: أي: سُتر، والمواراة: ستر الشيء، يقال: واريتُ كذا: إذا سترته، وتوارى: استتر.

سوءاتهما: السوءة: الفرج؛ لأنه يسوء صاحبه إظهاره، والسوءة: العورة؛ لأنها تسوء من ينظرها، أو تسيء من يظهر منه لاستكراه ذلك طبعًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾: فوسوس إليهما، وتلك الوسوسة كانت قوله لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وإقسامه لهما على ذلك.

وقيل: وسوس لهما والمعنى ما ذكرت كما قيل: عرضت إليه بمعنى: استبنت إليه، وإنما يعني: عرضت من هؤلاء إليه، فكذلك معنى ذلك، فوسوس من نفسه إليهما الشيطان بالكذب من القيل ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما، كما قال رؤبة:

وسوس يدعو مخلصًا ربَّ الفلقْ

ومعنى الكلام: فجذب إبليس إلى آدم حوّاء وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن

أكل ثمر هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ؛ ليبدي لهما ما واراه الله عنهما من عوراتهما ، فغطاه بستره الذي ستره عليهما»[١] .

وقال في تأويل قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ : «يقول -جل ثناؤه- : وقال الشيطان لآدم وزوجته حوّاء : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها إلا لئلا تكونا ملكين . . . ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ في الجنة الماكثين فيها أبدًا فلا تموتا»[٢] .

قال ابن القيم : «ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها ، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ، ويخالطه ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مصدود .

فشام عدو الله الأبوين ، فأحسّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم ، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال : ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ .

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها (مَلِكَيْنِ) بكسر اللام ، ويقول : «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ، ولكن استشرفا أن يكونا ملِكين ، فأتاهما من جهة الملك» ، ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى : ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٣] .

وأما على القراءة المشهورة فيقال : كيف أطمع عدو الله آدم ﷺ أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة ، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، وكان آدم ﷺ أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ، ولا سيما مما نهاه

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٠).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٤٠).
(٣) طه : الآية (١٢٠).

اللَّه ﷻ عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلًا، وإنما كذبهما عدو اللَّه وغرّهما، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسمو المكوس بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب تنزيهًا، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة؛ فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم ﷺ قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه باللَّه جهد أيمانه أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر لما قد فرغ اللَّه سبحانه من تقديره فأخذتهما سِنة الغفلة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

واستيقظوا وأراد اللَّه غفلتهم لينفذ القدر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ .

فيقال: الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو اللَّه والاعتذار عنه، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راجَ عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملَكين، وإنما ردد الأمر بين أمرين: أحدهما ممتنع، والآخر ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده. فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1]، فلم يدخل أداة الشك ههنا كما أدخلها في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ ، فتأمله»[2].

وقال القاسمي: «قال الحاكم: وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة،

---

(١) طه: الآية (١٢٠).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٧٩-١٨١).

وأنه كان في شريعة آدم ﷺ. قال القاضي: لا دليل في الآية على الوجوب؛ لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك. قال الأصم: في الآية دليل على أنهما كرها التعرّي، وإن لم يكن لهما ثالث، ففي ذلك دليل على قبح التعرّي، وإن لم يكن مع المتعرّي أحد، إلا لحاجة»[1].

وقال في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ قال: «وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء؛ لارتكابهما ذلك طمعًا في نيل ما ذكر. وأجاب من لم ير هذا باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم. ولئن كانت بعدها، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة، أو لخلقة الذات، بأن يصير جوهرًا نورانيًّا -أشار له الرازي-.

وقال الناصر: لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل، أن يكون الأمر كذلك في علمه تعالى. ألا ترى إبليس قد أخبر أن اللّٰه تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذًا، وليس في الآية ما يوجب تقرير اللّٰه تعالى لإبليس على ذلك، ولا تصديقه فيه، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرّهما؛ إذ قال اللّٰه تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[2] فلعل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره، انتهى.

وقال السيوطي في «الإكليل»: وأنا أقول: لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية، والكلام الذي فيها، حكاه اللّٰه تعالى عن قول إبليس في معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس. وإنما يستدل من كلامه تعالى، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه. وإن لم يكن ذلك، فكلام حكاه راضيًا به مقرًّا له، انتهى»[3].

وقال الشوكاني: «وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافًا كثيرًا، وأطالوا الكلام في غير طائل، وليس هذه المسألة مما كلفنا اللّٰه بعلمه، فالكلام فيها لا يعنينا»[4].

* * *

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣٦).
(٢) الأعراف: الآية (٢٢).
(٣) محاسن التأويل (٧/ ٣٦).
(٤) فتح القدير (٢/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾

★ غريب الآية:

قَاسَمَهُمَا: أي: حلف لهما. والمفاعلة هنا تحتمل أن تكون على بابها: حلف لهما أنه لهما من الناصحين وحلفا له أنهما لمن القابلين أمره ونصحه. ويحتمل أن يكون (فاعل) بمعنى (أفعل)، كباعدته وأبعدته. ذلك أن الحلف إنما كان من إبليس دونهما. قال القرطبي: وهو يردّ على من قال: إن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين.

الناصحين: النصح: بذل الجهد في طلب الخير خاصة، وهو من قولك: نصحت له الود؛ أي: أخلصته، وناصح العسل: خالصه، أو من قولهم: نصحت الجلد: خطته، والناصح: الخياط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾[1] بمعنى: تحالفوا بالله...

وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: لممّن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به من أنكما إن أكلتماه كنتما ملَكين، أو كنتما من الخالدين»[2].

وقال ابن القيم: «تضمن هذا الخبر أنواعًا من التأكيد:

أحدها: تأكيده بالقسم.

الثاني: تأكيده بـ(إنّ).

الثالث: تقديم المعمول على العامل؛ إيذانًا بالاختصاص؛ أي: نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها عائدة إليكما لا إليّ.

---

(١) النمل: الآية (٤٩).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٤١).

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد: أي: النصح صفتي وسجيّتي، ليس أمرًا عارضًا لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به.

سعى نحوها حتى تجاوز حده وكثّر فارتابت، ولو شاء قللا

وورّث عدو اللّه هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول اللّه ﷺ إذا جاؤوه: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[1]، فأكّدوا خبرهم بالشهادة وبـ(إنّ) وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾[2]»[3].

وقال: «ولم يكن آدم يظن أن أحدًا يقسم باللّه كاذبًا يمين غموس، يتجرأ فيها على اللّه هذه الجرأة، فغرّه عدو اللّه بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائمًا في نفس كل من يؤمن باللّه واليوم الآخر إيمانًا لا شك فيه إذا أقدم على المعصية»[4].

وقال ابن عاشور: «وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردد في صدقه، وإنما شكّا في نصحه لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفًا لما أمرهما اللّه الذي يعلمان إرادته بهما الخير علمًا حاصلًا بالفطرة»[5].

* * *

(١) المنافقون: الآية (١).
(٢) التوبة: الآية (٥٦).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٨١).
(٤) الصواعق المرسلة (١/ ٣٧٥).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

دلاّهما: أي: أطمعهما. أصله: من تَدْلِية الدلو، وهو إرسالها في البئر. ودلاّها: أخرجها. وقيل: دلّلهما، من الدالة، وهي الجرأة؛ أي: جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة.

بغرور: أي: بمكر وخديعة. والغرور: إظهار النصح وإبطان الغش. والغرر والغُرور: مصدر أغره يغره: إذا أوهمه إعجابًا بشيء وأطمعه فيه. والغَرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان: إذ هو أخبث الغارين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغُر وتضُر وتمر.

ذاقا: الذوق: وجود الطعم بالفم، ويعبر به عن الأكل، وقيل: الذوق: مس الشيء باللسان أو بالفم؛ يقال فيه: ذاق يذوق ذوقًا: مثل: صام يصوم صومًا، ونام ينام نومًا.

طفقا: جعلا وابتدآ. وطفق: من أفعال الشروع، كأخذ وجعل، فهذه تدل على التلبس بأول الفعل.

يخصفان: الخصف: أصله الضم والجمع. ومنه خَصْفُ النَّعْل: إذا ضممت بعض جلدها على بعض، فاستعير لفعلهما ذلك بورق الجنة على بدنهما لما زال عنهما لباسهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ فخدعهما بغرور،

---

(١) الأعراف: الآية (٢٢).

يقال منه: ما زال فلان يدلي فلانًا بغرور، بمعنى: ما زال يخدعه بغرور، ويكلمه بزخرف من القول باطل، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ يقول: فلما ذاق آدم وحوّاء ثمر الشجرة، يقول: طعماه، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ يقول: انكشفت لهما سوآتهما؛ لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطآ، أو المعصية التي ركبا، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يقول: أقبلا وجعلا يشدّان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما»[1].

وقال القرطبي: «وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر، ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة، كما قيل لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها، كما فعل آدم في الجنة، والله أعلم»[2].

وقال القاسمي: «قال السيوطي في «الإكليل»[3]: استدل به -أي: قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾- بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى، انتهى. وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا؛ فإن الذوق وجود الطعم بالفم، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير، وهو المراد هنا؛ لأنه وقع في آية أخرى مصرحًا بالأكل فيها»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن غِرّ كريم، والفاجر خَبّ لئيم**»[5].

★ **غريب الحديث:**

غِرّ: أي: ليس بذي نُكر، فهو ينخدع لانقياده ولينه. وهو ضد الخَبّ.

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٨١).
(٣) (ص: ١٢٦).
(٤) محاسن التأويل (٧/ ٣٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٤)، وأبو داود (٥/ ١٤٤/ ٤٧٩٠)، والترمذي (٤/ ٣٠٣/ ١٩٦٤)، والحاكم (١/ ٤٣-٤٤). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٠٧/ ٩٣٥).

خَبّ: الخَبُّ: بالفتح: الخدّاع، وهو الذي يسعى بين الناس بالفساد، رجل خبّ وامرأة خبّة. وقد تكسر خاؤه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث لنقف على المراد به ما هو إن شاء اللَّه، فوجدنا الغِرّ في كلام العرب: هو الذي لا غائلة معه، ولا باطن له يخالف ظاهره، ومن كانت هذه سبيله، أمِن المسلمون من لسانه ويده، وهي صفة المؤمنين، ووجدنا الفاجر ظاهره خلاف باطنه؛ لأن باطنه هو ما يُكرَه، وظاهره مخالف لذلك، كالمنافق الذي يُظهر شيئًا غير مكروه منه وهو الإسلام الذي يحمده أهله عليه، ويبطن خلافه وهو الكفر الذي يذمّه المسلمون عليه، فكان مثل ذلك الخبّ الذي يُظهر المعنى الذي هو محمود منه، حتى يحمده المسلمون على ذلك، ويبطن ضده مما يذمه المسلمون عليه، وهو الفاجر الذي وصفه رسول اللَّه ﷺ بما وصفه به في هذا الحديث، وخالف بينه وبين المؤمن الذي وصفه بما وصفه به في هذا الحديث، واللَّه ﷻ نسأله التوفيق»[1].

وقال فضل اللَّه الجيلاني: «فالمؤمن يبعد عن الشر، فتقل فطنته له، فلا يتحرز في مواقع التحرز فينخدع، وليس ذلك من جهله، بل من كرمه وحسن خلقه وحسن الظن بالناس، لا يريد أن يطّلع على دخائل الصدور وبواطن الأمور، وهذا يكون في أمور الدنيا وما يتعلق بحقوق نفسه، ويعد الأمر في ذلك سهلًا ولا يبالي ولا يهتم به، وأما في أمر الآخرة فهو ذو همة رفيعة وتيقظ تام، يشتغل بإصلاح دينه والتزود لمعاده من غير غفلة وكسل وتوان، والمنافق مفتش فتّان يسعى بين الناس بالفساد والمخادعة، لا يسامح خليله في زلاته فضلًا عن عدوه في وقعاته، فلا ينخدع ولا يرضى به عن نفسه»[2].

وقال المناوي: «قال بعض العلماء: كن عُمَرِيَّ الفعل؛ فإن الفاروق يقول: «**من خدعنا في اللَّه انخدعنا له**»، فإذا رأيت من يخدعك، وعلمت أنه مخادع، فمن مكارم

---

(١) شرح مشكل الآثار (٨/ ١٥٢).

(٢) فضل اللَّه الصمد في توضيح الأدب المفرد (١/ ٥٠٧).

الأخلاق أن تنخدع له، ولا تفهمه أنك عرفت خداعه؛ فإنك إذا فعلت ذلك، فقد وفيت الأمر حقه؛ لأنك إنما عاملت الصفة التي ظهر لك فيها، والإنسان إنما يعامل الناس لصفاتهم، لا لأعيانهم، ألا تراه لو كان صادقًا مخادعًا فعامله بما ظهر منه وهو يسعد بصدقه ويشقى بخداعه، فلا تفضحه بخداعه، وتجاهل وتصنع له باللون الذي أراه منك، وادع له وارحمه عسى اللَّه أن يرحمه بك، فإذا فعلت ذلك كنت مؤمنًا حقًّا؛ فالمؤمن غِرّ كريم؛ لأن خلق الإيمان يعطى المعاملة بالظاهر، والمنافق خَبّ لئيم؛ أي: على نفسه؛ حيث لم يسلك بها طريق نجاتها وسعادتها»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلاّ واللَّه الذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت باللَّه، وكذّبت عيني**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوّز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة؛ وهذا تكلف، وإنما كان اللَّه سبحانه في قلب المسيح أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين باللَّه، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له باللَّه، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف باللَّه كاذبًا»[٣].

* * *

---

(١) فيض القدير (٦/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٤)، والبخاري (٦/ ٥٩١/ ٣٤٤٤)، ومسلم (٤/ ١٨٣٨/ ٢٣٦٨)، والنسائي (٨/ ٢٤٩)، وابن ماجه (١/ ٦٧٩/ ٢١٠٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ونادى آدم وحوّاء ربهما: ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين، يقول: قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسدًا وبغيًا»[1].

وقال ابن عطية: «﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة (طه) في قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[2]. قال القاضي أبو محمد: وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه»[3].

وقال ابن عاشور: «قد تأخر نداء الرب إياهما إلى أن بدت لهما سوآتهما، وتحيّلا لستر عوراتهما ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أن الخير في طاعة اللَّه، وأن في عصيانه ضرًّا»[4].

وقال: «وظاهر إسناد النداء إلى اللَّه أن اللَّه ناداهما بكلام بدون واسطة ملك مرسل، مثل الكلام الذي كلم اللَّه به موسى، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض، فلا ينافي ما ورد من أن موسى هو أول نبي كلمه اللَّه تعالى بلا واسطة، ويجوز أن يكون نداء آدم بواسطة أحد الملائكة»[5].

وقال: «وعطف جملة: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ على جملة: ﴿أَنْهَكُمَا﴾ للمبالغة في التوبيخ؛ لأن النهي كان مشفوعًا بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما قد أضاعا وصيتين. والمقصود من حكاية هذا القول هنا

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٣).
(٢) طه: الآية (١١٧).
(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٧).
(٤) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٦٥).
(٥) المصدر السابق (٨/ القسم الثاني/ ٦٦).

تذكير الأمة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر، فيعلموا أنها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كل ما هو منسوب إلى الشيطان ومعدود من وسوسته، فإنه لما جُبل على الخبث والخزي، كان يدعو إلى ذلك بطبعه، وكان لا يهنأ له بال ما دام عدوه ومحسوده في حالة حسنة»[1].

وقال الألوسي: «استدل بعضهم بالآية على أن مطلق النهي للتحريم؛ لما فيها من اللوم الشديد مع الندم والاستغفار المفهوم مما يأتي، والأكثرون على أن النهي هنا للتنزيه، وندمهما واستغفارهما على ترك الأولى، وهو في نظرهما عظيم، وقد يلام عليه أشد اللوم إذا كان فاعله من المقربين»[2].

* * *

(١) المصدر السابق (٨/ القسم الثاني/ ٦٧).
(٢) روح المعاني (٨/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -جل ثناؤه- عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعترافهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة، خلاف جواب اللعين إبليس إياه.

ومعنى قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ قال آدم وحواء لربهما: يا ربنا! فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك، وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدونا وعدوك فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ يقول: وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه، ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بتعطفك علينا وتركك أخذنا به، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يعني: لنكونن من الهالكين»[(١)].

وقال السمرقندي: «في الآية دليل أن اللَّه تعالى يعذب عباده إذا أصروا على الذنوب، ويتجاوز عنهم إذا تابوا؛ لأن إبليس لم يتب وسأل النَّظِرة، فجعل مأواه جهنم، وتاب آدم ورجع عن ذنبه، فقبل توبته»[(٢)].

ونقل ابن جرير بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية، قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه[(٣)].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٤). (٢) بحر العلوم (١/ ٥٣٥).
(٣) جامع البيان (١٢/ ٣٥٧) (شاكر).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مستقرّ: أي: موضع استقرار.

متاع: المتاع: الانتفاع على وجه اللذة.

حين: الحين: مطلق الوقت قصيرًا كان أو طويلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾ أي: قال اللَّه مخاطبًا لآدم وحواء بلفظ الجمع؛ لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء، ثم هبطوا جميعًا إلى الأرض.

وكرر الأمر لإبليس تبعًا لهما؛ ليعلم أنهم قرناء أبدًا؛ لأن إبليس لا يفارق الإنسان، بل يلازمه كل الملازمة، ويبذل كل جهده في إضلال بني آدم.

وجملة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع نصب على الحال، من الضمير الذي هو الواو في ﴿ٱهْبِطُواْ﴾.

وخلاصة المعنى أن اللَّه قال لهما وللشيطان: اهبطوا جميعًا من الجنة إلى الأرض متعادين، ولكم في الأرض استقرار، وموضع استقرار، تتمتعون وتنتفعون، إلى حين انقضاء آجالكم»[1].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسر أبو العالية وقال: هي كقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[2]، وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس، واللفظ يعمهما، فهي كقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[3]. وأما (المتاع) فهو بحسب شخص شخص، في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٤).
(٢) البقرة: الآية (٢٢).
(٣) المرسلات: الآيتان (٢٥و٢٦).

زمن الحياة، اللهم إلا أن يقدر سكنى القبر متاعًا بوجه ما، و(المتاع) التمتع والنيل من الفوائد، و﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾هو بحسب الجملة قيام الساعة، وبحسب مفرد بلوغ الأجل والموت، والحين في كلام العرب: الوقت غير معين»[١].

وقال ابن عاشور: «طوى القرآن هنا ذكر التوبة على آدم؛ لأن المقصود من القصة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان، وتحذير الناس من اتباع وسوسته، وإظهار ما يعقبه اتباعه من الخسران والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة، وقد ذكرت التوبة في آية (البقرة) المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربه، ولكل مقام مقال. . .

والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم؛ ليتّهموا كل وسوسة تأتيهم من قِبله، وقد نشأت هذه العداوة عن حسد إبليس، ثم سرت وتشجرت فصارت عداوة تامة في سائر نواحي الوجود، فهي منبثة في التفكير والجسد، ومقتضية تمام التنافر بين النوعين»[٢].

الفوائد والعبر المستفادة من قصة آدم وإبليس

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي القصة فوائد عظيمة وعبر لمن اعتبر بها:

منها: أن خلق آدم من تراب من أبين الأدلة على المعاد كما استدل عليه سبحانه في غير موضع، وعلى قدرته سبحانه وعظمته ورحمته وعقوبته، وإنعامه وكرمه وغير ذلك من صفاته.

ومنها: أنها من أدلة الرسل عامة، ومن أدلة نبوة محمد ﷺ خاصة.

ومنها: الدلالة على الملائكة وعلى بعض صفاتهم.

ومنها: الدلالة على القدر خيره وشره، فقد اشتملت على أصول الإيمان الستة في حديث جبريل[٣].

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٦٨).

(٣) تقدم تخريجه.

ومنها، وهي أعظمها: أنها تفيد الخوف العظيم الدائم في القلب، وأن المؤمن لا يأمن حتى تأتيه الملائكة عند الموت تبشّره، وذلك من قصة إبليس وما كان فيه أولًا من العبادة والطاعة، ففي ذلك شيء من تأويل قوله ﷺ: «**إن أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع..**»[1] إلى آخره.

ومنها: أن لا يأمن عاقبة الذنب، ولو كان قبله طاعات كثيرة، وهو ذنب واحد، فكيف إذا كانت الذنوب بعدد رمل عالج؟!

ومن هذا قول بعض السلف: نضحك ولعل اللَّه اطلع على بعض أعمالنا، فقال: اذهبوا، فلا أقبل منكم عملًا - أو كلامًا هذا معناه.

وأبلغ منه قوله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه لا يلقي لها بالًا، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللَّه له بها سخطه إلى يوم يلقاه**»[2]. قال علقمة: كم من كلام منعنيه حديث بلال، يعني هذا.

ومنها: أنها تخلع من القلب داء العُجب الذي هو أشد من الكبائر.

ومنها، وهي من أعظمها: أنها تعرف المؤمن شيئًا من كبرياء اللَّه وعظمته وجبروته، ولا يُدِلّ عليه ولو بلغ في الطاعة ما بلغ، وقد وقع في هذه الورطة كثير من العباد فمستقل ومستكثر.

ومنها: التحذير من معارضة القدر بالرأي لقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[3]، وهذه بلية عظيمة لا يتخلص منها إلا من عصمه اللَّه لكل مقل ومكثر.

ومنها، وهي من أعظمها: تأدّب المؤمن من معارضة أمر اللَّه ورسوله بالرأي كما استدل بها السلف على هذا الأمر، ولا يتخلص من هذا إلا من سبقت له من اللَّه الحسنى.

---

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: أحمد (١/ ٣٨٢-٤٣٠)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٢-٤٨٣/ ٢٣١٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧٠).

(٣) الإسراء: الآية (٦٢).

ومنها: عدم الاحتجاج بالقدر عند المعصية لقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[1]، بل يقول كقول أبيه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[2] الآية.

ومنها: معرفة قدر المتكبر عند اللَّه خصوصًا مع قوله: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[3].

ومنها: الفخر بالأصل، وقد ورد عن النبي ﷺ التشديد في ذلك، والفخر منهي عنه مطلقًا ولو كان بحق، فكيف إذا كان بباطل؟

ومنها: الشهادة لِما كان عليه السلف أن البدعة أكبر من الكبائر؛ لأن معصية اللعين كانت بسبب الشبهة، ومعصية آدم بسبب الشهوة.

ومنها: عدم الاغترار بالعلم، فإن اللعين كان من أعلم الخلق فكان من أمره ما كان.

ومنها: عدم الاغترار بالرتبة والمنزلة؛ فإنه كان له منزلة رفيعة، وكذلك بلعام وغيره ممن له علم ورتبة ثم سلب ذلك.

ومنها: معرفة العداوة التي بين آدم وذريته، وبين إبليس وذريته، وأن هذا سببها لمّا طرد عدو اللَّه، ولعن بسبب آدم لمّا لم يخضع، وهذه المعرفة مما يغرس في القلب محبة الرب جل جلاله، ويدعوه إلى طاعته وإلى شدة مخالفة الشيطان؛ لأنه سبحانه ما طرد إبليس ولعنه، وجعله بهذه المنزلة الوضيعة بعد تلك المنزلة الرفيعة إلا لأنه لم يخضع بالسجود لأبينا آدم، فليس من الإنصاف والعدل موالاته، وعصيان المنعِم جلِ جلاله، كما ذكر هذه الفائدة بقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[4].

ومنها: معرفة شدة عداوة عدو اللَّه لنا، وحرصه على إغوائنا بكل طريق، فيعتد المؤمن لهذه الحرب عدته، ويعلم قوة عدوه وضعفه عن محاربته إلا بمعونة اللَّه، كما قال قتادة: إن عدوًا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم إنه لشديد المؤونة إلا من عصمه اللَّه، وقد ذكر اللَّه عداوته في القرآن في غير موضع، وأمرنا باتخاذه عدوًا.

ومنها: وهي من أعظمها: معرفة الطرق التي يأتينا منها عدو اللَّه، كما ذكر اللَّه

---

(١) الحجر: الآية (٣٩).
(٢) الأعراف: الآية (٢٣).
(٣) الأعراف: الآية (١٣).
(٤) الكهف: الآية (٥٠).

تعالى عنه في القصة أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾[1]، وإنما تعرف عظمة هذه الفائدة بمعرفة شيء من معاني هذا الكلام. قال جمهور المفسرين: انتصب (صراط) بحذف (على)، التقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك. قال ابن القيم: والظاهر أن الفعل مضمر؛ فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنه ولأرصدنه ونحو ذلك. قال ابن عباس: دينك الواضح. ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني الدنيا والآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني الآخرة والدنيا ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أشبّه عليهم أمر دينهم، وعنه أيضًا: من قِبل الحسنات، وقوله: ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ الباطل أرغّبهم فيه، قال الحسن: السيئات يحثهم عليها ويزينها في أعينهم.

قال قتادة: أتاك الشيطان يا بن آدم من كل وجه إلا أنه لم يأتك من فوقك، ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة اللَّه، وهو يوافق قول مَن ذكر هذه الأوجه للمبالغة في التوكيد أي: أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم، ولا يناقض ما ذكر السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل، فالسبل التي للإنسان أربعة فقط، فإنه تارة يأخذ على جهة شماله، وتارة على يمينه، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل من هذه سلكها وجد الشيطان عليها راصدًا له، فإن سلكها في طاعة ثبطه، وإن سلكها بالمعصية حداه، وأنا أمثل لك مثالًا واحدًا لِما ذكر السلف، وهو أن العدو الذي من بني آدم إذا أراد أن يمكر بك لم يستطع أن يمكر إلا في بعض الأشياء، وهي الأشياء الغامضة، والأشياء التي ليست بعالية، فلو أراد أن يمكر بك في أمر واضح بيّن مثل التردي من جبل أو بئر وأنت ترى ذلك لم يستطع، خصوصًا إذا عرفت أنه قد مكر بك مرات متعددة، ولو أراد ليمكر بك لتتزوج عجوزًا شوهاء وأنت تراها لم يستطع ذلك.

وأنت ترى اللعين -أعاذنا اللَّه منه- يأتي الآدمي في أشياء واضحة بيّنة أنها مما حرّم اللَّه ورسوله فيحمله عليها حتى يفعلها، ويزينها في عينه حتى يفرح بها، ويزعم أن فيها مصلحة ويذم من خالفه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]، وقوله:

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٦و١٧). (٢) آل عمران: الآية (١٨٨).
(٣) البقرة: الآية (٤٢).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾(١)، وهذا معنى قول من قال: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قِبل الدنيا؛ فإنهم يعرفونها وعيوبها ومجمعون على ذمها، ثم مع هذا لأجلها قطعوا أرحامهم وسفكوا دماءهم، وفعلوا ما فعلوا، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من حيث يبصرون، فهو لم يقنع بإتيانه إياهم من الجهة التي يجهلون أنها معصية مثل ما فسَّر به مجاهد ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾قال: من حيث لا يبصرون، ولا من جهة الغيب كما قال فيها بعضهم: الآخرة أشككهم فيها، لم يقنع بذلك عدو اللَّه حتى أتاهم في الأمور التي يعرفونها عيانًا أنها النافعة وضدها الضار، وفي الأمور التي يعرفون أنها سيئات وضدها حسنات، ومع هذا أطاعوه في ذلك إلا من شاء اللَّه منهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢). وقال تعالى حكاية عنه: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾(٣) الآية. قال الضحاك: ﴿مَّفْرُوضًا﴾ معلومًا، وحقيقة الفرض التقدير، والمعنى أن من اتبعه فهو نصيبه المفروض، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وحزب اللَّه وأولياؤه، قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ يعني عن الحق، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾قال ابن عباس: «تسويف التوبة وتأخيرها»، وقال الزجّاج: أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة، وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ البتك: القطع، وهو ههنا قطع آذان البحيرة، وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾قال ابن عباس: دين اللَّه، وقاله ابن المسيب والحسن وإبراهيم وغيرهم، ومعنى ذلك أن اللَّه فطر عباده على الفطرة وهي الإسلام كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(٤).

وفي الصحيح: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه..»(٥) الحديث.

---

(١) البقرة: الآية (١٠٢). (٢) سبأ: الآية (٢٠).
(٣) النساء: الآيتان (١١٨و١١٩). (٤) الروم: الآية (٣٠).
(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨).

فجمع ﷺ بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد وغيره، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما، ثم قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾[1]، فوعده ما يصل إلى قلب الإنسان نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا وتعلو، والدنيا دول وستكون لك، ويطول أمله، ويعده الحسنى على شركه ومعاصيه، ويمنّيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها، فالوعد في الخير، والتمنية في الطلب والإرادة.

ومنها: أن معرفة هذه القصة تزرع في قلب المؤمن حب اللَّه تعالى الذي هو أعظم النّعم على الإطلاق، وذلك من صنعه سبحانه بالإنسان وتشريفه، وتفضيله إياه على الملائكة، وفعله بإبليس ما فعل لمّا أبى أن يسجد له، وخلقه إياه بيده ونفخه فيه من روحه، وإسكانه جنته، وقد خاطب اللَّه سبحانه بني إسرائيل الموجودين في زمن النبي ﷺ بما فعل مع آبائهم، وذكّرهم بذلك واستدعاهم به، وذكّرهم أنه فعله بهم كقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[2] وغير ذلك، وذكر النعم التي هي أصل الشكر الذي هو الدين؛ لأن شكرها مبني على معرفتها وذكرها، فمعرفة النعم من الشكر، بل هي أم الشكر؛ كما في الحديث: «من أُسدِي إليه معروف فذكره فقد شكره، فإن كتم فقد كفره»[3]. هذا في الأشياء التي تصدر من بني آدم فكيف بنعم المنعم على الحقيقة والكمال؟ واجتمع الصحابة يومًا في دار يتذاكرون ما منّ اللَّه عليهم به من بعثة محمد ﷺ.

ومنها: أن التأويل الفاسد في رد النصوص ليس عذرًا لصاحبه، كما أنه سبحانه لم يعذر إبليس في شبهته التي أبداها كما لم يعذر من خالف النصوص متأولًا مخطئًا، بل كان ذلك التأويل زيادة في كفره.

ومنها: أن مثل هذا التأويل ليس على أهل الحق أن يناظروا صاحبه، ويُبيّنوا له الحق كما يفعلون مع المخطئ المتأوّل؛ بل يبادر إلى عقوبته بالعقوبة التي يستحقها

---

(١) النساء: الآية (١٢٠).

(٢) البقرة: الآية (٥٠).

(٣) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ مغاير: أبو داود (٥/ ١٥٨/ ٤٨١٣)، والترمذي (٤/ ٣٣٢-٣٣٣/ ٢٠٣٤)، وصححه ابن حبان (٨/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٣٤١٥)، وسيأتي في تفسير سورة (لقمان).

بقدر ذنبه، وإلا أعرض عنه إن لم يقدر عليه، كما كان السلف الصالح يفعلون هذا وهذا، فإنه سبحانه لمّا أبدى له إبليس شبهته فعل به ما فعل، ولمّا عتب على الملائكة في قيلهم أبدى لهم شيئًا من حكمته وتابوا، وقد وقعت هذه الثلاث لرسول اللَّه ﷺ في غزوته التي فتح اللَّه فيها مكة، فإنه لمّا أعطى المؤلفة قلوبهم ووجدت عليه الأنصار عاتبهم واعتذروا وقَبِل عذرهم، وبيّن لهم شيئًا من الحكمة، ولمّا قال له ذلك الرجل العابد: اعدل، قال له كلامًا غليظًا، واستأذنه بعض الصحابة في قتله ولم ينكر عليه[١]، لكن ترك قتله لعذر ذَكَرَه، ولمّا فعل خالد بن الوليد ببني جُذيمة ما فعل رد عليهم ما أخذ منهم ووداهم، ولا نعلم أنه عاتب خالدًا ولا منعه ذلك من تأميره على الناس[٢].

ومنها: أن الشبهة إذا كانت واضحة البطلان لا عذر لصاحبها، فإن الخوض معه في إبطالها تضييع للزمان وإتعاب الحيوان، مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته، وكان السلف لا يخرجون مع أهل الباطل في رد باطلهم كما عليه المتأخرون، بل يعاقبونهم إن قدروا وإلا أعرضوا عنهم.

وقال أحمد لمن أراد أن يرد عليهم: اتق اللَّه ولا تنصب نفسك لهذا، فإن جاءك مسترشدًا فأرشده.

وهو سبحانه لمّا قال اللعين: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قال: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[٣]، ولما قالت الملائكة ما قالت: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]، ثم بيّن لهم ما بيّن حتى أذعنوا.

ومنها: معرفة قدْر الإخلاص عند اللَّه، وحمايته لأهله؛ لقول اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٥] فعرف عدو اللَّه أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص.

ومنها: أن كشف العورة مستقر قبحه في الفِطَر والعقول لقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا

---

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أحمد (٣/ ٥٦)، والبخاري (١٢/ ٣٥٩-٣٦٠/ ٦٩٣٣)، ومسلم (٢/ ٧٤٤-٧٤٥/ ١٠٦٤[١٤٨])، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٥/ ١١٢٢٠).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: أحمد (٢/ ١٥٠-١٥١)، والبخاري (٨/ ٧٠/ ٤٣٣٩)، والنسائي (٨/ ٦٢٨-٦٢٩/ ٥٤٢٠).

(٣) ص: الآية (٧٧).

(٤) البقرة: الآية (٣٠).

(٥) الحجر: الآية (٤٠).

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[1] وقد سمّاه اللَّه فاحشة.

ومنها: أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغترّ بالفَجَرة، بل يكون على حذر منهم ولو قالوا ما قالوا، خصوصًا أولياء الشيطان الذين تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته، فإن اللعين حلف ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2].

ومنها: أن زخرف القول قد يخرج الباطل في صورة الحق كما في الحديث: «إن من البيان لسحرًا»[3]، فإن اللعين زخرف قوله بأنواع، منها: تسمية الشجرة شجرة الخلد، ومنها تأكيد قوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، وغير ذلك مما ذكر في القصة. فينبغي للمؤمن أن يكون من زخرف القول على حذر، ولا يقنع بظاهره حتى يعجم العود.

ومنها: أن في القصة شاهدًا لما ذكر في الحديث: «إن في العلم جهلًا»[4]؛ أي: من بعض العلم ما العلم به جهل، والجهل به هو العلم، فإن اللعين من أعلم الخلق بأنواع الحيل التي لا يعرفها آدم، مع أن اللَّه علمه الأسماء كلها، فكان ذلك العلم من إبليس هو الجهل، وفي الحديث: «إن الفاجر خبّ لئيم، وإن المؤمن غرّ كريم»[5]. وأبلغ من ذلك وأعم منه قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[6].

فقيل لهم ما قيل وعوتبوا، فكانت توبتهم أن قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[7]، فكان كمالهم ورجوعهم عن العتب وكمال علمهم أن أقروا على أنفسهم بالجهل إلا ما علمهم سبحانه.

ففي هذه القصة شاهد للقاعدة الكبرى في الشريعة المنبَّه عليها في مواضع منها

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠). (٢) الأعراف: الآية (٢١).

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: أحمد (٢/ ١٦)، والبخاري (٩/ ٢٥٢/ ٥١٤٦)، وأبو داود (٥/ ٢٧٥/ ٥٠٠٧)، والترمذي (٤/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٢٠٢٨).

(٤) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢٧٨/ ٥٢٠٠) من حديث بريدة بن الحصيب، وفي سنده سعيد بن محمد بن سعيد الجرمي، قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق رُمي بالتشيع»، وقال العراقي: «وفي إسناده من يُجهَل»، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود».

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٩٤)، وأبو داود (٥/ ١٤٤/ ٤٧٩٠)، والترمذي (٤/ ٣٠٣/ ١٩٦٤). والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (٩٣٥).

(٦) البقرة: الآية (٣٠).

(٧) البقرة: الآية (٣٢).

قوله ﷺ: «وسكتَ عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»[١].

ومنها: أنه لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بخوارق العادة إذا لم يكن مع صاحبها استقامة على أمر اللَّه، فإن اللعين أنظره اللَّه تعالى ولم يكن ذلك إلا إهانة له وشقاء له، وحكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير، فينبغي للمؤمن أن يميز بين الكرامات وغيرها، ويعلم أن الكرامة هي لزوم الاستقامة.

ومنها: أن الأمور التي يحرص عليها أهل الدنيا قد تكون عقوبة ومحنة، والجاهل يظنها نعمة مثل المال والجاه وطول العمر، فإن اللَّه أعطى اللعين من النظرة ما أعطاه.

ومنها: أن يعلم المؤمن أن الذنوب كثيرة ولا نجاة له منها إلا بمعونة اللَّه وعفوه، وأن كثيرًا منها قد لا يعلمه من نفسه، فإن أكثر الكبائر القلبية مثل الرياء والكبر والحسد، وترك التوكل والإخلاص وغير ذلك قد يتلطخ بها الرجل وهو لا يشعر، ولعله يتورع عن بعض الصغائر الظاهرة، وهو في غفلة عن هذه العظائم.

ومنها: أن يعرف قدْر معصية الحسد، وكيف آل باللعين حسده إلى أن فعل به ما فعل.

ومنها، وهو من أحسنها: أن يعرف صحة ما ذكر عن بعض السلف أن من لم يجاهد في سبيل اللَّه ابتُلي بالجهاد في سبيل الشيطان، ومن بخل بإنفاقه المالَ في طاعة اللَّه ابتُلي بإنفاقه في المعاصي وفيما لا ينفعه، ومن لم يمشِ في طاعة اللَّه خطوات، مشى في طاعة الشيطان أميالًا، وأشباه ذلك، والدليل من القصة أبلغ من هذا بكثير، فإن اللعين أبى أن يسجد لزعمه أن ذلك نقص في حقه، ثم صار بعد ذلك يكدح جهده في القيادة والدياثة وأنواع الرذائل.

ومنها: أن في القصة معنى قوله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه»** إلى آخره[٢].

---

(١) أخرجه من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: الدارقطني (٤/ ١٨٣-١٨٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١-٢٢٢/ ٥٨٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢)، وصححه الحاكم (٤/ ١٢٩/ ٧١١٤)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وحسنه النووي في الأربعين، وذكر له ابن رجب في شرحه على الأربعين علتين.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

ومن ذلك: قوله حكاية عن إبليس: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[1] فإنهم ذكروا في معناه أي: آمرهم بتغيير خلق اللَّه، وهي فطرته التي فطر عباده عليها، وهي الإسلام لله وحده لا شريك له.

ومنها: أن فيها معنى القاعدة الكبرى في الشريعة المذكورة في مواضع، منها: قول النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2]، وهي من قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فإنهم ذكروا أن معناه قطع آذان البحيرة تقربًا إلى اللَّه على عادات الجاهلية.

ومنها: أنها تفيد المعنى العظيم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[3]، وما في معناه من النصوص، وذلك مستفاد من صنع اللعين، فإنه مع علمه بجبروت اللَّه وأليم عذابه، وأنه لا محيص له عنه، ويعرف من الأمور ما لا يعرفه كثير من أهل العلم، ومع ذلك لم يتب ولم يرجع، بل أصر وعاند، وطلب النظرة لأجل المعصية مع علمه بعقابه وعدم مصلحته من فعله، وهذا باب عظيم من معرفة الرب وقدرته، وتقليبه القلوب كيف شاء، وتيسيره كلَّ عبد لما خُلق له فيفعله باختياره.

ومنها: أن اللَّه سبحانه قد يعاقب العبد إذا غضب عليه بعقوبات باطنة في دينه وقلبه لا يعرفها الناس، مع إمداده إياه في الدنيا كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾[4] كما فعل إبليس.

ومنها: أن فيها شهادة لِما ذكر عن بعض السلف أن من عقوبة السيئة سيئة بعدها.

ومنها: أنها تفيد القاعدة المعروفة أن الجزاء من جنس العمل، وذلك أنه قصد الترفع فقيل له: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[5] فقصد العز فأذله اللَّه بأنواع من الذل.

---

(١) النساء: الآية (١١٩).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٧٣)، والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨)، وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦)، وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤).

(٣) الأنفال: الآية (٢٤).

(٤) التوبة: الآية (٧٧).

(٥) الأعراف: الآية (١٣).

ومنها: الشهادة لصحة الكلام المذكور عن بعض السلف في قوله: واللَّه إن معالجة التقي التقوى أهون من معالجة غير التقي الناسَ، وقول من قال: مصانعة وجه واحد أهون من مصانعة ألف وجه، وبيان ذلك أن اللعين لمّا تخيل أن عليه من أمر اللَّه شيئًا من النقص، فلو قدم طاعة اللَّه وآثرها على هواه وسجد لآدم، فلو قدر أن ما تخيله صحيح وأن ذلك غضاضة عليه، لكان في جنب ما أتاه من الشر والهوان والصغار جزءًا يسيرًا، فاللَّه المستعان، فكيف ولو فعل ذلك لكان فيه شرفه وسعادته، كما هو عادة اللَّه في خلقه أنّ من تواضع لله رفعه.

ومنها: أن الفاجر قد يعطيه اللَّه سبحانه كثيرًا من القوى والإدراكات في العلوم والأعمال حتى في صحة الفراسة، كما ذكر عن اللعين حين تفرّس فيهم أنه يغويهم إلا المخلصين، فصدّق اللَّه فراسته في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فإن قيل في الحديث: «**اتّقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**»[2]، فلا يناقض ما ذكرناه، بل يدل على أن المؤمن أتم في هذه الخصلة من غيره وأصدق، كما كان في العلم والإيمان والأعمال والحِلم والصبر وغير ذلك، ولو كان للفجّار شيء من ذلك.

ومنها: الشهادة للقاعدة المعروفة في الشريعة أن كل عمل لا يُقصد به وجه اللَّه فهو باطل؛ لاستثنائه المخلَصين.

ومنها: الشهادة للقاعدة الثانية وهي: أن كل عمل على غير اتباع الرسول غير مقبول، لقوله في القصة: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[3]، فقسّم الناس

---

(١) سبأ: الآية (٢٠).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٢٧٨/ ٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: «غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه»، والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٢/ ٧٤٩٧) من حديث أبي أمامة. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨) وقال: «إسناده حسن». قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤/ ٣٠٠/ ١٨٢١) -بعد نقله لكلام الحافظ في «التقريب» في أبي صالح راوي هذا الحديث: «صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابته، وكانت فيه غفلة»- قال الألباني: «ومنه يتبين أن قول الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨): (رواه الطبراني وإسناده حسن)، فهو غير حسن. ومثله قول السيوطي في اللآلئ (٢/ ٣٣٠): (فإنه بمفرده على شرط الحسن، وعبدالله بن صالح لا بأس به)، إذ كيف يكون ابن صالح لا بأس به، وحديثه حسناً، مع كثرة غلطه، وبالغ غفلته، حتى أدخلت الأحاديث المفتعلة في كتبه، فيحدث بها وهو لا يدري». وقال: «وجملة القول أن الحديث ضعيف، لا حسن، ولا موضوع، وإليه مال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»، والله أعلم» (المصدر السابق ٤/ ٣٠٢).

(٣) البقرة: الآية (٣٨).

إلى قسمين: إلى أهل الجنة، وهم الذين اتبعوا الهدى المنزَّل من اللَّه، وأهل الشقاق والضلال، وهم من أعرض عنه، فانتظمت هذه القصة لهاتين الآيتين العظيمتين اللتين هما أكبر قواعد الشريعة على الإطلاق، القاعدة الأولى: فيها حديث عمر: **«إنما الأعمال بالنيات»**[١]، والقاعدة الثانية: حديث عائشة: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»**[٢]»[٣].

* * *

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٨٩-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1]، يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع اللَّه فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلاً بعمله»[2].

فائدة في بيان مغزى القصة والعبرة فيها:

قال محمد رشيد رضا: «قد بيّنّا من قبل أن اللَّه قصّ علينا خبر نشأتنا الأولى، بما يبيّن لنا سنته تعالى في فطرتنا، وما يجب علينا من شكره وطاعته في تزكيتها وتهذيب غرائزها، وملخص هذه الآيات فيها مع ما يفسرها ويوضحها من السور الأخرى أن اللَّه تعالى خلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض، وجعله مستعدًّا لعلم كل شيء فيها، ولتسخير جميع ما فيها من القوة والمادة لمنافعه؛ ليكون في ذلك مظهرًا لأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وتعلقها بتدبير خلقه ومعاملتهم في الآخرة والأولى، وأنه كان في نشأته الأولى في جنة من النعيم وراحة البال، وأنه لاستعداده للأمور المتضادة، التي يكون بها مظهرًا للصفات المتقابلة، كالضار والنافع، والمنتقم والغافر، كانت نفسه مستعدة للتأثر بالأرواح المَلَكية التي تجذبها إلى الحق والخير، وبالأرواح الشيطانية التي تجذبها إلى الباطل والشر، وأن عاقبة التأثر الأول سعادة الدارين بما تقبله طبيعة كل منهما، وعاقبة الثاني شقاء الدارين بقدر ما يوجد من أسباب الشقاء فيهما، ويحتاج البشر في ذلك إلى هداية الوحي الإلهي الهادية إلى اتقاء الأول والتعرض للآخر، وهو ما بينه تعالى في سورة (طه)

---

(١) طه: الآية (٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٥).

بقوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1]، ونحوه ما تقدم في سورة (البقرة)، فهذا أثر الدين في الحفظ من شقاء الدنيا وهلاك الآخرة، وكتاب الله حجة على من لا يصدق عليهم ذلك في حالهم، ومن يفسرونه بما يخالف ذلك بأقوالهم. . .

هذا ملخص مضمون القصة أو ملخص بقيتها، وأما ملخص ما فيها من العبرة فهو أنه ينبغي لنا أن نعرف أنفسنا بغرائزها واستعدادها للكمال، وما يعرض لها دونه من الموانع، فيصرفها عنه إلى النقائص، وأن أنفع ما يعيننا على تربيتها أن نتذكر عهد الله إلينا بأن نعبده وحده، وأن لا نعبد معه الشيطان ولا غيره، وأن نذكره ولا ننساه فننسى أنفسنا، ونغفل عن تزكيتها، وصقلها بصقال التوبة كلما عرض لها من وسواس الشيطان ما يلوثها؛ فإنه إن يترك صار صدأً وطبعًا مفسدًا لها، وما أفسد أنفس البشر ودسّاها إلا غفلة عقولهم وبصائرهم عنها، وتركها كالريشة في مهابّ أهواء الشهوات، ووساوس شياطين الضلالات، فعلى العاقل أن يعرف قيمتها، ويحرص عليها أشد من حرصه على ما عساه يملك من نفائس الجواهر، وأعلاق الذخائر، فإن حرصه على مثل هذا إنما يكون لأجلها، وهو يبذله عند الضرورة في أحقر ما لا بد لها منه. وذلك بأن يطلب لها أقصى ما تسمو إليه همته من الكمال، ويحاسبها كل يوم مرة أو أكثر على ما بذلت من السعي لذلك، وعلى مكافحة ما يصدها عنه من الأهواء والوساوس، وينصب الميزان القسط لما يشتبه عليها من الآراء والخواطر، ليعرف كنه الحق والخير فيلتزمهما، وأضدادهما من الشر والباطل فيجتنبهما، وليتدبر ما قفى به الكتاب العزيز على القصة من الوصايا في الآيات الآتية»[2].

* * *

(١) طه: الآيات (١٢٣-١٢٦).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٥٢-٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾

★ غريب الآية:

لباسًا: اللباس: كل ما يصلح للبس من ثوب أو غيره. ولبِس الثوب: استتر به. واللباس واللَّبوس واللِّبس: ما يلبس.

ريشًا: وقرئ: (رِيَاشًا): وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهية العيش ووجود الملبس والتمتع. وفسره قوم بالأثاث. وفسره ابن عباس بالمال. وقال ابن زيد: الريش: الجمال. والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش: ما ستر من لباس أو معيشة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرون للطواف اتباعًا منهم أمر الشيطان، وتركًا منهم طاعة اللَّه، فعرفهم انخداعهم بغروره لهم حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر اللَّه الذي أنعم به عليهم حتى أبدى سوآتهم، وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تفضل اللَّه عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلاّهما بغرور حتى سلبهما ستر اللَّه الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوآتهما فعراهما منه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾، يعني بإنزاله عليهم ذلك: خلقه لهم ورزقه إياهم، واللباس: ما يلبسون من الثياب، ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، وكنى بالسوآت عن العورات، واحدتها: سَوْأة، وهي (فَعْلة) من السوء؛ وإنما سميت سوأة لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده»[1].

وقال: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ : اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: لباس التقوى: هو الإيمان... وقال

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٦).

آخرون: هو الحياء... وقال آخرون: هو العمل الصالح... وقال آخرون: بل ذلك هو السمت الحسن... وقال آخرون: هو خشية اللَّه... وقال آخرون: (لباس التقوى) في هذه المواضع: ستر العورة...

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ استشعار النفوس تقوى اللَّه في الانتهاء عما نهى اللَّه عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان والعمل الصالح والحياء وخشية اللَّه والسمت الحسن؛ لأن من اتقى اللَّه كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يرى عند ما يكرهه من عباده مستحييًا، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورئيت عليه بهجة الإيمان ونوره.

وإنما قلنا: عنى بـ(لباس التقوى) استشعار النفس والقلب ذلك؛ لأن اللباس إنما هو ادّراع ما يلبس، واحتباء ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به، فكل من ادّرع شيئًا أو احتبى به حتى يرى هو، أو أثره عليه، فهو له لابس، ولذلك جعل -جل ثناؤه- الرجال للنساء لباسًا وهن لهم لباسًا، وجعل الليل لعباده لباسًا»[1].

وقال: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

يقول -تعالى ذكره-: ذلك الذي ذكرت لكم أني أنزلته إليكم أيها الناس من اللباس والرياش من حجج اللَّه وأدلته التي يعلم بها من كفر صحة توحيد اللَّه، وخطأ ما هم عليه مقيمون من الضلالة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: يقول -جل ثناؤه-: جعلت ذلك لهم دليلًا على ما وصفت ليذّكّروا، فيعتبروا وينيبوا إلى الحق، وترك الباطل رحمة مني بعبادي»[2].

وقال ابن كثير: «فاللباس المذكور ههنا لستر العورات -وهي السوآت- والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «خاطب اللَّه تعالى بني آدم في هذه الآية وأمثالها بالنداء

---

(١) المصدر السابق (٨/ ١٤٨-١٥١).

(٢) المصدر السابق (٨/ ١٥١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٥).

الذي يخاطب به البعيد لما كان عليه عربهم وعجمهم عند نزول هذه السورة في مكة من البعد عن الفطرة السليمة، والشرعة القويمة؛ تنبيهًا للأذهان، بما يقرع الآذان، فامتن عليهم -بعد أن أنبأهم بما كان من عري سلفهم الأول- بما أنعم به عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه من الأدنى الذي يستر السوأة عن أعين الناس إلى أنواع الحلل التي تشبه ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد بستر جميع البدن، وما في ذلك من أنواع الزينة والجمال اللائقة بجميع ذكران البشر وإناثهم، على اختلاف أسنانهم وأحوالهم، فهو يقول: يا بني آدم! إنا بما لنا من القدرة والنعمة والرحمة قد أنزلنا عليكم من علو سمائنا، بتدبيرنا لأموركم من فوق عرشنا، لباسًا يواري سوآتكم، وهو أدنى اللباس وأقله الذي يعد فاقده ذليلًا مهينًا، وريشًا تتزينون به في مساجدكم ومجالسكم ومجامعكم، وهو أعلاه وأكمله، وبينهما لباس الحاجة، وهو ما يقي الحر والبرد. والامتنان به يؤخذ من الامتنان بما فوقه بطريق المفهوم من الأسلوب، أو هو داخل فيه بطريق المنطوق على ما اخترنا آنفًا.

والمراد بإنزال ما ذكر أن اللَّه تعالى خلق لبني آدم مادته من القطن والصوف والوبر وريش الطير والحرير وغيرها، وعلمهم بما خلق لهم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس منها، كالزراعة والغزل والنسج والخياطة.

وإن مننه تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف مننه على المتقدمين من شعوب بني آدم، فيجب أن يكون شكرهم له أعظم، فقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أن عاهل ألمانية الأخير -قيصرها- دخل مرة أحد معامل الثياب ليشاهد ما وصلت إليه من الإتقان، فجزّوا أمامه عند دخوله صوف بعض أكباش الغنم، ولما انتهى من التجوال في المعمل ومشاهدة أنواع العمل فيه، وأراد الخروج، قدموا له معطفًا ليلبسه تذكارًا لهذه الزيارة، وأخبروه أنه صنع من الصوف الذي جزوه أمامه عند دخوله، فهم قد نظفوه في الآلات المنظفة، فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصلوه، فخاطوه في تلك الفترة القصيرة، فانتقل في ساعة أو ساعتين من ظهر الخروف إلى ظهر الإمبراطور!

وامتنانه تعالى على بني آدم بلباس الزينة يدل على استحبابها، ولا يعارضه قوله تعالى في أوائل سورة (الكهف): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا﴾[1] وإن فسر الحسن البصري إحسان العمل بترك الدنيا، وسفيان الثوري بالزهد فيها؛ ذلك بأن دين الإسلام هو دين الفطرة، فليس فيه ما يخالف مقتضاها ويناقض غرائزها؛ بل هو مهذب ومكمل لها. وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن اللَّه في الخليقة وأنواع نعمه على عباده؛ كما سنفصله في تفسير ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[2] في هذا السياق، وتحقيق معنى كونها ابتلاء: أن اللَّه تعالى يختبر بها طالبها ما يقصد منها؟ وواجدها أيشكر المنعم عليه بها إذا استعملها، ويقف عند الحد المشروع فيها؟ وماذا يقصد وينوي بترك ما يتركه منها؟ وفاقدها أيصبر على فقدها أم يكون ساخطًا على ربه وحاسدًا لأهلها؟»[3].

وقال ابن عاشور: «وفي الآية إشارة إلى وجوب ستر العورة المغلظة، وهي السوأة، وأما ستر ما عداها من الرجل والمرأة فلا تدل الآية عليه، وقد ثبت بعضه بالسنة، وبعضه بالقياس. والخوض في تفاصيلها وعللها من مسائل الفقه»[4].

وقال الزمخشري: «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوآت، وخصف الورق عليها إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[5].

* * *

(١) الكهف: الآية (٧).
(٢) الأعراف: الآية (٣٢).
(٣) تفسير المنار (٨/ ٣٥٨-٣٦٠).
(٤) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٧٤).
(٥) الكشاف (٢/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

لا يفتننكم: الفتنة: الابتلاء والامتحان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان، فيبدي سوءاتكم للناس، بطاعتكم إياه عند اختباره لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء، عند اختباره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخدعه من الجنة ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهما، وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة...

وقد اختلف أهل التأويل في صفة اللباس الذي أخبر اللَّه -جل ثناؤه- أنه نزعه عن أبوينا وما كان، فقال بعضهم: كان ذلك أظفارًا... وقال آخرون: كان لباسهما نورًا... وقال آخرون: إنما عنى اللَّه بقوله: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ يسلبهما تقوى اللَّه... والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه تعالى حذر عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء، وأن يجردهم من لباس اللَّه الذي أنزله إليهم، كما نزع عن أبويهم لباسهما، واللباس المطلق من الكلام بغير إضافة إلى شيء في متعارف الناس، هو ما اختاره اللابس من أنواع الكساء، أو غطى بدنه أو بعضه. وإذ كان ذلك كذلك، فالحق أن يقال: إن الذي أخبر اللَّه عن آدم وحواء من لباسهما الذي نزعه عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يواريان به أبدانهما وعورتهما، وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفرًا، ويجوز أن يكون ذلك كان

(١) الأعراف: الآية (٢٧).

نورًا، ويجوز أن يكون غير ذلك، ولا خبر عندنا بأي ذلك تثبت به الحجة، فلا قول في ذلك أصوب من أن يقال: كما قال -جل ثناؤه-: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، وأضاف -جل ثناؤه- إلى إبليس إخراج آدم وحواء من الجنة، ونزع ما كان عليهما من اللباس عنهما، وإن كان اللَّه -جل ثناؤه- هو الفاعل ذلك بهما عقوبة على معصيتهما إياه، إذ كان الذي كان منهما في ذلك عن تشبيه ذلك لهما بمكره وخداعه، فأضيف إليه أحيانًا بذلك المعنى، وإلى اللَّه أحيانًا بفعله ذلك بهما»[1].

وقال الشنقيطي: «حذر تعالى في هذه الآية الكريمة بني آدم أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم، وصرح في موضع آخر أنه حذر آدم من مكر إبليس قبل أن يقع فيما وقع فيه، ولم ينجه ذلك التحذير من عدوه، وهو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[2]»[3].

وقال السيوطي: «قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية. استدل به أيضًا على وجوب ستر العورة، واستدل بالآيتين من قال: إن العورة هي السوءتان خاصة»[4].

وقال محمد رشيد رضا: «وتكرار النداء في مقام الوعظ والتذكير، من أقوى أساليب التنبيه والتأثير، يعرف ذلك الإنسان من نفسه، ويشعر به في قلبه، ونظيره في التنزيل قصة الجن من سورة (الأحقاف)، إذ جاء فيها الوعظ والإنذار، بتكرار النداء: يا قومنا... يا قومنا... ووعظ مؤمن آل فرعون في سورة (غافر) يا قوم... يا قوم... والذي يفهم من أساليب العربية في نسبة الإنسان إلى أحد أجداده، أنه خاص بالجد الذي صار رئيس القبيلة، أو العشيرة الكبيرة، التي انحصر نسبها فيه كقريش،... أو الذي له صفة ممتازة يقتضي المقام تذكير من ينسب إليه بها لمشاركته له فيها، أو للتعريض بتجرده منها مثلًا،... وتسمية الناس أبناء آدم من النوع الأول، وفي كل منهما تدل القرينة أن المنسوب إليه أحد الأجداد، وليس هو الأب»[5].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٥١-١٥٣).
(٢) طه: الآية (١١٧).
(٣) أضواء البيان (٢/ ١٢).
(٤) الإكليل (ص: ١٢٧).
(٥) تفسير المنار (٨/ ٣٦١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة عن الصحابة في بيان ميراث الجد مع الأب والإخوة

* قال ابن عباس وأبو بكر وابن الزبير: «**الجدُّ أبٌ**»[(١)].

★ **فوائد الأثر:**

احتج ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية لإثبات أن الجد يرث ما كان يرث الأب عند عدم هذا الأخير.

قال ابن عبد البر: «وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري وعائشة وابن الزبير وبه قال شريح والحسن وعبد اللَّه بن عقبة وجابر بن زيد وفقهاء البصرة عثمان البتي وغيره، وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور والمزني وإسحق بن راهويه والطبري وداود ونعيم بن حماد، واختلف في الجد عن عمر اختلافًا كثيرًا، وروي عنه أنه قال: «احفظوا عني ثلاثًا: لم أقل في الجد شيئًا، ولم أقل في الكلالة شيئًا، ولم أستخلف أحدًا»، وروي عن زيد بن ثابت أنه قال: «أدركت الخليفتين -يعني عمر وعثمان- يقولان في الجد بقولي» وهذا أصح عنه، وأهل المدينة يروون عن عمر أنه كان يقول في الجد بقول زيد بن ثابت إلا في (الأكدرية)، وروى أهل العراق عنه أنه كان يقاسم الجد بالإخوة إلى السدس، ثم يقاسم بينهم إلى الثلث، وروي عن عثمان أنه جعل الجد أبًا، وروي عنه أنه قال فيه بقول زيد إلا في الخرقاء، وأما علي بن أبي طالب وعبد اللَّه ابن مسعود وزيد بن ثابت، فإنهم يقاسمون الجد بالإخوة، وإن كانوا قد اختلفوا في كيفية مقاسمة الجد الإخوة، فإنهم مجمعون على أن الجد ليس بأب، ولا يحجب به الإخوة... وقال كقول زيد في الجد مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وأبو يوسف ومحمد بن الحسن»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً (١٢/ ١٨) عن أبي بكر وابن الزبير وابن عباس. فأما قول أبي بكر، فقد أسنده البخاري (١٢/ ٢٠/ ٦٧٣٨) من حديث ابن عباس، وأما قول ابن الزبير فأسنده البخاري أيضاً (٧/ ٢١/ ٣٦٥٨) من طريق عبداللَّه بن أبي مليكة عنه، وأما قول ابن عباس فوصله عبدالرزاق (١٠/ ٢٦٤/ ١٩٠٥٥)، والدارمي (٤/ ١٩٢٠/ ٢٩٦٨)، وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٢١).

(٢) التمهيد (١٢/ ٥٩١-٥٩٢) (فتح البر).

قال الحافظ ابن حجر: «وقد أخذ بقوله -أي: بقول زيد- جمهور العلماء وتمسكوا بحديث: «أفرضكم زيد»[1]، وهو حديث حسن، أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم من رواية أبي قلابة عن أنس، وأعله بالإرسال ورجحه الدارقطني والخطيب وغيرهما، وله متابعات وشواهد ذكرتها في تخريج أحاديث الرافعي»[2].

وقال السهيلي: «لم ير زيد بن ثابت لاحتجاج ابن عباس بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ونحوها مما ذكر عنه حجة؛ لأن ذلك ذكر في مقام النسبة والتعريف فعبر بالبنوة، ولو عبر بالولادة لكان فيه متعلق، ولكن بين التعبير بالولد والابن فرق، ولذلك قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾[3]، ولم يقل: في أبنائكم، ولفظ (الولد) يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع؛ بخلاف الابن، وأيضًا فلفظ (الولد) يليق بالميراث بخلاف (الابن)، تقول: ابن فلان من الرضاعة، ولا تقول: ولده، وكذا كان من يتبنى ولد غيره قال له: ابني، وتبنّاه، ولا يقول: ولدي، ولا ولده، ومن ثم قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾[4]؛ إذ لو قال: وحلائل أولادكم، لم يحتج إلى أن يقول: ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾؛ لأن الولد لا يكون إلا من صلب أو بطن»[5].

* * *

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ١٨٤)، والترمذي (٥/ ٦٢٣/ ٣٧٩١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٥٥/ ١٥٤)، وصححه ابن حبان (١٦/ ٧٤/ ٧١٣١).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٢٢).

(٣) النساء: الآية (١١).

(٤) النساء: الآية (٢٣).

(٥) فتح الباري (١٢/ ٢٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

قَبِيلُهُ: أي: جماعته وجندُه. والقبيل: الجماعة من قبائل شتى، فإذا كانوا من أب واحد وأم واحدة فهم قبيلة. وقد سوّى ابن عرفة بينهما فقال: يقال: قبيلة وقبيل. قال ابن زيد: قبيله: نسله، وقيل: جيله. وقال مجاهد: الجن والشياطين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بذلك: إن الشيطان يراكم هو، والهاء في ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدة على الشيطان. وقبيله: يعني: وصنفه وجنسه الذي هو منه واحد، جمعه: قُبُل، وهم الجن...

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يقول: من حيث لا ترون أنتم أيها الناس الشيطان وقبيله، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: جعلنا الشياطين نصراء الكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله»[٢].

قال صديق حسن خان: «قد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة. وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبدًا؛ فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقًا.

قال مالك بن دينار: إن عدوًا يراكم ولا ترونه، كأن في الكلام حذفًا تقديره: جدير بأن يحذر ويتقى، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض»[٣].

---

(١) الأعراف: الآية (٢٧).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٥٣).
(٣) فتح البيان ٤/ ٣٢٦).

وقال القرطبي: «وفي الخبر: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[٢]. وقال ﷺ: «إن للملَك لمة وللشيطان لمّة -أي: بالقلب- فأما لمة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق»[٣]. وقد تقدم في (البقرة). وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة. وقد خرّج البخاري عن أبي هريرة قال: «وَكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة طويلة، ذكر فيها أنه أخذ الجنّيّ الذي كان يأخذ التمر، وأن النبي ﷺ قال له: «ما فعل أسيرك البارحة؟»[٤]. وقد تقدم في (البقرة). وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «والله لولا دعوة أخي سليمان، لأصبح موثقًا يلعب به وِلدان أهل المدينة»[٥] في العفريت الذي تفلّت عليه. وسيأتي في تفسير سورة (ص) إن شاء الله تعالى»[٦].

* * *

---

(١) أخرجه من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها: أحمد (٦/ ٣٧٧)، والبخاري (٤/ ٣٥٤/ ٢٠٣٨)، ومسلم (٤/ ١٧١٢/ ٢١٧٥)، وأبو داود (٢/ ٨٣٤-٨٣٥/ ٢٧٧٠)، وابن ماجه (١/ ٥٦٥-٥٦٦/ ١٧٧٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٦٣/ ٣٣٥٧).

(٢) الناس: الآية (٥).

(٣) أخرجه: عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٠٩)، وابن جرير (٣/ ٨٨) موقوفاً بسند صحيح، وهو عند النسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٥/ ١١٠٥١)، والترمذي (٥/ ٢٠٤/ ٢٩٨٨) مرفوعاً، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٧٨-٢٧٩/ ٩٩٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص، وفيه عطاء بن السائب، اختلط، والراوي عنه أبو الأحوص روى عنه بعد الاختلاط».

(٤) أورده البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم (٤/ ٦١٢/ ٢٣١١)، ووصله النسائي في الكبرى (٥/ ١٣/ ٨٠١٧).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٧٥)، والبخاري (٦/ ٥٦٦/ ٣٤٢٣)، ومسلم (٣/ ١٢٧٥/ ١٦٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣/ ١١٤٤٠).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٨٦-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

فاحشة: الفحشاء: ما تزايد فحشه واشتد نكره، والفاحشة كذلك. وقال الراغب: الفُحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير -بعد روايته عن مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والسدي وابن عباس أن معنى الفاحشة في هذا الموضع: طواف العرب بالبيت عراة- قال: «فتأويل الكلام إذن: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحًا من الفعل وهو الفاحشة، وذلك تعرّيهم للطواف بالبيت، وتجرّدهم له، فعُذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعُوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم ونستنّ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه، يقول الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد- لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، يقول: لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساويها، ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الناس ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يقول: أتروون على الله أنه أمركم بالتعرّي والتجرّد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك»[1].

قال صديق حسن خان: «وفي هذه الآية الشريفة أعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق؛ فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق؛ فإنهم القائلون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2]، والقائلون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٥٤).
(٢) الزخرف: الآية (٢٣).

والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب مع اعتقاده بأنه الذي أمر اللَّه به وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعة، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر اللَّه به، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين اللَّه كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت، والقصور الخالص.

فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية! أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث اللَّه إلى هذه الأمة إلا نبيًا واحدًا أمرهم باتباعه ونهاهم عن مخالفته فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]، ولو كان محض رأي أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأي المكلفون للناس بما لم يكلفهم اللَّه به.

وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلد لآراء الرجال مع وجود كتاب اللَّه ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم»[2].

* * *

(١) الحشر: الآية (٧).

(٢) فتح البيان (٤/ ٣٢٧-٣٢٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(١)

★ **غريب الآية:**

القسط: العدل.

مخلصين: أصل الإخلاص: الصفاء من كل شائب. وإخلاص الدين لله هو توجيه العبادة إليه دون غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: ﴿قُلْ﴾ -يا محمد- لهؤلاء الذين يزعمون أن اللَّه أمرهم بالفحشاء كذبًا على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل. . .

وأما قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه: وجّهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة. . .

وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصًا دون ما سواه من الآلهة والأنداد. . .

وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية: ما قاله الربيع، وهو أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم، لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصًا لا مكاءً ولا تصدية. وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية؛ لأن اللَّه إنما خاطب بهذه الآيات قومًا من مشركي العرب، لم يكونوا أهل كنائس وبيع، وإنما كانت الكنائس والبيع لأهل الكتابين، فغير معقول أن يقال لمن لا يصلي في

---

(١) الأعراف: الآية (٢٩).

كنيسة أو بيعة: وجه وجهك إلى الكعبة في كنيسة أو بيعة.

وأما قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فإنه يقول: واعملوا لربكم مخلصين له الدين والطاعة، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيء مما تعملون له شريكًا»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: بأن لا تشوبه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره في الدعاء، ولا في غيره من دينكم، كالتوجه إلى الأنبياء والصالحين، أو ما يُذَكِّرُ بهم كقبورهم، فذلك شرك ينافي خلوصه له، قل أو كثر، سمي شركًا أو سمي توسلًا وتبركًا»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ١٥٥-١٥٦).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٥٩).

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بدأكم: أي: بدأ خلقَكم. والبدء والابتداء: تقديم الشيء على غيره نوعًا من التقديم.

فريقًا: الفريق: الجماعة المنفردة؛ قال الراغب: الفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين.

يحسبون: يظنون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: «جمع في هذه الآية الإيمان باللَّه والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالشرع والإيمان بالقدر، وذكر فيها تفصيل الشرع الذي أمر به، وذكر حال من عكس الأمر فجعل المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، ثم ختم الآية بهذه المسألة العظيمة، وهي: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فلا أجهل ممن هرب عن طاعة اللَّه واختار طاعة الشيطان، ومع هذا يحسب أنه مهتد مع هذا الضلال الذي لا ضلال فوقه، واللَّه أعلم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان المعنى المراد بالآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا، ثم**

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٤).

قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1]، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم. وإن أناسًا من أصحابي أخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، أصحابي. فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ -إلى قوله:- ﴿الْحَكِيمُ﴾[2]»[3].

★ غريب الحديث:

محشورون: أي: مجموعون في موضع الحشر.

حُفاة: جمع حافٍ، والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم، ولا يفقد منهم شيء حتى الغُرلة تكون معهم.

غُرْلًا: الغرل، بضم الغين المعجمة وإسكان الراء، معناه: غير مختونين، جمع أغرل، وهو الذي لم يختن وبقيت معه غرلته، وهي قلفته، وهي الجلدة التي تقطع في الختان.

★ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث أبو جعفر الطبري في تفسيره لصحة ما اختاره من القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من أن المراد به كما بدأكم اللَّه خلقًا بعد أن لم تكونوا شيئًا تعودون بعد فنائكم خلقًا مثله، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد والحسن ورواية عن ابن عباس.

قال أبو جعفر بعد حكايته اختلاف أهل التأويل في المعنى المراد بهذه الآية: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب: القول الذي قاله من قال معناه: كما بدأكم اللَّه خلقًا بعد أن لم تكونوا شيئًا تعودون بعد فنائكم خلقًا مثله، يحشركم إلى يوم القيامة؛ لأن اللَّه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعلِم بما في هذه الآية قومًا مشركين أهل جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد، ولا يصدقون بالقيامة، فأمره أن يدعوَهم إلى الإقرار

---

(١) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٢) المائدة: الآيتان (١١٧و١١٨).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٥، ٢٥٣)، والبخاري (٦/ ٤٧٦/ ٣٣٤٩)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥/ ٢٨٦٠)، والترمذي (٤/ ٥٣٢/ ٢٤٢٣)، والنسائي (٤/ ٤٢٣/ ٢٠٨٦).

بأن اللَّه باعثهم يوم القيامة، ومثيب من أطاعه، ومعاقب من عصاه، فقال له: قل لهم: أمر ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وأن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقروا بأنْ كما بدأكم تعودون، فترَكَ ذِكر: (وأنْ أقرُّوا بأن)، كما ترك ذكر: (أنْ) مع (أقيموا)، إذ كان فيما ذُكر دلالة على ما حذف منه. وإذا كان ذلك كذلك، فلا وجه لأنْ يؤمر بدعاء من كان جاحدًا النشور بعد الممات، إلى الإقرار بالصفة التي ينشر عليها من نشر، وإنما يؤمر بالدعاء إلى ذلك من كان بالبعث مصدقًا، فأما من كان له جاحدًا فإنما يدعى إلى الإقرار به، ثم يعرف كيف شرائط البعث، على أن في الخبر الذي روي عن رسول اللَّه ﷺ . . ما يبين صحة القول الذي قلنا في ذلك، من أن معناه: أن الخلق يعودون إلى اللَّه يوم القيامة خلقًا أحياءً، كما بدأهم في الدنيا خلقًا أحياءً. .»[1].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جدًّا، كقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[3]، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللَّه وهو الصادق المصدوق قال: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اللَّه ملكا يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وشقي، أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه يعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»**[7].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٥٨).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٣) الروم: الآية (٢٧).
(٤) يس: الآية (٧٩).
(٥) الحج: الآية (٥).
(٦) أضواء البيان (٢/ ١٣).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢و٤٣٠)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

★ **غريب الحديث:**

يجمع: المراد بالجمع ضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار.

علقة: قطعة دم جامد غليظ، سمي بذلك للرطوبة التي فيه وتعلقه بما مرّ به.

مضغة: قطعة اللحم، سميت بذلك لأنها قدر ما يمضغ الماضغ.

❁ عن جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[1].

★ **فوائد الحديثين:**

احتج بهذين الحديثين وما في معناهما من ذهب إلى القول بأن المراد بالآية «أنه كما خلقكم أشقياء وسعداء ومؤمنين وكافرين، تعودون كذلك» وهو قول ابن عباس وجابر وأبي العالية ومحمد بن كعب ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي، وهو الذي اختاره الإمام أبو المظفر السمعاني في تفسيره، وصححه وقال: «وعليه دل قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: فريقًا هداهم الله، وفريقًا أضلهم الله تعالى فوجبت عليهم الضلالة»[2].

وقال الشنقيطي: «ومن الآيات الدالة عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[4]؛ أي: ولذلك الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم»[5].

وقال ابن كثير: «ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[6]، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه**»[7] وفي صحيح مسلم عن عياض بن

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣١)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٦/ ٢٨٧٨)، ورواه ابن ماجه (٢/ ١٤١٤/ ٤٢٣٠) بلفظ: «يحشر الناس على نياتهم».

(٢) تفسير القرآن (٢/ ١٧٦-١٧٧).

(٣) التغابن: الآية (٢).

(٤) هود: الآية (١١٩).

(٥) أضواء البيان (٢/ ١٣).

(٦) الروم: الآية (٣٠).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨).

حمار قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقول اللَّه تعالى: **إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[١]، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٢]، وفي الحديث: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها**»[٣]، وقدر اللَّه نافذ في بريته؛ فإنه هو ﴿ٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٤] و﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٥]، وفي الصحيحين: «**فأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**»[٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾»[٧].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة إنما ضلوا عن سبيل اللَّه وجاروا عن قصد المحجة باتخاذهم الشياطين نصراء من دون اللَّه وظهراء؛ جهلًا منهم بخطإ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا، وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن اللَّه لا يعذب أحدًا على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل، وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

(٢) التغابن: الآية (٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢-٣٤٣و٣٤٤-٣٤٥)، ومسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣)، والترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٤) الأعلى: الآية (٣).

(٥) طه: الآية (٥٠).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٩)، والبخاري (٣/ ٢٨٩/ ١٣٦٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤)، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) من حديث علي ﷺ.

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٤-٤٠٥).

فرق، وقد فرق اللَّه بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية»[1].

وقال صديق حسن خان: «والآية حجة على أهل الاعتزال في كون الهداية والإضلال إلى اللَّه ذي الجلال، وفيه دليل أيضًا على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق، والجاحد والمعاند في الكفر سواء، ودلت هذه الآية على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين؛ بل لا بد من الجزم والقطع؛ لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك، ودلت أيضًا على أن كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى أو لم يحسب ذلك، قاله الكرخي»[2].

قلت: ويستفاد من الآية والأحاديث أن كل من كان على منهاج الحق وانحرف يمنة أو يسرة، بسبب محرف من الإنس، سواء كان من أهل الكفر من اليهود والنصارى والمجوس، أو من الملاحدة والشيوعيين وأذنابهم من الاشتراكيين والبعثيين، فتبعهم على مناهجهم الباطلة الكافرة، المليئة بأنواع المخالفات من شرك، وتحليل ما حرم اللَّه وتحريم ما أحل اللَّه، واقتدى بهم في كل رذيلة، تفسد عليه فطرته ودينه، فكل هذا وأمثاله من الموالاة والمتابعة لشياطين الإنس والجن، فنرجو اللَّه أن يخلص أهل الإسلام من شر هؤلاء الشياطين، سواء من يعيش معهم في دورهم ومجتمعاتهم، ومن هو خارج عنهم يفسدهم بوسائله المسموعة والمرئية والمكتوبة، واللَّه المستعان.

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ١٥٩).

(٢) فتح البيان (٤/ ٣٣١).

قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا : «يقال في هذا النداء ما قلنا في مثله قبله ، ونزيد أنه يشمل النساء بالتبع للرجال شرعًا لا لغة . ويدل على بعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر .

والظاهر أن هذه الوصايا مما أوصى اللَّه تعالى به من سبق من الرسل وسنعود إلى هذا في تفسير آخرها ، والزينة ما يزين الشيء أو الشخص ، فهي اسم من زانه يزينه زينًا : ضد شانه -أي : عابه- يشينه شينًا . وأخذها عبارة عن التزين ؛ لأنه إنما يحصل بأخذ ما يزين واستعماله ، والمراد بها هنا الثياب الحسنة المعتادة ؛ بدليل القرينة والإضافة وسبب نزول الآيات ، وإلا فأنواع الزينة في الدنيا كثيرة ، ومنها المال والبنون ، فلا يدخل فيها ما هو خاص بالنساء من الحلي والحلل التي يتحببن بها إلى أزواجهن ، وقد تكون شاغلة عن العبادة .

وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس ، وهو ما يستر عورته . وقد اقتصر بعضهم على هذا لأجل جعل الأمر للوجوب ، وإنما يجب لصحة الصلاة والطواف ستر العورة فقط ؛ على ما جرى عليه جمهور الفقهاء على اختلافهم في تحديد العورة ، وقالوا : إن ما زاد على ذلك من التجمل بزينة اللباس اللائق عند الصلاة -ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة وفي العيدين- سنة لا واجب ، ولكن إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد بحسب عرف الناس في تزينهم المعتدل في المجامع والمحافل ؛ ليكون المؤمن عند عبادة اللَّه تعالى مع عباده المؤمنين في أجمل حالة لائقة به ، لا تكلف فيها ولا إسراف ؛ فمن قدر بلا تكلف على عمامة وإزار ورداء ، أو ما في معناها من قلنسوة وجبة وقباء ، لا يكون ممتثلًا للأمر بالزينة إذا اقتصر على إزار يستر العورة فقط -وهي عند

---

(١) الأعراف : الآية (٣١) .

بعض الأئمة السوأتان فقط، وعند الجمهور ما بين السرة والركبة- للرجل، وما عدا الوجه والكفين للمرأة وإن صحت صلاته؛ فإن المقام ليس مقام بيان شروط صحة الصلاة؛ بل هو أوسع من ذلك، ومن العلماء من يقول: إن ستر العورة في الصلاة واجب، لا شرط لصحتها. وإن فيما ورد من الأخبار والآثار في المسألة ما يدل على ما قلنا حتى جعلت النعال من الزينة، وهي كذلك وإن تركها جميع المسلمين في المساجد؛ لأنهم يفرشونها كما يفرشون بيوتهم بالحصر أو بالبسط والطنافس»[1].

وقال الرازي: «المراد من الزينة لبس الثياب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[2] يعني الثياب، وأيضًا فالزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات، ولذلك صار التزيين بأجود الثياب في الجمع والأعياد سنة، وأيضًا أنه تعالى قال في الآية المتقدمة: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾[3]، فبين أن اللباس الذي يواري السوأة من قبيل الرياش والزينة، ثم أنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية، فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة، وأيضًا فقد أجمع المفسرون على أن المراد بالزينة ههنا لبس الثوب الذي يستر العورة، وأيضًا فقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أمر؛ والأمر للوجوب؛ فثبت أن أخذ الزينة واجب، وكل ما سوى اللبس فغير واجب، فوجب حمل الزينة على اللبس عملًا بالنص بقدر الإمكان»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة. فتقول: من يعيرني تطوافًا، تجعله على فرجها. وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾»[5].

* عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٨٠-٣٨١).
(٢) النور: الآية (٣١).
(٣) الآية (٢٦).
(٤) تفسير الرازي (١٤/ ٦٤-٦٥).
(٥) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٣٢٠/ ٣٠٢٨)، والنسائي (٥/ ٢٥٨/ ٢٩٥٦).

ليس على عاتقيه شيء»[١].

★ **غريب الحديث:**

العاتق: هو ما بين المنكبين إلى أصل العنق.

* عن بريدة قال: «**نهى رسول اللَّه ﷺ أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به، والآخر أن يصلي في سراويل وليس عليه رداء**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

التوشيح: أن يأخذ الإنسان طرف ثوب ألقاه على منكبه الأيمن من تحت يده اليسرى، وطرفه الذي ألقاه على الأيسر من تحت يده اليمنى، ثم يعقدهما على صدره.

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم**»[٣].

* عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**البسوا ثياب البياض؛ فإنها أطهر وأطيب**»[٤].

★ **فوائد الآية والأحاديث:**

في هذه الآية والأحاديث عدة مسائل:

الأولى: في بيان سبب نزول الآية:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣)، والبخاري (١/ ٦٢١/ ٣٥٩)، ومسلم (١/ ٣٦٨/ ٥١٦)، وأبو داود (١/ ٤١٤/ ٦٢٦)، والنسائي (٢/ ٤٠٥/ ٧٦٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (١/ ٤١٨-٤١٩/ ٦٣٦) وسكت عنه، وصححه الحاكم (١/ ٢٥٠) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٧)، وأبو داود (٤/ ٣٣٢/ ٤٠٦١)، والترمذي (٣/ ٣١٩-٣٢٠/ ٩٩٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٤٧٣/ ١٤٧٢). وقال ابن كثير (٣/ ٤٠٢): «هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم».

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣-١٧-١٨)، والترمذي (٥/ ١٠٩/ ٢٨١٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٥٩٢-٥٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١١٨١/ ٣٥٦٧) واللفظ له، والحاكم (٤/ ١٨٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قال ابن رجب: «أما قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، فإنها نزلت بسبب طواف المشركين بالبيت عراة، وقد صح هذا عن ابن عباس وأجمع عليه المفسرون من السلف بعده. وقد ذكر الله هذه الآية عقب ذكره قصة آدم ﷺ، وما جرى له ولزوجه مع الشيطان حتى أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما حتى بدت عوراتهما، قال الله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمراد بالفاحشة هنا نزع ثيابهم عند الطواف بالبيت وطوافهم عراة -كما كان عادة أهل الجاهلية- ثم قال بعد ذلك: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

والمراد بذلك: أن يستروا عوراتهم عند المساجد، فدخل في ذلك الطواف والصلاة والاعتكاف، وغير ذلك»[1].

قال الجصاص: «قال بعض من يحتج لمالك بن أنس: إن هؤلاء السلف لما ذكروا سبب نزول الآية وهو طواف العريان، وجب أن يكون حكمها مقصورًا عليه، وليس هذا عندنا كذلك؛ لأن نزول الآية عندنا على سبب لا يوجب الاقتصار بحكمها عليه؛ لأن الحكم عندنا لعموم اللفظ لا للسبب، وعلى أنه لو كان كما ذكر، لا يمنع ذلك وجوبًا في الصلاة؛ لأنه إذا وجب الستر في الطواف فهو في الصلاة أوجب، إذ لم يفرق أحد بينهما.. ويدل على أن حكم الآية غير مقصور على الطواف وأن المراد بها الصلاة قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، والطواف مخصوص بمسجد واحد، ولا يفعل في غيره، فدل على أن مراده الصلاة التي تصح في كل مسجد، ويدل عليه من جهة السنة حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يصل أحدكم في ثوب واحد ليس على فرجه منه شيء**» وروى محمد ابن سيرين عن صفية بنت الحارث عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار**»[2]، فنفى قبولها لمن بلغت

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٠)، وأبو داود (١/ ٤٢١/ ٦٤٥)، والترمذي (٢/ ٢١٥/ ٣٧٧) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (١/ ٢١٥/ ٦٥٥)، وابن حبان (٤/ ٦١٢/ ١٧١١)، وصححه الحاكم (١/ ٢٥١) ووافقه الذهبي.

الحيض فَصَلَّتْها مكشوفةَ الرأس، كما نفى قبولها مع عدم الطهارة بقوله ﷺ: «لا يقبل اللَّه صلاة بغير طهور»، فثبت بذلك أن ستر العورة من فروضها»[(١)].

الثانية: بيان حكم ستر العورة في الصلاة:

قال أبو بكر بن العربي: «اختلف الناس في ستر العورة هل هي فرض في الصلاة أم مستحبة؟

فأما أبو حنيفة والشافعي وأحمد فقالوا: إنها فرض فيها، وأما مالك فالمشهور من قوله: أنها فرض إسلامي لا تختص بالصلاة، وهو أشهر أقوالنا، والقول الآخر مثل قول من تقدم، وهو الصحيح لما ثبت من أمر النبي ﷺ بستر العورة في الصلاة، والأمر على الوجوب، وهو وإن كان فرضًا إسلاميًّا فإنه يتأكد في الصلاة»[(٢)].

قال الجصاص: «هذه الآية تدل على فرض ستر العورة في الصلاة.. ودلالة هذه الآية على فرض ستر العورة في الصلاة من وجوه: أحدها: أنه لما قال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعلق الأمر بالمسجد، علمنا أن المراد الستر للصلاة، لولا ذلك لم يكن لذكر المسجد فائدة، فصار تقديرها: خذوا زينتكم في الصلاة، ولو كان المراد سترها عن الناس لما خص المسجد بالذكر؛ إذ كان الناس في الأسواق أكثر منهم في المساجد، فأفاد بذكر المسجد وجوبه في الصلاة؛ إذ كانت المساجد مخصوصة بالصلاة، وأيضًا لما أوجبه في المسجد وجب بظاهر الآية فرض الستر في الصلاة، إذا فعلها في المسجد، وإذا وجب في الصلاة المفعولة في المسجد وجب في غيرها من الصلوات حيث فعلت؛ لأن أحدًا لم يفرق بينهما، وأيضًا فإن المسجد يجوز أن يكون عبارة عن السجود نفسه، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[(٣)]، والمراد السجود، وإذا كان كذلك اقتضت الآية لزوم الستر عند السجود، وإذا لزم ذلك في السجود لزم في سائر أفعال الصلاة، إذ لم يفرق أحد بينهما»[(٤)].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٣١-٣٢).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٧٨).
(٣) الجن: الآية (١٨).
(٤) أحكام القرآن (٣/ ٣١).

الثالثة: بيان حد عورة المصلي:

قال ابن رجب: «استدل من قال: إن المأمور به من الزينة أكثر من ستر العورة التي يجب سترها عن الأبصار بأن النبي ﷺ نهى أن يصلي الرجل في ثوب واحد ليس على عاتقه منه شيء، وبأن من صلى عاريًا خاليًا لا تصح صلاته، وبأن المرأة الحرة لا تصح صلاتها بدون خمار مع أنه يباح لها وضع خمارها عند محارمها، فدل على أن الواجب في الصلاة أمر زائد على ستر العورة التي يجب سترها عن النظر»[١].

أ - حد عورة الرجل في الصلاة:

قوله في حديث أبي هريرة: «ليس على عاتقه منه شيء»:

قال الشوكاني: «الحديث يدل على جواز الصلاة في الثوب الواحد، قال النووي: ولا خلاف في هذا إلا ما حكي عن ابن مسعود ولا أعلم صحته، وأجمعوا أن الصلاة في ثوبين أفضل، ويدل أيضًا على المنع من الصلاة في الثوب الواحد إذا لم يكن على عاتق المصلي منه شيء وقد حمل الجمهور هذا النهي على التنزيه، وعن أحمد لا تصح صلاة من قدر على ذلك فتركه، وعنه أيضًا: تصح ويأثم، وغفل الكرماني عن مذهب أحمد، فادعى الإجماع على جواز ترك جعل طرف الثوب على العاتق، وجعله صارفًا للنهي عن التحريم إلى الكراهة، وقد نقل ابن المنذر عن محمد بن علي عدم الجواز، وكلام الترمذي يدل على ثبوت الخلاف أيضًا، وعقد الطحاوي له بابًا في «شرح المغني»[٢] ونقل المنع عن ابن عمر ثم عن طاووس والنخعي، ونقله غيره عن ابن وهب وابن جرير وجمع الطحاوي بين الأحاديث بأن الأصل أن يصلي مشتملًا، فإن ضاق اتزر، ونقل الشيخ تقي الدين السبكي وجوب ذلك عن الشافعي واختاره، قال الحافظ: لكن المعروف في كتب الشافعية خلافه، واستدل الخطابي على عدم الوجوب بأنه ﷺ صلى في ثوب كان أحد طرفيه على بعض نسائه وهي نائمة، قال: ومعلوم أن الطرف الذي هو لابسه من الثوب غير

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٣٦).

(٢) لعله خطأ مطبعي، والصواب: (شرح معاني الآثار). وقد عقد لهذه المسألة بابًا سماه: باب الصلاة في الثوب الواحد (شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٧).

متسع لأن يتزر به ويفضل منه ما كان لعاتقه، وفيما قاله نظر لا يخفى، قاله الحافظ. إذا تقرر لك عدم صحة الإجماع الذي جعله الكرماني صارفًا للنهي، فالواجب الجزم بمعناه الحقيقي، وهو تحريم ترك جعل طرف الثوب الواحد حال الصلاة على العاتق والجزم بوجوبه مع المخالفة بين طرفيه بالحديث الآتي، حتى ينتهض دليل يصلح للصرف، ولكن هذا في الثوب إذا كان واسعًا؛ جمعًا بين الأحاديث كما سيأتي التصريح بذلك في حديث جابر[1].. والمراد (أي: من حديث جابر) أنه لا يشد الثوب في وسطه فيصلي مكشوف المنكبين، بل يتزر به ويرفع طرفيه فيلتحف بهما فيكون بمنزلة الإزار والرداء، هذا إذا كان الثوب واسعًا، وأما إذا كان ضيقًا جاز الاتزار به من دون كراهة، وبهذا يجمع بين الأحاديث كما ذكره الطحاوي وغيره، واختاره ابن المنذر وابن حزم، وهو الحق الذي يتعين المصير إليه، فالقول بوجوب طرح الثوب على العاتق والمخالفة من غير فرق بين الثوب الواسع والضيق ترك للعمل بهذا الحديث وتعسير مناف للشريعة السمحة»[2].

قال النووي: «قال العلماء: حكمته أنه إذا ائتزر به ولم يكن على عاتقه منه شيء لم يؤمَن أن تنكشف عورته، بخلاف ما إذا جعل بعضه على عاتقه، ولأنه قد يحتاج إلى إمساكه بيده أو يديه، فيشغل بذلك وتفوته سنة وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت صدره ورفعهما حيث شرع الرفع وغير ذلك؛ لأن فيه ترك ستر أعلى البدن وموضع الزينة، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾»[3].

ب - حد عورة المرأة في الصلاة؛ الحرة والأمة:

قال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﷺ: «هذا خطاب للرجال والنساء إلا أنهم يختلفون في العورة، فعورة الرجل قد تقدم ذكرها، وعورة المرأة جميع بدنها إلا وجهها وكفيها، وفي المصنفين أن النبي ﷺ قال: «**لا تقبل صلاة حائض إلا بخمار**»[4]، وهذا في الحرة، فقد ثبت عن أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ: أتصلي المرأة في درع وخمار ليس عليها إزار؟ قال: «**إذا كان الدرع**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٨-٣٣٥)، والبخاري (١/ ٦٢٢/ ٣٦١)، ومسلم (٤/ ٢٣٠١-٢٣٠٢/ ٣٠١٠)، وأبو داود (١/ ٤١٧-٤١٨/ ٦٣٤).

(٢) نيل الأوطار (٢/ ٧٠-٧٢).

(٣) شرح صحيح مسلم (٤/ ١٩٦).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

سابغًا يغطي ظهور قدميها»[1]، فأما الأمة فإنها تصلي كما تمشي حاسرة الرأس، وقال علماؤنا: تستر في الصلاة ما يستر الرجل، حتى لو انكشف بطنها لم يضرها، وقال أصبغ: إن انكشفت فخذها أعادت في الوقت»[2].

قال ابن قدامة: «وأما سائر بدن المرأة الحرة فيجب ستره في الصلاة، وإن انكشف عنه شيء لم تصح صلاتها إلا أن يكون يسيرًا، وبهذا قال مالك والأوزاعي والشافعي، وقال أبو حنيفة: القدمان ليس من العورة، لأنهما يظهران غالبًا فهما كالكفين؛ ولأنهما يغسلان في الوضوء فلم يكونا من العورة كالوجه والكفين وإن انكشف من المرأة أقل من ربع شعرها أو ربع فخذها أو ربع بطنها لم تبطل صلاتها، ولنا ما روت أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله! أتصلي المرأة في درع وخمار ليس عليها إزار؟ فقال: «**نعم إذا كان سابغًا يغطي ظهور قدميها**» رواه أبو داود. وقال: وقفه جماعة على أم سلمة، ورفعه عبدالرحمن بن عبد اللَّه بن دينار[3]، وروى ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا ينظر اللَّه إلى من جر ثوبه خيلاء**» فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟ قال: «**يرخين شبرًا**»، فقالت: إذًا تنكشف أقدامهن، قال: «**فيرخينه ذراعًا، لا يزدن عليه**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[4]. وهذا يدل على وجوب تغطية القدمين، ولأنه محل لا يجب كشفه في الإحرام، فلم يجز كشفه في الصلاة كالساقين، ولأن الخبر المروي في أن المرأة عورة بالإجماع، فإن أهل العلم أجمعوا على أن للمرأة الحرة أن تغطي رأسها في الصلاة، وعلى أنها إذا صلت وجميع رأسها مكشوف أن عليها الإعادة، والتقدير بالربع تحكم لا دليل عليه، والتقدير لا يجوز بمجرد الرأي والتحكم، وقد ثبت وجوب ستر الرأس بقول النبي ﷺ: «**لا يقبل اللَّه صلاة حائض إلا بخمار**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وفي هذا تنبيه على وجوب ستر البطن وغيره من سائر البدن. . والمستحب أن تصلي المرأة في درع، وهو القميص، لكنه سابغ يغطي قدميها، وخمار، وهو المقنعة، وجلباب، وهو الملحفة تلتحف به من فوق الدرع،

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٤٢٠/ ٦٤٠)، وهو ضعيف.

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٨١).

(٣) تقدم تخريجه قريباً، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/ ١٩٥-١٩٦/ ١٧٣١) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٥٩٧-٥٩٨/ ٥٣٥١).

روي نحو ذلك عن عمر وابنه وعائشة وعبيدة السلماني وعطاء، وهو قول الشافعي، قال أحمد: قد اتفق عامتهم على الدرع والخمار، وما زاد فهو خير وأستر، ولأنه إذا كان عليها جلباب فإنها تجافيه راكعة وساجدة، لئلا تصفها ثيابها فتبين عجيزتها ومواضع عوراتها المغلظة»[١].

وقال معلقًا على قول الخرقي: «وصلاة الأمة مكشوفة الرأس جائزة": «هذا قول عامة أهل العلم لا نعلم أحدًا خالف في هذا إلا الحسن، فإنه من بين أهل العلم أوجب عليها الخمار إذا تزوجت، أو اتخذها الرجل لنفسه، واستحب لها عطاء أن تقنع إذا صلت، ولم يوجبه، ولنا أن عمر ﷺ كان ينهى الإماء عن التقنع، قال أبو قلابة: إن عمر بن الخطاب كان لا يدع أمة تقنع في خلافته، وقال: «**إنما القناع للحرائر**»، وضرب أمة لآل أنس رآها متقنعة، وقال: «**اكشفي رأسك ولا تشبهي بالحرائر**»، وهذا اشتهر في الصحابة فلم ينكر فكان إجماعًا، ولأنها أمة فلم يجب عليها ستر رأسها كالتي لم تتزوج ولم يتسرّ بها سيدها»[٢].

الرابعة: استحباب أخذ الزينة عند الصلاة وأنها قدر زائد على ستر العورة:

قال ابن رجب: «قال طائفة من العلماء: إن الآية تدل على أخذ الزينة عند المساجد، وذلك قدر زائد على ستر العورة، وإن كان ستر العورة داخلًا فيه، وهو سبب نزول الآيات، فإن كشف العورة فاحشة من الفواحش، وسترها من الزينة، ولكنه يشمل مع ذلك لبس ما يُتجمل به ويُتزين عند مناجاة اللَّه وذكره ودعائه والطواف ببيته، ولهذا قال تعالى عقيب ذلك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾[٣]»[٤].

قال ابن كثير: «ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطِّيبُ لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض»[٥].

قال ابن بطال: «الثياب البيض من أفضل الثياب وهو لباس الملائكة الذين

---

(١) المغني (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٣١-٣٣٢).
(٣) الأعراف: الآية (٣٢).
(٤) فتح الباري (٣/ ٣٣٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٦).

نصروا النبي ﷺ يوم أحد وغيره، . . وكان ﷺ يلبس البياض ويفضله، ويحض على لباسه الأحياء، وأمر بتكفين الأموات فيه»[١].

وإنما كان اللباس الأبيض من خير الثياب وأطيبها: «لدلالته غالبًا على التواضع، وعدم الكبر والخيلاء والعجب، وسائر الأخلاق الطيبة»[٢].

قال المناوي: «ولهذه الأطيبية نُدِبَ إيثارها في المحافل، كشهود جمعة وحضور مسجد ولقاء الملائكة، ولذلك فضلت في التكفين، كما قال: «**وكفنوا فيها موتاكم**»، ندبًا مؤكدًا»[٣].

وقال ابن عثيمين: «وصدق النبي ﷺ، فإن الثوب الأبيض خير من غيره من جهة الإضاءة والنور، ومن جهة أنه إذا اتسخ أدنى اتساخ ظهر فيه، فبادر الإنسان إلى غسله، أما الثياب الأخرى فربما تتراكم فيها الأوساخ والإنسان لا يشعر بها ولا يغسلها، وإذا غسلها فلا يدري هل تنظفت أم لا؟ فلهذا قال النبي ﷺ: «**إنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم**» وهو شامل للبس الثياب البيض، القمص والأزر والسراويل، كلها ينبغي أن تكون من البياض فإنه أفضل، ولكن لو أنه لبس من لون آخر فلا بأس»[٤].

* عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله ﷺ في ثوب دُونٍ، فقال: **ألك مال؟** قال: نعم. قال: **من أي المال؟** قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: **فإذا آتاك الله مالًا فليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**»[٥].

★ **غريب الحديث:**

دُون: أي دنيء غير لائق بحالي من الغنى.

* عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة.

---

(١) شرح البخاري (٩/ ١٠٤).
(٢) قاله في «عون المعبود» (١١/ ١١٠-١١١).
(٣) فيض القدير (٢/ ١٥٦).
(٤) شرح رياض الصالحين (٧/ ٢٨٧).
(٥) أخرجه: أبو داود (٤/ ٣٣٣/ ٤٠٦٣)، والنسائي (٨/ ٥٦٣/ ٥٢٣٩).

قال: «**إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[١].

★ غريب الحديث:

مثقال ذرة: أي زنة ذرة. والذر: النمل الأحمر الصغير، واحدتها ذرة. وسئل ثعلب عنها فقال: إن مائة نملة وزن حبة، والذرة واحدة منها. وقيل: الذرة ليس لها وزن، ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

بطر الحق: بطر الحق هو أن يجعل ما يجعله اللَّه حقًّا من عبادته وتوحيده باطلًا. وقيل: هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقًّا. وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله.

غمط الناس: الغمط: الاستهانة والاستحقار، وهو كالغمص.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «وقوله في الحديث: «**إن اللَّه جميل يحب الجمال**» يتناول جمال الثياب المسؤول عنه في نفس الحديث، ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء كما في. . الصحيح: «**إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا**»[٢]، وفي السنن: «**إن اللَّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[٣]، وفيها عن أبي الأحوص الجشمي قال: «**رآني النبي ﷺ** وعلي أطمار، فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى اللَّه من الإبل والشاء، قال: فلتر نعمته وكرامته عليك»[٤] فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها، ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[٥]، وقال في أهل الجنة:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٩)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١)، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) مختصراً، والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٢٨)، ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥)، والترمذي (٥/ ٢٠٥/ ٢٩٨٩).

(٣) أخرجه من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ: أحمد (٢/ ١٨٢)، والترمذي (٥/ ١١٤/ ٢٨١٩) وقال: «حديث حسن»، وصححه الحاكم (٤/ ١٣٥)، ووافقه الذهبي.

(٤) تقدم في أحاديث الباب.

(٥) الأعراف: الآية (٢٦).

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[(١)]، فجمل وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير، وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيأة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيأة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله، ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا: كل ما خلقه جميل، فهو يحب كل ما خلقه، ونحن نحب جميع ما خلقه، فلا نبغض منه شيئًا، قالوا: ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة، وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم ... فجميع ما يحوي الوجود مليح

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[(٤)]، والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال، ولا يرى في الوجود قبيحًا، وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعاداة فيه، وإنكار المنكر، والجهاد في سبيله، وإقامة حدوده، ويرى جمال الصور من الذكور والإناث، من الجمال الذي يحبه الله، فيتعبدون بفسقهم، وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها، وإن كان اتحاديًا، قال: هي مظهر من مظاهر الحق، ويسميها المظاهر الجمالية،.. وقابلهم الفريق الثاني فقالوا: قد ذم الله سبحانه جمال الصور، وتمام القامة والخلقة، فقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[(٥)]، وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[(٦)]؛ أي: أموالًا ومناظر، قال الحسن: هو الصور، وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(٧)]، قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة، قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير

---

(١) الإنسان: الآيتان (١١و١٢).

(٢) السجدة: الآية (٧).

(٣) النمل: الآية (٨٨).

(٤) الملك: الآية (٣).

(٥) المنافقون: الآية (٤).

(٦) مريم: الآية (٧٤).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٨٥)، ومسلم (٤/ ١٩٨٦-١٩٨٧/ ٢٥٦٤[٣٣-٣٤])، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٨/ ٤١٤٣).

والذهب، وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾(١)، وفي الحديث: «البذاذة من الإيمان»(٢) وقد ذم اللَّه المسرفين، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس، وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم، فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة اللَّه، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له كما كان النبي يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة اللَّه، ونصر دينه وغيظ عدوه، والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة، والفخر والخيلاء، والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيرًا من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك، وأما ما لا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين، والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف اللَّه سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه، في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات بالجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك»(٣).

* عن ابن عباس قال: «لما خرجت الحرورية أتيتُ عليًا ﷺ، فقال: ائْت هؤلاء القوم. فلبِست أحسن ما يكون من حُلل اليمن، قال أبو زميل: وكان ابن عباس رجلًا جميلًا جهيرًا. قال ابن عباس: فأتيتهم فقالوا: مرحبًا بك يا ابن

---

(١) طه: الآية (١٣١).

(٢) أخرجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة الأنصاري ﷺ: أبو داود (٤/ ٣٩٣-٣٩٤/ ٤١٦١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٩/ ٤١١٨)، وصححه الألباني، انظر الصحيحة (٣٤١).

(٣) الفوائد (ص: ٢٣٧-٢٤٠) بتصرف.

عباس، ما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون عليّ؟ لقد رأيت على رسول اللَّه ﷺ أحسن ما يكون من الحلل»[١].

★ غريب الحديث:

جَهيرًا: بفتح الجيم وكسر الهاء؛ أي: ذا منظر بهيّ. قال في «النهاية»: رجل جهير؛ أي: ذو منظر. وقال في «القاموس»: الجُهر، بالضم، هيئة الرجل بحسن منظره.

★ فوائد الحديث:

قال في «العون»: «واعلم أنه كان هديه ﷺ -كما قال الحافظ ابن القيم[٢]- أن يلبس ما تيسر من اللباس، الصوف تارة، والقطن أخرى، والكتان تارة، ولبس البرود اليمانية، والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص. . » إلى أن قال: «فالذين يمتنعون عما أباح اللَّه من الملابس والمطاعم والمناكح تزهّدًا وتعبّدًا بإزائهم طائفةٌ قابلوهم فلم يلبسوا إلا أشرف الثياب، ولم يأكلوا إلا أطيب وألين الطعام، فلم يروا لبس الخشن ولا أكله تكبّرًا وتجبّرًا، وكلا الطائفتين مخالف لهدي النبي ﷺ»[٣].

وقال الشوكاني في «النّيل»: «إن الأعمال بالنيات، فلُبس المنخفض من الثياب تواضعًا وكَسرًا لِسَوْرة النفس التي لا يُؤمن عليها من التكبر إن لِبست غالي الثياب من المقاصد الصالحة الموجبات للمثوبة من اللَّه، ولُبس الغالي من الثياب عند الأمن على النفس من التسامي المشوب بنوع من التكبر لقصد التوصُّل بذلك إلى تمام المطالب الدينية من أمر بمعروف أو نهي عن منكر عند من لا يَلتفِت إلا إلى ذوي الهيئات كما هو الغالب على عوامّ زماننا وبعض خواصه؛ لاشك أنه من الموجبات للأجر لكنه لا بد من تقييد ذلك بما يحل لبسه شرعًا» انتهى[٤].

* * *

---

(١) أبو داود (٤/ ٣١٧/ ٤٠٣٧). وهو عند ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٦٢) بلفظ أطول من هذا، وحسن إسناده الألباني رحمه الله [صحيح سنن أبي داود (٢/ ٧٦٢/ ٣٤٠٦)].

(٢) انظر كلامه في «الزاد» (١/ ١٤٥).

(٣) (١١/ ٨٠-٨١).

(٤) (٢/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

ولا تسرفوا: الإسراف والسَّرَف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر. ويقال تارة اعتبارًا بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة اللَّه فهو سرف وإن كان قليلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أمر اللَّه سبحانه عباده بالأكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة، والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به، من طاعة أو سعي على نفسه أو على من يعول، مخالف لما أمر اللَّه به، وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه اللَّه لعباده، واقع في النهي القرآني، وهكذا من حرّم حلالًا، أو حلّل حرامًا، فإنه يدخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين، ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع»[2].

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: قال محمد رشيد رضا: «هذا الأمر المقيد بما عطف عليه من النهي إرشاد عالٍ أيضًا، فيه صلاح للبشر في دينهم ومعاشهم ومعادهم، لا يستغنون عنه في وقت من الأوقات، ولا عصر من الأعصار، وكل ما بلغوه من سعة العلم في الطب وغيره لم يغنهم عنه؛ بل هو يغني المهتدي به في أمره ونهيه عن معظم وصايا الطب لحفظ الصحة.

والمعنى: خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات، وكلوا من الطيبات، واشربوا الماء وغيره من الأشربة النافعة المستلذات، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فيها، ولا

---

(١) الأعراف: الآية (٣١).

(٢) فتح القدير (٢/ ٢٨٨).

تعتدوا ؛ بل الزموا الاعتدال.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: إن ربكم اللَّه الذي أنعم عليكم بهذه النعم لمنفعتكم، لا يحب المسرفين في أمرهم؛ بل يعاقبهم على الإسراف، بقدر ما ينشأ عنه من المفاسد والمضار، فالنهي راجع إلى الثلاثة كما يأخذ من أكثر الروايات، بل حذف المعمول يدل على العموم، أي لا تسرفوا في هذه الأشياء ولا في غيرها، ويؤيده تعليل النهي بأنه تعالى لا يحب جنس المسرفين، أي لأنهم يخالفون سننه في فطرتهم، وشريعته في هدايتهم، بجناياتهم على أنفسهم في ضرر أبدانهم وضياع أموالهم، وغير ذلك من مضار الإسراف الشخصية والمنزلية والقومية»[1].

وقال ابن كثير: «قال بعض السلف: جمع اللَّه الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾»[2].

قال السعدي: «جمع اللَّه فيها -أي: هذه الآية- أمورًا كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعًا، كما لا يتمكن قدرًا ما دام عقله معه، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر اللَّه يكون عبادة؛ لأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لإطلاق ذلك، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به، ويوافق لغناه وفقره، ويوافق لصحته ومرضه، ولعادته وعدمها؛ لأنه حذف المأكول، والآية ساقها اللَّه لإرشاد العباد إلى منافعهم، وهي تدل على ذلك كله، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء، بأن يأكل ويشرب ما ينفعه، ويقيم صحته وقوته، وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن؛ لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف، وعلى أن السرف منهي عنه، وخصوصًا في الأطعمة والأشربة، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال:

أما ضرره الديني: فكل ما ارتكب ما نهى اللَّه عنه ورسوله، فقد انجرح دينه، وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٦).

وأما ضرره العقلي: فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الإسراف الضار فلا ريب أن ذلك لنقص عقله؛ فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره البدني: فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضرّ بدنه واعتراه أمراض خَطِرَة، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء، ثم إنه ينضرّ أيضًا من وجه آخر؛ فإن من عوّد بدنه شيئًا اعتاده، فإذا عوّده كثرة الأكل، أو أكل الأطعمة المتنوعة، فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتادًا له فتنحرف صحته.

وأما ضرره المالي: فظاهر؛ فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1]»[2].

قال القاسمي: «أثر عنه ﷺ من بدائع الطب أصناف العلاج، ما لم يؤثر عن نبي قط، وللمحدثين في عهد السلف منه قسم كبير في جوامعهم ومسانيدهم، وأما أعلام المتأخرين، فقد اضطرهم وفرة ما روي في ذلك إلى تدوينه في أسفار مطولة ومختصرة بعنوان (الطب النبوي)، وقد بين الإمام ابن القيم -عليه الرحمة- اشتمال التنزيل العزيز على أصول الطب، والسنة المطهرة على بدائعه في كتابه (زاد المعاد) بيانًا يدهش الألباب، وفوق كل ذي علم عليم»[3].

وقال الجصاص: «ظاهره -أي: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾- يقتضي جواز أكل سائر المأكولات وشرب سائر الأشربة، مما لا يحظره دليل، بعد أن لا يكون مسرفًا فيما يأتيه من ذلك؛ لأنه أطلق الأكل والشرب، على شريطة أن لا يكون مسرفًا فيهما، والإسراف هو مجاوزة حد الاستواء، فتارة يكون بمجاوزة الحلال إلى الحرام، وتارة يكون بمجاوزة الحد في الإنفاق، فيكون ممن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[4]، والإسراف وضده من الإقتار

---

(١) الإسراء: الآية (٢٩).

(٢) تيسير اللطيف المنان (ص: ٤٣٦-٤٣٨).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٦١).

(٤) الإسراء: الآية (٢٧).

مذمومان، والاستواء هو التوسط، ولذلك قيل: دين الله بين المقصر والغالي، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢]، وقد يكون الإسراف في الأكل أن يأكل فوق الشبع حتى يأديه إلى الضرر، فذلك محرم أيضًا»[٣].

قال السعدي: «وإخباره أنه لا يحب المسرفين دليل على أنه يحب المقتصدين، ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله، وأنه تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها، فسبحان من جعل كتابه كنوزًا للعلوم النافعة المتنوعة»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في آداب الأكل والشرب

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا، وتصدّقوا، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»[٥].

★ **غريب الحديث:**

مخيلة: بفتح فكسر؛ أي: كبر وخيلاء.

★ **فوائد الحديث:**

قال الموفق عبداللطيف البغدادي: «هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه أيضًا تدبير مصالح النفس والجسد والدنيا والآخرة، فإن الإسراف في كل شيء يضر بالمعيشة، إذ فيه الإتلاف، ويضر بالنفس حيث كانت تابعة للجسد في كثير من الأحوال، ولها أمراض تخصها، والمخيلة هي الخيلاء، وهي تضر بالنفس حيث تكسبها العجب، وإن كانت مخلوقة منه، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم،

---

(١) الفرقان: الآية (٦٧).

(٢) الإسراء: الآية (٢٩).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٣٣).

(٤) تيسير اللطيف المنان (ص: ٤٣٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١-١٨٢)، والبخاري معلقاً (١٠/ ٣١٠)، والنسائي (٥/ ٨٣/ ٢٥٥٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٢/ ٣٦٠٥)، وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٢/ ١٨٥٢).

وتضر بالدنيا حيث تكسب المقت من الناس، فمن برئ من الإسراف والخيلاء في تصرفاته وتدبيره وسياسته، فقد برئ من العيوب كلها، أو جلها»[١].

قال الطيبي: «ونفي السرف مطلقًا يستلزم نفي المخيلة؛ فنفي المخيلة بعده للتأكيد واستيعاب ما يعرف منهما نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[٢]»[٣].

وقال القاري: «الظاهر أن الآية نظير الحديث لكون الانتهار يشمل الأف. نعم مفهوم النهيِ النهيُ عن الانتهار بالطريق الأولى، وليس كذلك في الحديث، بل الظاهر منه أن الإسراف متعلق بالكمية والمخيلة بالكيفية، ولذا قيل: لا خير في سرف ولا سرف في خير»[٤].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن المؤمن يأكل في مِعىً واحدٍ، وإن الكافر أو المنافق يأكل في سبعة أمعاء**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا منه ﷺ حض على التقليل من الدنيا، والزهد فيها، والقناعة بالبلغة، وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته، كما قال قائلهم:

تكفيه فلذة كبد إن ألم بها … من الشواء ويروي شربه الغمر

«**وقالت أم زرع في ابن أبي زرع: ويشبعه ذراع الجفرة**»[٦]، وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل:

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله … وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقال الخطابي: «معنى قوله ﷺ: «**المؤمن يأكل في مِعىً واحد**» أنه يتناول دون

---

(١) الأربعون الطبية (ص: ٦٧).
(٢) الإسراء: الآية (٢٣).
(٣) شرح الطيبي (٩/ ٢٩١١).
(٤) المرقاة (٨/ ١٧٦).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري (٩/ ٦٦٩/ ٥٣٦٤)، ومسلم (٣/ ١٦٣١/ ٢٠٦٠)، والترمذي (٤/ ٢٣٤-٢٣٥/ ١٨١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٨/ ٦٧٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٠٨٤/ ٣٢٦٧).
(٦) أخرجه: البخاري (٩/ ٣١٧-٣١٨/ ٥١٨٩)، ومسلم (٤/ ١٨٩٦-١٩٠٢/ ٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٥٤-٣٥٦/ ٩١٣٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

شبعه، ويؤثر على نفسه، ويبقي من زاده لغيره، فيقنعه ما أكل»، والتأويل الأول أولى، والله أعلم. وقيل في قوله ﷺ: «والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ليس على عمومه؛ لأن المشاهدة تدفعه، فإنه قد يوجد كافر أقل أكلًا من مؤمن، ويسلم الكافر فلا يقل أكله ولا يزيد، وقيل: هو إشارة إلى معين، ضاف النبي ﷺ ضيفًا كافرًا، يقال: إنه الجهجاه الغفاري، وقيل: ثمامة بن أثال، وقيل: نضلة بن عمرو الغفاري، وقيل: بصرة بن أبي بصرة الغفاري، فشرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم، فشرب حلاب شاة فلم يستتمه، فقال النبي ﷺ ذلك، فكأنه قال: هذا الكافر، والله أعلم، وقيل: إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوي على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة، وحين كان مظلمًا بالكفر، كان أكله كالبهيمة، ترتع حيث تثلط.

واختلف في هذه الأمعاء هل هي حقيقة أم لا؟ فقيل: حقيقة، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح، وقيل: هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النهم: يأكل للحاجة والخبر[1] والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغنامًا، وقيل: المعنى: أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء، والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا معىً واحد، فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله، والمعى في هذا الحديث هو المعدة»[2].

* عن سلمان أنه أكره على طعام يأكله فقال: حسبي إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة»[3].

* عن المقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث

---

(١) يريد بالخبر شهوة الأذن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٢٤).

(٣) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١١١٢/ ٣٣٥١). وقال البوصيري: «في إسناده سعيد بن محمد الوراق الثقفي، ضعفوه ووثقه ابن حبان والحاكم». وفي الباب عن ابن عمر: الترمذي (٤/ ٥٦٠/ ٢٤٧٨) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٢/ ١١١١-١١١٢/ ٣٣٥٠). وفي الباب من حديث أبي جحيفة وابن عمرو وابن عباس. انظره في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٦٧٢/ ٣٤٣).

لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب في شرح حديث المقدام بن معدي كرب: «وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها، وقد روي أن ابن ماسويه الطبيب، لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة، قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات، سلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات، ودكاكين الصيادلة، وإنما قال هذا لأن أصل كل داء التخم، كما قال بعضهم: أصل كل داء البردة -التخمة- وروي مرفوعًا ولا يصح رفعه»[2].

وفيه: «التحذير من الإكثار من الطعام والحث على القناعة فيه والاكتفاء بما يقيم صلب الإنسان؛ أي: ما يكفيه ويسد جوعه، ومما لا شك فيه عند كافة العقلاء والأطباء، أن الشره مضر بالصحة، مقعد بالمرء عن واجباته، ومثقل له عن وظائفه وأعماله، فإذا اعتاد المرء تقليل طعامه، عملًا بسنة النبي ﷺ، ووصاياه؛ كان أبعد عن الأسقام، وأقرب إلى الصحة والعافية»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي (٤/ ٥٠٩-٥١٠/ ٢٣٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٧/ ٦٧٦٨)، وصححه الحاكم (٤/ ١٢١) ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (٢/ ٤٤٩/ ٦٧٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١٨).

(٣) إهداء الديباجة (٤/ ٤٧٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

حرّم: التحريم: أصله المنع، خلافه: التحليل. والحرام: الممنوع منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن هذه الآية ظاهرها الاستفهام إلا أن المراد منه تقرير الإيثار والمبالغة في تقرير ذلك الإنكار، وفي الآية قولان: القول الأول: أن المراد من الزينة في هذه الآية: اللباس الذي تستر به العورة، وهو قول ابن عباس ﷺ، وكثير من المفسرين. والقول الثاني: أنه يتناول جميع أنواع الزينة، فيدخل تحت الزينة جميع أنواع التزيين، ويدخل تحتها تنظيف البدن من جميع الوجوه، ويدخل تحتها المركوب، ويدخل تحتها أيضًا أنواع الحلي؛ لأن كل ذلك زينة، ولولا النص الوارد في تحريم الذهب والفضة والإبريسم على الرجال، لكان ذلك داخلًا تحت هذا العموم»[1].

قال الشوكاني: «فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة، إذا لم يكن مما حرم اللَّه، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة، ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطًا بيّنًا»[2].

قال القرطبي: «وإذا كان هذا فقد دلت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الأخوان، قال أبو

---

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٦٧).
(٢) فتح القدير (٢/ ٢٨٣).

العالية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا، وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب: أنه رأى حلة سيراء تباع عند باب المسجد فقال: يا رسول الله! لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة**»[1]، فما أنكر عليه ذكر التجمل، وإنما أنكر عليه كونها سيراء، وقد اشترى تميم الداري حلة بألف درهم، كان يصلي فيها، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد، وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار، أين هذا ممن يرغب عنه، ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب، ويقول: ولباس التقوى ذلك خير، هيهات، أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنهى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبهم خالية من التقوى، قال خالد بن شوذب: شهدت الحسن وأتاه فرقد، فأخذ الحسن بكسائه فمده إليه وقال، يا فريقد، يا بن أم فريقد، إن البر ليس في هذا الكساء، إنما البر ما وقر في الصدر وصدقه العمل. ودخل أبو محمد ابن أخي معروف الكرخي على أبي الحسن بن يسار، وعليه جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد، صوفت قلبك أو جسمك؟ صوف قلبك، والبس القوهي على القوهي، وقال رجل للشبلي: قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع، فمضى فرأى عليهم المرقعات والفوط، فأنشأ يقول:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائه

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه:

أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة.

والثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه.

والثالث: إظهار التزهد، وقد أمرنا بستره.

والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وقال الطبري: ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٣)، والبخاري (٢/ ٥٥٨/ ٩٤٨)، ومسلم (٣/ ١٦٣٨/ ٢٠٦٨)، وأبو داود (٤/ ٣٢٠/ ٤٠٤٠)، والنسائي (٨/ ٥٨٤/ ٥٣١٤)، وابن ماجه (٢/ ١١٨٧-١١٨٨/ ٣٥٩١).

مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعدس، واختاره على خبز البر، ومن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء، وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف، فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه، ثم قال: لبس الخز والمعصفر أحب إلي من لبس الصوف في الأمصار.

وقال أبو الفرج: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد، وللقاء الإخوان، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحًا، وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من اللَّه تعالى، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه منهي عنه، فإن قال قائل: تجويد اللباس هوى النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق، فالجواب: ليس كل ما تهواه النفس يذم، وليس كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو على وجه الرياء في باب الدين، فإن الإنسان يحب أن يُرى جميلًا، وذلك حظ للنفس لا يُلام فيه، ولهذا يسرح شعره، وينظر في المرآة، ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم، . . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة»[2].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ الطيبات: اسم عام لما طاب كسبًا وطعمًا، قال ابن عباس وقتادة: يعني بالطيبات من الرزق: ما حرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي، وقيل: هي كل مستلذ من الطعام، وقد اختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات، فقال قوم: ليس ذلك من القربات، والفعل والترك يستوي في المباحات، وقال آخرون: ليس قربة في ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا، وقصر الأمل فيها، وترك التكلف لأجلها،

(١) تقدم تخريجه في تفسير الآية السابقة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٦-١٩٨).

وذلك مندوب إليه، والمندوب قربة، وقال آخرون: ونقل عن عمر بن الخطاب ﷺ قوله: لو شئنا لاتخذنا صلاء وصلائق وصنابًا، ولكني سمعت اللَّه تعالى يذم أقوامًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، ويروى صرائق بالراء، وهما جميعًا الجرادق، والصلائق باللام، ما يلصق من اللحوم والبقول، والصلاء بكسر الصاد والمد، الشواء، والصناب الخردل بالزبيب، وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكلفة وبغير كلفة، قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي شيخ أشياخنا: وهو الصحيح إن شاء اللَّه ﷻ، فإنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه امتنع من طعام لأجل طيبه قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ، والرطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة، واللَّه تعالى أعلم، قلت: وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات، واحتج بقول عمر ﷺ: إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر، والجواب: أن هذا -من عمر- قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة، والإقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله: إياكم والتنعم، وزي أهل العجم، واخشوشنوا، ولم يرد ﷺ تحريم شيء أحله اللَّه، ولا تحظير ما أباحه اللَّه تبارك اسمه، وقول اللَّه ﷻ أولى ما امتثل واعتمد عليه، قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.. وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ: «**كان يأكل الطبيخ بالرطب، ويقول: يكسر حر هذا برد هذا، وبرد هذا حر هذا**»[2]، والطبيخ لغة في البطيخ، وهو من المقلوب.

وقد مضى في (المائدة) الرد على من آثر أكل الخشن من الطعام، وهذه الآية ترد عليه وغيرها، والحمد لله»[3].

قوله: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

قال القرطبي: «(خالصة) بالرفع، وهي قراءة ابن عباس ونافع، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ

---

(١) الأحقاف: الآية (٢٠).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/ ١٧٦/ ٣٨٣٦)، والترمذي (٤/ ٢٤٦-٢٤٧/ ١٨٣٤) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٦٦/ ٦٧٢٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٨-١٩٩).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يخلص اللّه الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء، كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها، ومجاز الآية: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مشتركة في الدنيا مع غيرهم، وهي للمؤمنين ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، فـ(خالصة) مستأنف على خبر مبتدأ مضمر، وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد، وقيل: المعنى: أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا، هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون، فقوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُوا﴾، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير، وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تم دونه»[1].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة، والحلال من المطاعم والمشارب، والحرام منها، وميزت بين ذلك لكم أيها الناس، كذلك أبين جميع أدلتي وحججي، وأعلام حلالي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون ما يبين لهم، ويفقهون ما يميز لهم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على سعة دين الإسلام ورحمة اللّه بعباده حيث حرم عليهم ما يضرهم وأباح لهم ما ينفعهم

★ **سبب نزول الآية:**

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة، على فرجها خرقة، هي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٩-٢٠٠). (٢) جامع البيان (٨/ ١٦٦).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٩/ ٢٤١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣)، والحاكم (٢/ ٣١٩-٣٢٠) واللفظ له، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصحح الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٣١٠) إسناد الطبري.

★ **فوائد الأثر:**

في هذا الأثر من الفوائد: أن هذه الآية نزلت بسبب طواف المشركين بالبيت عراة.

قال الحافظ: «وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد جياد عن أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء وغيرهما نحوه، وكذا عن إبراهيم النخعي والسدي والزهري وقتادة وغيرهم، أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت وهم عراة»[١].

تنبيه:

قد تقدم أن قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾[٢] الآية، نزل لنفس السبب، قال السيوطي: «ولا إشكال في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة»[٣].

قال مقبل بن هادي الوادعي: «لعل الآيتين نزلتا معًا لهذا السبب، والله أعلم»[٤].

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**كلوا، وتصدّقوا، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة**»[٥].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مخيلة**»[٦].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء**»[٧].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣١٠). (٢) الأعراف: الآية (٣١).

(٣) الإتقان (١/ ٩٧).

(٤) الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ١٠٨)

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١-١٨٢)، والبخاري معلقاً (١٠/ ٣١٠)، والنسائي (٥/ ٨٣/ ٢٥٥٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٢/ ٣٦٠٥)، وحسن إسناده الألباني في «المشكاة» (٢/ ١٨٥٢).

(٦) علقه البخاري في صحيحه في «كتاب اللباس» (١٠/ ٣١٠) بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبة (٥/ ١٧١/ ٢٤٨٧٨)، وعبدالرزاق (١١/ ٢٧٠/ ٢٠٥١٥)، وابن جرير (١٢/ ٣٩٤/ ١٤٥٢٩ شاكر)، والدينوري في «المجالسة» (٤/ ٤٠٦-٤٠٧/ ١٦٠١).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٧)، والبخاري (١٠/ ٣١٠/ ٥٧٨٣)، ومسلم (٣/ ١٦٥١/ ٢٠٨٥)، وأبو داود (٤/ ٣٤٥/ ٤٠٨٥)، والترمذي (٤/ ١٩٥/ ١٧٣٠).

★ **غريب الحديث:**

سرف: من الإسراف، وهو التبذير لغير حاجة أو في غير طاعة اللَّه.

مخيلة: وهي معنى الخيلاء، وفيه البطر والكبر والزهو والتبختر وكلها بمعنى واحد.

★ **فوائد الأحاديث:**

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، وغرضه من ذلك بيان أن جميع أنواع الزينة مباح مأذون فيه، إلا ما خصه الدليل، كالخيلاء والمخيلة في اللباس، التي تجتمع أحاديث هذا الباب على النهي عنها.

قال ابن عبد البر: «الخيلاء: التكبر، وهي الخيلاء، والمخيلة: يقال منه: رجل خال ومختال: شديد الخيلاء، وكل ذلك من البطر والكبر. واللَّه لا يحب المتكبرين، ولا يحب كل مختال فخور.

وهذا الحديث يدل على أن من جر إزاره من غير خيلاء ولا بطر أنه لا يلحقه الوعيد المذكور. غير أن جر الإزار والقميص، وسائر الثياب، مذموم على كل حال.

وأما المستكبر الذي يجر ثوبه فهو الذي ورد فيه ذلك الوعيد الشديد.

يروى عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدة منهما أدخلته النار»**[1].

روى كريب بن إبراهيم عن أبي ريحانة، سمعه يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«لا يدخل شيء من الكبر الجنة»**[2].

وترك التكبر واجب فرضًا وهيئة اللباس سنة.

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٨)، وأبو داود (٤/ ٣٥٠-٣٥١/ ٤٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٤)، وابن حبان (٢/ ٣٥-٣٦/ ٣٢٨)، والحاكم (١/ ٦١) وصححه على شرط مسلم، من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٣/ ٢٦٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٣-١٣٤). قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١١): «رواه أحمد ورجاله ثقات». وانظر الصحيحة (١٦٢٦).

قال ﷺ: «**إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا جناح عليه فيما بين ذلك إلى الكعبين، ما أسفل من ذلك ففي النار**»[١].

يعني أن هذا مستحق من فعل ذلك وهو عالم بالنهي، مستخف بما جاءه عن نبيه ﷺ، وإن عفا اللَّه عنه، فهو أهل العفو، وأهل المغفرة.

ومما يدل على أن جر الإزار مذموم على كل حال: ما ذكره أبو زرعة، قال: حدثنا محمد بن أبي عمر عن سفيان بن عيينة أنه أخبرهم عن زيد بن أسلم، قال: سمعت عبد اللَّه بن عمر يقول لابن ابنه عبد اللَّه بن واقد: يا بني! ارفع إزارك؛ فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا ينظر اللَّه يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء**»[٢].

ألا ترى أن ابن عمر لم يقل لابن ابنه: هل تجره خيلاء؟ بل أرسل ذلك إرسالًا خوفًا منه أن يكون ذلك خيلاء، ولو صح أنه ليس خيلاء لديه إن شاء الله»[٣].

وقال أيضًا: «وقد ظن قوم أن جر الثوب إذا لم يكن خيلاء، فلا بأس به. واحتجوا لذلك بما حدثناه عبد اللَّه بن محمد بن أسد، قال: حدثنا سعيد بن عثمان بن السكن، قال: حدثنا محمد بن يوسف، قال: أخبرنا البخاري، قال أخبرنا ابن مقاتل، قال أخبرنا عبد اللَّه، قال: أخبرنا موسى بن عقبة عن سالم بن عبد اللَّه عن عبد اللَّه بن عمر، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر اللَّه إليه يوم القيامة**»، فقال أبو بكر: إن أحد شقي ليسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إنك لست تصنع ذلك خيلاء**»[٤].

قال موسى قلت لسالم: أَذَكر عبدُ اللَّه من جر إزاره؟ قال: لم أسمعه إلا ذكر ثوبه. وهذا إنما فيه: إن أحد شِقَّي ثوبه يسترخي لا أنه تعمد ذلك خيلاء. فقال له رسول اللَّه ﷺ: **لست ممن يرضى ذلك، ولا يتعمده، ولا يظن بك ذلك**»[٥].

قال الحافظ: «قال ابن العربي: لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه ويقول:

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٥)، وأبو داود (٤/ ٣٥٣/ ٤٠٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١١٨٣/ ٣٥٧٣)، وابن حبان (١٢/ ٢٦٢-٢٦٣/ ٥٤٤٦-٥٤٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح البر (٣/ ٥٩٦-٥٩٧).

(٤) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٦٧)، والبخاري (٦/ ٢٢/ ٣٦٦٥)، وأبو داود (٤/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٤٠٨٥)، والنسائي (٨/ ٥٩٧/ ٥٣٥٠).

(٥) فتح البر (٣/ ٥٩٩).

لا أجره خيلاء؛ لأن النهي قد تناوله لفظًا، ولا يجوز لمن تناوله اللفظ حكمًا أن يقول: لا أمتثله لأن تلك العلة ليست فيَّ، فإنها دعوى غير مسلمة، بل إطالته ذيله دالة على تكبره. اهـ ملخصًا. وحاصله أن الإسبال يستلزم جر الثوب، وجر الثوب يستلزم الخيلاء، ولو لم يقصد اللابس الخيلاء»[1].

* * *

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الفواحش: جمع فاحشة، وهي ما عظم قبحه. وقيل: هي كل ما نهى اللَّه عنه. وقد تفحّش وتفاحش.

الإثم: الذنب. وقيل: الإثم والآثام: اسم للأفعال البطيئة عن الخيرات؛ لتضمنه معنى البطء. ويسمى الخمر إثمًا؛ قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

لأنها سبب فيه. وقولهم: تأثّم؛ أي: خرج من الإثم.

البغي: الاستطالة على الناس والكِبْر. والبغي: التعدي وتجاوز الحد، كان الإنسان مبتديًا بذلك أو منتصرًا متجاوزًا للحد في الانتصار.

سلطانًا: السلطان: البرهان والحجة التي يثبت بها الأمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال إلكيا الهراسي: «جمعت الآية المحرمات، كما جمع ما قبلها المحللات في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ مع ما فيه من تحريم الإسراف فيه، ولما حرم المحرمات نبه على اتباع الحجج والأدلة، لكي يكون المكلف متحرزًا في أمر دينه ودنياه»[1].

قال ابن القيم: «ودخل في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٣٩).

تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله وإن دق في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلًا بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط، أو خبر عنه باسم أو صفة نفيًا أو إثباتًا، أو خبرًا عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام، في أفعاله وصفاته ودينه»[1].

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ : «فيه ستة أقوال: أحدها: أن المراد به الزنى، ما ظهر منه: علانيته، وما بطن: سره، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والثاني: أن ما ظهر: نكاح الأمهات، وما بطن: الزنى، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال علي بن الحسين، والثالث: أن ما ظهر: نكاح الأبناء نساء الآباء، والجمع بين الأختين، وأن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، وما بطن: الزنى، روي عن ابن عباس أيضًا، والرابع: أن ما ظهر: الزنى، وما بطن: العزل، قاله شريح، والخامس: أن ما ظهر: طواف الجاهلية عراة، وما بطن: الزنى، قاله مجاهد، والسادس: أنه عام في جميع المعاصي»[2].

قلت: وهذا الأخير هو الصحيح؛ قال ابن عطية: «فقوله هنا: الفواحش، إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع أخرى، فكل ما حرمه الشرع فهو فاحش، وإن كان العقل لا ينكره، كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يجمع النوع كله؛ لأنه تقسيم لا يخرج عنه شيء، وهو لفظ عام في جميع الفواحش، وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك، بأن قال: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الطواف عريانًا، والبواطن: الزنى، وقيل غير هذا، مما يأتي على طريق المثال، و﴿وَمَآ﴾ بدل من الفواحش، وهو بدل بعض من كلّ، ومجموع القسمين يأتي بدل الشيء من الشيء، وهو هو، ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أيضًا لفظه عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم، هذا قول الجمهور، وقال بعض الناس: هي الخمر، واحتج على ذلك بقول الشاعر:

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٣٤).

(٢) زاد المسير (٣/ ١٢٩).

شربت الإثم حتى طار عقلي

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مكية، ولم تعن الشريعة لتحريم الخمر إلا بالمدينة، بعد أحد؛ لأن جماعة من الصحابة اصطبحوها يوم أحد، وماتوا شهداء وهي في أجوافهم، وأيضًا فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق، وإن صح فهو على حذف مضاف، وكأن ظاهر القرآن على هذا القول، أن تحريم الخمر من قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[١]، وهو في هذه الآية قد حرم، فيأتي من هذا أن الخمر إثم، والإثم محرم فالخمر محرمة، قال القاضي أبو محمد: ولكن لا يصح هذا؛ لأن قوله: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾ لفظ محتمل أن يراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراء وقتل النفس وغير ذلك آثام، فكأنه قال في الخمر هذه الآثام؛ أي: هي بسببها ومعها، وهذه الأشياء محرمة لا محالة، وخرجت الخمر من التحريم على هذا، ولم يترتب القياس الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه، ويعضد هذا أنا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾ وفي بعض الأحاديث، فتركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها قوم للمنافع، وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن، ونصوص الأحاديث وإجماع الأمة.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾التعدي وتجاوز الحد، كان الإنسان مبتديًا بذلك أو منتصرًا، فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان، وليس يتصور بغي بحق؛ لأن ما كان بحق فلا يسمى بغيًا»[٢].

قال القرطبي: «وأخرج الإثم والبغي من الفواحش، وهما منه لعظمهما وفحشهما، فنص على ذكرهما تأكيدًا لأمرهما، وقصدًا للزجر عنهما، وكذا ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟﴾ ، و﴿وَأَن تَقُولُوا۟﴾ ، وهما في موضع نصب عطفًا على ما قبل»[٣].

---

(١) البقرة: الآية (٢١٩).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٣٩٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٠١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في إثبات صفة الغيرة لله تعالى

* عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**ما من أحد أغير من اللَّه، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله**»[١].

★ **غريب الحديث:**

أغير: يجوز فيها الرفع والنصب، والغيرة صفة لله تعالى ينبغي إثباتها له من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، كما هو منهج السلف الصالح في كل الصفات، الذاتية والفعلية.

* عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه، فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال: **أتعجبون من غيرة سعد؟ فواللَّه لأنا أغير منه، واللَّه أغير مني، ومن أجل غيرة اللَّه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

غيرة: الغيرة: بفتح الغين، وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله؛ أي: يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره.

★ **فوائد الحديثين:**

قال شيخ الإسلام: «جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين وصفه سبحانه بأكمل المحبة للممادح، وأكمل البغض للمحارم، . . فقد أخبر النبي ﷺ: «**لا أحد أغير**

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (٩/ ٣٩٨/ ٥٢٢٠)، ومسلم (٤/ ٢١١٣/ ٢٧٦٠)، والترمذي (٥/ ٥٠٧/ ٣٥٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٨)، والبخاري (١٢/ ٢١٣/ ٦٨٤٦)، ومسلم (٢/ ١١٣٦/ ١٤٩٩). وأخرجه من غير ذكر موضع الشاهد: مسلم (٢/ ١١٣٥/ ١٤٩٨)، وأبو داود (٤/ ٦٧٠-٦٧١/ ٤٥٣٢-٤٥٣٣)، وابن ماجه (٢/ ٨٦٨/ ٢٦٠٥).

من الله» وقال: «**غيرة اللَّه أن يأتي المؤمن ما حرم عليه**»[١]، وهذا يعم جميع المحرمات، وقال: «**ومن أجل غيرة اللَّه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»، فهذا تخصيص لغيرته من الفواحش، وكذلك في حديث عائشة: «**لا أحد أغير من اللَّه أن يزني عبده أو تزني أمته**»[٢]، فهذه الغيرة من الفواحش، وكذلك عامة ما يطلق من الغيرة، إنما هو من جنس الفواحش، وبين النبي ﷺ أنه أغير من غيره من المؤمنين وأن المؤمن يغار واللَّه يحب الغيرة، وذلك في الريبة، ومن لا يغار فهو ديوث، وقد جاء في الحديث: «**لا يدخل الجنة ديوث**»[٣]، فالغيرة المحبوبة هي ما وافقت غيرة اللَّه تعالى، وهذه الغيرة هي أن تنتهك محارم اللَّه، وهي أن تؤتى الفواحش الباطنة والظاهرة، لكن غيرة العبد الخاصة، هي أن يشركه الغير في أهله، فغيرته من فاحشة أهله ليست كغيرته من زنى الغير؛ لأن هذا يتعلق به، وذاك لا يتعلق به إلا من جهة بغضه لمبغضة الله»[٤].

قال النووي: «أخبر ﷺ بأن سعدًا غيور، وأنه أغير منه، وأن اللَّه أغير منه ﷺ وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش، فهذا تفسير لمعنى غيرة اللَّه تعالى؛ أي: أنها منعه ﷻ الناس من الفواحش»[٥].

قال الغنيمان معلقًا على كلام النووي: «ليس هذا هو غيرة اللَّه تعالى، ولكن مقتضى الغيرة، كما يوضحه قوله: ومن أجل غيرة اللَّه حرم الفواحش، فبين أن تحريم الفواحش والمنع منها ليس هو الغيرة، وإنما هو من آثارها»[٦].

وفيهما من الفوائد: ما يدل على إثبات صفة الغيرة لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظمته سبحانه، قال الغنيمان: «وغيرة اللَّه تعالى من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٨٧)، والبخاري (٩/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٥٢٢٣)، ومسلم (٤/ ٢١١٤/ ٢٧٦١)، والترمذي (٣/ ٤٧١/ ١١٦٨).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ١٦٤)، والبخاري (٢/ ٦٧٢-٦٧٣/ ١٠٤٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨/ ٩٠١[١]). وأخرجه مختصراً دون ذكر الشاهد: أبو داود (١/ ٧٠٣/ ١١٩١)، والنسائي بأطول منه دون ذكر الشاهد أيضاً (٣/ ١٤٨-١٤٩/ ١٤٧١).

(٣) سيأتي تخريجه في تفسير سورة (النور).

(٤) الاستقامة (٢/ ٣-٧) بتصرف.

(٥) شرح النووي (١٠/ ١١١).

(٦) شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٣٦).

الغضب والرضى ونحو ذلك، من خصائصه التي لا يشاركه المرء فيها، وقد تقرر أنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته وكذلك في صفاته وأفعاله، ولكن لا بد من الاشتراك في ألفاظ الأسماء التي تضاف إلى اللَّه صفات له، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد؛ لأنه لا يمكن معرفة ما غاب عنا، إلا بمعرفة ما شهدناه، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد»[1].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٣٠-٣٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

* **غريب الآية:**

أمّة: الأمّة: الجماعة من الناس يجمعهم أمر ما، من دين أو لغة أو زمان أو مكان واحد، إما اختيارًا أو قهرًا. والجمع: أُمَمٌ.

أجل: الأجل: المدة المضروبة، ومنه أجل الإنسان؛ أي: عُمُره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مهددًا للمشركين الذين أخبر -جل ثناؤه- عنهم أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، ووعيدًا منه لهم على كذبهم عليه، وعلى إصرارهم على الشرك به، والمقام على كفرهم، ومذكرًا لهم ما أحل بأمثالهم من الأمم الذين كانوا قبلهم، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يقول: ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رسل الله، ورد نصائحهم، والشرك بالله مع متابعة ربهم حججه عليهم، ﴿أَجَلٌ﴾ يعني: وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثلات بهم على شركهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم وحلول العقاب بهم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يقول: لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يتمتعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم، وحين حلول أجل فنائهم ساعة من ساعات الزمان، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يقول: ولا يتقدمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتًا للهلاك»[1].

وقال الرازي: «اعلم أن الأجل هو الوقت المؤقت المضروب لانقضاء المهلة، وفي هذه الآية قولان: القول الأول: وهو قول ابن عباس والحسن ومقاتل: أن

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٦٧).

المعنى: أن اللَّه تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة. والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه. والقول الأول أولى لأنه تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولم يقل: ولكل أحد أجل، لأن الأمة هي الجماعة في كل زمان، ومعلوم من حالها التقارب في الأجل؛ لأن ذكر الأمة في ما يجري مجرى الوعيد أفحم، وأيضًا فالقول الأول يقتضي أن يكون لكل أمة من الأمم وقت معين في نزول عذاب الاستئصال عليهم، وليس الأمر كذلك لأن أمتنا ليست كذلك»[1].

قال ابن عطية: «كأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ تعارض؛ لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا، والوعيد بمعالجة إن كفروا.. والحق مذهب أهل السنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد، لا يتأخر عنه ولا يتقدم، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم اللَّه تعالى أنه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنه من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين، فندب الكل إلى طريق النجاة، وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها، فكأنه يقول: فإن آمنتم علمنا أنكم ممن قضى اللَّه له بالإيمان والأجل المؤخر، وإن كفرتم علمنا أنه ممن قضي له بالأجل المعجل بالكفر.. وعلى هذا الحد هو دعاء محمد ﷺ العالم إلى طريق الجنة، وقد علم أن منه من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أمر الأسير، يقال له: إما أن تؤمن فتترك وإلا قتلت»[2].

قال القرطبي: «فدل بهذا على أن المقتول إنما يقتل بأجله، وأجل الموت هو وقت الموت، كما أن أجل الدين هو وقت حلوله، وكل شيء وقت به شيء فهو أجل له، وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم اللَّه أنه يموت الحي فيه لا محالة، وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدورًا تأخيره. وقال كثير من المعتزلة إلا من شذ منهم: إن المقتول مات بغير أجله الذي ضرب له، وأنه لو لم

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٧٢).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٣٩٦).

يقتل لَحيي، وهذا غلط؛ لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله اللَّه من إزهاق نفسه عند الضرب له، فإن قيل: فإن مات بأجله فلم تقتلون ضاربه وتقتصون منه؟ قيل له: نقتله لتعديه، وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح، إذ ليس ذلك من فعله، ولو ترك الناس والتعدي من غير قصاص، لأدى ذلك إلى الفساد ودمار العباد، وهذا واضح»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أسباب بسط الرزق والزيادة في العمر

* عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره؛ فليَصِل رحمه**»[2].

★ غريب الحديث:

يُنسأ: مهموز؛ أي: يُؤخّر.

أثره: الأثر: الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور: وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وأجاب العلماء بأجوبة:

.. **منها:** أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة، إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم اللَّه ﷻ ما سيقع له من ذلك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٦-٢٢٩-٢٦٦)، والبخاري (١٠/ ٥٠٩/ ٥٩٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٧)، وأبو داود (٢/ ٣٢١/ ١٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٨/ ١١٤٢٩).

مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾[١] فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره، ولا زيادة، بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة، وهو مراد الحديث.

والثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت، حكاه القاضي، وهو ضعيف أو باطل، والله أعلم»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأجل أجلان: (أجل مطلق) يعلمه الله، (وأجل مقيد). وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ: «من سرّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصِل رحمه»؛ فإن الله أمر الملَك أن يكتب له أجلًا، وقال: «إن وصل رحمه زدته كذا وكذا»، والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر»[٣].

وسيأتي مزيد بيان لهذا المبحث عند قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من سورة (الرعد). وقد بسط القول في هذا المبحث صديق حسن خان في «فتح البيان»[٤] عند هذه الآية من سورة (الأعراف)، فليراجعه من شاء فإنه مفيد.

* * *

(١) الرعد: الآية (٣٩).
(٢) شرح مسلم (١٦/ ٩٣) بتصرف يسير.
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٧).
(٤) (٤/ ٣٣٩-٣٥٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾

★ غريب الآية:

يقصّون عليكم آياتي: أي: يتلون عليكم فرائضي وأحكامي. والقصص: إتباع الحديث بعضه بعضًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-، معرّفًا خلقه ما أعدّ لحزبه، وأهل طاعته، والإيمان به وبرسوله، وما أعدّ لحزب الشيطان وأوليائه، والكافرين به وبرسله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ يقول: إن يجئكم رسلي الذين أرسلهم إليكم بدعائكم إلى طاعتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي، ﴿مِّنكُمۡ﴾ يعني: من أنفسكم، ومن عشائركم وقبائلكم، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ يقول: يتلون عليكم آيات كتابي، ويعرّفونكم أدلتي وأعلامي على صدق ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي، ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ يقول: فمن آمن منكم بما أتاه به رسلي مما قص عليه من آياتي، وصدّق واتقى اللَّه، فخافه بالعمل بما أمره به، والانتهاء عما نهاه عنه، على لسان رسوله، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ يقول: وأصلح أعماله التي كان لها مفسدًا قبل ذلك من معاصي اللَّه بالتحوّب منها، ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقول: فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب اللَّه إذا وردوا عليه، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تجنبوها؛ اتباعًا منهم لنهي اللَّه عنها إذا عاينوا من كرامة اللَّه ما عاينوا هنالك...

فإن قال قائل: ما جواب قوله: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؟

قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك، فقال بعضهم في ذلك: الجواب مضمر، يدل عليه ما ظهر من الكلام، وذلك قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ وذلك لأنه حين قال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ كأنه قال: فأطيعوهم.

وقال آخرون منهم: الجواب: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ لأن معناه: فمن اتقى منكم وأصلح، قال: ويدل على أن ذلك كذلك تبعيضه الكلام، فكان في التبعيض اكتفاء من ذكر (منكم)»[1].

قال الرازي: «اختلف العلماء في أن المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف وحزن عند أهوال يوم القيامة. فذهب بعضهم إلى أنه لا يلحقهم ذلك، والدليل عليه هذه الآية، وأيضًا قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[2]، وذهب بعضهم إلى أنه يلحقهم ذلك الفزع؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾[3]؛ أي: من شدة الخوف.

وأجاب: هؤلاء عن هذه الآية: بأن معناه أن أمرهم يؤول إلى الأمن والسرور، كقول الطبيب للمريض: لا بأس عليك؛ أي: أمرك يؤول إلى العافية والسلامة، وإن كان في الوقت في بأس من علته»[4].

* * *

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠٣).

(٣) الحج: الآية (٢).

(٤) مفاتح الغيب (١٤/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وأما من كذب بأنباء رسلي التي أرسلتها إليه، وجحد توحيدي، وكفر بما جاء به رسلي، واستكبر عن تصديق حججي وأدلتي، فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ يقول: هم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبدًا»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبرًا وعنادًا لمن جاء بها أن يكون إمامًا متبوعًا للمستكبرين؛ لأنهم يرون أنفسهم فوقه، أو أقوامهم فوق قومه، أو يحبون أن يُروا الناس ويوهموهم ذلك، فرؤساء قريش المستكبرون منهم من كان يرى من الضعة والمهانة أن يكون مرؤوسًا للنبي ﷺ نفسه؛ لأنهم أكثر منه مالًا وأعزّ نفرًا، أو أكبر سنًّا، فيرون أنهم أحق بالرياسة، وكان من هؤلاء بعض عشيرته بني هاشم، ومنهم من كان يستكبر أن يتبع رجلًا من بني هاشم كأبي جهل وأبي سفيان، وآخرين مات بعضهم على الكفر ودان بعضهم بالإسلام بعد ظهوره. ولم يكن في غير قريش من العرب من يستكبر أن يتبع رجلًا منهم إلا بالتبع لعدم اتباعهم هم له، ولكن أحبار اليهود استكبروا عن اتباعه لأنه عربي وهم يرون أن النبوة يجب حصرها فيهم؛ كما تقدم في سورة (البقرة). وكذلك أمراء المجوس، ورؤساء دينهم إذ كانوا يحتقرون العرب كافة إلا من هدى اللّه من الفريقين. ولا يزال بعض الشعوب يأبى الاهتداء بالإسلام استكبارًا عن اتباع أهله؛ بل نرى بعض غلاة العصبية الجنسية المرتدين عن الإسلام من الترك كذلك؛ حتى نقلت صحف الأخبار عن بعضهم أنه قال: إن قومه يستنكفون أن يتسفلوا لأتباع

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٦٨).

الخلفاء الراشدين! بل قال ما هو أكبر من ذلك إثمًا!!

والمعنى: أن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا، واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدًا له على الرياسة، وتفضيلًا لأنفسهم عليه، أو لقومهم على قومه؛ فأولئك ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين يخلدون فيها، لا كالذين يعذبون فيها زمنًا معينًا على ذنوب اقترفوها.

وجملة القول في هاتين الآيتين أن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتباعهم في اتقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافاته والرذائل والمعاصي، وفي إصلاح أعمالهم بالطاعات؛ يترتب عليه الأمن من الخوف من كل ما يتوقع والحزن على كل ما يقع، إما مطلقًا، وإما بالنسبة إلى غير المؤمنين المتقين، وإن تكذيب ما جاؤوا به من آيات الله والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه الخلود في النار فَوْقَ ما بين في آيات أخرى من سوء الحال في الدنيا، وقد سكت عن الجزاء الدنيوي هنا؛ لأن الآية الأولى تدل عليه، ولأنه لا يظهر للناس في كل وقت»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٤١٠-٤١١).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

ينالهم: النَّيل: يقال: نال الشيء: إذا وصل إليه وحازه وأدركه.

يتوفونهم: التوفي: أصله: قبض الشيء بتمامه، والمراد هنا: قبض الروح.

ضلّوا عنّا: أي: هلكوا وتلفوا وفقدوا وبطلوا وذهبوا. والضلال في الأصل: إما العدول عن الطريق المستقيم، وإما الغيبوبة والضياع، والأول يقابله الهداية، والثاني يقابله الوجدان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فمن أخطأُ فعلًا وأجهلُ قولًا وأبعدُ ذهابًا عن الحق والصواب ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقول: ممن اختلق على اللَّه زورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن اللَّه أمرنا بها، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يقول: أو كذّب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يقول: من فعل ذلك فافترى على اللَّه الكذب، وكذّب بآياته ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يقول: يصل إليهم حظهم مما كتب اللَّه لهم في اللوح المحفوظ.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة ذلك النصيب الذي لهم في الكتاب وما هو، فقال بعضهم: هو عذاب اللَّه الذي أعدّه لأهل الكفر به. . .

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما سبق لهم من الشقاء والسعادة. . .

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من كتابهم الذي كتب لهم أو عليهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير وشر...

وقال آخرون: معنى ذلك: ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر...

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب الذي كتبه الله على ما افترى عليه...

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما كتب لهم من الرزق والعمر والعمل...

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا، ورزق وعمل وأجل، وذلك أن الله -جل ثناؤه- أتبع ذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فأبان بإتباعه ذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيًّا عليهم في الدنيا أن ينالهم؛ لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم، ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعدّ لهم في الآخرة، لم يكن محدودًا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم؛ لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء؛ فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه، فبين بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه»[1].

وقال ابن كثير: «وهذا القول قويّ في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾[3]»[4].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٦٨-١٧٢).
(٢) يونس: الآيتان (٦٩و٧٠).
(٣) لقمان: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤١٠).

قال ابن جرير: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾: يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ إلى أن جاءتهم رسلنا، يقول -جل ثناؤه-: وهؤلاء الذين افتروا على اللَّه الكذب، أو كذّبوا بآيات ربهم ينالهم حظوظهم التي كتب اللَّه لهم، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل، وخير وشر في الدنيا، إلى أن تأتيهم رسلنا لقبض أرواحهم، فإذا جاءتهم رسلنا، يعني ملك الموت وجنده، ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة، ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون اللَّه وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر اللَّه الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهلاّ يغيثونكم من كرب ما أنتم فيه فينقذوكم منه؟ فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضل عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون اللَّه، يعني بقوله: ﴿ضَلُّواْ﴾ جاروا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا، يقول اللَّه -جل ثناؤه-: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين باللَّه، جاحدين وحدانيته»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾

★ **غريب الآية:**

خلت: مضت وانتهى زمانها.

ادّاركوا: تلاحقوا؛ أي: لحق كل بالآخر.

أخراهم لأولاهم: أي: آخرهم دخولًا، وهم الأتباع، لأولاهم، وهم القادة.

ضِعْفًا: أي: مرتين. والضِّعْفُ: من الأسماء المتضايفة -التي يقتضي وجود أحدها وجود الآخر، كالنصف والزوج، وهو تركُّب قدرين متساويين- ويختص بالعدد. تقول: أضعفت الشيءَ وضَعَّفْته وضاعفته: إذا ضممتَ إليه مثله فصاعدًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -جل ثناؤه- عن قيله لهؤلاء المفترين عليه، المكذبين آياته يوم القيامة، يقول -تعالى ذكره-: قال لهم حين وردوا عليه يوم القيامة: ادخلوا أيها المفترون على ربكم، المكذّبون رسله في جماعات من ضربائكم: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ يقول: قد سلفت من قبلكم ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾. ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار، قد خلت من قبلكم من الجن والإنس. وإنما يعني بالأمم: الأحزاب وأهل الملل الكافرة، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾، يقول -جل ثناؤه-: كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ يقول: شتمت الجماعة الأخرى من أهل ملتها تبريًا منها. وإنما عني بالأخت: الأخوّة في الدين والملة، وقيل: ﴿أُخۡتَهَاۖ﴾ ولم يقل: أخاها؛ لأنه عنى بها أمة وجماعة أخرى، كأنه قيل: كلما دخلت أمة لعنت أمة أخرى من أهل

ملتها ودينها»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي: أخراهم دخولًا، وهم الأتباع، لأولاهم، وهم المتبوعون؛ لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٤]»[٥].

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله -جل ثناؤه- عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة، يقول الله -تعالى ذكره-: فإذا اجتمع أهل الملل الكافرة في النار فادّاركوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار -الذين كانوا في الدنيا بعد أولى منهم تقدمتها، وكانت لها سلفًا وإمامًا في الضلالة والكفر- لأولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزيّنوا لنا طاعة الشيطان، فآتهم اليوم من عذابك الضعف على عذابنا»[٦].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٢-١٧٣).
(٢) العنكبوت: الآية (٢٥).
(٣) البقرة: الآيتان (١٦٦و١٦٧).
(٤) الأحزاب: الآيات (٦٦-٦٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤١٠-٤١١).
(٦) جامع البيان (٨/ ١٧٣).
(٧) النحل: الآية (٨٨).

أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[1]، وقـــال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2]»[3].

قال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات: أن الأتباع يسألون اللّٰه يوم القيامة أن يضاعف العذاب للمتبوعين، وبيّن في مواضع أخر: أن مضاعفة العذاب للمتبوعين لا تنفع الأتباع، ولا تخفف عنهم من العذاب، كقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[4]، وقوله هنا: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات»[7].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولكنكم يا معشر أهل النار، لا تعلمون ما قدر ما أعدّ اللّٰه لكم من العذاب، فلذلك تسأل الضعف منه الأمة الكافرة الأخرى، لأختها الأولى»[8].

* * *

---

(١) العنكبوت: الآية (١٣).
(٢) النحل: الآية (٢٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤١١).
(٤) الزخرف: الآية (٣٩).
(٥) الأعراف: الآية (٣٩).
(٦) غافر: الآية (٤٨).
(٧) أضواء البيان (٢/ ١٤-١٥).
(٨) جامع البيان (٨/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وقالت أولى كل أمة وملة سبقت في الدنيا لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم، وحدثوا بعد زمانهم فيها، فسلكوا سبيلهم، واستنوا سنتهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة اللَّه بمعصيتنا إياه، وكفرنا به، وجاءتنا وجاءتكم بذلك الرسل والنُّذر، هل انتهيتم إلى طاعة اللَّه، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالتكم؟ فانقضت حجة القوم وخصموا، ولم يطيقوا جوابًا بأن يقولوا: فُضّلنا عليكم أنا اعتبرنا بكم فآمنا باللَّه وصدّقنا رسله، قال اللَّه لجميعهم: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ جميعكم أيها الكفرة عذاب جهنم، ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والمعاصي، وتجترحون من الذنوب والإجرام»[(١)].

قال ابن عاشور: «وفيما قصّ اللَّه من محاورة قادة الأمم وأتباعهم ما فيه موعظة وتحذير لقادة المسلمين من الإيقاع بأتباعهم فيما يَزِجّ بهم في الضلالة، ويحسّن لهم هواهم، وموعظة لعامتهم من الاسترسال في تأييد من يشايع هواهم، ولا يبلغهم النصيحة، وفي الحديث: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[(٢)]»[(٣)].

قال محمد رشيد رضا: «إن كل دعاة التقليد الأعمى من هؤلاء المضلين الذين يضاعف لهم العذاب، وإن أئمة الهدى من علماء السلف ليسوا منهم؛ لأنهم كانوا يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة ليفتحوا للناس أبواب الفهم والفقه فيهما مع

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٤).

(٢) تقدم تخريجه تحت قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية (٦) من سورة (الأعراف).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٢٥).

نهيهم عن تقليدهم وأمرهم بعرض كلامهم على الكتاب والسنة، وأخذ ما وافقهما ورد ما عداه. ومنهم الأئمة الأربعة الذين تنتمي إليهم طوائف السنة وأئمة العترة الذين تنتمي إليهم الشيعة كالإمامين جعفر الصادق وزيد بن علي رضي الله عنهم أجمعين. لم يبح أحد من هؤلاء الأئمة التقليد -وقد حرمه الله في كتابه- فهم برآء من جميع المقلدين لهم ولغيرهم في دين الله كما فصلناه في تفسير تلك الآيات وفي مواضع أخرى. وورد في معنى ذلك آيات أخرى في سورة (إبراهيم) و(القصص) و(الأحزاب) و(الصافات) و(ص) وغيرهن»[1].

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على أن الكفار والضلاّل والمبتدعة، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالهم، وتوادّوا في الدنيا، فإنهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم. وتدل على فساد التقليد، والاغترار بقول علماء السوء. وتدل على أن الداعي إلى الضلال مضلّ. وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له. وتدل على أن اشتراكهم في العذاب لا يوجب لهم راحة، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا»[2].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٤١٥).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٧٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الجمل: الجمل من الإبل. قال الفراء: الجمل زوج الناقة. وكذا قال عبد الله بن مسعود لما سئل عن الجمل فقال: هو زوج الناقة، كأنه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعًا. والجمع: جِمال وأجمال وجمالات وجمائل. وإنما يسمى جملًا إذا أربع.

سمّ الخياط: السَّمّ والسُّمّ: هو ثقب الإبرة وخَرَمُهَا. وقيل: هو كل ثقب ضيق كخرق الإبرة، وثقب الأنف والأذن، والجمع: سُموم.

الخِياط: ما يخاط به كالإبرة. ويقال: خياط ومِخْيَط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين كذّبوا بحججنا وأدلتنا فلم يصدّقوا بها، ولم يتبعوا رسلنا، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ يقول: وتكبّروا عن التصديق بها، وأنفوا من اتباعها والانقياد لها تكبرًا، لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم في حياتهم قول ولا عمل؛ لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1]»[2].

وقال في قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

(١) فاطر: الآية (١٠).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٧٥).

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ : «يقول -جل ثناؤه-: ولا يدخل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها الجنة التي أعدها اللَّه لأوليائه المؤمنين أبدًا، كما لا يلج الجمل في سم الخياط أبدًا، وذلك ثقب الإبرة، وكل ثقب في عين أو أنف أو غير ذلك، فإن العرب تسميه سَمًّا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الكافر لا تصعد له روح إلى السماء ولا يرفع له عمل في الحياة الدنيا للقبول

* عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكث به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا باللَّه من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كَفَن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من اللَّه ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول اللَّه ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده.

فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي اللَّه. فيقولان له: ما

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٧-١٧٨).

دينك ؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللَّه ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب اللَّه فآمنت به وصدقت. فينادي مناد في السماء: أنْ صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مَدَّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبْشِر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالخير؟! فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من اللَّه وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فيقول اللَّه ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا، ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. . . ! فينادي مناد من السماء: أنْ كذب فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح

---

(١) الحج: الآية (٣١).

الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟! فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تُقم الساعة»(١).

★ غريب الحديث:

حنوط: الحَنُوط والحِناط واحد: وهو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء: السقاء يكون للَّبن والماء، والقربةُ تكون للماء خاصة. والمعنى: يريد خروج روحه بسهولة كسهولة تقطير الماء من فم القربة.

في علِّيين: قيل: هو اسم أشرف الجنان.

السَّفُّود: بوزن التَّنُّور: الحديدة التي يشوى بها اللحم.

سجِّين: السِّجِّين: اسم لجهنم بإزاء علِّيين، وزيد لفظه تنبيهًا على زيادة معناه.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: أن الكفار لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء وقد تنازع العلماء الاحتجاج بهذا الحديث في بيان المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ﴾، فأيّد به ابن جرير القول الذي اختاره في هذه الآية، وهو أن أبواب السماء لا تفتح لأعمال الكفار في حياتهم، ولا لأرواحهم بعد هلاكهم، وأيد به القرطبي وابن كثير، قول من قال: إن المراد بالآية أن السماء لا تفتح لأرواحهم فقط.

قال ابن جرير: «وإنما اخترنا في تأويل ذلك ما اخترنا من القول، لعموم خبر اللَّه -جل ثناؤه-، أن أبواب السماء لا تفتح لهم، ولم يخصص الخبر أنه يفتح لهم في شيء، فذلك على ما عمه خبر اللَّه تعالى، بأنها لا تفتح لهم في شيء، مع تأييد الخبر عن رسول اللَّه ﷺ، ما قلنا في ذلك»(٢).

---

(١) أخرجه بطوله: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، وصححه الحاكم (١/ ٣٧-٣٨) ووافقه الذهبي. وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ١٧٨).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جهنم: اسم من أسماء النار، مأخوذ من قولك: بئرٌ جِهِنَّامٌ؛ أي: بعيدة القعر. وقيل: من الجُهُومَة وهي الغِلَظ. ومُنعت من الصرف للعلمية والتأنيث.

مهاد: المهاد: الوطاء الذي يفترش، من مهّدتُ الأرض ومهدتُها؛ أي: وطّأتها. ومنه مهد الصبي.

غواشٍ: الغواشي: جمع غاشية. وهو كل ما يغشاك؛ أي: يسترك. وقيل: هذا تهكم بهم في اللفظين: المهاد والغواشي؛ لأن كلاًّ منهما إنما يستعمل في الأمر المحمود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لهؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها: ﴿مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع كالفراش الذي يُفرش، والبساط الذي يُبسط، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وهو جمع غاشية، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم.

وإنما معنى الكلام: لهم من جهنم مهاد، من تحتهم فرش، ومن فوقهم منها لُحُف، وإنهم بين ذلك. . .

وأما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه يقول: وكذلك نثيب ونكافئ من ظلم نفسه فأكسبها من غضب اللَّه ما لا قبل لها به بكفره بربه وتكذيبه أنبياءه»[1].

قال محمد رشيد رضا: «والمراد أن جهنم مطبقة عليهم، ومحيطة بهم؛ كما

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٢).

قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾[١]، وكما قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: ومثل هذا الجزاء نجزي جنس الظالمين لأنفسهم وللناس بشرطه الذي ذكر في المجرمين آنفًا.

وأفادت الآيتان أن المجرمين والظالمين الراسخين في صفتي الإجرام والظلم هم الكافرون، وأن المؤمنين لا يكونون كذلك، كما قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣]، وهذا تحقيق القرآن والناس في غفلة عنه، ولذلك خالفوه في عرفه»[٤].

* * *

(١) الهمزة: الآية (٨).

(٢) التوبة: الآية (٤٩)، العنكبوت: الآية (٥٤).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٤).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: والذين صدّقوا اللَّه ورسوله، وأقرّوا بما جاءهم به من وحي اللَّه وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم اللَّه به فأطاعوه وتجنبوا ما نهاهم عنه، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقول: لا نكلف نفسًا من الأعمال إلا ما يسعها، فلا تحرج فيه، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يقول: هم أهل الجنة الذين هم أهلها دون غيرهم ممن كفر باللَّه وعمل بسيئاتهم، ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يقول: هم في الجنة ماكثون دائم فيها مكثهم، لا يخرجون منها، ولا يسلبون نعيمهم»[١].

قال ابن القيم: «اعترض بين المبتدإ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ . وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد؛ فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط، وتقدير صفة محذوفة؛ أي: نفسًا منهم، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٢).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾[(١)]

★ **غريب الآية:**

صدورهم: الصدر: الجارحة، ثم استعير لمقدّم الشيء، كصدر القناة وصدر المجلس والكتاب والكلام. وصَدَره: أصاب صدره. ورجل مصدور: يشكو صدره.

غِلّ: الغِلّ: الحقد والإحنة والبغض، وكذلك الغُلول. وجمع الغِلّ: غِلال.

تجري: الجري: المرّ السريع، وأصله في الماء أو ما يجري مجراه.

الأنهار: النهر: أصله الشق الواسع الذي يجري فيه الماء. من نَهَرْتُ الشيءَ؛ أي: شقَقْتُه شَقًّا واسعًا. ثم تجوّز به عن الماء الجاري فيه للمجاورة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وَصَفَ صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغل وعداوة، كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذ أدخلهموها على سرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خص اللَّه به بعضهم، وفضله من كرامته عليه، تجري من تحتهم أنهار الجنة»[(٢)].

قال الشوكاني: «من جملة ما ينعم اللَّه به على أهل الجنة أن ينزع اللَّه ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضًا، حتى تصفو قلوبهم، ويود بعضهم بعضًا، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة؛ لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر»[(٣)].

قال الشنقيطي: «وذكر في موضع آخر أن نزع الغل من صدورهم يقع في حال

---

(١) الأعراف: الآية (٤٣).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٨٣).

(٣) فتح القدير (٢/ ١٩١).

كونهم إخوانًا على سرر متقابلين، آمنين من النصب والخروج من الجنة، وهو قوله تعالى في (الحجر): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن يزيد بن زريع: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يُخْلَصُ المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»[3].

★ غريب الحديث:

يُخْلَص: بصيغة المجهول مخففًا، من الإخلاص، وفي نسخة بالتشديد، وفي أخرى بفتح الياء وضم اللام، من الخلاص، يقال: خلص فلان: إذا سلم ونجا.

على قنطرة: قال في «اللسان»: «القنطرة معروفة: الجسر» قال الحافظ: «اختلف في القنطرة المذكورة فقيل: هي من تتمة الصراط، وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل: إنهما صراطان، وبهذا الثاني جزم القرطبي»[4]. قال ابن عثيمين: «والصواب في هذا أن نقول: اللَّه أعلم، وليس يعنينا شأنها، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها»[5].

فيقص: بضم أوله على البناء للمجهول، ويروى: فيقتص، من الاقتصاص، وفي رواية: فيقص، بفتح أوله، فتكون اللام في قوله: لبعضهم، زائدة، أو الفاعل محذوف، وهو اللَّه، أو من أقامه في ذلك.

---

(١) الحجر: الآيتان (٤٧و٤٨). (٢) أضواء البيان (٢/ ١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣، ٦٣)، والبخاري (١١/ ٤٨١-٤٨٢/ ٦٥٣٥).

(٤) فتح البيان (١١/ ١٨٦). (٥) شرح الواسطية (٢/ ١٦٣).

حتى إذا هذبوا ونقوا: التهذيب كالتنقية، ورجل مهذب؛ أي: مطهر الأخلاق، فعلى هذا قوله: «ونقوا» تفسير لقوله: «هذبوا»، وأدخل واو العطف بين المفسر والمفسر.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قرأ يزيد هذه الآية وفسرها بالحديث المذكور، وقد أخرجه الإسماعيلي من طريق محمد بن المنهال عن يزيد بن زريع بهذا السند إلى أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[1]: قال: يخلص المؤمنون» الحديث. وظاهره أن تلاوة الآية مرفوع، فإن كان محفوظًا احتمل أن يكون كل من رواته تلا الآية عند إيراد الحديث، فاختصر ذلك في رواية الصلت، ممن فوق يزيد بن زريع»[2].

قال القرطبي: «معنى «يخلص المؤمنون من النار» أي: يخلصون من الصراط المضروب على النار، ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال»[3].

قال الحافظ: «قال القرطبي: هؤلاء المؤمنون هم الذين علم اللَّه أن القصاص لا يستنفد حسناتهم. قلت: ولعل أصحاب الأعراف منهم على القول المرجح آنفًا، وخرج من هذا صنفان من المؤمنين: من دخل الجنة بغير حساب، ومن أوبقه عمله»[4].

قوله: «فيقتص لبعضهم من بعض»:

قال ابن عثيمين: «وهذا القصاص غير القصاص الأول، الذي في عرصات القيامة؛ لأن هذا قصاص أخص، لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص، فهذه القنطرة بين الجنة والنار، لأجل تنقية ما في القلوب، حتى

---

(١) الحجر: الآية (٤٧).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٨٥).

(٣) التذكرة (ص: ٣٣٩).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٨٦).

يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[١]»[٢].

قوله: «حتى إذا هذبوا ونقوا»:

قال القسطلاني: «المراد التخليص من التبعات، فإذا خلصوا منها أذن لهم.. في دخول الجنة، وليس في قلوب بعضهم على بعضهم غل؛ أي: حقد كامل في قلوبهم، بل ألقى اللَّه فيها التواد والتحاب»[٣].

* * *

(١) الحجر: الآية (٤٧).

(٢) شرح الواسطية (٢/ ١٦٣-١٦٤).

(٣) إرشاد الساري (١٣/ ٦٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء الذين وصف -جل ثناؤه-، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات حين أدخلوا الجنة، ورأوا ما أكرمهم اللَّه به من كرامته، وما صرف عنهم من العذاب المهين الذي ابتلي به أهل النار بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رسله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، يقول: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الذي أكسبنا هذا الذي نحن فيه، من كرامة اللَّه وفضله، وصرف عذابه عنا، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ يقول: وما كنا لنرشد لذلك لولا أن أرشدنا اللَّه له، ووفقنا بمنه وطَوْلِهِ»[2].

وقال ابن عطية في قوله: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾: «وهدانا، بمعنى: أرشدنا، والإشارة بهذا تتجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى دخول الجنة، ويحتمل أن تكون إلى الجنة نفسها؛ أي: أرشدنا إلى طرقها، ولكل واحد من الوجهين أمثلة في القرآن»[3].

قال ابن القيم: «ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا اللَّه على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة، كان أحسن وأبلغ»[4].

قلت: وإلى هذا المعنى ذهب ابن جرير عند بيانه لمعنى الآية كما تقدم.

قال الألوسي: «ولا يخفى ما في هذه الآية من الرد الواضح على القدرية الزاعمين أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، ولم يخلق اللَّه تعالى له ذلك»[5].

---

(١) الأعراف: الآية (٤٣).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٨٤)
(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٤٠٢).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٩٠٣).
(٥) روح المعاني (٨/ ١٢١).

قال ابن عاشور: «دل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء، كما أفاده نفي الكون مع لام الجحود، . . فإنهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة، قد رسخت في أنفسهم، فأما قادتهم، فقد زينها الشيطان لهم حتى اعتقدوها، وسنوها لمن بعدهم، وأما دهماؤهم وأخلافهم، فقد رأوا قدوتهم على تلك الضلالات، وتأصلت فيهم، فما كان من السهل اهتداؤهم، لولا أن هداهم اللَّه ببعثة الرسل وسياستهم في دعوتهم، وأن قذف في قلوبهم قبول الدعوة، ولذلك عقبوا تحميدهم وثناءهم على اللَّه بقولهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فتلك جملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا، لصدورها عن ابتهاج نفوسهم، واغتباطهم بما جاءتهم به الرسل فجعلوا يتذكرون أسباب هدايتهم، ويعتبرون بذلك ويغتبطون، تلذذًا بالتكلم به؛ لأن تذكر الأمر المحبوب، والحديث عنه مما تلذ به النفوس، مع قصد الثناء على الرسل، وتأكيد الفعل بلام القسم وبقد، مع أنهم غير منكرين لمجيء الرسل: إما لأنه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرسل، من النعيم لما وجدوه مثل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[(١)] وقول النبي ﷺ: «**قال اللَّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(٢)]، وإما لأنهم أرادوا بقولهم هذا، الثناء على الرسل، والشهادة بصدقهم، جمعًا مع الثناء على اللَّه، فأتوا بالخبر في صورة الشهادة المؤكدة، التي لا تردد فيها»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان قيل أهل الجنة عند دخولهم الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن اللَّه هداني، فيكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى**

---

(١) الزخرف: الآية (٧١).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٤٩٥)، والبخاري (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٣٣).

مقعده من النار فيقول: لولا أن اللَّه هداني، قال: فيكون له شكر»[١].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: «بيان ما يقوله أهل الجنة عند دخولهم الجنة»[٢] اعترافًا بفضل اللَّه عليهم، وحمدًا له على الهداية التامة إلى الإيمان والأعمال الصالحة، التي بسببها نالتهم الرحمة، فأدخلوا الجنة وزحزحوا عن النار.

قال الكرماني: «فإن قلت: الجنة ليست دار شكر، بل هي دار جزاء، قلت: الشكر ليس على سبيل التكليف، بل هو على سبيل التلذذ، أو المراد لازمه، وهو الرضى والفرح؛ لأن الشاكر عن الشيء راض به فرحان بذلك»[٣].

* عن البراء بن عازب قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

«واللَّه لولا اللَّه ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا»[٤].

★ فوائد الحديث:

فيه اعتراف الصحابة رضي الله عنهم بفضل اللَّه عليهم حيث هداهم لهذا الدين. وقد ترجم له البخاري بقوله: «باب ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٢) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧/ ١١٤٥٤)، والحاكم (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» من طريقين (١٠/ ٣٩٩) وقال: «رواه كله أحمد، ورجال الرواية الأولى -يشير إلى هذه الرواية- رجال الصحيح»، وأخرجه البخاري (١١/ ٥١٠/ ٦٥٦٩) دون قوله: «لولا أن اللَّه هداني» ودون قوله: «لو أن اللَّه هداني».

(٢) أفاده البيهقي في «البعث والنشور» (ص: ١٤٥). (٣) شرح صحيح البخاري (٢٣/ ٥٧-٥٨)

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٥و٢٩١)، والبخاري (١١/ ٦٣٠/ ٦٦٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٣٠/ ١٨٠٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٩/ ٨٨٥٧).

(٥) الزمر: الآية (٥٧).

قال ابن بطال: «في هاتين الآيتين، وفي هذا الحديث نص أن اللَّه تعالى انفرد بخلق الهدى والضلال، وإنما قدر العباد على اكتساب ما أراد منهم اكتسابهم له من إيمان أو كفر، وأن ذلك ليس بخلق للعباد كما زعمت القدرية.

وروي أن علي بن أبي طالب لقي رجلًا من القدرية فقال له: خالفتم اللَّه وخالفتم الملائكة، وخالفتم أهل الجنة وخالفتم أهل النار وخالفتم الأنبياء وخالفتم الشيطان، فأما خلافكم الله؛ فقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1]. وأما خلافكم الملائكة؛ فقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[2]. وأما خلافكم الأنبياء؛ فقول نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[3]. وأما خلافكم أهل الجنة؛ فقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾. وأما خلافكم لأهل النار؛ فقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾[4]. وأما خلافكم الشيطان؛ فقول إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[5]»[6].

قال ابن القيم في معرض كلامه عن الهدى والضلال، ومراتبهما، والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم، قال: «هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر اللَّه لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويُقَدّره عليه الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

وقد اتفقت رسل اللَّه من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه»[7].

* * *

(١) القصص: الآية (٥٦).
(٢) البقرة: الآية (٣٢).
(٣) هود: الآية (٣٤).
(٤) المؤمنون: الآية (١٠٦).
(٥) الحجر: الآية (٣٩).
(٦) شرح البخاري (١٠/ ٣٢٦-٣٢٧).
(٧) شفاء العليل (ص: ١٨١-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نُودوا: النداء: رفع الصوت بطلب من ينادى. وقد يقال للصوت المجرّد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معناه: ونادى مناد هؤلاء الذين وصف اللَّه صفتهم وأخبر عما أعد لهم من كرامته: أن يا هؤلاء تلكم الجنة التي كانت رسلي في الدنيا تخبركم عنها، أورثكموها اللَّه عن الذين كذبوا رسله، لتصديقكم إياهم، وطاعتكم ربكم، وذلك هو معنى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[1].

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: «بسبب أعمالكم، لا بالتفضل كما تقول المبطلة»[2].

قال أحمد بن المنير: «يعني بالمبطلة قومًا سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل اللَّه وبرحمته، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه بفضل منه ورحمة**» فقالوا: صدق رسول اللَّه ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة، قيل لهم: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، قالوا: اللَّه تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل فضلًا منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه، وواجب للعبادة وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها جمعًا بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل الدال على أن اللَّه تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة، وحاكم نفسك إليها، ثم إذا

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٥).

(٢) الكشاف (٢/ ٨٠).

(٣) الزخرف: الآية (٧٢).

وضح لك أنهم برآء في هذا البر، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على اللَّه تعالى حقًّا بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها، تعالى وتقدس عن ذلك، ويطلقون القول بلسان الجراءة: أن الجنة ونعيمها إقطاعهم بحق مستحق على اللَّه تعالى لا تفضل له عليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه، وانظر أيّ الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة، والسلام»(١).

وقال النسفي: «سماها -أي: الجنة- ميراثًا لأنها لا تستحق بالعمل، بل هي محض فضل اللَّه، وعده على الطاعات، كالميراث من الميت، ليس بعوض عن شيء، بل هو صلة خالصة»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الميراث الذي لا يفنى ولا يبيد

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا. فذلك قوله** ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»(٣).

★ غريب الحديث:

تسقموا: يصيبكم الضعف.

أن تشِبُّوا: بكسر الشين المعجمة وتشديد الموحدة؛ أي: تدوموا شبابًا.

فلا تبأسوا أبدًا: أي: لا يصيبكم البأس، وهو شدة الحال.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد:

١- بيان «ما يقال لأهل الجنة إذا دخلوها»(٤)، وما ينادون به من البشارة العظيمة

---

(١) الإنصاف على ما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٢/ ٨٠) (حاشية الكشاف).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٩٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٢/ ٢٨٣٧)، والترمذي (٥/ ٣٤٩/ ٣٢٤٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٤).

(٤) أفاده الدارمي في سننه (٣/ ١٨٦٤/ ٢٨٦٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص: ١٤٥).

بالنعيم المقيم، الذي لا يشوبه بأس، ولا يعتريه فساد ولا تغير، قال الطيبي: «هذا النداء والبشارة ألذ وأشهى؛ لما فيه من السرور، وفي عكسه أنشد المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن منه صاحبه انتقالا»[1].

٢- «أن كل ما في الجنة دائم لا يبلى ولا يفنى ولا يبيد»[2].

٣- «أن أهل الجنة لا يموتون فيها لكمال حياتهم، وأن كمالهم في ازدياد من قوة الشباب، ونضرة الوجوه، وحسن الهيئة، وطيب العيش»[3].

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة، دفع اللَّه ﷻ إلى كل مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا، فيقول: هذا فكاكك من النار»**[4].

★ غريب الحديث:

فكاكك: الفكاك: بفتح الفاء وكسرها، والفتح أفصح وأشهر، وهو الخلاص والفداء.

★ فوائد الحديث:

قال البيهقي: «يشبه أن يكون هذا الحديث تفسيرًا لحديث الفداء، والكافر إذا أورث على المؤمن مقعده من الجنة، والمؤمن إذا أورث على الكافر مقعده من النار، يصير في التقدير كأنه فدى المؤمن بالكافر واللَّه أعلم، وقد علل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ حديث الفداء برواية بريد بن عبد اللَّه، وغيره عن أبي بردة، عن رجل من الأنصار عن أبيه، وبرواية أبي حصين عنه، عن عبد اللَّه بن يزيد، وبرواية حميد عنه، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ثم قال: الخبر عن النبي ﷺ في الشفاعة، وأن قومًا يعذبون ثم يخرجون من النار أكثرُ وأبين، وحديث أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قد صح عند مسلم بن الحجاج وغيره رحمهم اللَّه، من الأوجه

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٥٥٨).

(٢) أفاده القرطبي في «التذكرة» (ص: ٤٨٤).

(٣) أفاده ابن كثير في «النهاية» (٢/ ٤٦٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢١١٩/ ٢٧٦٧[٤٩]).

التي أشرنا إليها وغيرها، ووجهه ما ذكرناه، وذلك لا ينافي حديث الشفاعة؛ فإن حديث الفداء وإن ورد مورد العموم في كل مؤمن فيحتمل أن يكون المراد به كل مؤمن قد صارت ذنوبه مكفرة بما أصابه من البلايا في حياته، ففي بعض ألفاظه، «**إن أمتي أمة مرحومة، جعل اللَّه عذابها بأيديها، فإذا كان يوم القيامة دفع اللَّه إلى كل رجل من المسلمين رجلًا من أهل الأديان، فكان فداءه من النار**» وحديث الشفاعة، يكون في من لم تصر ذنوبه مكفرة في حياته، ويحتمل أن يكون هذا القول لهم في حديث الفداء بعد الشفاعة، واللَّه أعلم»[١].

وقال أبو الفتوح الطائي: «في الحديث رجاء عظيم لأهل الإيمان باللَّه تعالى، قال أبو أسامة: هذا الحديث خير للمؤمنين من الدنيا وما فيها، وعدّه أهل الدين من كنوز الحديث، اعتمادًا على فضل اللَّه تعالى فيه واعتدادًا به، وفيه دليل على كمال لطف اللَّه تعالى بعباده، وكرامتهم عليه حيث فدى أولياءه بأعدائه.. وأنكر المعتزلة هذا الحديث، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢]، والذي صاروا إليه خلاف الكتاب والسنة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٣]، وقال النبي ﷺ: «**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب كأمثال الجبال، فيغفرها اللَّه تعالى لهم، ويضعها على اليهود والنصارى**»[٤]»[٥].

قال النووي: «معناه أن اللَّه تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين ويسقطها عنهم ويضع على اليهود والنصارى مثلها، بكفرهم وذنوبهم، فيدخلهم النار بأعمالهم، لا بذنوب المسلمين.. ويحتمل أن يكون المراد آثامًا كان للكفار سبب فيها بأن سنّوها، فتسقط عن المسلمين بعفو اللَّه تعالى، ويوضع على الكفار مثلها لكونهم سنّوها، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه مثل وزر من يعمل بها، واللَّه أعلم»[٦].

قال أبو الفتوح الطائي: «ولا يُسْتَبْدَعُ من فضل اللَّه تعالى مع أهل الإسلام والإيمان، أي يفديهم بأهل الكفر والطغيان، وذلك عدل من اللَّه تعالى مع أهل

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٣٤٢-٣٤٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٣) العنكبوت: الآية (١٣).
(٤) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: مسلم (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٧[٥١]).
(٥) الأربعون الطائية (ص: ١٢٣-١٢٤).
(٦) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٧٠-٧١).

معصيته، وفضل على أهل طاعته، فإذا كان الفداء محمولًا على ما تقدم ذكره، فلا يصح استدلالهم -أي: المعتزلة- بالآية؛ لأن كل كافر معاقب بوزره على ما بيناه»[1].

قلت: وسيأتي مزيد بيان لمبحث وراثة المؤمنين الجنة، ومنازل الكفار التي أعد اللَّه لهم فيها لو أطاعوه، عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الآيتان (١٠و١١) من سورة (المؤمنون).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «لن ينجيَ أحدًا منكم عملُهُ»، قال رجل: ولا إياك؟ يا رسول الله! قال: ولا إياي، إلا أن يتغمدني اللَّه منه برحمة، ولكن سدِّدوا»[2].

★ غريب الحديث:

إلا أن يتغمدني اللَّه منه برحمة: أي: يلبسنيها ويغمدني بها، ومنه أغمدت السيف وغمدته: إذا جعلته في غمده وسترته به.

سدِّدوا: السداد: الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا، والمعنى: اطلبوا السداد واعملوا به.

★ فوائد الحديث:

وفي هذا الحديث من الفقه: «دلالة لأهل الحق، أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بعمله»[3].

قال ابن بطال: «فإن قال قائل: فإن قوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» يعارض قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]، قيل: ليس كما توهمت، ومعنى الحديث غير معنى الآية، أخبر النبي ﷺ في الحديث أنه لا يستحق أحد دخول الجنة بعمله، وإنما يدخلها العباد برحمة اللَّه، وأخبر اللَّه

(١) الأربعون الطائية (ص: ١٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٤)، والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠١).

(٣) أفاده النووي (١٧/ ١٣٢).

(٤) الزخرف: الآية (٧٢).

تعالى في الآية، أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، ومعلوم أن درجات العباد فيها متباينة، على قدر تباين أعمالهم، فمعنى الآية في ارتفاع الدرجات وانخفاضها والنعيم فيها، ومعنى الحديث في الدخول في الجنة والخلود فيها، فلا تعارض بين شيء من ذلك، فإن قيل: فقد قال اللَّه تعالى في سورة (النحل): ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، فأخبر أن دخول الجنة بالأعمال أيضًا، فالجواب: أن قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كلام مجمل يبينه الحديث، وتقديره: ادخلوا منازل الجنة وبيوتها بما كنتم تعملون، فالآية مفتقرة إلى بيان الحديث، وللجمع بين الحديث وبين الآيات وجه آخر، هو أن يكون الحديث مفسرًا للآيات، ويكون تقديرها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، و﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، و﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4] مع رحمة اللَّه لكم وتفضله عليكم؛ لأن فضله تعالى ورحمته لعباده في اقتسام المنازل في الجنة، كما هو في دخول الجنة لا ينفك منه، حين ألهمهم إلى ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاة اللَّه عباده من رحمته وتفضله، ألا ترى أنه جازى على الحسنة عشرًا، وجازى على السيئة واحدة، وأنه ابتدأ عباده بنعم لا تحصى، لم يتقدم لهم فيها سبب ولا فعل، منها أن خلقهم بشرًا سويًّا، ومنها نعمة الإسلام ونعمة العافية، ونعمة تضمنه تعالى لأرزاق عباده، وأنه كتب على نفسه الرحمة، وأن رحمته سبقت غضبه، إلى ما لا يهتدى إلى معرفته من ظاهر النعم وباطنها»[5].

قال الحافظ: «قال ابن الجوزي: يتحصل عن ذلك أربعة أجوبة:

الأول: أن التوفيق للعمل من رحمة اللَّه، ولولا رحمة اللَّه السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني: أن منافع العبد لسيده فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة اللَّه، واقتسام

---

(١) النحل: الآية (٣٢).
(٢) الزخرف: الآية (٧٢).
(٣) الطور: الآية (١٩).
(٤) النحل: الآية (٣٢).
(٥) شرح البخاري (١٠/ ١٨١).

الدرجات بالأعمال.

الرابع: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير، والثواب لا ينفد، فالإنعام الذي لا ينفد في جزاء ما ينفد بالفضل لا بمقابلة الأعمال.

وقال الكرماني: الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليست للسببية، بل للإلصاق أو المصاحبة؛ أي: أورثتموها ملابسة أو مصاحبة، أو للمقابلة، نحو أعطيت الشاة بالدرهم، وبهذا الأخير جزم الشيخ جمال الدين بن هشام في «المغني»، فسبق إليه فقال: ترد الباء للمقابلة، وهي الداخلة على الأعواض، كـ(اشتريته بألف)، ومنه: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وإنما لم تقدر هنا للسببية كما قالت المعتزلة، وكما قال الجميع في: **«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»**؛ لأن المعطي بعوض قد يعطي مجانًا، بخلاف المسبَّب فلا يوجد بدون سبب، قال: وعلى ذلك ينتفي التعارض بين الآية والحديث، قلت: سبقه إلى ذلك ابن القيم، فقال في كتاب «مفتاح دار السعادة» الباء المقتضية للدخول غير الباء الماضية، فالأولى السببية: الدالة على أن الأعمال سبب الدخول، المقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والثانية بالمعاوضة: نحو اشتريت منه بكذا، فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا رحمة اللَّه لعبده لما أدخله الجنة؛ لأن العمل بمجرده -ولو تناهى- لا يوجب بمجرده دخول الجنة، ولا أن يكون عوضًا لها؛ لأنه ولو وقع على الوجه الذي يحبه اللَّه لا يقاوم نعمة اللَّه، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها، وهو لم يوفّها حق شكرها، فلو عذّبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم، وإذا رحمه في هذه الحالة كانت رحمته خيرًا من عمله، كما في حديث أبي بن كعب الذي أخرجه أبو داود وابن ماجة في ذكر القدر، ففيه: **«لو أن اللَّه عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم»** الحديث[1]، قال: وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سببًا في دخول الجنة من كل وجه، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل، وأنها ثمنه، وأن دخولها بمحض الأعمال، والحديث يبطل دعوى الطائفتين واللَّه أعلم، قلت: وجوز الكرماني

---

(١) أخرجه من حديث أبي بن كعب ﷺ: أحمد (٥/ ١٨٢-١٨٣)، وأبو داود (٥/ ٧٥/ ٤٦٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٩-٣٠/ ٧٧)، وصححه ابن حبان (٢/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٧٢٧).

أيضًا أن يكون المراد أن الدخول ليس بالعمل، والإدخال المستفاد من الإرث بالعمل، وهذا إن مشى في الجواب عن قوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لم يمش في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، ويظهر لي في الجمع بين الآية والحديث جواب آخر، وهو أن يحمل الحديث على أن العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولًا، وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى اللَّه تعالى، وإنما يحصل برحمة اللَّه لمن يقبل منه، وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تعملونه من العمل المقبول، ولا يضر بعد هذا أن تكون الباء للمصاحبة أو للإلصاق أو المقابلة، ولا يلزم من ذلك أن تكون سببية، ثم رأيت النووي جزم بأن ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والجمع بينها وبين الحديث، أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها، إنما هو برحمة اللَّه وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الحديث، ويصح أنه دخل بسبب العمل، وهو من رحمة اللَّه تعالى، وردّ الكرماني الأخير بأنه خلاف صريح الحديث، وقال المازري: ذهب أهل السنة إلى أن إثابة اللَّه تعالى من أطاعه بفضل منه، وكذلك انتقامه ممن عصاه بعدل منه، ولا يثبت واحد منهما إلا بالسمع، وله ﷻ أن يعذب الطائع وينعم العاصي، ولكنه أخبر أنه لا يفعل ذلك، وخبره صدق لا خلف فيه، وهذا الحديث يقوي مقالتهم ويرد على المعتزلة حيث أثبتوا بعقولهم أعواض الأعمال، ولهم في ذلك خبط كثير وتفصيل طويل»[2].

* * *

(١) النحل: الآية (٣٢).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٥٧-٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾(١)

اقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ونادى أهل الجنة أهل النار بعد دخولهما: يا أهل النار! قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا في الدنيا على ألسن رسله من الثواب على الإيمان به وبهم، وعلى طاعته، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم على ألسنتهم على الكفر به، وعلى معاصيه من العقاب؟ فأجابهم أهل النار بأن نعم، قد وجدنا ما وعد ربنا حقًّا»(٢).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾: (أنْ): ههنا مفسرة للقول المحذوف، و(قد) للتحقيق؛ أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعَدَنا ربنا حقًّا؛ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ قالوا: نعم، كما أخبر تعالى في سورة (الصافات) عن الذي كان له قرين من الكفار، ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٣)؛ أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(٤)»(٥).

وقال الشوكاني: «مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم.. والاستفهام هو

(١) الأعراف: الآية (٤٤).
(٢) جامع البيان (٨/ ١٨٦).
(٣) الصافات: الآيات (٥٥-٥٩).
(٤) الطور: الآيات (١٤-١٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٧٠).

للتقريع والتوبيخ، وحذف مفعول (وعد) الثاني، لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس، كالبعث والحساب والعقاب، وقيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خطاب النبي ﷺ لمشركي بدر توبيخًا لهم وتحقيرًا

* عن أبي طلحة أن نبي اللَّه ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسرّكم أنكم أطعتم اللَّه ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟**». قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**». قال قتادة: أحياهم اللَّه حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا[2].

⋆ غريب الحديث:

صناديد قريش: هم أشرافهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صنديد، وكل عظيم غالب صنديد.

أطواء بدر: جمع طويّ، وهي البئر التي طُوِيت وبُنيت بالحجارة لتثبت ولا تنهار.

العرصة: هو كل موضع واسع لا بناء فيه.

---

(١) فتح القدير (٢/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩)، والبخاري (٧/ ٣٨٢/ ٣٩٧٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٥)، وأبو داود (٣/ ١٤٣-١٤٤/ ٢٦٩٥)، والترمذي (٤/ ١٠٣/ ١٥٥١).

على شفة الرَّكِي: أي: طرف البئر، والرَّكيّ، بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد آخره: البئر قبل أن تطوى، جمعها ركايا.

ووجه الجمع بين وصفه في هذا الحديث للبئر بأنها طويّ، ووصفه إياها بأنها ركيّ: أنها كانت مطوية، فاستهدُمت، فصارت كالركي. أفاده الحافظ.

★ **فوائد الحديث:**

في مناداته ﷺ أصحاب قليب بدر، ومخاطبته إياهم ﷺ بما خاطبهم به، بعد استقرارهم في القليب الذي قذفوا فيه، تقريع وتوبيخ لهم وزيادة في كربهم، كما قال قتادة: أحياهم اللَّه حتى أسمعهم توبيخًا ونقمة وحسرة وندامة، قال ابن بطال: «وعلى تأويل قتادة فقهاء الأئمة وجماعة أهل السنة، وعلى ذلك تأوله عبد اللَّه بن عمر راوي الحديث عن النبي ﷺ»[1].

قال الطيبي: «قوله: «أيسرّكم أنكم» قال المظهر: أي: هل تتمنون أن تكونوا مسلمين بعدما وصلتم إلى عذاب اللَّه. أقول: ينبغي أن يفسر هذا بما يترتب عليه قوله: «فإنا قد وجدنا»؛ لأنه كالتعليل له، فالمسرة هنا مستعارة لضدها من الحزن والكآبة تهكمًا وسخرية، كما أن البشارة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] مستعارة لضدها، وكالتحية في قول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

ومقام الشماتة والحسرة والنقمة يقتضيه، وينصره قول قتادة: أحياهم اللَّه حتى أسمعهم قوله توبيخًا، فالمعنى: أتحزنون وتتحسرون على ما فاتكم من طاعة اللَّه ورسوله أم لا؟ وتذكرون قولنا لكم: إن اللَّه سيظهر دينه على الدين كله، وينصر أولياءه ويخذل أعداءه، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا»[3].

قال العيني: «فإن قلت: ما وجه تخصيص هؤلاء بالخطاب؟ قلت: لأنه تقدم منهم من المعاندة العظيمة فخاطبهم بذلك توبيخًا لهم، وطرح باقي القتلى في أمكنة أخرى»[4].

---

(١) شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٥٩).
(٢) آل عمران: الآية (٢١).
(٣) شرح الطيبي (٩/ ٢٧٤٤).
(٤) عمدة القاري (١٢/ ٢٨).

قلت: ما أشبه الأمس بالغد! فإن اللَّه سبحانه أحيى هؤلاء -كما قال قتادة- حتى أسمعهم توبيخًا ونقمة وحسرة وندامة، ويتكرر هذا المشهد على نطاق أوسع حين يخاطب أهل الجنة أهل النار بعد استقرار كل فريق في مكانه توبيخًا ونقمة وحسرة وندامة، فهل من معتبر. نعوذ باللَّه من حال أهل النار.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عِوَجًا: العِوَج: المَيْل عن حالة الانتصاب. والعِوَجُ، بالكسر، يكون في المعاني؛ تقول: في دينه وأمره وطريقه عِوَجٌ. وبالفتح: يكون في الجثث؛ تقول: في هذا الحائط عَوَجٌ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: إن المؤذن بين أهل الجنة والنار يقول: أن لعنة اللَّه على الظالمين الذين كفروا باللَّه وصدوا عن سبيله، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يقول: حاولوا سبيل اللَّه وهو دينه، أن يغيروه ويبدلوه عما جعله اللَّه له من استقامته، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ يقول: وهم لقيام الساعة والبعث في الآخرة والثواب والعقاب فيها جاحدون»[1].

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآية تدل على أن ذلك المؤذن أوقع لعنة اللَّه على من كان موصوفًا بصفات أربع:

الصفة الأولى: كونهم ظالمين؛ لأنه قال: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال أصحابنا: المراد منه المشركون؛ وذلك لأن المناظرة المتقدمة، إنما وقعت بين أهل الجنة وبين الكفار، بدليل أن قول أهل الجنة: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟ لا يليق ذكره إلا مع الكفار، وإذا ثبت هذا فقول المؤذن بعده: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجب أن يكون منصرفًا إليهم، فثبت أن المراد بالظالمين ههنا المشركون، وأيضًا أنه وصف هؤلاء الظالمين بصفات ثلاث، هي مختصة بالكفار، وذلك يقوي ما ذكرناه، وقال القاضي: المراد منه كل من كان ظالمًا، سواء كان كافرًا أو كان

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٧-١٨٨).

فاسقًا ؛ تمسكًا بعموم اللفظ .

الصفة الثانية: قوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومعناه : أنهم يمنعون الناس من قبول الدين الحق، تارة بالزجر والقهر، وأخرى بسائر الحيل .

الصفة الثالثة: قوله : ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ والمراد منه إلقاء الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق .

الصفة الرابعة: قوله : ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ ، واعلم أنه تعالى لما بين أن تلك اللعنة، إنما أوقعها ذلك المؤذن على الظالمين الموصوفين بهذه الصفات الثلاث، كان ذلك تصريحًا بأن تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين، وذلك يدل على فساد ما ذكره القاضي من أن ذلك اللعن يعم الفاسق والكافر، واللَّه أعلم»[1] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الظالمين المستحقين للعنة هم الكفار والمنافقون

* عن صفوان بن محرز المازني قال : «**بينما أنا أمشي مع ابن عمر** ﷺ آخذ بيده، إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ في النجوى؟ فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : **إن اللَّه يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي رب! حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة اللَّه على الظالمين**»[2] .

⋆ غريب الحديث:

كنفه: أي : ستره فيحفظه .

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب : في هذا الحديث عظيم تفضل اللَّه على عباده

---

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٩١).

(٢) أخرجه : أحمد (٢/ ٧٤)، والبخاري (٥/ ١٢٢/ ٢٤٤١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤/ ١١٢٤٢).

المؤمنين وستره لذنوبهم يوم القيامة، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم، بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان؛ لأنه لم يستثن في هذا الحديث ﷺ ممن يضع عليه كنفه وستره أحدًا إلا الكفار والمنافقين، فإنهم الذين ينادى عليهم على رؤوس الأشهاد باللعنة لهم. . . وهذا الحديث حجة لأهل السنة في قولهم: إن أهل الذنوب من المؤمنين لا يكفرون بالمعاصي كما زعمت الخوارج، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] أن المراد بالظلم ههنا: الكفر والنفاق، كما ذكر في الحديث، وليس كل ظالم يدخل في معنى الآية ويستحق اللعنة؛ لأنه لا تكون عقوبة الكفر عند اللَّه كعقوبة صغائر الذنوب، واللعن في كلام العرب: الإبعاد من اللَّه تعالى، فدلت هذه الآية أن الكلام ليس على العموم، وأنه يفتقر إلى ما يبين معناه»[2].

قلت: وقد أبان النبي ﷺ معناه، وأوضح مقصوده، وخص عمومه، فصرح في هذا الحديث «أن الظالمين المستحقين للعنة هم الكفار والمنافقون؛ لقوله في الحديث: «**وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة اللَّه على الظالمين**»، أما المؤمنون فلا يلعنون ولو كانوا عصاة؛ لأن مصيرهم إلى الجنة، ولأن رحمة اللَّه لا بد أن تنالهم، فلا يلعن العاصي بعينه، أما اللعن بدون تعيين فلا مانع منه؛ لقوله ﷺ: «**لعن اللَّه السارق يسرق البيضة فتقطع يده**»[3]»[4].

* * *

(١) هود: الآية (١٨).

(٢) شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٧٠-٥٧١).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٥٣)، والبخاري (١٢/ ٩٦/ ٦٧٨٣)، ومسلم (٣/ ١٣١٤/ ١٦٨٧)، والنسائي (٨/ ٤٣٦-٤٣٧/ ٤٨٨٨)، وابن ماجه (٢/ ٨٦٢/ ٢٥٨٣).

(٤) قاله في منار القاري (٣/ ٣٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حجاب: الحِجاب: الحاجز والمانع.

الأعراف: جمع عُرف، بضم العين، وهو كل مرتفع من أرض وغيرها؛ استعارة من عُرف الديك وعرف الفرس، كأنه عرف بارتفاعه دون الأشياء المنخفضة؛ فإنها مجهولة غالبًا.

سيماهم: السِّيمَا والسيماء والسيمياء: العلامة، من سامَ إبله يسومها: إذا أرسلها في المرعى معلَّمة، فهو من وَسَمَ يَسِمُ، وقد سوّمتُه؛ أي: أعلمته. والوَسْم: التأثير. والسِّمة: الأثر؛ يقال: وسمتُ الشيءَ وسمًا: إذا أثرت فيه بِسِمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وبين الجنة والنار حجاب، يقول: حاجز، وهو السور الذي ذكره اللّه تعالى فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1]، وهو الأعراف التي يقول اللّه فيها: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾... فإن الأعراف: جمع، واحدها: عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو عرف، وإنما قيل لعرف الديك عرف؛ لارتفاعه على ما سواه من جسده، ومنه قول الشماخ بن ضرار:

وظلّت بأعراف تعالى كأنها ... رماح نحاها وجهةَ الريح راكزُ

يعني بقوله: بأعراف: بنشوز من الأرض، ومنه قول الآخر:

كل كِنازٍ لحمه نِيافُ ... كالعلَمِ المُوفي على الأعرافِ

(١) الحديد: الآية (١٣).

وكان السدي يقول: إنما سمي الأعراف أعرافًا؛ لأن أصحابه يعرفون الناس. .

واختلف أهل التأويل في صفة الرجال الذين أخبر اللَّه -جل ثناؤه- عنهم أنهم على الأعراف، وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك؟

فقال بعضهم: هم قوم من بني آدم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فجُعلوا هنالك إلى أن يقضي اللَّه فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم. . .

وقال آخرون: كانوا قُتلوا في سبيل اللَّه عصاة لآبائهم في الدنيا. . .

وقال آخرون: بل هم قوم صالحون فقهاء علماء. . .

وقال آخرون: بل هم ملائكة، وليسوا ببني آدم. . .

قال أبو جعفر: والصواب من القول: في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال اللَّه -جل ثناؤه- فيهم: هم رجال يعرفون كلاًّ من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول اللَّه ﷺ يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، ولا إجماع من الأمة على أنهم ملائكة. فإذ كان ذلك كذلك، وكان ذلك لا يدرك قياسًا، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب، أن الرجال اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم، ودون سائر الخلق غيرهم، كان بيِّنًا أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة قول لا معنى له، وأن الصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره، هذا مع من قال بخلافه من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ومع ما رُوي عن رسول اللَّه ﷺ في ذلك من الأخبار وإن كان في أسانيدها ما فيها»[1].

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن أصحاب الأعراف ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَىٰهُمۡ﴾، ولم يبيّن هنا سيما أهل الجنة، ولا أهل النار، وكأنه أشار لذلك في مواضع أُخر، كقوله: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾[2]. فبياض الوجوه وحسنها سيما أهل الجنة، وسوادها وقبحها، وزرقة العيون، سيما أهل النار، كما قال أيضًا في سيما أهل الجنة: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[3]، وقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾[4]، وقال في سيما أهل النار: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٨٨-١٩٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٠٦).
(٣) المطففين: الآية (٢٤).
(٤) القيامة: الآية (٢٢).

وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾[(١)]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾[(٢)]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾أي: حلت عليهم أمنة اللَّه من عقابه وأليم عذابه.

واختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فقال بعضهم: هذا خبر من اللَّه عن أهل الأعراف أنهم قالوا لأهل الجنة ما قالوا قبل دخول أصحاب الأعراف، غير أنهم قالوه وهم يطمعون في دخولها . . .

وقال آخرون: إنما عنى بذلك أهل الجنة، وأن أصحاب الأعراف يقولون لهم قبل أن يدخلوا الجنة: سلام عليكم، وأهل الجنة يطمعون أن يدخلوها، ولم يدخلوها بعد»[(٥)].

* * *

---

(١) يونس: الآية (٢٧).
(٢) عبس: الآية (٤٠).
(٣) طه: الآية (١٠٢).
(٤) أضواء البيان (٢/ ١٥).
(٥) جامع البيان (٨/ ١٩٦-١٩٧).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾

★غريب الآية:

تلقاء: جهة وحذاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار؛ يعني: حيالهم ووجاههم فنظروا إلى تشويه الله لهم، ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها من سخطك ما أورثهم من عذابك ما هم فيه»[(١)].

وقال الرازي: «ومعنى الآية: أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار، تضرعوا إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم»[(٢)].

وقال القرطبي: «سألوا الله ألا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم. فهذا على سبيل التذلل؛ كما يقول أهل الجنة: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[(٣)]، ويقولون: الحمد لله؛ على سبيل الشكر لله ﷻ، ولهم في ذلك لذة»[(٤)].

وفي بناء الفعل ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ إلى المجهول فائدة؛ قال ابن عاشور: «وإسناده إلى المجهول هنا جارٍ على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يُتطلّب لها فاعل. وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة، وهي الإشارة إلى أنّهم لا ينظرون إلى أهل النّار إلاّ نظرًا شبيهًا بفعل من يحمله على الفعل حَامِل؛ وذلك أنّ النّفس وإن كانت تكره المناظر السيّئة فإنّ حبّ الاطّلاع يحملها على أن توجّه النّظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٩٧).
(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٩٦).
(٣) التحريم: الآية (٨).
(٤) جامع أحكام القرآن (٧/ ٢١٤).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ أي: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب اللَّه، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال»[1].

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن أصحاب الأعراف قالوا لرجال من أهل النار: ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾: لم ينفعكم ما كنتم تجمعونه في الدنيا من المال، ولا كثرة جماعتكم وأنصاركم، ولا استكباركم في الدنيا.

وبيّن في مواضع أُخر وجه ذلك: وهو أن الإنسان يوم القيامة يحشر فردًا، لا مال معه، ولا ناصر، وخادم، ولا خول، وأن استكباره في الدنيا يجزى به عذاب الهون في الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[2]، وقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾[3]، وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[4]»[5].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين بقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا﴾[6]، أتبعه أيضًا بأن أصحاب الأعراف ينادون رجالًا من أهل النار، واستغنى عن ذكر أهل النار لأجل أن الكلام المذكور لا يليق إلا بهم، وهو قولهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ، ولا يليق أيضًا إلا بأكابرهم، والمراد بالجمع إما جمع المال، وإما الاجتماع والكثرة،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٢).
(٢) الأنعام: الآية (٩٤).
(٣) مريم: الآية (٨٠).
(٤) الأحقاف: الآية (٢٠).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٥-١٦).
(٦) الآية (٤٧).

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ والمراد: استكبارهم عن قبول الحق، واستكبارهم على الناس المحقين. وقرئ (تَسْتَكْثِرُونَ) من الكثرة، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام»[١].

وقال ابن عاشور: «المقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة، فيه نذارة وموعظة لجبابرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقرون المستضعفين من المؤمنين، وفيهم عبيد وفقراء، فإذا سمعوا بشارات القرآن للمؤمنين بالجنة سكتوا عمن كان من أحرار المسلمين وسادتهم، وأنكروا أن يكون أولئك الضعاف والعبيد من أهل الجنة، وذلك على سبيل الفرض؛ أي: لو فرضوا صدق وجود جنة، فليس هؤلاء بأهل لسكنى الجنة؛ لأنهم ما كانوا يؤمنون بالجنة. وقصدهم من هذا تكذيب النبي ﷺ، وإظهار ما يحسبونه خطلًا من أقواله، وذلك مثل قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢]، فجعلوا تمزق الأجساد وفناءها دليلًا على إبطال الحشر. وسكتوا عن حشر الأجساد التي لم تمزق، وكل ذلك من سوء الفهم وضعف الإدراك والتخليط بين العاديات والعقليات»[٣].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٩٦-٩٧).

(٢) سبأ: الآية (٧).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾

★ غريب الآية:

أقسمتم: حلفتم.

الخوف: توقع المكروه، خلافه: الأمن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في المعنيّين بهذا الكلام، فقال بعضهم: هذا قيل اللَّه لأهل النار توبيخًا لهم، على ما كان من قيلهم في الدنيا لأهل الأعراف، عند إدخاله أصحاب الأعراف الجنة... وهذا قول ابن عباس. فتأويل الكلام على هذا التأويل الذي ذكرنا عن ابن عباس، ومن ذكرنا قوله فيه: قال اللَّه لأهل التكبر عن الإقرار بوحدانية اللَّه والإذعان لطاعته وطاعة رسله، الجامعين في الدنيا الأموال مكاثرة ورياء: أيها الجبابرة الذين كانوا في الدنيا! أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم اللَّه برحمة؟ قال: قد غفرت لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة، لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سلف منكم في الدنيا من الآثام والإجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فاتكم في دنياكم.

وقال أبو مجلز: بل هذا القول خبر من اللَّه عن قيل الملائكة لأهل النار بعدما دخلوا النار تعييرًا منهم لهم على ما كانوا يقولون في الدنيا للمؤمنين الذين أدخلهم اللَّه يوم القيامة جنته.

وأما قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ فخبر من اللَّه عن أمره أهل الجنة بدخولها»[1].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠٠).

وقال السعدي: «﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون؛ أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكرامًا واحترامًا: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيما يستقبل من المكاره، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى؛ بل آمنون مطمئنون، فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) المطففين: الآيات (٢٩-٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾

★ غريب الآية:

أفيضوا: أي: صُبّوا علينا أو ألقوا علينا. والإفاضة من فاض الماءُ: إذا سال منصبًّا، وأفاض إناءه: إذا ملأه حتى أساله. والفيض: الماء الكثير. وأفاض الماءَ على نفسه: أفرغه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا خبر من اللَّه تعالى عن استغاثة أهل النار بأهل الجنة عند نزول عظيم البلاء بهم من شدة العطش والجوع؛ عقوبة من اللَّه لهم على ما سلف منهم في الدنيا من ترك طاعة اللَّه، وأداء ما كان فرض عليهم فيها في أموالهم من حقوق المساكين من الزكاة والصدقة، يقول -تعالى ذكره-: ونادى أصحاب النار بعد دخولها، أصحاب الجنة بعدما سكنوها؛ أي: يا أهل الجنة! ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: أطعمونا مما رزقكم اللَّه من الطعام»[1].

قال ابن عطية: «لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم، وجائز أن يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله اللَّه لهم، على بعد السفل من العلو، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر. والأشنع على الكافرين في هذه المقالة، أن يكون بعضهم يرى بعضًا فإنه أخزى وأنكى للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر اللَّه تعالى»[2].

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال، وقد سئل ابن عباس: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠١).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٠٦).

استغاثوا بأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾»[1].

وقال في قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: «بيّن أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب»[2].

وقوله: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾ قال الزمخشري واستظهره الألوسي: «فيه دليل على أن الجنة فوق النار»[3].

قال القرطبي: «وقد استدل بهذه الآية من قال بأن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لا حقّ لكم فيها، وقد بوب البخاري رحمه الله على هذا المعنى: (باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه) وأدخل في الباب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده! لأذودن رجالًا عن حوضي، كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض»[4] قال المهلب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه، لقوله ﷺ: «لأذودنّ رجالًا عن حوضي»»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على تحريم الجنة على الكافرين ولو كانوا آباء الأنبياء

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تُخزِيَني يوم يبعثون، فأيُّ خِزي أخزى من أبيَ الأبعد، فيقول اللّه تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجليك، فيَنظر فإذا هو بذِيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[6].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٥).
(٢) قاله القرطبي في الجامع (٧/ ٢١٥).
(٣) الكشاف (٢/ ٨٢)، وروح المعاني (٨/ ١٢٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٨)، والبخاري (٥/ ٥٥/ ٢٣٦٧)، ومسلم (٤/ ١٨٠٠/ ٢٣٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٨/ ٤٣٠٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٦).
(٦) البخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٢/ ٤٣٧٥).

★ **غريب الحديث:**

قَتَرة: سواد يغشى الوجه، كناية عن الكآبة.

غَبَرة: هو ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه. وقيل: الغبرة: هي القترة، فيكون قوله ﷺ: «**قترة وغبرة**» تأكيدًا لفظيًّا.

الخزي: إما من الخزي وهو الهوان، وإما من الخزاية وهو الحياء.

الذِّيخ: قال الحافظ: بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة: ذَكَرُ الضباع.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث دليل على أن اللَّه تعالى حرم الجنة على الكافرين وذلك يعم دخولها ونعيمها، فلا يدخلونها، ولا يصل إليهم شيء من نعيمها، شرابها وطعامها ولا غير ذلك.

وفيه: «دليل على أن شرف الولد لا ينفع الوالد إذا لم يكن مسلمًا»[(١)].

* عن سعد بن عبادة قال: «**قلت: يا رسول الله! أيّ الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماء**»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «دل هذا الحديث على أن سقي الماء من أعظم القربات عند اللَّه تعالى، وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء، وقد غفر اللَّه ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلًا مؤمنًا موحدًا وأحياه، روى البخاري[(٣)] عن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بينا رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثرى من**

---

(١) قاله القسطلاني في «إرشاد الساري» (٧/ ٣١٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٥)، وأبو داود (٢/ ٣١٣/ ١٦٧٩)، والنسائي (٦/ ٥٦٥/ ٣٦٦٦-٣٦٦٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٤/ ٣٦٨٤)، وصححه ابن حبان (٨/ ١٣٥-١٣٦/ ٣٣٤٨).

(٣) في صحيحه (٥/ ٥٢/ ٢٣٦٣)، وكذا أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٥)، ومسلم (٤/ ١٧٦١/ ٢٢٤٤)، وأبو داود (٣/ ٥٠-٥١/ ٢٥٥٠).

العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه ثم رقى، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: في كل ذات كبد رطبة أجر» وعكس هذا ما رواه مسلم[1] عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»»[2].

قال المناوي: «قال الطيبي: وإنما كان أفضل (أي: سقي الماء) لأنه أعم نفعًا في الأجور الدينية والدنيوية، ولذلك امتن الله علينا بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ﴾[3] الآية. وإنما وصف الماء بالطهور ليشير إلى أن الغرض أنه أصل في الأثر؛ أي: إزالة الموانع من العبادة، وباقي الأغراض تابعة، اهـ. وأقول: محل أفضليته التصدق به على غيره، إذا عظمت الحاجة إليه، كما هو غالب في قطر الحجاز لقلة المياه فيه، ومثله الطريق إليه للحجاج ونحو ذلك، وإلا فالتصدق بنحو الخبز أفضل منه، سيما زمن الغلاء والمجاعة»[4].

* * *

(١) في صحيحه (٤/ ١٧٦٠/ ٢٢٤٢)، وكذا أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦١)، والبخاري (٦/ ٤٣٨/ ٣٣١٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢١/ ٤٢٥٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٥-٢١٦) بتصرف يسير.

(٣) الفرقان: الآيتان (٤٨و٤٩).

(٤) فيض القدير (٢/ ٣٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[1]

★ **غريب الآية:**

اللهو: الشغل عن مهمات الأمور؛ يقال: لَهَوْتُ بكذا ولهيتُ عن كذا: إذا اشتغلت عنه بلهو.

اللعب: كل عمل لا ينتفع به صاحبه. وقيل: فعل ما لا فائدة فيه. وقيل: ما فعل من غير قصد صحيح، وهو بمعنى الهزل، فهو ضد الجد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله عن قيل أهل الجنة للكافرين، يقول -تعالى ذكره-: فأجاب أهل الجنة أهل النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] الذين كفروا بالله ورسله ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي أمرهم الله به ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ يقول: سخرية ولعبًا... ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول: وخدعهم عاجل ما هم فيه من العيش والخفض والدعة عن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية»[3].

وقال الرازي: «وفي الآية لطيفة عجيبة، وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين، ثم بين من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهوًا أولًا، ثم لعبًا ثانيًا، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثًا، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة... وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال»[4].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٥١).
(٢) الأعراف: الآية (٥٠).
(٣) جامع البيان (٨/ ٢٠١-٢٠٢).
(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٩٩).

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾

★ غريب الآية:

يجحدون: الجحد والجحود: الإنكار. وقد يتضمن معنى الكفر كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾[1]. وقيل: الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه.

ننساهم كما نسوا: أي: نتركهم مخلدين في النار كما تركوا أوامرنا ونواهينا. والنسيان يعبر به عن الترك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول الله -جل ثناؤه-: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: ففي هذا اليوم وذلك يوم القيامة، ننساهم يقول: نتركهم في العذاب المبين، جياعًا عطاشًا، بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله»[2].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأن الله تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[3] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾[5]»[6].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ معناه: اليوم

---

(١) النمل: الآية (١٤).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٢).
(٣) التوبة: الآية (٦٧).
(٤) طه: الآية (١٢٦).
(٥) الجاثية: الآية (٣٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٤).

ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما كانوا بآياتنا يجحدون، فـ(ما) التي في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ معطوفة على (ما) التي في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا۟﴾، وتأويل الكلام: فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل في الدنيا للقاء اللّٰه يوم القيامة، وكما كانوا بآيات اللّٰه يجحدون، وهي حججه التي احتج بها عليهم من الأنبياء والرسل والكتب وغير ذلك، ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: يكذبون ولا يصدّقون بشيء من ذلك»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على إثبات صفة النسيان لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق به سبحانه

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «**قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟ قالوا: لا. قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟ قالوا: لا. قال: فوالذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل! ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع، ؟ فيقول: بلى. قال فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل! ألم أكرمك، وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. أي رب! فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللّٰه عليه**»[2].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٢٧٩/ ٢٩٦٨)، والترمذي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٢٤٢٨)، ورواه أحمد (٢/ ٤٩٢) مختصراً.

★ **غريب الحديث:**

تضارون: وفي رواية «**تضامون**» وروي: «**تضارّون**» بتشديد الراء وتضعيفها ومعنى المشدد: هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها كما تفعلون أول ليلة من الشهر، ومعنى المخفف: هل يلحقكم في رؤيته ضير وهو الضرر.

فُل: معناه: يا فُلان، وليس ترخيمًا؛ لأنه لا يقال إلا بسكون اللام، ولو كان ترخيمًا لفتحوها أو ضموها.

ترأس وتربع: أي: ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا. و(ترأس)، فبفتح التاء وإسكان الراء وبعدها همزة مفتوحة، ومعناه: رئيس القوم وكبيرهم. وأما (تربع)، فبفتح التاء والباء الموحدة، هكذا رواه الجمهور؛ أي: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها، يقال: ربعتهم؛ أي: أخذت ربع مالهم.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «قوله: «**أنساك كما نسيتني**» مثل قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[١] من مجانسة اللفظ مجازاة على فعلهم؛ أي: جازاهم على نسيانهم»[٢].

وقال ابن عثيمين، وقد سئل: هل يوصف اللَّه تعالى بالنسيان؟

فأجاب: «للنسيان معنيان:

أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٤] على أحد القولين، ومثل قوله ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»[٥]، وقوله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها**»[٦]. وهذا

---

(١) التوبة: الآية (٦٧).

(٢) الإكمال (٨/ ٥٢١).

(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٤) طه: الآية (١١٥).

(٥) أخرجه: البخاري (١/ ٦٦٣/ ٤٠١)، ومسلم (١/ ٣٩٨/ ٥٧٢)، وأبو داود (١/ ٦٢٠/ ١٠٢٠-١٠٢٢)، والنسائي (٣/ ٣٣-٣٤/ ١٢٤٢-١٢٤٣)، وابن ماجه (١/ ٣٨٢/ ١٢١١).

(٦) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ٢٦٩)، والبخاري (٢/ ٨٩/ ٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١٧٨)، والنسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٢)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧/ ٦٩٦).

المعنى للنسيان منتفٍ عن اللَّه ﷻ بالدليلين السمعي والعقلي.

أما السمعي: فقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[1]، وقوله عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2]، فقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾أي: مستقبلهم، يدل على انتفاء الجهل عن اللَّه تعالى، وقوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾أي: ماضيهم، يدل على انتفاء النسيان عنه، والآية الثانية دلالتها على ذلك ظاهرة.

وأما العقلي: فإن النسيان نقص، واللَّه تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، وعلى هذا فلا يجوز وصف اللَّه بالنسيان بهذا المعنى على كل حال.

والمعنى الثاني للنسيان: الترك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4] الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ على أحد القولين، ومثل قوله ﷺ، في أقسام أهل الخيل: «**ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق اللَّه في رقابها وظهورها، فهي له كذلك ستر**»[5].

وهذا المعنى من النسيان ثابت لله ﷻ، قال اللَّه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[6]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[7].

وفي صحيح مسلم في «كتاب الزهد والرقائق» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فذكر الحديث، وفيه: «**أن اللَّه تعالى يلقى العبد فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني**»، وتركه سبحانه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٢) طه: الآية (٥٢).
(٣) النحل: الآية (٦٠).
(٤) الأنعام: الآية (٤٤).
(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٨٣)، والبخاري (٥/ ٥٨/ ٢٣٧١)، ومسلم (٢/ ٦٨٠-٦٨٢/ ٩٨٧) بسياق طويل، والترمذي (٤/ ١٤٨/ ١٦٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٢/ ٢٧٨٨)، والنسائي (٦/ ٥٢٥-٥٢٦/ ٣٥٦٥).
(٦) السجدة: الآية (١٤).
(٧) التوبة: الآية (٦٧).

اللَّه تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً﴾[٣]، والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه، وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة»[٤].

* * *

(١) البقرة: الآية (١٧).
(٢) الكهف: الآية (٩٩).
(٣) العنكبوت: الآية (٣٥).
(٤) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١/ ١٧٢-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

★ غريب الآية:

بكتاب: الكتاب: في الأصل: مصدر كتب؛ أي: جمع، ثم سمي المكتوب فيه: كتابًا، والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة مع المكتوب فيه.

فصّلناه: أي: بيّنّاه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أقسم -يا محمد- لقد جئنا هؤلاء الكفرة بكتاب، يعني القرآن الذي أنزله إليهم، يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآن مفصلًا مبينًا فيه الحق من الباطل، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يقول: على علم منا بحق ما فصل فيه من الباطل الذي ميز فيه بينه وبين الحق، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يقول: بيناه ليهتدى ويرحم به قوم يصدّقون به وبما فيه من أمر اللَّه ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى»[1].

قال ابن كثير: «قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ الآية.

وهذا الذي قاله فيه نظر؛ فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة، ذكره أنه قد أزاح عللهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]»[4].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠٣).

(٢) الأعراف: الآية (٢).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٥).

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصير سماع تلك المناظرات حاملًا للمكلف على الحذر والاحتراز، وداعيًا له إلى النظر والاستدلال، بين شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ وهو القرآن، ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: ميّزنا بعضه عن بعض، تمييزًا يهدي إلى الرشد ويؤمن عن الغلط والخبط. فأما قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فالمراد أن ذلك التفصيل والتمييز إنما حصل مع العلم التام بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد المتكاثرة، والمنافع المتزايدة...

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يدل على أن القرآن جعل هدىً لقوم مخصوصين، والمراد أنهم هم الذين اهتدوا به دون غيرهم؛ فهو كقوله تعالى في أول سورة (البقرة): ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]»[2].

قال محمد رشيد رضا: «التفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولًا بعضها من بعض بما يزيل الاشتباه، واختلاط بعضها ببعض في الأفهام، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته، ولا التطويل ببيان جميع فروعه، ففي القرآن تفصيل كل شيء نحتاج إليه في أمر ديننا: أسهب حيث ينبغي الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز.

مثال ذلك في العقائد: أن البشر قد فتنوا بالشرك، ولبس على أكثرهم الأمر ففرقوا بين توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية؛ إذ ظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الخلق ومدبر أموره هو الواجب له الممتنع أن يكون له شريك فيه، دون توحيد الإلهية وهو عبادته وحده، وأنه لا يضر التوجه إلى غيره من المقربين عند المقربين من يتوسل بهم إليه كما يتوجه إليه بالدعاء، وطلب ما يعجز المرء عن نيله من طريق الأسباب، وهذا مخ العبادة ومحضها، وكل من يدعى مثل هذا الدعاء فقد اتخذ معبودًا وإلهًا. وشبهتهم في القديم والحديث أن اتخاذ ولي مع اللَّه بقصد التقرب والتوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه، وأن المحظور هو الاستغناء به عنه،

---

(١) الآية (٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٩٩-١٠٠).

مأخذ هذا ما يعهدون من الملوك الظالمين الذين يتقرب إليهم الرعايا الضعفاء المستذلون بوزرائهم، ويتوسلون إليهم بحواشيهم وحجابهم، فلأجل هذه الشبهات قرر القرآن إبطال هذا الشرك وأطنب في تفصيله كل الإطناب.

ومثاله في العبادات العملية: أن صفة الصلاة وعدد ركعاتها مما يكفي فيه القدوة والتأسي بالرسول الموكول إليه بيان التنزيل، فلهذا لم يبينها القرآن على الوجه الذي تؤدى به، ولكنه كرر الأمر بإقامتها؛ أي: الإتيان بها على أقوم وجه وأكمله وبين حكمتها وفائدتها في عدة آيات؛ لأن معنى الإقامة لها والحكمة في وجوبها مما يغفل عنه أكثر الناس.

ومثاله في العلم الذي هو أساس الإيمان الصحيح والارتقاء في الدين والدنيا: أن أكثر البشر كانوا قد ألفوا فيه التقليد والأخذ بأقوال من يثقون بهم من آبائهم ورؤساء دينهم ودنياهم. فلهذا كرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين، وجهل الظانّين والمرتابين، وكرر الحث على النظر والاستدلال والاعتماد على البرهان، والتشنيع على المعرضين عن آيات السموات والأرض وما فيها من جماد ونبات وحيوان، وعن حكمه الخاصة في خلق الإنسان. فبمثل هذا التفصيل كان الإسلام دين العلم والعقل، وكان القرآن ينبوع الهدى والحكمة والرحمة، فيا حسرة على المحرومين من رحمته، ويا شقاء الطاعنين في هدايته»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤١-٤٤٢).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

ينظرون: أي: ينتظرون. يقال: نظَرتُه وأنظرتُه وانتظرتُه؛ أي: أخّرته.

تأويله: التأويل: من الأوْل، وهو الرجوع إلى الأصل. وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: بيانه الذي هو غايته المقصودة منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾ يقول: إلا ما يؤول إليه أمرهم من ورودهم على عذاب الله، وصليهم جحيمه، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به...

وأما قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ فإن معناه: يوم يجيء ما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: يقول الذين ضيعوا وتركوا ما أمروا به من العمل المنجيهم مما آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب من قبل ذلك في الدنيا: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أقسم المساكين -حين عاينوا البلاء وحل بهم العقاب- إن رسل الله التي أتتهم بالنذارة، وبلغتهم عن الله الرسالة، قد كانت نصحت لهم، وصَدَقتهم عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديق، ولا ينجيهم من سخط الله وأليم عقابه كثرة القال والقيل»[2].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٥٣).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم أنهم يقولون عند حلول سخط اللَّه بهم، وورودهم أليم عذابه، ومعاينتهم تأويل ما كانت رسل اللَّه تعدهم: هل لنا من أصدقاء وأولياء اليوم، فيشفعوا لنا عند ربنا، فتنجينا شفاعتهم عنده مما قد حل بنا من سوء فعالنا في الدنيا، أو نردّ إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل فيها بما يرضيه ويعتبه من أنفسنا؟ قال هذا القول المساكين هنالك؛ لأنهم كانوا عهدوا في الدنيا أنفسهم لهم شفعاء تشفع لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقت لا خلة فيه لهم ولا شفاعة. يقول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: غبنوا أنفسهم حظوظها ببيعهم ما لا خطر له من نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يقول: وأسلمهم لعذاب اللَّه، وحاد عنهم أولياؤهم الذين كانوا يعبدونهم من دون اللَّه، ويزعمون كذبًا وافتراءً أنهم أربابهم من دون الله»[1].

قال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق، ويتمنون أحد أمرين: أن يشفع لهم شفعاء فينقذوهم، أو يردوا إلى الدنيا ليصدقوا الرسل، ويعملوا بما يرضي اللَّه، ولم يبيّن هنا هل يشفع لهم أحد؟ وهل يردون؟ وماذا يفعلون لو ردوا؟ وهل اعترافهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم؟ ولكنه تعالى بيّن ذلك كله في مواضع أُخر، فبيّن: أنهم لا يشفع لهم أحد بقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[4]، مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٢) الشعراء: الآية (١٠٠).
(٣) المدثر: الآية (٤٨).
(٤) الأنبياء: الآية (٢٨).

لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾(١)، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢)، وبيّن أنهم لا يردون في مواضع متعددة، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٣).

فقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية، دليل على أن النار وجبت لهم، فلا يردون، ولا يعذرون، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾(٤).

فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا بالإمهال مدة يتذكرون فيها، وإنذار الرسل، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾(٥)؛ جوابًا لقولهم: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾(٦)، بعد قوله تعالى عنهم: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾(٧)، وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾(٨) الآية، بعد قوله: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾(٩)، وقوله هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، بعد قوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ الآية.

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا، وعلى وجوب العذاب، وأنه لا محيص لهم عنه.

وبيّن في موضع آخر أنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر والطغيان؛ وهو قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾(١٠)، وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد، فهو تعالى يعلم أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع

---

(١) الزمر: الآية (٧).
(٢) التوبة: الآية (٩٦).
(٣) السجدة: الآيتان (١٢و١٣).
(٤) فاطر: الآية (٣٧).
(٥) إبراهيم: الآية (٤٤).
(٦) غافر: الآية (١٢).
(٧) غافر: الآية (١١).
(٨) الشورى: الآية (٤٥).
(٩) الشورى: الآية (٤٤).
(١٠) الأنعام: الآية (٢٨).

كيف يكون، كما صرّح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها؛ لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة كما بيّنه بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[1]، وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرّح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[2]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن في مواضع أخر أن اعترافهم هذا بقولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ لا ينفعهم، كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾[5]، ونحو ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) التوبة: الآية (٤٦).

(٢) التوبة: الآية (٤٧).

(٣) المؤمنون: الآية (٧٥).

(٤) الملك: الآية (١١).

(٥) الزمر: الآية (٧١).

(٦) أضواء البيان (٢/ ١٦-١٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١]

★ غريب الآية:

استوى: أي: استواءً يليق به ﷻ.

العرش: أصله: شيء مُسَقَّف. ومنه: عَرَّشْتُ الكَرَمَ أُعَرِّشُهُ: إذا جعلت له كهيئة سقف.

يطلبه حثيثًا: أي: يطلبه دائمًا من غير فتور طلبًا سريعًا. والحثّ: الإعجال والسرعة. والحثيث: السير السريع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن سيدكم ومصلح أموركم أيها الناس، هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء، الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، لم يفصّل هنا ذلك، ولكنه فصله في سورة (فصلت) بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[٣]»[٤].

قال الرازي: «في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٥).
(٣) فصلت: الآيات (٩-١٢).
(٤) أضواء البيان (٢/ ١٧-١٨).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والمعنى أن الذي يربيكم ويصلح شأنكم، ويوصل إليكم الخيرات، ويدفع عنكم المكروهات، هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة وأودع أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له مرب موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات، أو يعول على غيره في تحصيل السعادات؟

ثم في الآية دقيقة أخرى: فإنه لم يقل أنتم عبيده، بل قال هو ربكم، ودقيقة أخرى، وهي أنه تعالى لما نسب نفسه إلينا، سمى نفسه في هذه الحالة بالرب، وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والإحسان، فكأنه يقول: من كان له مرب مع كثرة هذه الرحمة والفضل، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره؟»[١].

قال ابن كثير: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله؛ فإن اللّه لا يشبهه شيء من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢]، بل الأمر كما قال الأئمة، منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: (من شبّه اللّه بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف اللّه به نفسه فقد كفر)، وليس فيما وصف اللّه به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال اللّه تعالى، ونفى عن اللّه تعالى النقائص؛ فقد سلك سبيل الهدى»[٣].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٤] ونحو ذلك؛ أشكلت على كثير من الناس إشكالًا ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل، وقوم إلى التشبيه، ﷻ علوًا كبيرًا عن ذلك كله، واللّه -جل وعلا- أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أيّ لبس ولا

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ١٠٦).
(٢) الشورى: الآية (١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٦-٤٢٧).
(٤) الفتح: الآية (١٠).

إشكال، وحاصل تحليل ذلك، أنه -جل وعلا- بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين: أحدهما: تنزيه الله -جل وعلا- عن مشابهة الحوادث في صفاتهم ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا، والثاني: الإيمان بكل ما وصف به نفسه، في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[1]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2]، فمن نفى عن الله وصفًا أثبته لنفسه في كتابه العزيز أو أثبته له رسوله ﷺ، زاعمًا أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله -جل وعلا-، فقد جعل نفسه أعلم بالله ورسوله بما يليق بالله -جل وعلا-، سبحانك هذا بهتان عظيم، ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، مع تنزيهه -جل وعلا- عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فنفى عن نفسه -جل وعلا- مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلالة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فصرّح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال، والظاهر أن السرّ في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ دون أن يقول مثلًا: وهو العلي العظيم، أو نحو ذلك من الصفات الجامعة، أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى ووصف صفات خلقه، ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة ألبتة.. فإذا حققت كل ذلك علمت أنه -جل وعلا- وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح -جل وعلا- في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم

(١) البقرة: الآية (١٤٠).

(٢) النجم: الآيتان (٣و٤).

يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال والجلال القاضية بعظمته وجلاله -جل وعلا-، وأنه الرب وحده، المستحق لأن يعبد وحده.

الموضع الأول، بحسب ترتيب المصحف الكريم: قوله هنا في سورة (الأعراف): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الموضع الثاني: قوله تعالى في سورة (يونس): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[(١)].

الموضع الثالث: قوله تعالى في سورة (الرعد): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(٢)].

الموضع الرابع: قوله تعالى في سورة (طه): ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾[(٣)].

الموضع الخامس: قوله في سورة (الفرقان): ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾[(٤)].

---

(١) يونس: الآيتان (٣و٤).

(٢) الرعد: الآيات (٢-٤).

(٣) طه: الآيات (٢-٦).

(٤) الفرقان: الآيتان (٥٨و٥٩).

الموضع السادس: قوله تعالى في سورة (السجدة): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

الموضع السابع: قوله تعالى في سورة (الحديد): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2].

وقال -جل وعلا- في وصف الحادث بالاستواء على بعض المخلوقات: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[3]، ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾[5]، ونحو ذلك من الآيات.

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك، وأن للخالق -جل وعلا- استواء لائقًا بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضًا استواء مناسب لحاله، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق، على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ كما تقدم إيضاحه.

وينبغي للناظر في هذه المسألة التأمل في أمور:

الأمر الأول: أن جميع الصفات من باب واحد؛ لأن الموصوف بها واحد، ولا يجوز في حقه مشابهة الحوادث في شيء من صفاتهم، فمن أثبت مثلًا أنه: سميع بصير، وسمعه وبصره مخالفان لأسماع الحوادث وأبصارهم، لزمه مثل ذلك في جميع الصفات، كالاستواء، واليد، ونحو ذلك من صفاته -جل وعلا-، ولا يمكن الفرق بين ذلك بحال.

الأمر الثاني: أن الذات والصفات من باب واحد أيضًا، فكما أنه -جل وعلا-، له ذات مخالفة لجميع ذوات الخلق، فله تعالى صفات مخالفة لجميع صفات الخلق.

الأمر الثالث: في تحقيق المقام في الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من آيات

---

(١) السجدة: الآيتان (٤و٥).
(٢) الحديد: الآية (٤).
(٣) الزخرف: الآية (١٣).
(٤) المؤمنون: الآية (٢٨).
(٥) هود: الآية (٤٤).

الصفات، كالاستواء واليد مثلًا .

اعلم أولًا : أنه غلط في هذا خلق لا يحصى كثرة من المتأخرين، فزعموا أن الظاهر المتبادر السابق إلى الفهم من معنى الاستواء واليد مثلًا في الآيات القرآنية هو مشابهة صفات الحوادث، وقالوا : يجب علينا أن نصرفه عن ظاهره إجماعًا ؛ لأن اعتقاد ظاهره كفر ؛ لأن من شبه الخالق بالمخلوق فهو كافر، ولا يخفى على أدنى عاقل أن حقيقة معنى هذا القول أن اللَّه وصف نفسه في كتابه بما ظاهره المتبادر منه السابق إلى الفهم الكفر باللَّه والقول فيه بما لا يليق به -جل وعلا- .

والنبي ﷺ الذي قيل له : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] لم يبين حرفًا واحدًا من ذلك، مع إجماع من يعتد به من العلماء على أنه ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، وأحرى في العقائد، ولا سيما ما ظاهره المتبادر منه الكفر والضلال المبين. حتى جاء هؤلاء الجهلة من المتأخرين، فزعموا أن اللَّه أطلق على نفسه الوصف بما ظاهره المتبادر منه لا يليق، والنبي ﷺ كتم أن ذلك الظاهر المتبادر كفر وضلال يجب صرف اللفظ عنه، وكل هذا من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنة ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[2] .

ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال ومن أعظم الافتراء على اللَّه -جل وعلا-، ورسوله ﷺ، والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصفٍ وصف اللَّه به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فظاهره المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان، هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث. فبمجرد إضافة الصفة إليه، -جل وعلا-، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق، وبين شيء من صفات المخلوقين، وهل ينكر عاقل، أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل : هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته، وجميع صفاته، لا واللَّه لا ينكر ذلك إلا مكابر.

والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله ؛ لأنه كفر وتشبيه ؛ إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق، فأداه

---

(١) النحل : الآية (٤٤).

(٢) النور : الآية (١٦).

شؤم التشبيه إلى نفي صفات اللَّه -جل وعلا-، وعدم الإيمان بها، مع أنه -جل وعلا- هو الذي وصف بها نفسه، فكان هذا الجاهل مشبهًا أولًا، ومعطلًا ثانيًا، فارتكب ما لا يليق باللَّه ابتداءً وانتهاءً. ولو كان قلبه عارفًا باللَّه كما ينبغي، معظمًا لله كما ينبغي، طاهرًا من أقذار التشبيه، لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه: أن وصف اللَّه -جل وعلا- بالغ من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون قلبه مستعدًا للإيمان بصفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن والسنة الصحيحة، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فلو قال متنطع: بينوا لنا كيفية الاتصاف بصفة الاستواء واليد، ونحو ذلك لنعقلها، قلنا: أعرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة بتلك الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بالصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات. فسبحان من لا يستطيع غيره أن يحصي الثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[3]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[4].

فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد، وأن الحق فيها متركب من أمرين:

الأول: تنزيه اللَّه -جل وعلا- عن مشابهة الخلق.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ إثباتًا، أو نفيًا. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ والسلف الصالح ﷺ ما كانوا يشكون في شيء من ذلك، ولا كان يشكل عليهم»[5].

---

(١) طه: الآية (١١٠).
(٢) الشورى: الآية (١١).
(٣) سورة الإخلاص.
(٤) النحل: الآية (٧٤).
(٥) أضواء البيان (٢/١٨-٣٣) باختصار.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وتفصيل ما أجمله القرآن في كيفية خلق الأرض

* عن أبي هريرة قال: أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي فقال: «**خلق اللَّه ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقد استنكر بعض أهل العلم هذا الخبر قالوا: هو مخالف لظاهر القرآن، وليس الأمر كما قالوا، «فإن الحديث يفصّل كيفية الخلق على الأرض وحدها، وأن ذلك كان في سبعة أيام، ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام، والأرض في يومين لا يعارض ذلك؛ لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في هذا الحديث، وأنه -أعني الحديث- تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض حتى صارت صالحة للسكنى، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند اللَّه كألف سنة، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة، فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل، والأيام السبعة من أيامنا هذه، كما هو صريح الحديث؟ فحينئذ فلا تعارض بينه وبين القرآن»[2].

وسيأتي تفصيل ذلك في موطنه عند قوله تعالى في سورة (فصلت): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[3] إن شاء اللَّه.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٧)، ومسلم (٤/ ٢١٤٩-٢١٥٠/ ٢٧٨٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣/ ١١٠١٠).

(٢) من كلام الشيخ الألباني في تعليقه على «المشكاة» (٣/ ١٥٩٨).

(٣) فصلت: الأيتان (١١و١٢).

قوله تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا؛ أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٢)]، فقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى؛ أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال منبهًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: له الملك والتصرف»[(٣)].

وقال القرطبي: «لم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل فاكتفى بأحدهما عن الآخر مثل: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[(٤)]، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[(٥)]، وقرأ حميد بن قيس: (يغشى الليلَ النهارُ) ومعناه: أن النهار يغشي الليل»[(٦)].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) يس: الآيات (٣٧-٤٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٧).
(٤) النحل: الآية (٨١).
(٥) آل عمران: الآية (٢٦).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١١).

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الغنيمان: «المقصود من الآية هنا التفرقة بين الخلق والأمر، فإن الخلق هو أثر الأمر الكائن به الخلق، فإن اللَّه تعالى إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، فالقول وصفه تعالى، والخلق -الذي هو المخلوق- مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فعطف الأمر على الخلق لأنه غيره، وهو تعالى مختص بذلك وحده، فلا أحد يشاركه فيهما، وكلاهما عام شامل، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق، ومن ذلك أفعال العباد، وأمره تعالى يتناول الأمر القدري والأمر الديني الشرعي»[(٢)].

قال القرطبي: «قال ابن عيينة: فرق بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما فقد كفر، فالخلق المخلوق، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق، وهو قوله: (كن)، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٣)]، وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بين على فساد قول من قال بخلق القرآن؛ إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقًا، لكان قد قال: ألا له الخلق والخلق، وذلك عي من الكلام ومستهجن ومستغث، واللَّه يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[(٤)]، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره، فلو كان الأمر مخلوقًا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له، وذلك محال»[(٥)].

وقال صديق حسن خان: «في الآية دليل على أنه لا خالق إلا اللَّه، ففيه رد على

---

(١) الأعراف: الآية (٥٤).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٥٤).

(٣) يس: الآية (٨٢). (٤) الروم: الآية (٢٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢١-٢٢٢).

من يقول: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا هنّ، وله الأمر المطلق، وليس لأحد أمر غيره، فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا اعتراض لأحد من خلقه عليه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات أفعال العباد وأنها خلق لله

* عن زهدم قال: «كان بين هذا الحي من جرم وبين الأشعريين ود وإخاء، فكنا عند أبي موسى الأشعري فقرب إليه الطعام فيه لحم دجاج وعنده رجل من بني تيم الله كأنه من الموالي فدعاه إليه فقال الرجل: إني رأيته يأكل شيئًا فقذرته فحلفت لا آكله. فقال: هلم فلأحدثك عن ذاك، إني أتيت النبي ﷺ في نفر من الأشعريين نستحمله، قال: **والله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم**، فأتي النبي ﷺ بنهب إبل فسأل عنا فقال: **أين النفر الأشعريون؟** فأمر لنا بخمس ذود غُرِّ الذُّرَى ثم انطلقنا، قلنا ما صنعنا. حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا وما عنده ما يحملنا ثم حملنا، تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه، والله لا نفلح أبدًا، فرجعنا إليه فقلنا له، فقال: **لست أنا أحملكم ولكن الله حملكم، إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير منه وتحللتها**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

بنَهْب إبل: بفتح النون وسكون الهاء بعدها موحدة؛ أي: غنيمة، وأصله ما يؤخذ اختطافًا بحسب السبق إليه على غير تسوية بين الآخذين.

بخمس ذَوْد غُرّ الذُّرى: الذُّرى، بضم الذال وكسرها وفتح الراء المخففة، جمع ذروة، بكسر الذال وضمها، وذروة كل شيء: أعلاه، والمراد هنا: الأسنمة، وأما الغُرّ فهي البِيض. والذود من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر؛ فهو من إضافة الشيء إلى نفسه.

---

(١) فتح البيان (٤/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٥)، ومسلم (٣/ ١٢٦٨/ ١٦٤٩)، والنسائي (٧/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٤٣٥٧-٤٣٥٨).

* عن ابن عباس قال: «**قدم وفد عبد القيس على رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر حرم، فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعوا إليها من وراءنا، قال: آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان باللَّه، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتعطوا من المغنم الخمس. وأنهاكم عن أربع: لا تشربوا في الدباء والنقير والظروف المزفتة والحنتمة**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

الدُّبَّاء: الدباء بضم المهملة وتشديد الباء الموحدة والمد: هو اليابس من القرع.

النَّقِير: والنقير بفتح النون وكسر القاف: أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء.

الظروف المُزَفّتة: وهي الأواني التي طُليت بالزفت، وهو نوع من القار، والقار: نبت يحرق إذا يبس، تطلى به السفن وغيرها.

الحنتمة: الحنتم، بفتح المهملة وسكون النون وفتح المثناة من فوق: هي الجرة، وقيل: إنها جرار كانت تعمل من طين وشعر ودم.

* عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[(٢)].

* وبمثله عن ابن عمر ﵄[(٣)].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**قال اللَّه ﷿: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة**»[(٤)].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (١٣/ ٥٢٧/ ٧٥٥٦)، ومسلم (٣/ ٥١/ ١٧)، وأبو داود (٥/ ٥٧/ ٤٦٧٧)، والترمذي (٤/ ١٣٠-١٣١/ ١٥٩٩)، والنسائي (٨/ ٧٢٨/ ٥٧٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٠)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥-٦٤٦/ ٧٥٥٧)، ومسلم (٣/ ١٦٦٩/ ٢١٠٦[٩٦])، والنسائي (٨/ ٦٠٦/ ٥٣٧٧)، وابن ماجه (٢/ ٢٢٧/ ٢١٥١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠)، والبخاري (١٣/ ٦٤٦/ ٧٥٥٨)، ومسلم (٣/ ١٦٨٩/ ٢١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٠٣/ ٩٧٨٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (١٣/ ٦٤٦/ ٧٥٥٩)، ومسلم (٣/ ١٦٧١/ ٢١١١).

★ **فوائد الأحاديث:**

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بآيات منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم أورد قول ابن عيينة: بيّن اللَّه الخلق من الأمر بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

قال ابن بطال: «قال المهلب: غرضه في هذا الباب إثبات أفعال العباد وأقوالهم خلقًا لله تعالى كسائر الأبواب المتقدمة، واحتج بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]، ثم فصل بين الأمر بقوله للشيء: كن، وبين خلقه؛ قطعًا للمعتزلة القائلين بأن الأمر هو الخلق، والخلق أنه إذا قال للشيء: كن، معناه أنه كونه؛ نفيًا منهم للكلام عن اللَّه، خلافًا لقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[2].. ثم زاد في بيان الأمر فقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ فجعل الأمر غير خلقه لها وغير تسخيرها الذي هو عن أمره، ثم ذكر قول ابن عيينة أنه فصل بين الخلق والأمر، وجعلهما شيئين، بإدخال حرف العطف بينهما، والأمر منه تعالى قول، وقوله صفة من صفاته غير مخلوق»[3].

وسيأتي بيان وجه دلالة هذه الأحاديث على أن أفعال العباد خلق لله وكسب للعباد عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآية (٩٦) من سورة (الصافات)، وباللَّه التوفيق.

* * *

---

(١) الصافات: الآية (٩٦).

(٢) النساء: الآية (١٦٤).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٥٥٣-٥٥٤).

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

تبارك: أي: تزايد خيره على خلقه؛ قال الأزهري: تبارك؛ أي: تعالى وتعاظم. قال ابن عرفة: هو تفاعل من البركة، وهو الكثرة والاتساع. ولا يقال ذلك إلا لله تعالى، فلا يقال: تبارك فلان، نص عليه أهل العلم.

وكل موضع ذكر فيه لفظة (تبارك) فهو تنبيه على اختصاصه بالخيرات المذكورة مع ذكر (تبارك).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: تعاظمت وتزايدت بركات اللَّه رب العالمين كلهم ومدبر أمورهم، والحقيق وحده بعبادتهم. فـ(تبارك) من مادة (البركة) وهي الخير الكثير الثابت، فهي هنا تنبيه على ما في هذا العالم من الخيرات والنعم التي توجب له الشكر والعبادة على عباده دون ما عبدوه معه، وليس لهم من الخلق ولا من الأمر شيء»[2].

قال ابن القيم في معرض بيانه لنوع البركة المضافة إلى اللَّه تعالى: «والبركة نوعان أيضًا:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها: بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة (على) تارة، وبأداة (في) تارة، والمفعول منها: مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها: تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ؛ فهو سبحانه المبارك، وعبده

---

(١) الأعراف: الآية (٥٤).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤٥٥).

ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[2]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3]، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[5]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾[6]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾[7]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك (تبارك) دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله؛ فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعاظم. وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك؛ أي: باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك؛ أي: البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: «جاء بكل بركة». وقيل: معناه: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا. وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه تبارك وتعالى.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف، لا الفعل؛ فإنه فعل لازم، مثل (تعالى) و(تقدس) و(تعاظم).

---

(١) مريم: الآية (٣١).
(٢) الملك: الآية (١).
(٣) المؤمنون: الآية (١٤).
(٤) الزخرف: الآية (٨٥).
(٥) الفرقان: الآية (١).
(٦) الفرقان: الآية (١٠).
(٧) الفرقان: الآية (٦١).

ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا، ولا قدوسًا، ولا عظيمًا؛ هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس، فكذلك (تبارك) لا يصح أن يكون معناها: بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى هذا لازم وهذا متعدّ، فعلمت أن من فسر (تبارك) بمعنى: ألقى البركة وبارك في غيره، لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا، فـ(تبارك) من باب (مجد)، والمجد: كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، و(بارك) من باب (أعطى) و(أنعم)، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي؛ لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده، أو البركة كلها من قبله. وهذا فرع على (تبارك) في نفسه.

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي»، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارَك، ولهذا كان كتابه مباركًا، ورسوله مباركًا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة. وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: **«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام»**[1]. فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا، فيهبه حمدًا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعزّ منه، ومن عزّ من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا. وكذلك البركة، فهو المتبارك في

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٤١٤/ ٥٩١)، وأخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٧٥)، وأبو داود (٢/ ١٧٦-١٧٧/ ١٥١٣)، والترمذي (٢/ ٩٧-٩٨/ ٣٠٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٦٨-٦٩)، وابن ماجه (١/ ٣٠٠/ ٩٢٨).

ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركًا، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]. وهذا بساط، وإنما غاية معارف العلماء الدنوّ من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهًا: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[3]. وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجدًا لربي، فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن**»[4]. وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمتَه أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[5]، فدل على أن لله ﷻ أسماءً وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق»[6].

* * *

---

(١) غافر: الآية (٦٤).

(٢) الزخرف: الآية (٨٥).

(٣) قوله: «كما أثنيت على نفسك» جزء من حديث أخرجه: أحمد (١/ ٩٦)، وأبو داود (٢/ ١٣٤/ ١٤٢٧)، والترمذي (٥/ ٥٢٤/ ٣٥٦٦) وقال: «حسن غريب من حديث علي لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث حماد بن سلمة»، والنسائي (٣/ ٢٤٨-٢٤٩)، وابن ماجه (١/ ٣٧٣/ ١١٧٩)، والحاكم (١/ ٣٠٦)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح»، كلهم أخرجوه من حديث علي. وأخرجه: أحمد (٦/ ٥٨)، ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦)، والترمذي (٥/ ٤٨٩-٤٩٠/ ٣٤٩٣) وقال: «حديث حسن قد روى من غير وجه عن عائشة»، والنسائي (٢/ ٢٢٢-٢٢٣) وغيرهم من حديث عائشة ﵂.

(٤) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﵁: أحمد (٣/ ٢) مختصراً، الترمذي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣١٤٨)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨)..

(٥) أخرجه من حديث ابن مسعود: أحمد (١/ ٣٩١)، وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩/ ٥٢٩٧)، والطبراني (١٠/ ١٦٩-١٧٠/ ١٠٣٥٢)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣/ ٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩-٥١٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه». قال الذهبي: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة». والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٦)، وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار والطبراني، وقال: «ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان». والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ح: ١٩٩).

(٦) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾

★ **غريب الآية:**

تضرعًا: التضرع: إظهار الضراعة، وهي: الذل والضعف والخشوع والمسكنة.

خفية: الخفية: ضد العلانية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ادعوا أيها الناس ربكم وحده، فأخلصوا له الدعاء دون ما تدعون من دونه من الآلهة والأصنام، ﴿تَضَرُّعًا﴾ يقول: تذللًا واستكانة لطاعته، ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا مراءاة، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته فعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله. . .

وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فإن معناه: إن ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حده الذي حده لعباده في دعائه ومسألته ربه، ورفعه صوته فوق الحد الذي حد لهم في دعائهم إياه ومسألتهم وفي غير ذلك من الأمور»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «وعلى هذا (أي: كون الاعتداء عامًّا في جميع الأمور): فيكون أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع، بل دعاء هذا كالمستغني المدلي على ربه، وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد، ومن الاعتداء أن يعبده بما لم يشرع، ويثني

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٠٦-٢٠٧).

عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعائه: الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب، وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين: أحدهما محبوب للرب سبحانه وهو الدعاء تضرعًا وخفية. الثاني مكروه له مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو لا يحب فاعله، ومن لا يحبه اللَّه فأي خير يناله»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ما اشتملت عليه هذه الآية من آداب نوعي الدعاء: «وهذه الآية مشتملة على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[2]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[3]، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع، القاصر والمتعدي، فلا يمكلون لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا كثير في القرآن، يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعو خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، . .

إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره، قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا[4]، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت؛ أي: ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم عَزَّ وَجَلَّ، وذلك أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وأنه ذكر عبدًا صالحًا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣-٢٤).
(٢) يونس: الآية (١٠٦).
(٣) يونس: الآية (١٨).
(٤) قلت: لا شك في أفضلية دعاء السر على العلانية، لكن تحديد صفة التفاضل بسبعين ضعفاً يحتاج إلى نص عن المعصوم ﷺ.

ورضي بفعله، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[(١)]»[(٢)].

وفي الآية أيضًا مشروعية رفع الأيدي في الدعاء؛ لأنه من التضرع.

قال القرطبي: «واختلف العلماء في رفع اليدين في الدعاء، فكرهه طائفة، منهم جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، ورأى شريح رجلًا رافعًا يديه فقال: من تتناول بهما، لا أم لك! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم: قطعها اللَّه، واختاروا إذا دعا اللَّه في حاجة أن يشير بإصبعه السبابة، ويقولون: ذلك الإخلاص، وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه، وكره رفع الأيدي عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم. وروي جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، وروي عن النبي ﷺ، ذكره البخاري، قال أبو موسى الأشعري: دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه، ورأيت بياض إبطيه، ومثله عن أنس[(٣)]، وقال ابن عمر: رفع النبي ﷺ يديه وقال: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»**[(٤)]، وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول اللَّه ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي اللَّه ﷺ القبلة مادًّا يديه فجعل يهتف بربه، وذكر الحديث[(٥)]، وروى الترمذي عنه[(٦)] قال: **«كان رسول اللَّه ﷺ إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه»**، قال: هذا حديث صحيح غريب، وروى ابن ماجه[(٧)] عن سلمان عن النبي ﷺ قال: **«إن ربكم حيي كريم**

---

(١) مريم: الآية (٣). (٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠-١٥) باختصار.

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٠٤)، والبخاري (٢/ ٦٣٦-٦٣٧/ ١٠١٣)، ومسلم (٢/ ٦١٢-٦١٣/ ٨٩٧)، وأبو داود (١/ ٦٩٤-٦٩٥/ ١١٧٤-١١٧٥)، والنسائي (٣/ ١٥٩-١٦٠).

(٤) أخرجه من حديث عبداللَّه بن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ١٥٠-١٥١)، والبخاري (٨/ ٧٠/ ٤٣٣٩)، والنسائي (٨/ ٦٢٨-٦٢٩/ ٥٤٢٠).

(٥) سيأتي تخريجه في سورة (الأنفال) إن شاء اللَّه تحت قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية (٩).

(٦) في سننه (٥/ ٤٣٢-٤٣٣/ ٣٣٨٦) وقال: «صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد تفرد به، وهو قليل الحديث، وقد حدث عنه الناس»، والحاكم (١/ ٥٣٦) وسكت عنه، وسكت عنه الذهبي أيضاً. وكلام الترمذي فيه اختلاف على حسب النسخ، والحديث ضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٤٠/ ١٤٠٦)، وقال: قال يحيى بن معين: هو حديث منكر، وقال أحمد بن حنبل وأبو حاتم والدارقطني: حماد ضعيف.

(٧) في سننه (٢/ ١٢٧١/ ٣٨٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٢/ ١٦٥/ ١٤٨٨)، والترمذي (٥/ ٥٢٠/ ٣٥٥٦).

يستحي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردهما صفرًا» أو قال: «خائبتين»، احتج الأولون بما رواه مسلم[1] عن عمارة بن رويبة، ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعًا يديه فقال: قبح اللَّه هاتين اليدين، لقد رأيت رسول اللَّه ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا: وأشار بأصبعه المسبحة، وبما روى سعيد بن أبي عروبة[2] عن قتادة أن أنس بن مالك حدثه أن النبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء، فإنه كان يرفعهما حتى يرى بياض إبطيه، والأول أصح طرقًا وأثبت من حديث سعيد بن أبي عروبة، فإن سعيدًا كان قد تغير عقله في آخر عمره، وقد خالفه شعبة في روايته عن قتادة عن أنس بن مالك فقال فيه: كان رسول اللَّه ﷺ يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، وقد قيل: إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عند ذلك جميل حسن، كما فعل النبي ﷺ في الاستسقاء ويوم بدر.

قلت: والدعاء حسن كيفما تيسر، وهو المطلوب من الإنسان؛ لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى اللَّه ﷻ والتذلل له والخضوع، فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن، وإن شاء فلا، فقد فعل ذلك النبي ﷺ حسبما ورد في الأحاديث. وقد قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ ولم يرد صفة من رفع يدين وغيرها، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذكر، وقد دعا النبي ﷺ في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة»[3].

قال شيخ الإسلام: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عقيب قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ دليل عل أن من لم يدعه تضرعًا وخفية، فهو من المعتدين الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعًا وخفية، ومعتد بترك ذلك»[4].

---

(١) في صحيحه (٢/ ٥٩٥/ ٨٧٤)، وأخرجه أيضاً: أحمد (٤/ ١٣٥-١٣٦)، وأبو داود (١/ ٦٦٢/ ١١٠٤)، والترمذي (٢/ ٣٩١-٣٩٢/ ٥١٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (١/ ٥٣١/ ١٧١٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٦٥٧/ ١٠٣١)، ومسلم (٢/ ٦١٢/ ٨٩٥[٧])، وأبو داود (١/ ٦٩٢/ ١١٧٠)، والنسائي (٣/ ١٥٨)، وابن ماجه (١/ ٣٧٣/ ١١٨٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان آداب الدعاء

* عن أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبّرنا، فقال: «**اربَعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا**». ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا باللَّه. فقال لي: «**يا عبد اللَّه بن قيس! قل: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها كنز من كنوز الجنة**» أو قال: «**ألا أدلك به**»[(١)].

★ غريب الحديث:

اِرْبَعوا على أنفسكم: بهمزة وصل مكسورة ثم موحدة مفتوحة؛ أي: ارفقوا، ولا تُجهدوا أنفسكم.

كنز من كنوز الجنة: سمى هذه الكلمة كنزًا؛ لأنها كالكنز في نفاسته وصيانته عن أعين الناس. والمعنى أن أجرها مدخر لقائلها والمتصف بها، كما يدخر الكنز.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت حاجة إلى الرفع رفع، كما جاءت به الأحاديث»[(٢)].

قال ابن المنير: «وحسبك في تعين الإسرار بالدعاء اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى اللَّه في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه، وترى كثيرًا من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء خصوصًا في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد، وتستد المسامع وتستك، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء وفي المسجد، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤)، والبخاري (١٣/ ٤٦٠/ ٧٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦/ ٢٧٠٤)، وأبو داود (٢/ ١٨٢-١٨٣/ ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨)، والترمذي (٥/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٣٤٦١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٧٦٨٠-٧٦٨١) (٦/ ٩٧/ ١٠١٨٨) (٦/ ٤٣٨/ ١١٤٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٦/ ٣٨٢٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٢٤).

لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء، وفي خفض الصوت أوفر وأوفى وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه»[1].

وقال شيخ الإسلام: «وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة: أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن اللَّه يسمع الدعاء الخفي، وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به، وثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق، وقلبه يسأل طالبًا مبتهلًا، ولسانه لشدة ذلته ساكتًا، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلًا، ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص، وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه، وسادسها: -وهو من النكت البديعة جدًا- أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى اللَّه على عبده زكريا بقوله ﷻ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فلما استحضر القلب قرب اللَّه ﷻ، وأنه أقرب إليه من كل قريب، أخفى دعاءه ما أمكنه، وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه، بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «**اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2]، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص،

---

(١) الإنصاف (٢/ ٨٣-٨٤) (حاشية الكشاف).
(٢) البقرة: الآية (١٨٦).

ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب. وسابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يمل اللسان، وتضعف قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له، بخلاف من خفض صوته. وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته، فيضعف أثر الدعاء، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة. وتاسعها: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾[1] الآية، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع اللَّه تعالى، قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، . . وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على اللَّه تعالى، فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة. وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو ﷻ، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب، كما قال النبي ﷺ: «**أفضل الدعاء: الحمد لله**»[2] فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمِّن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه. والمقصود

---

(١) يوسف: الآية (٥).

(٢) أخرجه من حديث جابر ﷺ: الترمذي (٥/ ٤٣١/ ٣٣٨٣) وقال: «هذا حديث غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٩/ ٣٨٠٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣١)، وصححه ابن حبان (٣/ ١٢٦/ ٨٤٦)، والحاكم (١/ ٤٩٨)، ووافقه الذهبي.

أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[1]، فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح، وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ الآية، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله ومحبته له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل.. وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.. فتأمل أسرار القرآن وحكمته، في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء.. وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه؛ فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه؛ إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو لائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور»[2].

* عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: أي بُنيّ! سل الله الجنة وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»**[3].

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٥). (٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥-٢٢) باختصار.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٧) (٥/ ٥٥)، وأبو داود (١/ ٧٣/ ٩٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧١/ ٣٨٦٤)، وابن حبان (١٥/ ١٦٦/ ٦٧٦٤)، والحاكم (١/ ٥٤٠) وصححه ووافقه الذهبي.

* عن مولى لسعد أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحو هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت اللَّه خيرًا كثيرًا، وتعوذت باللَّه من شر كثير، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء**» وقرأ هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وإنّ بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»[١].

⋆ غريب الحديث:

إستبرقها: هو ما غلظ من الحرير والإبريسم.

أغلالها: جمع غُل، بضم المعجمة، وهو طوق من حديد يجعل في العنق.

⋆ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد: «كراهية الاعتداء في الدعاء»[٢].

قال الطيبي: «قال التوربشتي: أنكر الصحابي على ابنه في هذه المسألة؛ لأنه طمح إلى ما لم يبلغه عملًا وحالًا، حيث سأل منازل الأنبياء والأولياء، وجعلها من باب الاعتداء في الدعاء، لما فيها من التجاوز عن حد الأدب، ونظر الداعي إلى نفسه بعين الكمال، والاعتداء في الدعاء يكون من وجوه كثيرة، والأصل فيه أن يتجاوز عن مواقف الافتقار... أو يميل إلى أحد شقي الإفراط والتفريط، في خاصة نفسه، وفي غيره إذا دعا له أو عليه»[٣].

وقال القرطبي: «والاعتداء في الدعاء على وجوه:

منها: الجهر الكثير والصياح كما تقدم، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٢و١٧٣)، وأبو داود (٢/ ١٦١-١٦٢/ ١٤٨٠). قال المنذري في مختصر السنن (٢/ ١٤٢): «وابن سعد لم يسمّ؛ فإن كان عمر فلا يحتج به». والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥/ ٢٢٠) وقال في إسناد أبي داود: «وهذا إسناد رجاله ثقات معروفون غير ابنٍ لسعد، لكن أولاد سعد الذين يروون عنه كلهم ثقات، وهم إبراهيم وعامر وعمر ومحمد ومصعب، إلا أنه قد اضطربوا في إسناده».

(٢) وبه بوّب ابن ماجه على حديث ابن مغفل في سننه (٢/ ١٢٧١/ ٣٨٦٤).

(٣) شرح الطيبي (٣/ ٨٠٣).

منزلة نبي، أو يدعو في محال، ونحو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالبًا معصية وغير ذلك، ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة، فيتخير ألفاظًا مفقرة، وكلمات مسجعة، قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها، فيجعلها شعاره، ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١]

★ **غريب الآية:**

الطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: لا تشركوا باللَّه في الأرض، ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها. وقد ذكرنا الرواية في ذلك فيما مضى، وبيّنّا معناه بشواهده. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يقول: بعد إصلاح اللَّه إياها لأهل طاعته بابتعاثه فيهم الرسل دعاة إلى الحق؛ لإيضاحه حججه لهم، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يقول: وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئًا غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، وإن من كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذّبين؛ لأن من لم يخف عقاب اللَّه، ولم يرج ثوابه، لم يبال ما ركب من أمر يسخطه اللَّه ولا يرضاه»[٢].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ نهى عن كل فساد -قلّ أو كثر- بعد صلاح -قلّ أو كثر-، فهو على العموم، على الصحيح من الأقوال»[٣].

وقال أبو حيان: «وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل؛ إذ ادعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه كالظلم بعد العدل، أو الكفر بعد الإيمان، أو المعصية بعد الطاعة، أو بالمعصية،

---

(١) الأعراف: الآية (٥٦).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٦).

فيمسك اللَّه المطر، ويهلك الحرث بعد إصلاحها بالمطر والخصب، أو يقتل المؤمن بعد بقائه، أو بتكذيب الرسل بعد الوحي، أو بتغوير الماء المعين، وقطع الشجر والثمر ضرارًا، أو بقطع الدنانير والدراهم، أو بتجارة الحكام، أو بالإشراك باللَّه بعد بعثة الرسل، وتقرير الشرائع وإيضاح الملة»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «والداعي إلى غير طاعة اللَّه بعد إصلاح اللَّه إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله؛ مفسد؛ فإن عبادة غير اللَّه والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك باللَّه ومخالفة أمره؛ قال اللَّه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[(٢)]، قال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك اللَّه المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم، فتقول: اللهم العنهم، فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر. وبالجملة؛ فالشرك والدعوة إلى غير اللَّه، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون اللَّه وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة؛ فإن اللَّه أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله ﷺ.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد اللَّه وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول ﷺ، والدعوة إلى غير اللَّه، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عمومًا وخصوصًا، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إنما ذكر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع، فأمر أولًا بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر أيضًا أن يكون الدعاء خوفًا وطمعًا.

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣١٣).

(٢) الروم: الآية (٤١).

وفصل الجملتين بجملتين:

إحداهما: خبرية، ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[١].

والثانية: طلبية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

والجملتان مقررتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها.

ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضاده أمر بدعائه خوفًا وطمعًا؛ لتعلق قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٢].

ولما كان قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملًا على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنما تنال من دعاه خوفًا وطمعًا، فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة»[٣].

وقال الرازي: «هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًّا خاصًّا دل على جواز الإقدام على بعض المضار، قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا بقي على التحريم الذي دل عليه هذا النص.

واعلم أنا كنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[٤] أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل، ثم بيّنّا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام اللّه تعالى، فكذلك في هذه الآية أنها تدل على أن الأصل في المضار والآلام: الحرمة.

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام اللّه تعالى داخلًا تحت عموم هذه الآية، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف في تلك الآية فهي موجودة في هذه الآية، فتلك الآية دالة على أن الأصل في المنافع الحل، وهذه الآية دالة على أن الأصل في

---

(١) الأعراف: الآية (٥٥).
(٢) الأعراف: الآية (٥٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٤-٢٦).
(٤) الأعراف: الآية (٣٢).

جميع المضار الحرمة، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات، وأيضًا هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضي عليه بين الخصمين، فإنه انعقد وصح وثبت؛ لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفسادًا بعد الإصلاح، والنص يدل على أنه لا يجوز.

إذا ثبت هذا فنقول: إن مدلول هذه الآية من هذا الوجه متأكد بعموم قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[1]، وبعموم قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، وتحت قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[3]، وتحت سائر العمومات الواردة في وجوب الوفاء بالعهود والعقود.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًا دالاً على أن بعض العقود التي وقع التراضي به من الجانبين غير صحيح، قضينا فيه بالبطلان تقديمًا للخاص على العام، وإلا حكمنا فيه بالصحة رعاية لمدلول هذه العمومات. وبهذا الطريق البيّن الواضح ثبت أن القرآن وافٍ ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها»[4].

* * *

(١) المائدة: الآية (١).

(٢) الصف: الآيتان (٢و٣).

(٣) المؤمنون: الآية (٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٣٩-١٤٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ثواب اللَّه الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم، وذلك هو رحمته؛ لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته، وما أعد لهم من كرامته، إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم»[(٢)].

وقال ابن كثير: «أي: إن رحمته مرسلة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن القيم في معرض ذكره لمسالك وأوجه إخباره ﷺ عن الرحمة وهي مؤنثة بالتاء، بقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ وهو مذكر: «المسلك السادس: أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعًا له، ومعنى من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره؛ لأنه يفهم منه، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[(٥)]، فاستغنى عن خبر الأعناق بالخبر عن أصحابها، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[(٦)]، المعنى: واللَّه أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله؛ إذ إرضاؤه هو إرضاء رسوله، فلم يحتج أن يقول يرضوهما، فعلى هذا يكون الأصل في الآية إن اللَّه قريب من المحسنين، وإن رحمة اللَّه قريبة من المحسنين، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى، وهذا المسلك مسلك حسن، إذا كسي تعبيرًا أحسن من هذا، وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الأفهام، وهو من أسرار القرآن، والذي ينبغي أن يعبر عنه به، أن الرحمة صفة من

---

(١) الأعراف: الآية (٥٦).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٣) الأعراف: الآيتان (١٥٦و١٥٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٩).
(٥) الشعراء: الآية (٤).
(٦) التوبة: الآية (٦٢).

صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها، فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين، وقد تقدم في أول الآية أن اللَّه تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته، ومن أهل سؤاله بإجابته، وذكرنا شواهد ذلك، وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده، كما أن للعبد قرب من ربه بالإحسان، وأن من تقرب منه شبرًا، تقرب اللَّه منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين، ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته، ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن اللَّه تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القربين: قربه وقرب رحمته، ولو قال إن رحمة اللَّه قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يسلتزم الأخص، بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته، فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأنًا، وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب، وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به، وإنما أراد أن الإخبار عن قرب اللَّه تعالى من المحسنين كافٍ عن الإخبار عن قرب رحمته منهم، فهو مسلك سابع في الآية، وهو المختار وهو من أليق ما قيل فيها، وإن شئت قلت: قربه تبارك وتعالى من المحسنين وقرب رحمته منهم متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضًا قريب منهم، وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان، واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ لها وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده، الذي هو غاية الأماني ونهاية الآمال، وقرة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلها، فكان في العدول عن قريبة إلى قريب من استدعاء الإحسان، وترغيب النفوس فيه، ما لا يتخلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته، ولا قوة إلا بالله»[1].

قلت: رحمة اللَّه على الإمام ابن القيم على هذا الفهم الطيب والتخريج الحسن

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٣٠-٣٢).

للفظ الآية التي أكثر المفسرون فيها من تخريج الأقوال حيث جعل الصفة التي هي الرحمة ملازمة لموصوفها وغير مفارقة لها فإن وصف بها فهي صفته، وهو تعالى الموصوف بها وحقيقة الأمر لا يفرق بين الصفة والموصوف في الوجود فلهذا محبته هي صفته وهو الموصوف بها وغضبه هو صفته وهو الموصوف به ويده هي صفته وهو الموصوف بها وهكذا بقية الصفات فحسن ما ذكره العلامة ابن القيم بأن التذكير هنا واقع على الموصوف تبارك وتعالى فهو قريب من المحسنين قربًا خاصًا به كما ورد في كثير من آيات القرآن. والله أعلم.

قال القاسمي: «في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ . . . الآية، ترجيح للطمع على الخوف؛ لأن المؤمن بين الرجاء والخوف، لكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها، غلب الرجاء عليه. وفيه أيضًا تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وهو الإحسان في القول والعمل، قال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين»[1].

قال شيخ الإسلام: «وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم رحمته، ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعًا وخفية وخوفًا وطمعًا، فقرب مطلوبكم منه، وهو الرحمة، بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم»[2].

وقال: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه، وتعليله بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بإيمائه وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعده من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله ﷻ أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ١٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦-٢٧).

برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعد ببعد، وقرب بقرب، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب اللَّه إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد اللَّه عنه برحمته، واللَّه سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه اللَّه فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه اللَّه فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان: الإيمان والتوحيد والإنابة إلى اللَّه تعالى، والإقبال إليه والتوكل عليه، وأن يعبد اللَّه كأنه يراه إجلالًا ومهابة، وحياءً ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل ﷺ عن الإحسان فقال: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه**»[(١)]، فإذا كان هذا هو الإحسان، فرحمته قريب من صاحبه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس ﷺ: هل جزاء من قال: لا إله إلا اللَّه، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة»[(٢)].

قلت: ما أحسن ما قرره شيخ الإسلام الحبر الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمة اللَّه عليه في بيان أعظم الإحسان وهو الإيمان والتوحيد واتباع السنة والكتاب وفيه رد على المخرفين الذين ينسبون كل ما اخترعوه واختلقوه من ضلال وشركيات إلى الإحسان ويدندنون حول التعلق بهذه الكلمة وهم في الحقيقة مفارقون لمعنى الإحسان بكل ما في الكلمة من معنى؛ وقد رددت على بعض المخرفين من أمثال هؤلاء، وسميت الرد: (الإحسان في اتباع السنة والقرآن لا في تقليد أخطاء الرجال) وهو مطبوع بحمد اللَّه. ولما رأيت هذه الكلمة من الشيخ الإمام حمدت اللَّه وأثنيت عليه على ما وفقت له من اختيار العنوان وعساي أن أكون قد وفقت في مضمون الكتاب، فنرجو اللَّه أن يجعلنا من المحسنين المتبعين لكتابه.

---

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٧-٢٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن الرحمة المضافة إلى اللَّه تعالى قد تكون صفة ذاتية له، وقد تكون مفعولًا له ومخلوقًا من مخلوقاته، فتكون بذلك من أثر صفة رحمته الذاتية

* عن أسامة قال: «كان ابن لبعض بنات النبي ﷺ يقضي فأرسلت إليه أن يأتيها، فأرسل: **إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل إلى أجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب**، فأرسلت إليه، فأقسمت عليه، فقام رسول اللَّه ﷺ وقمت معه ومعاذ ابن جبل وأبي بن كعب وعبادة بن الصامت، فلما دخلنا ناولوا رسول اللَّه ﷺ الصبي ونفسه تقلقل في صدره حسبته قال: كأنها شنة، فبكى رسول اللَّه ﷺ فقال سعد بن عبادة: أتبكي، فقال: **إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء**»[1].

★ **غريب الحديث:**

تقلقل: أي: تصوّت اضطرابًا.

شنة: الشنة والشن: الخَلِق من كل آنية صنعت من جلد، وجمعها: شِنان.

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا رب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار؛ يعني: أوثرت بالمتكبرين، فقال اللَّه تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: فأما الجنة فإن اللَّه لا يظلم من خلقه أحدًا، وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد، ثلاثًا، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض وتقول: قط قط قط**»[2].

★ **غريب الحديث:**

سقطهم: أي: أراذلهم وأدوانهم.

أُوثِرتُ: على صيغة المجهول، بمعنى: اختصصت، من الإيثار، وهو الانفراد بالشيء.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٤)، والبخاري (١٣/ ٥٣٣/ ٧٤٤٨)، ومسلم (٢/ ٦٣٥-٦٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨)، والنسائي (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ١٨٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٦)، والبخاري (١٣/ ٥٣٣/ ٧٤٤٩)، ومسلم (٤/ ٢١٨٦/ ٢٨٤٦).

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليصيبن أقوامًا سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم: الجهنميون**»[(١)].

★ غريب الحديث:

سفع من النار: السفع، بفتح السين وسكون الفاء: هو أثر تغير البشرة من حر النار؛ أي: يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم.

★ فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بقوله: «باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾».

قال الغنيمان: «ومراده بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق، فتكون مخلوقة لله مفعولًا له، وذلك من آثار رحمته التي هي صفته تعالى كما في قوله ﷺ جوابًا لسعد بن عبادة لما قال له: ما هذا؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب العباد، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، ولكم أشار إلى هذا اللفظ كعادته بذكره غير الصريح والاكتفاء بالتلويح، وفي الآية التي ترجم بها إشارة إلى مراده، فكأنه لحظ أن الرحمة فيها الجنة، وهي قريب من المحسنين، كما في الحديث: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»[(٢)] يعني من المسيئين، ولذلك تظهر المناسبة بين الآية المترجم بها وأحاديث الباب، والله أعلم. وقال الحافظ: المراد أنه يدخل من أحسن الجنة التي وعد المتقين برحمته، وقد قال للجنة: «**أنت رحمتي**»، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة والعلم عند الله. وليس هذا من التأويل المذموم؛ لأنه من المعنى الذي دلت عليه الآية ضمنًا، وإلا فمنطوقها دال على صفة الرحمة الموصوف بها رب العالمين -جل وعلا-، ومما يبين ذلك أن هذه الآية جاءت عقب الأمر بالدعاء تضرعًا وخفية، والنهي عن الاعتداء والإفساد في الأرض بالمعاصي، ثم أمر تعالى بدعائه خوفًا وطمعًا، وهذه حال المتقين، الذين أحسنوا في أعمالهم، وأحسنوا

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٣)، والبخاري (١٣/ ٥٣٣/ ٧٤٥٠).

(٢) أخرجه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أحمد (١/ ٣٨٧)، والبخاري (١١/ ٣٩٠/ ٦٤٨٨).

إلى عباد اللَّه بالنصح لهم، وإصلاح الأرض بالطاعة والبعد عن مساخط اللَّه التي هي الإفساد في البلاد والعباد، وهؤلاء هم المحسنون الذين قريبة منهم رحمة اللَّه تعالى، ومنها الجنة»[١].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ٨٠-٨١).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾[1]

★ غريب الآية:

بُشْرًا: بالباء وإسكان الشين والتنوين: جمع بشير، وهي قراءة عاصم؛ أي: الرياح تبشر بالمطر وشاهده قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[2]. وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو: (نُشُرًا) بضم النون والشين، جمع ناشر، على معنى النسب؛ أي: ذات نشر، فهو مثل شاهد وشُهُد. ويجوز أن يكون جمع نَشور، كرسول ورُسل. يقال: ريح النَّشور: إذا أتت من ههنا وههنا، والنَّشور بمعنى المنشور، كالرَّكوب بمعنى المركوب؛ أي: وهو الذي يرسل الرياح منشرة. وقرأ حمزة: (نَشْرًا) بفتح النون وإسكان الشين؛ على المصدر، أعمل فيه معنى ما قبله، كأنه قال: وهو الذي ينشر الرياح نَشْرًا، نشرتُ الشيء فانتشر، فكأنها كانت مطوية فنشرت عند الهبوب. ويجوز أن يكون مصدرًا في موضع الحال من الرياح كأنه قال يرسل الرياح مُنشِرَة أي: محيية، من أنشر الله الميتَ فنشر، كما تقول: أتانا ركضًا؛ أي: راكضًا. وقد قيل: إن نَشْرًا -بالفتح- من النشر الذي هو خلاف الطي، على ما ذكرنا، كأن الريح في سكونها كالمطوية، ثم ترسل من طيها ذلك، فتصير كالمنفتحة. وقد فسره أبو عبيد بمعنى متفرقة في وجوهها؛ على معنى ينشرها ههنا وههنا.

أَقَلَّتْ سحابًا ثقالًا: أي: احتملته فوجدته قليلًا باعتبار قوتها. والمعنى: حملت الريح سحابًا ثقالًا بالماء؛ أي: أثقلت بحمله. يقال: أقل فلان الشيء؛ أي: حمله.

---

(١) الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) الروم: الآية (٤٦).

سُقْنَاهُ: السَّوْقُ: حثُّ الشيءِ في السير للإسراع.

البلد: الأرض التي تجمع الخلق الكثير، ومثله البادية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قدير، نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: «وهو الذي يرسل الرياح نشرًا» أي: ناشرة بين يدي السحاب، الحامل للمطر، ومنهم من قرأ: (بشرًا) كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فإنه يقول: قدام رحمته وأمامها، والعرب كذلك تقول لكل شيء حدث قدام شيء وأمامه: جاء بين يديه؛ لأن ذلك من كلامهم، جرى في أخبارهم عن بني آدم، وكثر استعماله فيهم، حتى قالوا ذلك في غير ابن آدم وما لا يد له، والرحمة التي ذكرها -جل ثناؤه- في هذا الموضع: المطر»[(٣)].

قال ابن كثير: «وهو كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[(٤)]، وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٥)]»[(٦)].

قال ابن جرير: «فمعنى الكلام إذن: والله الذي يرسل الرياح لينًا هبوبها، طيبًا نسيمها، أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحابًا ثقالًا، حتى إذا أقلتها.. ساقه الله لإحياء بلد ميت، قد تعفت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجدب أهله، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات»[(٧)].

قال ابن عطية بعد حكايته اختلاف القراءة في لفظة (الرياح) جمعًا وإفرادًا قال:

---

(١) الروم: الآية (٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٠).

(٣) جامع البيان (٨/ ٢١٠).

(٤) الشورى: الآية (٢٨).

(٥) الروم: الآية (٥٠).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٠) بتصرف يسير.

(٧) جامع البيان (٨/ ٢١٠).

«ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد، وذلك أن الرياح حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[١]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[٣] وأكثر ذكر الريح مفردة، إنما هو بقرينة عذاب كقوله: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٥]، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[٦]، نحا هذا المنحى يحيى بن يعمر وأبو عمرو بن العلاء وعاصم، . . والمعنى في هذا كله بيّن، وذلك أن ريح السقيا والمطر، أنها هي منتشرة لينة، تجيء من ههنا وتتفرق، فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيرًا أن يقال لها: رياح، وتوصف بالكثرة ريح الصر والعذاب، عاصفة صرصر جسد واحد شديدة المر مهلكة بقوتها، وبما تحمله أحيانًا من الصر المحرق، فيحسن من حيث هي شديدة الاتصال، أن تسمى ريحًا مفردة، وكذلك أفردت الريح في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[٧]، من حيث جري السفن، إنما جرت بريح متصلة كأنها شيء واحد، فأفردت لذلك ووصفت بالطيب، إزالة للاشتراك بينها وبين الريح المكروهة، وكذلك ريح سليمان ﷺ إنما كانت تجري بأمره أو تعصف في حقوله وهي متصلة، وبعد فمن قرأ في هذه الآية الريح بالإفراد فإنما يريد به اسم الجنس، وأيضًا فتقييدها بـ(نشر) يزيل الاشتراك، والإرسال في الريح هو بمعنى الإجراء والإطلاق والإسالة، ومنه الحديث: «فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[٨]»[٩].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ عطف على قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يتضمن ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته»[١٠].

---

(١) الروم: الآية (٤٦).
(٢) الحجر: الآية (٢٢).
(٣) الروم: الآية (٤٨).
(٤) الذاريات: الآية (٤١).
(٥) الحاقة: الآية (٦).
(٦) الأحقاف: الآيتان (٢٤و٢٥).
(٧) يونس: الآية (٢٢).
(٨) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٢٣٠-٢٣١)، والبخاري (٤/ ١٤٦/ ١٩٠٢)، ومسلم (٤/ ١٨٠٣/ ٢٣٠٨)، والترمذي مختصراً في الشمائل (٣٠٣)، والنسائي (٤/ ٤٣٠/ ٢٠٩٤).
(٩) المحرر الوجيز (٢/ ٤١٢).
(١٠) فتح القدير (٢/ ٣٠٢).

وقال ابن عاشور: «وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع، كقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1]، وقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[2]»[3].

وقال: «والمقصد الأول من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ تقريع المشركين وتفنيد إشراكهم، ويتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم؛ لأن الموصول دل على أن الصلة معلومة الانتساب للموصول؛ لأن المشركين يعلمون أن للرياح مصرفًا وأن للمطر منزلًا، غير أنهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالبًا، فيقولون: مطرنا بنوء الثريا ويقولون: غثنا وما شئنا مبنيًا للمجهول أي: أغثنا، فأخبر اللَّه تعالى بأن فاعل تلك الأفعال هو اللَّه، وذلك بإسناد هذا الموصول إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي: الذي علمتم أنه يرسل الرياح وينزل الماء، وهو اللَّه تعالى كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾[4]، فالخبر مسوق لتعيين صاحب هذه الصلة. فهو بمنزلة الجواب عن استفهام مقصود منه طلب التعيين في نحو قولهم: أراحل أنت أم ثاو، ولذلك لم يكن في هذا الإسناد قصر؛ لأنه لم يقصد به رد اعتقاد، فإنهم لم يكونوا يزعمون أن غير اللَّه يرسل الرياح، ولكنهم كانوا كمن يجهل ذلك من جهة إشراكهم معه غيره، فروعي في هذا الإسناد حالهم ابتداءً، ويحصل رعي حال المؤمنين تبعًا؛ لأن السياق مناسب لمخاطبة الفريقين كما تقدم في الآي السابقة»[5].

وقال البقاعي في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: «لعله عبر فيه باليدين: اليمنى واليسرى لدلالته -مع ما فيه من الفخامة- على أنه تارة يكون رحمة وتارة يكون عذابًا، كما كان على قوم نوح ﷺ، وإن كانت الرحمة فيه أغلب، وهي ذات اليمين، وتارة تكون الرياح جامعة لها لحفظ الماء، وتارة مفرقة مبطلة لها، وتارة تكون مقومة للزروع والأشجار، مكملة لها وهي اللواقح، وتارة تكون منمية لها أو

---

(١) الجن: الآية (١٦).
(٢) الدخان: الآية (١٠).
(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٨).
(٤) البقرة: الآية (١٦).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٠-١٨١).

مهلكة، كما يكون في الخريف، وتارة تكون طيبة، وتارة مهلكة، إما بشدة الحرارة أو البرودة»(١).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ الآية، بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح، ثم يسوقه إلى حيث يشاء من بقاع الأرض، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾(٢) الآية، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾(٣) إلى غير ذلك من الآيات»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خوف النبي ﷺ من أن يقع لهذه الأمة ما وقع للأمم قبلها حيث قلبت عليهم النعمَ نقمًا

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»(٥).

★ غريب الحديث:

الصَّبا: بفتح الصاد مقصورة: الريح الشرقية.

الدَّبور: بفتح الدال: الريح الغربية.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا رأى مَخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرّفته عائشة ذلك فقال النبي ﷺ: وما أدري كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾(٦) الآية»(٧).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٢١). (٢) فاطر: الآية (٩).

(٣) السجدة: الآية (٢٧). (٤) أضواء البيان (٢/ ٣٢٣).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٦/ ٣٧٦/ ٣٣٤٣)، ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٧). (٦) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٧) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦٧، ٢٤٠)، والبخاري (٦/ ٣٠٠/ ٣٢٠٦)، ومسلم (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩)، وأبو داود (٥/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٥٠٩٨)، والترمذي (٥/ ٣٥٦/ ٣٢٥٧)، والنسائي في الكبرى (١/ ٥٦٢/ ١٨٣١) (٦/ ٤٥٩/ ١١٤٩٢).

★ **غريب الحديث:**

مَخيلة: المخيلة، بفتح الميم: سحابة فيها رعد وبرق لا ماء فيها. ويقال في السماء إذا تغيمت: أخالت فهي مُخْيِلة، بالضم.

سُرِّيَ: بضم المهملة وتشديد الراء بلفظ المجهول؛ أي: كشف عنه ما خالطه من الوجل.

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الريح من روح اللَّه، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا اللَّه خيرها، واستعيذوا باللَّه من شرها**»[1].

★ **فوائد الأحاديث:**

مناسبة هذه الأحاديث للآية -يقول العيني-: «من حيث إنها مشتملة على ذكر الريح والمطر الذي تأتي به الريح»[2]، وقد أخبر ﷺ فيما صحّ عنه: «**أن الريح من روح اللَّه تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب**»، ولذلك كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه؛ «مخافة أن يحصل من ذلك السحاب أو الريح ما فيه ضرر بالناس»[3]، أو «أن يصيب أمّته عقوبة ذنب العامة كما أصاب الذين قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[4]»[5].

قال ابن رجب: «إنما كان يظهر في وجه النبي ﷺ الخوف من اشتداد الريح؛ لأنه كان يخشى أن تكون عذابًا أرسل على أمته، وكان شدة خوف النبي ﷺ على أمته شفقة عليهم كما وصفه اللَّه ﷻ بذلك في قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[6]، ولما تلا عليه ابن مسعود: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٠)، وأبو داود (٥/ ٣٢٩/ ٥٠٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٧)، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٨٧/ ١٠٠٧)، والحاكم (٤/ ٢٨٥) ووافقه الذهبي.

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٥٦١).

(٣) قاله الطيبي في «الكاشف» (٤/ ١٣٢٥).

(٤) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٥) من كلام الكرماني في شرحه على البخاري (ج ١٣/ ١٦٢).

(٦) التوبة: الآية (١٢٨).

مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[١] بكى[٢]، ولما تلا قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[٣] الآية؛ بكى وقال: «اللهم أمتي أمتي»، فأرسل الله جبريل يقول له: «إن الله يقول: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك»[٤]، وكان يقول: «شيبتني (هود) وأخواتها»[٥]، وجاء في رواية مرسلة: «قصفن علي الأمم» يشير إلى أنه شيبه منها ما ذكر من هلاك الأمم قبل أمته وعذابهم، وكان عند لقاء العدو يخاف على من معه من المؤمنين ويستغفر لهم كما فعل يوم بدر، وبات تلك الليلة يصلي ويبكي ويستغفر لهم، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[٦]، وكل هذا من خوفه وشفقته عليهم.

وقد جاء في روايات متعددة[٧] التصريح بسبب خوفه من اشتداد الريح»[٨].

قال أبو بكر بن العربي: «فإن قيل: كيف يخشى النبي ﷺ أن يعذب القوم وهو فيهم مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[٩]»[١٠].

فالجواب -يقول أبو بكر بن العربي-: «أن الآية قبل الحديث؛ لأن الآية كرامة للنبي ﷺ، ودرجة رفيعة لا تحط بعد أن رفعت، وخطة لا تنتقض بعد أن عقدت، وأن الله لم يعذب أسلافهم؛ لأن النبي ﷺ في أصلابهم، ولم يعذبهم لحرمة وجوده

(١) النساء: الآية (٤١).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٨/ ٣١٧/ ٤٥٨٢)، ومسلم (١/ ٥٥١/ ٨٠٠)، وأبو داود (٤/ ٧٤/ ٣٦٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٢٢/ ٣٠٢٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٨-٢٩/ ٨٠٧٨).

(٣) المائدة: الآية (١١٨).

(٤) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ: مسلم (١/ ١٩١/ ٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٣/ ١١٢٦٩).

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: الترمذي (٥/ ٣٧٥/ ٣٢٩٧) وقال: «حسن غريب»، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٣) على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه من حديث علي: أحمد (١/ ١١٧)، وأبو داود (٣/ ١١٩-١٢٠/ ٢٦٦٥) مختصراً، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٥-٧٦): «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضارب، وهو ثقة».

(٧) وسيأتي ذكر الأحاديث الواردة في هذا المعنى في تفسير سورة (الأحقاف) عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ الآية (٢٤).

(٨) فتح الباري (٩/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٩) الأنفال: الآية (٣٣).

(١٠) نقلاً عن الحافظ في «فتح الباري» (٦/ ٣٧١).

فيهم، ولم يعذبهم وهم يستغفرون بعد ذهاب نبيهم»[١].

قال الحافظ: «يعكر عليه أن آية (الأنفال) كانت في المشركين من أهل بدر، وفي حديث عائشة إشعار بأنه كان يواظب على ذلك من صنيعه كان إذا رأى فعل كذا، والأولى في الجواب أن يقال: إن في آية (الأنفال) احتمال التخصيص بالمذكورين، أو بوقت دون وقت، أو مقام الخوف يقتضي غلبة عدم الأمن من مكر اللَّه، وأولى من الجميع أن يقال: خشي على من ليس هو فيهم أن يقع بهم العذاب، أما المؤمن فشفقة عليه لإيمانه، وأما الكافر فلرجاء إسلامه، وهو بعث رحمة للعالمين»[٢].

وفيه من الفوائد أيضًا: **قال الحافظ**: «وفي الحديث تذكر ما يذهل المرء عنه مما وقع للأمم الخالية والتحذير من السير في سبيلهم خشية من وقوع مثل ما أصابهم»[٣].

وقال النووي: «فيه الاستعداد بالمراقبة لله، والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال، وحدوث ما يخاف بسببه، وكان خوفه ﷺ أن يعاقبوا بعصيان العصاة وسروره لزوال سبب الخوف»[٤].

وقال الحافظ: «وفيه شفقته ﷺ على أمته ورأفته بهم كما وصفه اللَّه تعالى»[٥].

«وقد كان ﷺ -يقول القرطبي- لعظيم حلمه ورأفته وشفقته يرتجي لهم الفلاح والرجوع إلى الحق، وهذا كما قال يوم أحد: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[٦]»[٧].

* * *

(١) العارضة (١٢/ ١٤٠).
(٢) فتح الباري (٦/ ٣٧١).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) شرح مسلم (٦/ ١٧٣).
(٥) فتح الباري (٦/ ٤٧١).
(٦) أخرجه من حديث عبداللَّه بن مسعود ﷺ: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٦/ ٦٣٧/ ٣٤٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٥).
(٧) المفهم (٢/ ٥٤٧).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما نحيي هذا البلد الميت بما ننزل به من الماء الذي ننزله من السحاب، فنخرج به من الثمرات بعد موته وجذوبته وقحوط أهله، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، أحياء بعد فنائهم، ودروس آثارهم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- للمشركين به من عبدة الأصنام المكذبين بالبعث بعد الممات المنكرين للثواب والعقاب: ضربت لكم أيها القوم هذا المثل، الذي ذكرت لكم من إحياء البلد الميت بقطر المطر الذي يأتي به السحاب، الذي تنشره الرياح، التي وصفت صفتها لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن من كان ذلك من قدرته فيسير في حقه إحياء الموتى بعد فنائها وإعادتها خلقًا سويًّا بعد دروسها»[2].

وقال صديق حسن خان في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: «التشبيه في مطلق الإخراج من العدم، وهذا رد على منكري البعث، ومحصله أن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس، قادر على إحياء الموتى من قبورهم»[3].

وقال الخازن: «﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾» الخطاب لمنكري البعث، يقول: إنكم شاهدتم الأشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف، ثم إنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأزهار والثمار، ثم إن اللَّه تعالى أحياها مرة أخرى، فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها. والمعنى: إن ما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتتذكروا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي»[4].

---

(١) الأعراف: الآية (٥٧).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢١٠).
(٣) فتح البيان (٤/ ٣٨٣).
(٤) لباب التأويل (٢/ ١٠٠).

وقال السمرقندي: «وفي هذه الآية إثبات القياس، وهو رد المختلف إلى المتفق؛ لأنهم كانوا متفقين أن اللَّه تعالى هو الذي ينزل المطر ويخرج النبات من الأرض، فاحتج عليهم لإحيائهم بعد الموت، بإحياء الأرض بعد موتها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لأدلة القدرة على البعث والنشور

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه -في قصة خروج الدجال ومدة مكثه في الأرض- مرفوعًا: «... **ثم يرسل اللَّه -أو قال: ينزل الله- مطرًا كأنه الطل أو الظل -نعمان الشاكّ- فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس! هلم إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون...**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

كأنه الطل: الطل: الذي ينزل من السماء في الصحو، والطل أيضًا أضعف المطر.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون**، قال: أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: **ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

البقل: البقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل، وحقيقة رسمه أنه: ما لم يبق له أرومة على الشتاء بعدما يرعى.

---

(١) بحر العلوم (١/ ٥٤٨).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٨/ ٢٩٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠١/ ١١٦٢٩).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٩٢/ ٤٩٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠-٢٢٧١/ ٢٩٥٥[١٤١])، بهذا السياق. وأخرج الطرف الأخير منه: أحمد (٢/ ٣١٥)، وأبو داود (٥/ ١٠٨/ ٤٧٤٣)، والنسائي (٤/ ٤١١-٤١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٥/ ٤٢٦٦).

عَجْب الذنب: العجب، بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة، ويقال له: عجم، بالميم أيضًا عوض الباء، وهو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

★ **فوائد الحديثين:**

في هذين الحديثين من الفوائد: «بيان كيفية البعث»[1]، و«أن إحياء الناس وبعثهم من قبورهم، يكون بمطر ينزله اللَّه ويبعثه على قبورهم، فتنشق عنهم القبور، ثم تعود إليهم أرواحهم»[2].

قلت: وهذا المعنى -الذي دل عليه هذان الحديثان في كيفية البعث وإخراج الموتى من قبورهم بعد موتهم للبعث والنشور- هو أحد وجهي التشبيه المذكورين في تأويل قوله تعالى هنا: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال الخازن: «وقيل: إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء، والمعنى أنه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته، فأنبت فيه الزرع والشجر، وجعل فيه الثمر، كذلك يحيي اللَّه الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياءً بعد أن كانوا أمواتًا ورُمَمًا بالية؛ لأن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ونشرهم»[3].

فإن قال قائل: فما فائدة إعادة نشر الخلق بواسطة هذا المطر، مع أنه تعالى لا يحتاج في فعله ذلك إلى واسطة؟

قيل: «الله ﷻ في ذلك سر لا نعلمه»[4].

قال الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا شاكًّا، لا مؤمنًا مصدِّقًا ولا جاحدًا مكذِّبًا»[5].

---

(١) أفاده القرطبي في «التذكرة» (ص: ١٧٧) وأبو حيان في «البحر» (٤/ ٣٢١).
(٢) أفاده القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٣٠).
(٣) لباب التأويل (٢/ ١٠٠).
(٤) انظر «كشف المشكل» (٣/ ٤٥٤).
(٥) انظر شرح الطحاوية (ص: ٢٠٣-٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

النَّكِد: كل شيء أخرج إلى طالبه بِتَعَسُّرٍ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه يخرج نباته إذا أنزل اللَّه الغيث، وأرسل عليه الحيا، بإذنه طيبًا ثمره في حينه ووقته، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ فردؤت تربته وملحت مشاربه، ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ يقول: إلا عسرًا في شدة، كما قال الشاعر:

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن … أعطيت أعطيت تافهًا نكدًا

يعني بالتافه: القليل، وبالنكد: العسر»[1].

وقال: «وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يقول: كذلك نبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلًا بعد مثل، لقوم يشكرون اللَّه على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة، وهذا مثل ضربه اللَّه للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه مثل للمؤمن، والذي خبث فلا يخرج نباته إلا نكدًا مثل للكافر»[2].

قال أبو السعود: «وهذا ما ترى مثل لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب، إلى المكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها، والمحرومين من مغانم آثارها»[3].

(١) جامع البيان (٨/ ٢١١).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢١٢).
(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٤).

قال الطاهر بن عاشور: «المقصود من هذه الآية التمثيل، وليس المقصود مجرد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر؛ لأن الغرض المسوق له الكلام، يجمع أمرين: العبرة بصنع اللَّه، والموعظة بما يماثل أحواله»(١).

قال الرازي: «هذه الآية دالة على أن السعيد لا ينقلب شقيًّا وبالعكس، وذلك لأنها دلت على أن الأرواح قسمان: منها ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقية، مستعدة لأن تعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، ومنها ما تكون في أصل جوهرها غليظة كدرة بطيئة القبول للمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة، كما أن الأراضي منها ما تكون سبخة فاسدة، وكما أنه لا يمكن أن يتولد في الأراضي السبخة تلك الأزهار والثمار التي تتولد في الأرض الخيرة، فكذلك لا يمكن أن يظهر في النفس البليدة والكدرة الغليظة، من المعارف اليقينية، والأخلاق الفاضلة، مثل ما يظهر في النفس الطاهرة الصافية... فثبت بهذا البيان أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، وأن النفس الطاهرة يخرج نباتها من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة بإذن ربها، والنفس الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدًا قليل الفائدة والخير، كثير الفضول والشر»(٢).

وقال: «من الاستدلال بهذه الآية في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، وذلك يدل على أن كل ما يعمله المؤمن من خير وطاعة، لا يكون إلا بتوفيق اللَّه تعالى»(٣).

قال صديق حسن خان: «وخص خروج نبات الطيب بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ على سبيل المدح والتشريف، وإن كان كل من النباتين يخرج بإذنه تعالى، قاله أبو حيان في «النهر»، والمعنى: بمشيئته، وعبر به عن كثرة النبات وحسنه، وغزارة نفعه، لأنه أوقعه في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾»(٤).

قال ابن عاشور: «والإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ﴾ إلى تفنن الاستدلال، بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانية، والدالة أيضًا على وقوع

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٨٤-١٨٥).
(٢) مفاتح الغيب (١٤/ ١٥٠-١٥١). (٣) المصدر السابق.
(٤) فتح البيان (٤/ ٣٨٣).

البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابلية الناس للهدى والانتفاع به، بالاستدلال الواضح البين المقرب في جميع ذلك، فذلك تصريف؛ أي: تنويع وتفنين للآيات؛ أي: الدلائل، والمراد بالقوم الذين يشكرون: المؤمنون؛ تنبيهًا على أنهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأن غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]»[2].

قال الرازي: «وإنما ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لأن الذي سبق ذكره هو أنه تعالى يحرك الرياح الطيبة النافعة، ويجعلها سببًا لنزول المطر، الذي هو الرحمة، ويجعل تلك الرياح والأمطار سببًا لحدوث أنواع النبات النافعة اللطيفة اللذيذة، فهذا من أحد الوجهين: ذكر الدليل الدال على وجود الصانع، وعلمه وقدرته وحكمته، ومن الوجه الثاني: تنبيه على إيصال هذه النعمة العظيمة إلى العباد، فلا جرم كانت من حيث إنها دلائل على وجود الصانع وصفاته آيات، ومن حيث إنها نعم يجب شكرها، فلا جرم، قال: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وإنما خص كونها آيات بالقوم الشاكرين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، فهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً،

(١) العنكبوت: الآية (٤٣).
(٢) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٨٦-١٨٧).
(٣) البقرة: الآية (٢).
(٤) مفاتح الغيب (١٤/ ١٥٢).

فذلك مثل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى اللَّه الذي أرسلت به»(١).

★ **غريب الحديث:**

أجادب: جمع جدب، وهي الأرض الصلبة التي لا ينصب منها الماء.

قيعان: جمع قاع، وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تُنبِت.

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث بيان للمعنى الذي دلت عليه الآية، وهو يدل على صحة ما ذهب إليه المفسرون في تأويل هذه الآية، كما قال الخازن، حيث قالوا: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للمؤمن والكافر، فشبه المؤمن بالأرض الخيرة الطيبة، وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة، فإذا نزل المطر عليها، أخرجت أنواع الأزهار والثمار، وكذلك المؤمن إذا سمع القرآن آمن به وانتفع به، وظهرت منه الطاعات والعبادات، وأنواع الأخلاق الحميدة، وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة، التي لا ينتفع بها، وإن أصابها المطر، فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه، ولا يزيده إلا عتوًّا وكفرًا، وإن عمل الكافر حسنة في الدنيا، كانت بمشقة وكلفة، ولا ينتفع بها في الآخرة، قال ابن عباس ﵄: هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للمؤمن يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة، فالكافر خبيث وعمله خبيث، وقال مجاهد: هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب»(٢).

قال الحافظ: «قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لِما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٩)، والبخاري (١/ ٢٣٢/ ٧٩)، ومسلم (٤/ ١٧٨٧/ ٢٢٨٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧/ ٥٨٤٣).

(٢) لباب التأويل للخازن (٢/ ١٠٠).

شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم؛ فهو بمنزلة الأرض الطيبة، شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع. لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: «**نضر اللَّه امرءًا سمع مقالتي فأداها كما سمعها**»[1]، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السَّبِخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما. وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بهما، واللَّه أعلم»[2].

قال ابن القيم: «فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله، وذكر أقسام بني آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم وتقسيم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد، وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث. قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس»[3].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لقد هممتُ أن آمر بحطب يُحتطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذَّنَ لها، ثم آمرَ رجلًا فيؤمّ الناسَ، ثم أخالفُ إلى رجالٍ فأحرّقَ عليهم بيوتهم. والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء**»[4].

★ غريب الحديث:

---

(١) أخرجه من حديث عبداللَّه بن مسعود ﷺ: أحمد (١/ ٤٣٧)، والترمذي (٥/ ٣٣/ ٢٦٥٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٢)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٦٨/ ٦٦).

(٢) فتح الباري (١/ ١٧٧).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٨).

(٤) أخرجه: البخاري (١٣/ ٢٦٦/ ٧٢٢٤)، ومسلم (١/ ٤٥١/ ٦٥١)، والنسائي (٢/ ٤٤٢/ ٨٤٧).

مرماتين: قيل: هما السهمان، وقيل: هما حديدتان كانوا يلعبون بها، وهي ملس كالأسنة كانوا يثبتونها في الأكوام والأغراض، ويقال لها فيما زعم بعضهم: المذاجي، وقال أبو عبيد: يقال: إن المرماة ما بين ظلفي الشاة، قال: وهذا حرف لا أدري ما وجهه، إلا أن هذا تفسيره، ويروى المرماتين -بكسر الميم وبفتحها- واحدها مرماة، مثل مرماة.

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث يشهد لقول من قال: إن الآية ضربت مثلًا للمؤمن والمنافق، ولهذا الغرض -والله أعلم- أورده القرطبي في تفسيره عقب ذكره لقول قتادة في هذه الآية حيث قال: «وقال قتادة: مثل -أي: هذا مثل- من يعمل محتسبًا متطوعًا، والمنافق غير المحتسب، ثم ذكر الحديث»[1].

قال ابن عبدالبر: «فهذا توبيخ منه لمن تأخر عن شهود العشاء معه، وتقريع وذم صريح وعتب صحيح؛ إذ أضاف إليهم أن أحدهم لو علم أنه يجد من الدنيا الغرض القليل والتافه الحقير، والنزر اليسير في المسجد لقصده من أجل ذلك، وهو يتخلف عن الصلاة فيه، ولها من الأجر العظيم والثواب الجسيم، ما لا خفاء له عن المؤمن والحمد لله، وكفى بهذا توبيخًا في أثرة الطعام واللعب على شهود صلاة الجماعة، هذا منه ﷺ إنما كان قصدًا إلى المنافقين وإشارة إليهم، ألا ترى إلى قول ابن مسعود: «**ولقد رأيتنا في ذلك الوقت وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم نفاقه**»[2]، وما أظن أحدًا من أصحابه الذين هم أصحابه حقًّا كان يتخلف عنه إلا لعذر بيّن، هذا ما لا يشك فيه مسلم إن شاء الله»[3].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، ومسلم (١/ ٤٥٣/ ٦٥٤[٢٥٧])، وأبو داود (١/ ٣٧٣/ ٥٥٠)، والنسائي (٢/ ٤٤٢/ ٨٤٨)، وابن ماجه (١/ ٢٥٥-٢٥٦/ ٧٧٧).

(٣) التمهيد (٥/ ٥٤ فتح البر).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قومه: القوم: سموا بذلك لقيامهم بِمُهِمّات الأمور. والأصل في اللفظ إطلاقه على الرجال دون النساء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أقسم ربنا -جل ثناؤه- للمخاطبين بهذه الآية أنه أرسل نوحًا إلى قومه منذرهم بأسه، ومخوفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الذي له العبادة، وذلّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبود يستوجب عليكم العبادة غيره، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم، بمجيئه إياكم بسخط ربكم»[1].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر في تقرير المبدإ والمعاد دلائل ظاهرة، وبينات قاهرة، وبراهن باهرة، أتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وفيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم محمد عليه الصلاة والسلام؛ بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم، على الجهل والعناد، يفيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتخفيف ذلك على قلبه.

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٣).

وثانيها: أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا، والخسارة في الآخرة، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين.

وثالثها: التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين، ولكنه لا يهملهم، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه.

ورابعها: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ﷺ كان أميًا، وما طالع كتابًا، ولا تلمذ أستاذًا، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من اللّٰه، وذلك يدل على صحة نبوته»[1].

قال ابن عاشور في معرض إشارته إلى أن الغرض المقصود بوصف عذاب الآخرة وأحوال الناس في هذه السورة وما تخلل ذلك من الأمثال والتعريض هو الاعتبار والموعظة بما حل بالأمم الخالية، فقال: «وتتبع هذا الاعتبار أغراض أخرى، وهي: تسلية الرسول ﷺ وتعليم أمته بتاريخ الأمم التي قبلها، من الأمم المرسل إليهم، ليعلم المكذبون من العرب أن لا غضاضة على محمد ﷺ، ولا على رسالته من تكذيبهم، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرسل، بله أن يؤيد زعمهم أنه لو كان صادقًا في رسالته، لأيده اللّٰه بعقاب مكذبيه، لما قالوا على سبيل التهكم والحجاج: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أن ما لقيه محمد ﷺ من قومه هو شنشنة أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل اللّٰه، وأكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق؛ لأن الغرض من هذه الأخبار، تنظير أحوال الأمم المكذبة رسلها، بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ»[3].

وقال: «وخاطب نوح قومه كلهم؛ لأن الدعوة لا تكون إلا عامة لهم، وعبر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحققوا أنه ناصح، ومريد خيرهم،

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) الأنفال: الآية (٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٨٧-١٨٨).

ومشفق عليهم، وأضاف القوم إلى ضميره للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم»[١].

وقال في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ : «بني نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم، دلالة على إمحاضه النصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يضر بهم كأنه يضر به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم، وذلك لأن قوله هذا كان في مبدإ خطابهم بما أرسل به، ويحتمل أنه قاله بعد أن ظهر منهم التكذيب: أي: إن كنتم لا تخافون عذابًا فإني أخافه عليكم، وهذا من رحمة الرسل بقومهم»[٢].

قال الرازي: «اعلم أنهم اختلفوا في معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ هل هو اليقين، أو الخوف بمعنى الظن والشك؟ قال قوم: المراد منه الجزم واليقين؛ لأنه كان جازمًا بأن العذاب ينزل بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين. وقال آخرون: بل المراد منه الشك، وتقريره من وجوه: الأول: أنه إنما قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ لأنه جوز أن يؤمنوا كما جوز أن يستمروا على كفرهم، ومع هذا التجويز لا يكون قاطعًا بنزول العذاب، فوجب أن يذكره بلفظ الخوف. والثاني: أن حصول العقاب على الكفر والمعصية أمر لا يعرف إلا بالسمع، ولعل اللَّه تعالى ما بين له كيفية هذه المسألة فلا جرم بقي متوقّفًا مجوّزًا أنه تعالى هل يعاقبهم على ذلك الكفر أم لا؟ والثالث: يحتمل أن يكون المراد من الخوف الحذر، كما قال في الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يحذرون المعاصي خوفًا من العقاب. الرابع: أنه بتقدير أن يكون قاطعًا بنزول أصل العذاب، لكنه ما كان عارفًا بمقدار ذلك العذاب، وهو أنه عظيم جدًّا أو متوسط، فكان هذا الشك راجعًا إلى وصف العقاب، وهو كونه عظيمًا أم لا، لا في أصل حصوله»[٣].

---

(١) المصدر السابق (٨/ القسم الثاني/ ١٨٨).

(٢) المصدر السابق (٨/ القسم الثاني/ ١٨٩-١٩٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٥٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أخبار نبي اللَّه نوح عليه السلام

* عن أنس رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك اللَّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر ذنبه فيستحيي، ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض...»(١).

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفوائد التصريح بأن نوحًا عليه السلام أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض:

قال أبو بكر بن العربي: «نوح أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض بعد آدم بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر الفرائض، كذلك في صحيح الأثر عن النبي ﷺ، ومن قال من المؤرخين: إن إدريس كان قبله فقد وهم، والدليل على صحة وهمه في اتباع صحف اليهود، وكتب الإسرائيليات، الحديث الصحيح في الإسراء، حين لقي النبي ﷺ آدم وإدريس، فقال له آدم: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، وقال له إدريس: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولو كان إدريس أبًا لنوح على صلب محمد، لقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، فلما قال له مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، دل على أنه يجتمع معه في أبيهم نوح، ولا كلام لمنصف بعد هذا»(٢).

قال القرطبي: «قال القاضي عياض: وجاء جواب الآباء ههنا، كنوح وإبراهيم وآدم: مرحبًا بالابن الصالح، وقال عن إدريس بالأخ الصالح، كما ذكر عن موسى وعيسى ويوسف وهرون ويحيى ممن ليس بأب باتفاق للنبي ﷺ، وقال المازري: قد ذكر المؤرخون أن إدريس جد نوح عليهما السلام، فإن قام الدليل على أن إدريس

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤/ ١١٢٤٣).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٨٥).

بعث أيضًا، لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح، لما أخبر ﷺ من قول آدم أن نوحًا أول رسول بعث، وإن لم يقم دليل جاز ما قالوا، فصح أن يحمل أن إدريس كان نبيا غير مرسل. قال القاضي عياض: قد يجمع بين هذا بأن يقال: اختص بعث نوح لأهل الأرض -كما قال في الحديث- كافة، كنبينا ﷺ، ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم، وقد استدل بعضهم على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[١]، وقد قيل: إن إلياس هو إدريس، وقد قرئ: (سلام على إدراسين)، قال القاضي عياض: وقد رأيت أبا الحسن ابن بطال ذهب إلى أن آدم ليس برسول، ليسلم من هذا الاعتراض، وحديث أبي ذر الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان، قال ابن عطية: ويجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس، وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة، والله أعلم»[٢].

* عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر ما جرى لنبي قبله من الأذى ليشعر أصحابه وأمته أن صبره على أذى قومه قد سبقه الأنبياء إليه، وليس هو عن عجز ولا عن ذل كما يظنه أهل الجاهلية، وإنما هو الرفق بالخلق والأناة بهم والصبر عليهم، ولا سيما إذا كانوا لا يعلمون، فيصبر انتظارًا لهم أن يؤمنوا، فيكون صبره ذلك نوعًا من المجاهدة في سبيل الله ﷻ، وقوله: «**يمسح الدم عن وجهه**» يعني أنه بلغ الأمر به إلى أن اجترأ عليه قومه حتى ضربوه وأدموه في وجهه، وذلك من أشق ما لقي الأنبياء. وفيه أيضًا دليل على النبي ﷺ لا يولّي المشركين

---

(١) الصافات: الآيتان (١٢٣و١٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠و٤٢٧)، والبخاري (٦/ ٦٣٧/ ٣٤٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٥).

ظهره، بل يلقاهم بوجهه، ولذلك شج رسول الله ﷺ في وجهه، وكسرت رباعيته؛ أي: أنه كان مقبلًا غير مدبر ﷺ»[١].

قال الحافظ: «لم أقف على اسم هذا النبي صريحًا، ويحتمل أن يكون هو نوح ﷺ، فقد ذكر ابن إسحق في «المبتدأ» وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسير (الشعراء) من طريق إسحق[٢]، قال: حدثني من لا أتهم عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه أن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٣] قلت: وإن صح ذلك فكأن ذلك كان في ابتداء الأمر، ثم لما يئس منهم قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٤]، وقد ذكر مسلم بعد تخريج هذا الحديث حديث «أنه ﷺ قال في قصة أحد: «كيف يفلح قوم دموا وجه نبيهم؟» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٥]»[٦]، ومن ثم قال القرطبي: إن النبي ﷺ هو الحاكي والمحكي.. وأما النووي فقال: هذا النبي الذي جرى له ما حكاه النبي ﷺ من المتقدمين، وقد جرى لنبينا نحو ذلك يوم أحد»[٧].

وتأويل القرطبي بعيد؛ قال الحافظ: «ثم وجدت في مسند أحمد[٨] من طريق عاصم عن أبي وائل ما يمنع تأويل القرطبي، ويعين الغزوة التي قال فيها رسول الله ﷺ ذلك، ولفظه: «قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين بالجعرانة، قال: فازدحموا عليه، فقال: إن عبدًا من عباد الله بعثه الله إلى قومه فكذبوه وشجوه، فجعل يمسح الدم عن جبينه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، قال عبد الله: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح جبهته يحكي الرجل». قلت: ولا يلزم من هذا الذي قاله عبد الله أن يكون النبي ﷺ مسح أيضًا، بل الظاهر أنه حكى صفة مسح جبهته خاصة كما مسحها ذلك النبي، وظهر بذلك فساد ما زعمه القرطبي»[٩].

---

(١) الإفصاح (٢/ ٧٢-٧٣).

(٢) لعله سقط، والصواب: من طريق ابن إسحق.

(٣) وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٣١٣) (شاكر).

(٤) نوح: الآية (٢٦).

(٥) آل عمران: الآية (١٢٨).

(٦) مسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩١) من حديث أنس.

(٧) فتح الباري (٦/ ٦٤٦).

(٨) أخرجه من حديث ابن مسعود: أحمد (١/ ٤٢٧)، والبخاري (٦/ ٦٣٧/ ٣٤٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٥).

(٩) فتح الباري (٦/ ٦٤٦-٦٤٧).

* عن عبد اللَّه بن عمرو قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ فجاء رجل من أهل البادية، عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول اللَّه ﷺ بمجامع جبته وقال: **«ألا أرى عليك لباس من لا يعقل»**، ثم قال: **«إن نبي اللَّه نوحًا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ(لا إله إلا الله)، فإن السموات السبع والأرضين السبع، لو وضعت في كفة ووضعت (لا إله إلا الله) في كفة رجحت بهن (لا إله إلا الله)، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة، قصمتهن (لا اله إلا الله)، و(سبحان اللَّه وبحمده)، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»**. قال: قلت -أو قيل-: يا رسول الله! هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قيل: يا رسول الله! فما الكبر؟ قال: **«سفه الحق، وغمص الناس»**[1].

★ **غريب الحديث:**

سيجان: جمع ساج، كالتيجان جمع تاج، والساج الطيلسان الأخضر.

حلقة مبهمة: أي: غير معلومة المدخل والطرف.

قصمتهن: بقاف وصاد مهملة وميم؛ أي: قطعتهن وكسرتهن، والقصم: كسر الشيء وإبانته، والفصم، بالفاء: كسره من غير إبانة.

سفه الحق: قيل: هو أن يرى الحق سفهًا باطلًا، فلا يقبله ويتعظم عنه، والمعنى: الاستخفاف بالحق، وأن لا يراه على ما هو عليه من الرجحان والرزانة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩-١٧٠و٢٢٥) واللفظ له، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٥٤٨)، والبزار (٤/ ٧/ ٣٠٦٩ الكشف). قال في «المجمع» (١٠/ ٨٤): «رواه البزار، وفيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح»، وصححه الحاكم (١/ ٤٨-٤٩) ووافقه الذهبي.

غمص الناس: أي: احتقارهم، وأن لا يراهم شيئًا.

★ **فوائد الحديث:**

قال محمد ناصر الدين الألباني: «فيه فوائد كثيرة، أكتفي بالإشارة إلى بعضها:

١- مشروعية الوصية عند الوفاة.

٢- فضيلة التهليل والتسبيح، وأنها سبب رزق الخلق.

٣- وأن الميزان يوم القيامة حق ثابت، وله كفتان، وهو من عقائد أهل السنة، خلافًا للمعتزلة وأتباعهم في العصر الحاضر، ممن لا يعتقد ما ثبت من العقائد في الأحاديث الصحيحة، بزعم أنها أخبار آحاد لا تفيد اليقين...

٤- وأن الأرضين سبع كالسموات، وفيه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما... ويشهد لها قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1] أي: في الخلق والعدد، فلا تلتفت إلى من يفسرها بما يؤول إلى نفي المثلية في العدد أيضًا، اغترارًا بما وصل إليه علم الأوربيين من الرقي، وأنهم لا يعلمون سبع أراضين مع أنهم لا يعلمون سبع سموات أيضًا، أفننكر كلام اللَّه وكلام رسوله بجهل الأوربيين وغيرهم، مع اعترافهم أنهم كلما ازدادوا علمًا بالكون، ازدادوا علمًا بجهلهم به، وصدق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

٥- أن التجمل باللباس الحسن ليس من الكبر في شيء، بل هو أمر مشروع؛ لأن اللَّه جميل يحب الجمال، كما قال ﷺ، بمثل هذه المناسبة، على ما رواه مسلم في صحيحه[3].

٦- أن الكبر الذي قرن مع الشرك، والذي لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة منه، هو الكبر على الحق، ورفضه بعد تبينه، والطعن في الناس الأبرياء بغير

---

(١) الطلاق: الآية (١٢).

(٢) الإسراء: الآية (٨٥).

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: أحمد (١/ ٣٩٩)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١[١٤٧])، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) مختصراً دون ذكر الشاهد، والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٨-١٩٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٢-٢٣/ ٥٩) دون ذكر الشاهد.

حق، فليحذر المسلم أن يتصف بشيء من مثل هذا الكبر، كما يحذر أن يتصف بشيء من الشرك، الذي يخلد صاحبه في النار»[١].

وقال سليمان آل الشيخ: «وفيه دليل على أن اللَّه تعالى فوق السموات»[٢].

قلت: وفيه دليل على أنه كان لنوح عليه السلام ابن مؤمن غير الابن الذي أغرقه اللَّه مشركًا.

- وفيه الاهتمام بالدعوة إلى التوحيد ابتداءً وانتهاءً وفي سائر أطوار الحياة.
- وفيه الاهتمام بتعليم الأبناء الأوامر والنواهي على طريقة العد والحصر.

* * *

(١) السلسلة الصحيحة (١/ القسم الأول/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) تسير العزيز الحميد (ص: ٧١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

★ **غريب الآية:**

الملأ: الأشراف؛ سُمّوا بذلك لكونهم يملؤون القلوب هيبة، والعيون جلالة.

ضلال: الضلال والضلالة: العدول عن طريق الحق والذهاب عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «الملأ أشراف القوم، فإنهم يملؤون العيون رواء بما يكون عادة من تأنقهم بالزي الممتاز وغير ذلك من الشمائل، قال هؤلاء الملأ لنوح: إنا لنراك في ضلال عن الحق بيّن ظاهر بنهيك إيانا عن عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر الذين هم وسيلتنا وشفعاؤنا عند الله تعالى يقبلنا ببركتهم، ويعطينا سؤالنا بوساطتهم؛ لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى. ونحن لا نرى أنفسنا أهلًا لدعائه والتوجه إليه بأنفسنا؛ لما نقترفه من الذنوب التي تبعدنا عن ذلك المقام الأقدس بغير شفيع ولا وسيط من أوليائه وأحبائه. حكموا بضلاله وأكدوه بالتعبير بالرؤية العلمية، وبـ(أن) و(اللام) وبالظرفية المفيدة للإحاطة، كأنهم قالوا: إنا لنراك في غمرة من الضلال محيطة بك لا تهتدي معها إلى الصواب سبيلًا. وذلك لما رأوه عليه من الثقة بما يدعو إليه»[1].

قال ابن كثير: «وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾[2]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٩١-٤٩٢).
(٢) المطففين: الآية (٣٢).
(٣) الأحقاف: الآية (١١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال نوح لقومه مجيبًا لهم: يا قوم! لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة زوالًا مني عن محجة الحق، وضلالًا لسبيل الصواب، وما بي ما تظنون من الضلال، ولكني رسول إليكم من رب العالمين بما أمرتكم به من إفراده بالطاعة، والإقرار له بالوحدانية، والبراءة من الأنداد والآلهة»[1].

وقال الألوسي: «ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق، ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ نفي للضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه؛ فإن التاء للمرة؛ لأن مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحمق يقتضي ذلك، والوحدة المستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقل قليل من الضلال، فضلًا عن الضلال المبين»[2].

وقال السمرقندي: «وفي الآية بيان أدب الخلق في حسن الجواب والمخاطبة؛ لأنه رد جهلهم بأحسن الجواب، وهذا كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[3]، يعني السداد من القول»[4].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) روح المعاني (٨/ ١٥٠).
(٣) الفرقان: الآية (٦٣).
(٤) بحر العلوم (١/ ٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أبلّغكم: بالتشديد: من التبليغ، وبالتخفيف: من الإبلاغ. يقال: بلّغته الخبر: إذا أوصلته وأدّيته إليه.

الرسالات: جمع رسالة، وهي ما يتحمله النبي إلى قومه من لدن الله ﷻ.

وأنصح لكم: النصح والنصيحة: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغِشّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا خبر من الله -جل ثناؤه- عن نبيه نوح ﷺ أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: ولكني رسول من رب العالمين أرسلني إليكم، فأنا أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقاب الله على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردكم نصيحتي، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين»[1].

قال أبو حيان: «ما أحسن سياق هذه الأفعال، قال أولًا: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، وهذا مبدأ أمره معهم، وهو التبليغ كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[2]، ثم قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أخلص لكم في تبيين الرشد والسلامة في العاقبة إذا عبدتم الله وحده، ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من بطشه بكم، وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة، فنبه على مبدإ أمرهم ومنتهاه معهم»[3].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٤).

(٢) الشورى: الآية (٤٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٢٥).

قال ابن عاشور: «والمقصود منها -أي: جملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ - إفادة التجدد وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم، تأييسًا لهم، من متابعته إياهم، ولولا هذا المقصد لكان معنى هذه الجملة، حاصلًا من معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ ، ولذلك جمع الرسالات؛ لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه»[١].

قال الزمخشري: «وفي زيادة اللام -أي: في قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ - مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصودًا بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح، فيقصد النفعين جميعًا، ولا نصيحة أمحض من نصيحة اللَّه تعالى، ورسله عليهم السلام»[٢].

قال الخازن: «حكى اللَّه عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ . . . بصيغة الفعل . . . لأن صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة، فكان نوح يدعو قومه ليلًا ونهارًا، كما أخبر اللَّه عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[٣]، فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ »[٤].

قلت: ما ذكره اللَّه تعالى في هذه الآية على لسان نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من وصف نفسه بالنصح لقومه؛ دلالة واضحة على أن الداعي إلى اللَّه تعالى شرطه في دعوته أن يكون ناصحًا لدعوته ولمن يدعو، والنصح دائمًا هو كمال الإخلاص في الفعل والقول، وأن يبذل كمال قوته العلمية والعملية في ذلك وأن تكون دعوته مستقاة من دعوة الرسول ﷺ خالصة من الأهواء والبدع والشركيات وما يفسدها من رياء وسمعة ومصالح دنيوية وذاتية، فنرجو اللَّه أن يجعلنا من الناصحين وأن لا نكون من العابثين المفسدين.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن نصح الأمة هو تبليغ الرسالة وأداء الأمانة

* عن جابر ﷺ في حديث حجة الوداع الطويل، أنه ﷺ خطبهم، فقال في خطبته: « . . . **وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ١٩٣).
(٢) الكشاف (٢/ ٨٦).
(٣) نوح: الآية (٥).
(٤) لباب التأويل (٢/ ١٠٣) بتصرف.

وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات[١].

★ **غريب الحديث:**

ينكتها: قال القاضي عياض: «كذا الرواية بالتاء، بالثنتين من فوقها، وهو بعيد المعنى، قيل صوابه: ينكبها، بباء واحدة، وكذا رويناه عن شيخنا أبي الوليد هشام بن أحمد، من طريق ابن الأعرابي عن أبي داود في تصنيفه: بالباء بواحدة، وبالتاء اثنتين من طريق أبي بكر النجاري عنه، ومعناه: يردها ويقلبها إلى الناس، مشيرًا إليهم، ومنه نكب كتابته: إذا قلبها»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث: دليل على أنه ﷺ بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فإنه ﷺ «بلغ أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئًا مما قد يضرهم، إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه، وهكذا شأن جميع الرسل»[٣].

وفيه شهادة الصحابة ﷺ للرسول ﷺ، أنه قد بلغ ما أمر به، وأدى الأمانة التي أودعها اللَّه للخلق عنده، ونصح الأمة إلى ما فيه صلاحها وسعادتها، وإشهاده ﷺ ربه على عباده بما أقروا به من إبلاغهم ﷺ ما أمر به وأنه لم يكتم شيئًا.

قال أمين خطاب السبكي: «وفيه دليل على أنه يستحب للإمام أن يخطب الحجيج يوم عرفة قبل صلاة الظهر، بواد عرنة، يعظهم فيها بما يناسب حالهم، ويعلمهم مناسك الحج، وبه قال الأئمة الأربعة والجمهور»[٤].

وقال الطيبي: «قوله: «وأنتم تُسألون عني» عطف على مقدر؛ أي: قد بلغت ما أرسلت به إليكم جميعًا، غير تارك لشيء مما بعثني اللَّه به، وأنتم تسألون عن ذلك

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨)، وأبو داود (٢/ ٤٥٥-٤٦٤/ ١٩٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢-١٠٢٧/ ٣٠٧٤).

(٢) الإكمال (٤/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٣) من كلام ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٠٣).

(٤) تكملة المنهل العذب المورود (٢/ ٢١).

يوم القيامة، هل بلغكم محمد جميع ما أمر به أن يبلغ إليكم؟ كما قال اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: إن لم تبلغ الجميع، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ لأنك كتمت شيئًا مما أنزل إليك، فما بلغت جميع ما أنزل إليك، والفاء في قوله: «**فما أنتم قائلون**» يدل على هذا المحذوف؛ أي: إذا كان الأمر على هذا فبأي شيء تجيبونه؟ ومن تم طبق جوابهم السؤال، فأتوا بالألفاظ الجامعة؛ أي: بلغت ما أنزل إليك، وأديت ما كان عليك، وزدت على ذلك بما نصحتنا من السنن والآداب وغير ذلك»[1].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ١٩٦٦).

قوله تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضًا خبر من اللَّه ﷻ عن ذكره عن قيل نوح لقومه أنه قال لهم إذ ردّوا عليه النصيحة في اللَّه، وأنكروا أن يكون اللَّه بعثه نبيًا، وقالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[1]: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: أو عجبتم أن جاءكم تذكير من اللَّه وعظة، يذكركم بما أنزل ربكم على رجل منكم، قيل: معنى قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾: مع رجل منكم، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يقول: لينذركم بأس اللَّه، ويخوّفكم عقابه على كفركم به، ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ يقول: وكي تتقوا عقاب اللَّه وبأسه بتوحيده، وإخلاص الإيمان به، والعمل بطاعته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول: وليرحمكم ربكم إن اتقيتم اللَّه، وخفتموه، وحذرتم بأسه»[2].

وقال الشنقيطي: «أنكر تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح، وقوم هود عجبهم من إرسال رجل، وبيّن في مواضع أُخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك. قال في عجب قوم نبيّنا ﷺ من ذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[3]، وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[4]، وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[5]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[6] الآية، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[7]، وصرّح بأن هذا العجب من إرسال

---

(١) هود: الآية (٢٧).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢١٤).
(٣) يونس: الآية (٢).
(٤) ق: الآية (٢).
(٥) التغابن: الآية (٦).
(٦) القمر: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٧) المؤمنون: الآية (٣٤).

بشر مانع للناس من الإيمان بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[١].

وردّ اللَّه عليهم ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾[٤] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

وقال الرازي: «بيّن تعالى ما لأجله يبعث الرسول، فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، وما لأجله ينذر، فقال: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾، وما لأجله يتقون، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار، التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوزُ بالرحمة في دار الآخرة»[٦].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٩٤).
(٢) الأنبياء: الآية (٧).
(٣) الفرقان: الآية (٢٠).
(٤) الأنعام: الآية (٩).
(٥) أضواء البيان (٢/ ٣٣-٣٤).
(٦) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الفُلْك: السفينة، والفُلك يقع على الجمع والواحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فكذب نوحًا قومُه، إذ أخبرهم أنه لله رسول إليهم يأمرهم بخلع الأنداد والإقرار بوحدانية اللَّه، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه اللَّه في الفلك والذين معه من المؤمنين به... ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يقول: وأغرق اللَّه الذين كذبوا بحججه، ولم يتبعوا رسله، ولم يقبلوا نصيحته إياهم في اللَّه بالطوفان، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ يقول: عمين عن الحق»(١).

قال ابن كثير: «﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾(٢)، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾(٣)»(٤).

وقال الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا كيفية إغراقهم، ولكنه بيَّنها في مواضع أخر كقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾(٥)، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(٦)».

قال ابن كثير: «بيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٤-٢١٥).
(٢) العنكبوت: الآية (١٥).
(٣) نوح: الآية (٢٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٢).
(٥) القمر: الآية (١١).
(٦) العنكبوت: الآية (١٤).

رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[١].

وهذه سنة اللَّه في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح عليه السلام بالغرق ونجّى نوحًا وأصحابه المؤمنين.

قال مالك عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب اللَّه قوم نوح عليه السلام إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلًا، أحدهم (جُرْهُم)، وكان لسانه عربيًا.

رواهن ابن أبي حاتم. وقد روي هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلًا عن ابن عباس رضي الله عنهما»[٢].

قال القاسمي: «قال الجشمي: في الآيات فوائد، منها: أن نوحًا دعاهم أولًا إلى التوحيد. والرسول وإن حمل الشرائع، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد، ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد، فلذلك بدأ به. وجميع الرسل بدؤوا بالتوحيد ثم بالشرائع، ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام، بمكة، في التوحيد»[٣].

قلت: ما أحسن ما قال هذا المفسر الذي نقل عنه القاسمي رحمه الله حيث جعل الدعوة إلى التوحيد هي الأصل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها هي المذكورة في القرآن، وما يتبعها من أوامر ونواهٍ هي تكميل لها وناتج عن تحقيقها، فمن لم يحقق دعوة التوحيد التي بعث بها النبي ﷺ فلا تصح له شريعة، وإن فعل فالشريعة مهما تعددت أوامرها ونواهيها فصحتها متوقفة على تحقيق التوحيد، ولهذا كانت دعوة نبينا ﷺ أكثر زمانها خصص لتحقيق التوحيد، وبعد أن بدأت الشرائع تنزل، كان بيان التوحيد متواصلًا ومصاحبًا لنزول الشرائع، ولم ينقطع

---

(١) غافر: الآيتان (٥١و٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ١٦٢).

حتى توفي ﷺ، ولذا تجد السور المدنية التي نزلت فيها الشرائع وأحاديث رسول اللَّه ﷺ الصحيحة التي قالها بعد بداية نزول الشرائع مليئة بآيات التوحيد، ومن تتبع هذا الأمر وجده ماثلًا واضحًا، ولذا دعوة بدون توحيد لا خير فيها ولا في أصحابها.

فصل في بيان ما اشتملت عليه قصة نوح من فوائد من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: «قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[1]، فيه مسائل:

الأولى: شيء من تفصيل قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾[2].

الثانية: معنى قوله: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»[3].

الثالثة: الملاطفة في الدعوة إلى اللَّه لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه.

الرابعة: التي أُرسلت الرسل وخُلقت الخلق لأجلها.

الخامسة: تفسير الآية.

السادسة: دعاؤهم بالرغبة.

السابعة: دعاؤهم بالتخويف.

الثامنة: جواب الملأ لهذا الكلام بهذه الجهالة.

التاسعة: كون أهل الباطل ينسبون أهل الحق إلى الجهالة، بل إلى السفاهة، بل إلى السحر، بل إلى الجنون.

العاشرة: حُسن جوابه لهم، ومقابلة الإساءة بالتي هي أحسن.

الحادية عشرة: تعريفهم بأنهم إنما ردوا وعصوا رب العالمين.

---

(١) الأعراف: الآية (٥٩).

(٢) النحل: الآية (٣٦).

(٣) أخرجه من حديث جابر بن عبداللَّه ﷺ: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

الثانية عشرة: تعريفهم بما فيه من الخصال التي لا غناء لهم عنها.

الثالثة عشرة: تعريفهم أن تلك الخصال لا تقتضي الحسد، بل تقتضي المحبة والانقياد.

الرابعة عشرة: لمّا عرّفهم أن الرسالة التي أتتهم منه، وعظهم بأنه رب العالمين.

الخامسة عشرة: تعريفهم أن هذا الذي استغربوا ونسبوا مَن قال إلى الجهالة والجنون هو الواجب في العقل، وهو أيضًا حظهم ونصيبهم من الله؛ لأنه سبب الرحمة، ففي هذا الكلام من أوله إلى آخره من تحقيق الحق، وذكر أدلته العقلية على تحقيقه، وإبطال الباطل وذكر الأدلة العقلية على بطلانه ما لا يخفى على من له بصيرة.

السادسة عشرة: ذكر أنهم كذّبوه مع هذا البيان، ففصل اللَّه الخصومة بما ذكر أنه فعل بالفريقين.

السابعة عشرة: ذكر أن ذلك السبب التكذيب بآياته، فدلّ على أنه أتاهم بآيات اللَّه.

الثامنة عشرة: أن السبب في ذلك التكذيب هو العمى والجهالة، فهي وصفهم لا وصف خصومهم»[1].

وفي هذه القصة أيضًا فوائد أخرى ذكرها السعدي في كتابه «تيسير اللطيف المنان»[2]، وقد ذكرتها في سورة (هود)؛ للمناسبة.

* * *

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٤-١٠٦).
(٢) (ص: ٢٧٤-٢٧٩).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

★ غريب الآية:

سفاهة: السفاهة: الجهالة وخفة الحلم.

أوعجبتم: العَجَبُ: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء.

خلفاء: جمع خليفة وهو القائم مقام غيره، نيابة عنه في التدبير والتسيير.

الآلاء: النعم. وفي واحدها أربع لغات: إِلىً كمِعىً، وألىً كرَحىً، وأَلْيٌ كهَجَر، وإِلْيٌ كفِلْس.

بصطة: أي: زيادة واتساعًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾: يقول -تعالى ذكره-: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، ولذلك نصب هودًا؛ لأنه معطوف به على نوح عليهما السلام، قال هود: يا قوم اعبدوا اللَّه، فأفردوا له العبادة، ولا تجعلوا معه إلهًا غيره، فإنه ليس لكم إله غيره، أفلا تتقون ربكم فتحذرونه، وتخافون عقابه بعبادتكم غيره، وهو خالقكم ورازقكم دون كل ما سواه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عما أجاب هودًا به قومه الذين كفروا بالله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني الذين جحدوا توحيد اللَّه، وأنكروا رسالة هود إليهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ يا هود ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾ يعنون في ضلالة عن الحق والصواب، بتركك ديننا وعبادة آلهتنا، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في قيلك: إني رسول من رب العالمين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ يقول: أي ضلالة عن الحق والصواب، ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسلني، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

يعني بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾: أؤدي ذلك إليكم أيها القوم، ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة اللَّه دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند اللَّه، ناصح، فاقبلوا نصيحتي، فإني أمين على وحي اللَّه، وعلى ما ائتمنني اللَّه عليه من الرسالة، لا أكذب فيه، ولا أزيد، ولا أبدّل، بل أبلغ ما أمرت به كما أمرت. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ يقول: أوعجبتم أن أنزل اللَّه وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة، على رجل منكم، لينذركم بأس اللَّه، ويخوّفكم عقابه؟! ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يقول: فاتقوا اللَّه في أنفسكم، واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم وكفروا بربهم؛ فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا اللَّه أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة فيهلككم، ويبدل منكم غيركم سنته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به، ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: زاد في أجسامكم طولًا وعظمًا على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم نعمة منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في

أجسامكم وقواكم، واشكروا اللَّه على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول: كي تفلحوا، فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده»[١].

قال الزمخشري: «وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية اللَّه ﷻ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٥-٢١٦).

(٢) الكشاف (٢/ ٨٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾

★ **غريب الآية:**

نَذَر: ندع ونترك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قالت عاد لهود: أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من اللَّه على ما نحن عليه من الدين كي نعبد اللَّه وحده، وندين له بالطاعة خالصًا، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعلي ذلك ولا متبعيك على ما تدعونا إليه، فائتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد»(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود ﷺ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾(٢)»(٣).

قال الرازي: «اعلم أن هودًا ﷺ دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع، وذلك لأنه بين أن نعم اللَّه عليهم كثيرة عظيمة، وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات، والجماد لا قدرة له على شيء أصلًا، وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم. ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٢٢).
(٢) الأنفال: الآية (٣٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣٥).

يصدر عنه نهاية الإنعام. وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا اللَّه، وأن لا يعبدوا شيئًا من الأصنام، ومقصود اللَّه تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد، هذه الحجة التي ذكرها. ثم إن هودًا ﷺ لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد، فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، ثم قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، وذلك لأنه ﷺ قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1]، فقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مشعر بالتهديد والتخويف بالوعيد. فلهذا المعنى قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذبًا بدليل أنهم قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فلما اعتقدوا كونه كاذبًا قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، والغرض أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبًا، وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر، فلا جرم استعجلوه على هذا الحد»[2].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٦٥-١٦٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قد وقع عليكم: أي: وجب وثبت.

رجس: الرجس: اسم لكل متقذِّر، ثم استعمل في الأفعال القبيحة، ويطلق ويراد به العذاب، وهو المراد في هذا الموضع.

أتجادلونني في أسماء: يعني الأصنام التي عبدوها وكان لها أسماء مختلفة، فالاسم هنا بمعنى المسمى، نظيره: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾[1]، وهذه الأسماء مثل العُزّى من الأعز واللات، وليس لها من العز والإلهية شيء.

من سلطان: أي: من حجة لكم في عبادتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هود لقومه: قد حل بكم عذاب وغضب من اللَّه...

وأما قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ فإنه يقول: أتخاصمونني في أسماء سميتموها أصنامًا لا تضر ولا تنفع، ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ يقول: ما جعل اللَّه لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجون بها، ولا معذرة تعتذرون بها؛ لأن العبادة إنما هي لمن ضر ونفع وأثاب على الطاعة، وعاقب على المعصية، ورزق ومنع؛ فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس، فإنه لا نفع فيه ولا ضر، إلا أن تتخذ منه آلة، ولا حجة لعابد عبده من

---

(١) يوسف: الآية (٤٠).

دون اللَّه في عبادته إياه؛ لأن اللَّه لم يأذن بذلك، فيعذر من عبده بأنه يعبده اتباعًا منه أمر اللَّه في عبادته إياه، ولا هو -إذ كان اللَّه لم يأذن في عبادته، مما يرجى نفعه، أو يخاف ضره في عاجل أو آجل، فيعبد رجاء نفعه، أو دفع ضره- ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ يقول: فانتظروا حكم اللَّه فينا وفيكم، ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ حكمه وفصل قضائه فينا وفيكم»[1].

وقال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا شيئًا من هذا الجدال الواقع بين هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبين عاد. ولكنه أشار إليه في مواضع أخر كقوله: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) هود: الآيات (٥٣-٥٦).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

دابر: الدابر: الآخر؛ أي: أهلكناهم بالكلية، ودمّرناهم عن آخرهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأنجينا هودًا والذين معه من أتباعه على الإيمان به، والتصديق به، وبما عاد إليه من توحيد اللَّه، وهجر الآلهة والأوثان برحمة منا، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ﴾ يقول: وأهلكنا الذين كذبوا من قوم هود بحججنا جميعًا عن آخرهم، فلم نبق منهم أحدًا»[1].

قال ابن كثير: «وقد ذكر اللَّه سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[2] لما تمردوا وعتوا أهلكهم اللَّه بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، فتثلَغ رأسه حتى تُبِينه من جثته، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾»[3].

قال أبو السعود: «وتقديم حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك... فيه تنبيه على أن مناط النجاة، هو الإيمان باللَّه تعالى وتصديق آياته، كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب»[4].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٢٣).

(٢) الحاقة: الآيات (٦-٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٣١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٤٠).

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم، كمرثد بن سعد، ومن نجا مع هود ﷺ، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين، ونجا الله المؤمنين»[١].

قال الألوسي: «وفائدة هذا النفي عند الزمخشري التعريض بمن آمن منهم، وبيانه -على ما قال الطيبي- أنه إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان، تزيد رغبته فيه، ويعظم قدره عنده، ونظيره في اعتبار شرف الإيمان، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾[٢] الآية. وقال بعضهم: فائدة ذلك بيان أنه كان المعلوم من حالهم أنه سبحانه لو لم يهلكهم ما كانوا ليؤمنوا؛ كما قال جل شأنه في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾[٣]، فهو كالعذر عن عدم إمهالهم والصبر عليهم»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة إهلاك قوم عاد

* عن رجل من ربيعة قال: «قدمت المدينة فدخلت على رسول الله ﷺ، فذكرت عنده وافد عاد، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد، قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد؟ قال: قال فقلت: على الخبير سقطت، إن عادًا لما أقحطت بعثت قيلًا، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فرفع له سحابات فقيل له: اختر إحداهن، فاختار السوداء منهن، فقيل له: خذها رمادًا رمددًا، لا تذر من عاد أحدًا، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة، يعني حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[٥] الآية»[٦].

---

(١) الكشاف (٢/ ٨٨-٨٩).

(٢) غافر: الآية (٧).

(٣) يونس: الآية (١٣).

(٤) روح المعاني (٨/ ١٥٩-١٦٠).

(٥) الذاريات: الآيتان (٤١و٤٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٦٤-٣٦٥/ ٣٢٧٣) واللفظ له، ورواه النسائي في الكبرى (٥/ ١٨١/ ٨٦٠٧)، وابن ماجه (٢/ ٩٤١/ ٢٨١٦) مختصراً.

★ **غريب الحديث:**

قَيْلا: بفتح القاف وسكون التحتية وباللام: هو وافد عاد.

على الخبير سقطت: أي: على العارف بقصة وافد عاد وقعت، وهو مثل سائر للعرب.

الجرادتان: هما مغنيتان كانتا بمكة في الزمن الأول مشهورتان بحسن الصوت والغناء.

الرِّمدد: بالكسر: المتناهي في الاحتراق والدقة، كما يقال: ليل أليل، ويوم أيوم: إذا أرادوا المبالغة.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفوائد تفصيل لما أجمل من صفة إهلاك قوم عاد في هذه الآية، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية (٢٤) من سورة (الأحقاف).

فصل في بيان ما تضمنته قصة هود مع قومه من الفوائد من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: «وأما قصة عاد فنذكر ما فيها من الزوائد الخاصة:

الأولى: تبيين أن أعظم التقوى اتقاء الشرك.

الثانية: وصفه الملأ منهم بالكفر.

الثالثة: وصفهم نبيَّهم بالسفاهة التي هي أبلغ من الجهل.

الرابعة: وصفهم إياه بالكذب.

الخامسة: استعطافه إياهم بأمانته.

السادسة: وعظه إياهم بتلك الآية الواضحة العظيمة.

السابعة: فيه ما يدل على أنهم يعلمون ذلك لقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾[١].

الثامنة: وعظه إياهم بتذكيرهم نعمة الله باستخلافهم في الأرض بعد قوم نوح.

التاسعة: وعظه بزيادة النعمة على أهل زمانهم بزيادتهم في الخلق بسطة.

العاشرة: ذكر أن ذلك لا يدل على الكرامة، بل قد يكون السبب للإهانة.

الحادية عشرة: ذكر أن هذا الذي كرهوه هذه الكراهة هو في غاية فلاحهم.

الثانية عشرة: ذكر ما أجابوه به عن هذا الكلام الذي هو في غاية الحُسن.

الثالثة عشرة: ذكر أن هذا الخلاف بينه وبينهم في توحيد العبادة، لا في أصل العبادة.

الرابعة عشرة: ذكر عمدتهم اتباع السواد الأعظم.

الخامسة عشرة: زيادة العتو بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

السادسة عشرة: ذكر أن الصدق ممدوح عندهم، وكذلك الكذب مذموم عندهم.

السابعة عشرة: ذكر المسألة المهمة، وهي إنكاره عليهم الاعتماد على ذلك الدليل مع كونه لم ينزل فيه نص من الله.

الثامنة عشرة: كونه بيّن لهم كبر جهالتهم كيف تجاسروا على الجدال بذلك.

التاسعة عشرة: معرفة الأشياء التي لا حقيقة لها من الحقائق.

العشرون: كون الشيء معمولًا به قرنًا بعد قرن من غير نكير لا يدل على صحته.

الحادية والعشرون: أمره إياهم بانتظار الوعيد.

الثانية والعشرون: إخباره بانتظارهم الوعد»[٢].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٦٩).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٦-١٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا... ومعنى الكلام: وإلى بني ثمود أخاهم صالحًا... قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ يقول: قال صالح لثمود: يا قوم! اعبدوا اللّه وحده لا شريك له، فما لكم إلهٌ يجوز لكم أن تعبدوه غيره، وقد جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة ما إليه أدعو من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه، وتصديقي على أني له رسول، وبيّنتي على ما أقول، وحقيقة ما جئتكم به من عند ربي، وحجتي عليه هذه الناقة التي أخرجها اللّه من هذه الهضبة[1] دليلًا على نبوتي، وصدق مقالتي، فقد علمتم أن ذلك من المعجزات التي لا يقدر على مثلها أحد إلا اللّه. وإنما استشهد صالح فيما بلغني على صحة نبوته عند قومه ثمود بالناقة؛ لأنهم سألوه إياها آية، ودلالة على حقيقة قوله...

وأما قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ فإنه يقول: ولا تمسوا ناقة اللّه بعقر ولا نحر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: موجع»[2].

قال ابن كثير: «﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

(١) لا أعلم في أن ناقة صالح خرجت من هضبة أو جبل أو سهل حديثاً يصح، وهذا من الأمور الغيبية التي يستدل لها بالنقل الصحيح.

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٢٤-٢٣١).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٥).

أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1]»[2].

قال محمد رشيد رضا: «﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ومثله في سورة (الشعراء) إلا أنه وصف العذاب بالعظيم فهو أليم وعظيم، وفي (هود) إلا أنه وصف العذاب بالقريب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بسوء وكذلك كان، وفي سورة (القمر): ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[3]، وفسره قوله تعالى في سورة (الشعراء): ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[4]، وهو قبل الوعيد على مسها بسوء، والشِّرْب بكسر المعجمة: ما يشرب، وفي سورة (الشمس): ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[5] إلخ، فدل مجموع الآيات على أن آية اللّٰه تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، ولا في أكلها ولا في شربها، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان ماءً قليلًا، فكانوا يشربونه يومًا وتشربه هي يومًا، وورد أنهم كانوا يستعيضون عنه في يومها بلبنها روي هذا عن ابن عباس وقتادة»[6].

وقال: «قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن اللّٰه تعالى في البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام لا حوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال. وقد حكي هنا عن صالح ﷺ أنه ذكر الآية التي أيده اللّٰه تعالى بها عقب ذكر تبليغ الدعوة، وفي قصته من سورة (هود) أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته، وتصريحهم بالشك في صدقه، وزاد في سورة (الشعراء) طلبهم الآية منه، وكل ذلك صحيح ومراد، وهو المسنون المعتاد، ولا منافاة بين ذلك التفصيل وهذا الإجمال، والمروي أن هذه السورة (الأعراف) نزلت بعد تينك السورتين فتفصيلهما لإجمالها جاء على الأصل المألوف في كلام الناس، وإن كان غير ملتزم في القرآن، على أن ترتيب السور لم يراع فيه ترتيب نزولها، والمعنى قد جاءتكم آية عظيمة القدر،

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٠).
(٣) القمر: الآية (٢٨).
(٤) الشعراء: الآية (١٥٥).
(٥) الشمس: الآيات (١١-١٤).
(٦) تفسير المنار (٨/ ٥٠٢).

ظاهرة الدلالة على ما جئتكم به من الحق، فتنكير الآية للتعظيم والتفخيم. وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للإعلام بأنها ليست من فعله ولا مما ينالها كسبه ﷺ، وكذلك سائر ما يؤيد اللَّه تعالى به الرسل من خوارق العادات، فليعتبر بذلك الجاهلون الذين يظنون أن الخوارق مما يدخل في كسب الصالحين الذين هم دون الأنبياء، ولا سيما الذين يسمونهم الأقطاب المتصرفين في الكون، ولو كانت كذلك لم تكن خوارق، ولا آيات من اللَّه تعالى دالة على تصديق الرسل في دعوى النبوة، وعلى كمال اتباع من دونهم لهم فيما جاؤوا به من الهداية، إذ كسب العباد ما زال يتفاوت تفاوتًا عظيمًا بتفاوت قوى عضلهم وجوارحهم، وقوى عقولهم وأرواحهم وعزائمهم، وتفاوت علومهم ومعارفهم، ولذلك اشتبهت الآيات على كثير من الناس بالسحر والشعوذة، وما يكون في بعض الناس من التأثير لعلو الهمة وقوة الإرادة»[1].

قلت: هذا الكلام الذي نبه عليه الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ، من قوله: «وكذلك سائر ما يؤيد الله به الرسل» إلى قوله: «فيما جاؤوا به من الهداية» لهي كلمة حق وصدق.

ولو تتبعنا ما ذكرته الرافضة عن أئمتهم والصوفية عن مشايخهم؛ لرأينا من ذلك العجب؛ فإنهم ما تركوا خصوصية لله تعالى في الخلق والتدبير والعبادة إلا ونسبوها لمشايخهم، فنسبوا إليهم علم ما كان وما يكون!! قال الخميني في (الحكومة الإسلامية): «وإن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل»!! وفي هذا الكتاب من الكفريات والطامات ما يعرفه من قرأه من أول وهلة، وأما الصوفية فقد نسبوا لأئمتهم الاطلاع على اللوح المحفوظ وأن من لم ير مورده في اللوح المحفوظ لا ينبغي له أن يعطي الورد، ولا أن يتعامل معه!! وقال التجانيون: إن أول من يفتح الجنة هو التجاني!! ولو استرسلت في نقل كفرياتهم وزندقتهم لطال بنا الكلام، ومن أراد التوسع فيما عليه هؤلاء الرافضة والصوفية، فعليه بمراجعة كتابنا (الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين) ففيه الرد على الصوفية عمومًا، وكتابنا (موسوعة عقيدة السلف) ففيه الرد على أقطابهم وشيوخهم

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٥٠١-٥٠٢).

خصوصًا، كالتجاني، والشعراني، وغيرهم. وعليه بمراجعة كتاب (الكافي) للكليني فإنه مليء بهذه الكفريات ولاسيما الجزء الأول منه وكذلك كتاب (الإبريز) للدباغ، فضلًا عن كتب ابن عربي، والتي ما ترك فيها كفرًا إلا وسطره باسم الحلول. فلعنة اللَّه على الزنادقة الذين أفسدوا دين اللَّه وأدخلوا فيه من الطامات والكفريات باسم التربية وباسم الذكر والشيخ والإمام كما سمى من سمى أم الخبائث بالشراب الروحي وسمى المخدرات بلقيمات الذكر وسمى الدعارة والزنا بالأنس والفرح وسمى الشذوذ بمشاهدة أوصاف الحي القيوم في الغلام وهكذا إلى آخر مصطلحات الكفر والزندقة التي لا نهاية لها. فاللهم مُنَّ علينا بعافيتك ولطفك.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[1]

★ **غريب الآية:**

بوّأكم: أي: أنزلكم في الأرض منازل صالحة، والمبوّأ: المنزل الذي يلزمه نازله، فأصله من البواء، وهو اللزوم.

وتنحتون: أي: تتخذون البيوت في الجبال. والنحت: الأخذ من الشيء لتجعله على صورة مخصوصة، كنحت النحيت والصنم والبيت من خشب وحجر ونحوهما، ويكون في الأجسام الصلبة المحتملة لذلك، وقد يتجوز به في غيرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل صالح لقومه واعظًا لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ أيها القوم نعمة اللّه عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ يقول: تخلفون عادًا في الأرض بعد هلاكها. . .

وأما قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعل لكم فيها مساكن، وأزواجًا، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ ذكر أنهم كانوا ينقبون الصخر مساكن»[2].

قال القرطبي: «استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع، كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[3] ذكر أن ابنًا لمحمد بن سيرين بنى دارًا وأنفق فيها مالًا كثيرًا، فذكر ذلك لمحمد بن سيرين، فقال: ما أرى بأسًا أن يبني الرجل بناءً ينفعه، وروي أنه ﷺ قال: «إذا أنعم اللّه

---

(١) الأعراف: الآية (٧٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣١).

(٣) الأعراف: الآية (٣٢).

على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه»[١] ومن آثار النعمة البناء الحسن والثياب الحسنة، ألا ترى أنه إذا اشترى جارية جميلة بمال عظيم، فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك، فكذلك البناء، وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما يباح من البناء ويمنع

* عن قيس بن أبي حازم: دخلنا على خباب نعوده، وقد اكتوى سبع كيات، فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به، ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبني حائطًا له فقال: «إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

احتج بهذا الحديث ونحوه من ذهب إلى كراهة البناء الرفيع، كالقصور ونحوها، مما لا تمس الحاجة إليه، وإليه ذهب القرطبي في تفسيره[٤] وحكاه عن الحسن وغيره، وإلى هذا المعنى ألمح البخاري في صحيحه فقال: «باب ما جاء في البناء»[٥] وغرضه رحمه الله من هذه الترجمة بيان ما يباح من البناء ويمنع منه ويذم، وقد أشار إلى المذموم منه -رحمه الله تعالى- تحت هذه الترجمة بقوله ﷺ: «من أشراط الساعة إذا تطاول رعاة البهم في البنيان»[٦].

قال الحافظ: «أشار بإيراد هذه القطعة إلى ذم التطاول في البنيان، وفي الاستدلال بذلك نظر، وقد ورد في ذم تطويل البناء صريحًا ما أخرج ابن أبي الدنيا من رواية عمارة بن عامر: «إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع نودي: يا فاسق إلى أين؟» وفي سنده ضعف مع كونه موقوفًا. وفي ذم البناء مطلقًا حديث خباب رفعه

---

(١) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أحمد (٢/ ١٨٢)، والترمذي (٥/ ١١٤/ ٢٨١٩)، والحاكم (٤/ ١٣٥) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٣٩).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠٩)، والبخاري (١٠/ ١٥٧/ ٥٦٧٢). وأخرجه مختصراً: مسلم (٤/ ٢٠٦٤/ ٢٦٨١)، والنسائي (٤/ ٣٠١/ ١٣٢٢).
(٤) الجامع (٧/ ٢٣٩).
(٥) الفتح (١١/ ١٠٩).
(٦) البخاري (١١/ ١٠٩) معلقاً.

قال: «**يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب**» أو قال: «**البناء**» أخرجه الترمذي[(١)] وصححه وأخرج له شاهدًا عن أنس بلفظ: «**إلا البناء فلا خير فيه**»[(٢)] وللطبراني[(٣)] من حديث جابر رفعه: «**إذا أراد اللَّه بعبد شرًّا خضّر له في اللبن والطين حتى يبني**» ومعنى «**خضّر**» بمعجمتين: حسّن، وزنًا ومعنىً. وله شاهد في «الأوسط»[(٤)] من حديث أبي بشر الأنصاري بلفظ: «**إذا أراد اللَّه بعبد سوءًا أنفق ماله في البنيان**». وأخرج أبو داود[(٥)] من حديث عبد اللَّه بن العاص قال: «مر بي النبي ﷺ وأنا أطين حائطًا، فقال: **الأمر أعجل من ذلك**» وصححه الترمذي وابن حبان[(٦)]، وهذا كله محمول على ما لا تمس الحاجة إليه مما لا بد منه للتوطن وما يقي البرد والحر، وقد أخرج أبو داود[(٧)] أيضًا من حديث أنس رفعه: «**أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا**» أي: إلا ما لا بد منه، ورواته موثقون إلا الراوي عن أنس وهو أبو طلحة الأسدي فليس بمعروف، وله شاهد عن واثلة عند الطبراني»[(٨)].

قال ابن بطال: «التطاول في البنيان من أشراط الساعة، وذلك أن يبني ما يفضل عما يكنه من الحر والبرد ويستره عن الناس، وقد ذم اللَّه تعالى من فعل ذلك فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[(٩)] يعني قصورًا... وأما من بنى ما يحتاج إليه ليكنّه من الحر والمطر، فمباح له ذلك، وكذلك فعل السلف»[(١٠)].

وقوله هنا: «**إلا في شيء يجعله في التراب**»:

قال المناوي: «أي: في نفقته في البنيان، الذي لم يقصد به وجه اللَّه، وقد زاد

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) الترمذي (٤/ ٦٥١/ ٢٤٨٢)، والنسائي (٧/ ٥٢/ ٣٩٢٨).

(٣) الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٥-١٨٦/ ١٧٥٥).

(٤) الطبراني في الأوسط (٩/ ٤٣٤/ ٨٩٣٤) وفيه: «إذا أراد بعبد هَوَاناً».

(٥) أبو داود (٥/ ٤٠١/ ٥٢٣٥).

(٦) الترمذي (٤/ ٤٩١/ ٢٣٣٥)، وابن حبان (٧/ ٢٦٢/ ٢٩٩٦).

(٧) أبو داود (٥/ ٤٠٢-٤٠٣/ ٥٢٣٧).

(٨) فتح الباري (١١/ ١٠٩-١١٠).

(٩) الشعراء: الآيتان (١٢٨و١٢٩).

(١٠) شرح البخاري (٩/ ٧٤-٧٥).

على ما يحتاجه لنفسه وعياله على الوجه اللائق، فإنه ليس له فيه أجر، بل ربما كان عليه وزر»[١].

قال إبراهيم النخعي: «البناء كله وبال، قيل: أرأيت ما لا بد منه؟ قال: لا أجر ولا وزر»[٢].

قال السعدي: «وبالجملة، فالبنايات للقصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية، إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما أن تكون البنايات حصونًا واقية لشرور الأعداء، وثغورًا تحفظ به البلاد ونحوها، مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء، وإما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله، وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في الطرق النافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرها»[٣].

* * *

---

(١) فيض القدير (٦/ ٤٥٦).

(٢) شرح السنة (١٤/ ٢٨٠).

(٣) تيسير اللطيف المنان (ص: ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[١]

★ غريب الآية:

ولا تعثوا في الأرض مفسدين: أي: لا تفسدوا فيها، فيكون قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: فتذكّروا نعم اللَّه تعالى عليكم في ذلك كله، واشكروها له بتوحيده، وإفراده بالعبادة، واستعمالها فيما فيه صلاحكم، ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الأرض مفسدين... والمعنى: ولا تتصرفوا في هذه النعم تصرف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضي اللَّه فيها حال كونكم متصفين بالإفساد ثابتين عليه. وقال المفسرون: إن ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة، والصواب أنها تفيد معنى زائدًا على التأكيد كما علمت»[٢].

وفي هذه الآية مسألة: وهي قضية إثبات إنعام اللَّه على الكفار في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، وهي نِعَمُهُ سبحانه عليهم. وفي المسألة تفصيل؛ قال القرطبي في تفسيره لقول اللَّه تعالى من سورة (آل عمران): ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[٣] قال: «في هذه الآية وأمثالها كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾[٤] الآية، ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[٥]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾[٦]، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧]؛ دليل على أن الكفار غير مُنْعَم عليهم في الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوصُ من شوائب الضرر العاجلة والآجلة، ونعم

---

(١) الأعراف: الآية (٧٤).
(٢) تفسير المنار (٨/ ٥٠٣-٥٠٤).
(٣) الآية (١٩٧).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٥) الأعراف: الآية (١٨٣).
(٦) المؤمنون: الآية (٥٥).
(٧) الأعراف: الآية (١٨٢).

الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات، فصار كمن قدّم بين يدي غيره حلاوة من عسل فيها السُّمّ، فهو وإن استلذ آكله لا يقال: أنعم عليه؛ لأن فيه هلاك روحه. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري.

وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر: إلى أن الله أنعم عليهم في الدنيا.

قالوا: وأصل النِّعمة من النَّعمة بفتح النون، وهي لين العيش؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[1]. يقال: دقيق ناعم، إذا بولغ في طحنه وأجيد سحقه.

وهذا هو الصحيح، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾[2]، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾[3]، والشكر لا يكون إلا على نعمة. وقال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[4]، وهذا خطاب لقارون. وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾[5] الآية، فنبه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دنياوية فجحدوها. وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[6]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[7]. وهذا عام في الكفار وغيرهم.

فأما إذا قدم لغيره طعامًا فيه سم فقد رفق به في الحال؛ إذ لم يجرعه السم بحتًا؛ بل دسه في الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبت هذا فالنِّعم ضربان: نِعَمُ نفع ونِعَمُ دفع، فنعم النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونعم الدفع ما صرف عنهم من أنواع الآفات.

فعلى هذا قد أنعم على الكفار نعم الدفع قولًا واحدًا؛ وهو ما زُوِيَ عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم في أنه لم يُنعم عليهم نِعمة دينه. والحمد لله»[8].

وقال ابن القيم: «هذه مسألة اختلف الناس فيها، وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ فمن نافٍ محتجٍّ بهذه وبقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

---

(١) الدخان: الآية (٢٧).
(٢) الأعراف: الآية (٧٤).
(٣) البقرة: الآية (١٧٢).
(٤) القصص: الآية (٧٧).
(٥) النحل: الآية (١١٢).
(٦) النحل: الآية (٨٣).
(٧) فاطر: الآية (٣).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠٤).

وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1]، فخص هؤلاء بالإنعام، فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾[2]، وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي!

ومن مثبتٍ محتجٌ بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ﴾[3]، وقوله لليهود: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[4]، وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة (النحل) التي عدد فيها نعمه المشترَكة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[5]، وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا. واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة اللَّه، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق اللَّه تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان، لا يشركهم فيها سواهم. ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد، وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك. فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب. وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، واللَّه الموفق للصواب.

وأما قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم؛ ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا

---

(١) النساء: الآية (٦٩).
(٢) البقرة: الآية (١٥٠).
(٣) إبراهيم: الآية (٣٤).
(٤) البقرة: الآية (٤٠).
(٥) النحل: الآيات (٨١-٨٣).

عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه، وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم. والله أعلم»[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢-٢٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان بالله وبه، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يعني: لأهل المسكنة من تباع صالح، والمؤمنين به منهم، دون ذوي شرفهم، وأهل السؤدد منهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أرسله الله إلينا وإليكم؟ قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم: إنا بما أرسل الله به صالحًا من الحق والهدى ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ يقول: مصدّقون، مقرّون أنه من عند الله، وأن الله أمر به، وعن أمر الله دعانا صالح إليه، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ عن أمر الله وأمر رسوله صالح: ﴿إِنَّا﴾ أيها القوم ﴿بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يقول: صدّقتم به من نبوّة صالح، وأن الذي جاء به حقّ من عند الله ﴿كَٰفِرُونَ﴾ يقول: جاحدون منكرون، لا نصدّق به، ولا نقرّ»[1].

قال محمد رشيد رضا: «مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم، وإلى كل دعوة إصلاح؛ لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعًا لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، والأغنياء المترفون؛ لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف الضارّ، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال. وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح في قولهم للمؤمنين منهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٢).

أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ؟ قيل : إن السؤال للتهكم والاستهزاء، ولا مانع من جعله استفهامًا حقيقيًا إذ سألوهم عن العلم بأنه مرسل؛ لارتيابهم في اتباعهم إياه عن علم برهاني، وتجويزهم أن يكون عن استحسان ما وتفضيل له عليهم، واختيار لرياسته على رياستهم»[1] .

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٥٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فعقروا الناقة: العقر: الجرح، وقيل: قطع عضو يؤثر في النفس، وعقرت الفرس: إذا ضربت قوائمه بالسيف، وعقرت ظهر الدابة: إذا أدبرته. قال القشيري: العقر كشف عرقوب البعير، ثم قيل للنحر: عقر؛ لأن العقر سبب النحر في الغالب.

وعتوا عن أمر ربهم: أي: استكبروا. يقال: عتا يعتو عُتوًّا: إذا استكبر، وتعتّى فلان: إذا لم يطع، والليل العاتي: الشديد الظلمة.

الرجفة: أي: الزلزلة الشديدة.

جاثمين: أي: لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر؛ أي: صاروا خامدين من شدة العذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فعقرت ثمود الناقة التي جعل اللّه لهم آية، ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: تكبروا وتجبروا عن اتباع اللّه واستعلوا عن الحق، . . . ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ يقول: قالوا: جئنا يا صالح بما تعدنا من عذاب اللّه ونقمته؛ استعجالًا منهم للعذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول: إن كنت لله رسولًا إلينا، فإن اللّه ينصر رسله على أعدائه، فعجل ذلك لهم كما استعجلوه، يقول -جل ثناؤه-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ . . يقول -تعالى ذكره-: فأخذت الذين عقروا الناقة من ثمود الرجفة، وهي الصيحة، والرجفة: الفعلة من قول القائل: رجف بفلان كذا يرجف رجفًا، وذلك إذا حركه

وزعزعه، كما قال الأخطل:

إما تريني حناني الشيب من كبر كالنسر أرجف والإنسان مهدود

وإنما عنى بالرجفة ههنا: الصيحة التي زعزعتهم وحركتهم للهلاك؛ لأن ثمود هلكت بالصيحة فيما ذكر أهل العلم، . .

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ يقول: فأصبح الذين أهلك اللَّه من ثمود في دارهم، يعني في أرضهم التي هلكوا فيها وبلدتهم، ولذلك وحد الدار ولم يجمعها، فيقول: في دورهم، وقد يجوز أن يكون أريد بها الدور، ولكن وجه بالواحدة إلى الجمع كما قيل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]، وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ يعني: سقوطًا صرعى لا يتحركون؛ لأنهم لا أرواح فيهم قد هلكوا، والعرب تقول للبارك على الركبة جاثم»[2].

وقال ابن عاشور: «الفاء للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: قالوا ذلك فعقروا، والتعقيب في كل شيء بحسبه، وذلك أنهم حين قالوا ذلك، كانوا قد صدعوا بالتكذيب، وصمموا عليه، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكاية والإغاظة لصالح ﷺ، ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة، التي جعلها صالح ﷺ لهم، وأقامها بينه وبينهم، علامة موادعة ما داموا غير متعرضين لها بسوء، ومقصدهم من نيتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آية صالح ﷺ، لئلاً يزيد عدد المؤمنين به؛ لأن مشاهدة آية نبوته سالمة بينهم، تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه، والاستئناس لذلك، بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها، على مرعاها وشربها، ولأن في اعتدائهم عليها إيذانًا منهم بتحفزهم للإضرار بصالح ﷺ، وبمن آمن به بعد ذلك، وليُرُوا صالحًا ﷺ أنهم مستخفون بوعيده إذ قال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والضمير في قوله: ﴿فَعَقَرُوا۟﴾ عائد إلى الذين استكبروا، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحدًا منهم؛ لأنه كان عن تمالؤ ورضى من جميع الكبراء، كما دل عليه قوله تعالى في سورة (القمر): ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[3]،

---

(١) العصر: الآيتان (١و٢).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣٢-٢٣٣) باختصار.

(٣) القمر: الآية (٢٩).

وهذا كقول النابغة في شأن بني حُنّ:

وهم قتلوا الطائي بالجو عنوة

وإنما قتله واحد منهم»[١].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ الآية. لم يبين هنا هذا الذي يعدهم به، ولكن بين في مواضع أخر أنه العذاب، كقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[٢]، وقوله هنا: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[٣] ونحو ذلك من الآيات»[٤].

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا اللَّه ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها اللَّه لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وفي آية: ﴿عَظِيمٌ﴾[٥] وفي الأخرى: ﴿أَلِيمٌ﴾ والكل حق. والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علما جازما، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم. قال اللَّه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾»[٦].

قال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه بيّن في موضع آخر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، وهو قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[٧]

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٢٢٤-٢٢٥).
(٢) هود: الآية (٦٤).
(٣) هود: الآية (٦٥).
(٤) أضواء البيان (٢/ ٣٥).
(٥) الأحقاف: الآية (٢١).
(٦) البداية والنهاية (١/ ١٢٨-١٢٩).
(٧) هود: الآية (٦٧).

والظاهر أن الملك لما صاح بهم رجفت بهم الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، والله -جل وعلا- أعلم»[١].

قال الرازي: «طعن قوم من الملحدين في هذه الآيات بأن ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرجفة والطاغية والصيحة، وزعموا أن ذلك يوجب التناقض، والجواب، قال أبو مسلم: الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده، سواء كان حيوانًا أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٢]، ويقال: طغى طغيانًا، وهو طاغ وطاغية، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾[٣]، وقال في غير الحيوان: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾[٤]؛ أي: غلب وتجاوز عن الحد، وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها، وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة، وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾[٥]، فبطل ما قاله الطاعن»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين ومواضع العذاب وبيان صفة عاقر ناقة صالح ﷺ وبيان صفة هلاك ثمود

* عن عبد الله بن زمعة قال: سمعت النبي ﷺ -وذكر الذي عقر الناقة- قال: «انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة»[٧].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: بيان صفة عاقر ناقة صالح ﷺ، وقد اختلف في

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٥).
(٢) العلق: الآيتان (٦و٧).
(٣) الشمس: الآية (١١).
(٤) الحاقة: الآية (١١).
(٥) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).
(٦) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٧٣).
(٧) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٢٩)، والبخاري (٦/ ٤٦٦/ ٣٣٧٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩١/ ٢٨٥٥)، والترمذي (٥/ ٤١٠/ ٣٣٤٣).

ذلك على أقوال لا دليل عليها ، هذا أصحها ، كما قال القرطبي في تفسيره[١] ، وقد وصفه ﷺ في هذا الحديث بأنه : «**ذو عز ومنعة**» ، وفي رواية بأنه : «**عزيز عارم منيع في رهطه**» .

قال أبو العباس القرطبي : «والعارم : الجبار الصعب على من يرومه ، والممتنع بسلطانه وعشيرته ، وأبو زمعة هذا يحتمل أن يكون هو الذي قال فيه أبو عمر : أنه بلوي صحابي ، ممن بايع تحت الشجرة ، وتوفي بإفريقية في غزاة معاوية ابن خديج الأولى ، ودفن بالبلوية بالقيروان ، قلت : فإن كان هو هذا فإنه إنما شبهه بعاقر الناقة ، في أنه عزيز في قومه ومنيع على من يريده من أهل الكفر ، ويحتمل أن يريد به غيره ممن يسمى بأبي زمعة ، قاله ابن إسحق وغيره»[٢] .

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم**»[٣] .

* عن ابن عمر رضي الله عنهما : «**أن رسول اللَّه ﷺ** لما نزل الحِجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجنا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء . ويروى عن سبرة بن معبد وأبي الشموس أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام ، وقال أبو ذر عن النبي ﷺ من اعتجن بمائه»[٤] .

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد : «الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين ومواضع العذاب»[٥] . والنهي عن عبورها ، «إلا على وجه الخوف المانع من العذاب»[٦] .

قال الحافظ : «ووجه هذه الخشية -أي : خشية وقوع العذاب- أن البكاء يبعثه

---

(١) جامع أحكام القرآن (٧/ ٢٤١). (٢) المفهم (٧/ ٤٢٩).
(٣) أخرجه : أحمد (٢/ ٩)، والبخاري (١/ ٦٩٧/ ٤٣٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥-٢٢٨٦/ ٢٩٨٠).
(٤) أخرجه : البخاري (٦/ ٤٦٦/ ٣٣٧٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦/ ٢٩٨١).
(٥) أفاده النووي في شرح مسلم (١٨/ ٨٦).
(٦) مستفاد من كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٢٤).

على التفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير اللَّه تعالى على أولئك بالكفر، مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مقلب القلوب، فلا يأمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك، والتفكر أيضًا في مقابلة أولئك نعمة اللَّه بالكفر، وإهمالهم إعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارًا في أحوالهم، فقد شابههم في الإهمال، ودل على قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم، وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم؟ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالمًا، فيعذب بظلمه»[(١)].

وفيهما: «كراهة الاستسقاء من بيار ثمود، ويلتحق بها نظائرها من الآبار والعيون التي كانت لمن هلك بتعذيب اللَّه على كفره»[(٢)].

وفيهما: الابتعاد عن مقارنة الظالمين وأهل البدع والفجور؛ قال شيخ الإسلام: «وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي: لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب اللَّه ﷻ، وأقل ذلك أن يكون منكرًا لظلمهم، ماقتًا لهم، شانئًا ما هم فيه بحسب الإمكان؛ كما في الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(٣)]. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾[(٤)] الآية. وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار.

وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين: أحدهما: أن يكون مكرهًا عليها، والثاني: أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة

---

(١) فتح الباري (١/ ٦٩٨-٦٩٩).

(٢) من كلام الحافظ في فتح الباري (٦/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أحمد (٣/ ١٠)، ومسلم (١/ ٦٩/ ٤٩)، وأبو داود (١/ ٦٧٧/ ١١٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٢١٧٢)، والنسائي (٨/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٥٠٢٣)، وابن ماجه (١/ ٤٠٦/ ١٢٧٥).

(٤) التحريم: الآية (١١).

المقارنة، أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه، فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة، وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما، وهو الأمر الذي أكره عليه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[(١)]»[(٢)].

وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى ولوجه هذه الكراهة هل هي للتنزيه أو للتحريم، ولمباحث أخرى لها تعلق بهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية (٨٠) من سورة (الحجر)، وبالله التوفيق والعصمة.

* * *

(١) النحل: الآية (١٠٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٤-٣٢٥).

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأدبر صالح عنهم حين استعجلوه العذاب، وعقروا ناقة اللَّه خارجًا عن أرضهم من بين أظهرهم؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- أوحى إليه: إني مهلكهم بعد ثلاثة. وقيل: إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهرها.

فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- عن خروج صالح من بين قومه الذين عتوا على ربهم، حين أراد اللَّه إحلال عقوبته بهم، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ صالح، وقال لقومه ثمود: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، وأدّيت إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربي من أمره ونهيه، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ في أدائي رسالة اللَّه إليكم في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به، وعبادتكم الأوثان، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لكم في اللَّه، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم، الصادين لكم عن شهوات أنفسكم»[1].

فصل في بيان ما تضمنته قصة صالح مع قومه من الفوائد والعبر من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: «وأما قصة ثمود فنذكر ما فيها من الزوائد على القصتين أيضًا:

الأولى: وعظه إياهم بالآية العظيمة.

الثانية: استعطافهم بذكر ربوبية من جاءت منه لهم.

الثالثة: ذكر إضافة الناقة إلى اللَّه.

الرابعة: تفسير البينة بهذا.

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٤).

الخامسة: تخصيص اللَّه إياهم بناقته.

السادسة: العجب العُجاب من كراهتهم الأمر المطلوب منهم، وهو كف الأذى عن ناقة اللَّه التي فيها من نعم الدين والدنيا لمن قبلها ما لا يظنه الظانون.

السابعة: أنه مع هذا توعّدهم بالوعيد الشديد إن لم يكفوا عنها الأذى.

الثامنة: تذكيرهم بنعمة اللَّه عليهم بالقصور في السهل.

التاسعة: نعمة اللَّه عليهم في هذه القوة العظيمة وهي قدرتهم على نحت الجبال بيوتًا.

العاشرة: تذكيرهم بنعم اللَّه، فدلّ على أنهم يعرفون ذلك.

الحادية عشرة: وعظه إياهم أن الذي ينهاهم عنه هو الفساد في الأرض، وهو قبيح بإجماع العقلاء.

الثانية عشرة: ذكر قبح جوابهم لهذه الموعظة البليغة التي جمعت لهم خير الدنيا والآخرة، وحذرتهم من عقوبة الدنيا والآخرة.

الثالثة عشرة: نعته الملأ منهم بالكِبْر.

الرابعة عشرة: إن الذين استجابوا للحق هم الضعفاء، وأما الملأ المستكبرون فهذا جوابهم وفعلهم.

الخامسة عشرة: جمعهم بين هذه الثلاث: عقر الناقة، والعتو عن أمر ربهم، وقولهم لرسولهم هذا.

السادسة عشرة: ذكر قولهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فلم يذكر إنكارهم الرسل من حيث الجملة.

السابعة عشرة: ذكر قولهم عنهم لمّا وقع عليهم ما استعجلوا به.

الثامنة عشرة: ذكره أنه لم يبق من الحرص على دنياهم وعلى آخرتهم ممكنًا.

التاسعة عشرة: ذكر أن العلة في عدم القبول عدم المحبة للناصح، لا عدم البيان»[1].

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٠٨-١٠٩).

وقال الشنقيطي: «بيّن تعالى هذه الرسالة التي أبلغها نبيه صالح إلى قومه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما خاطب به النبي ﷺ قتلى بدر من المشركين تقريعًا لهم وتوبيخًا وتحقيرًا

* عن أبي طلحة: «أن نبي اللَّه ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: **يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم اللَّه ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟** قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**». قال قتادة: أحياهم اللَّه حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا[3].

★ غريب الحديث:

صناديد قريش: هم أشرافهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صنديد وكل عظيم غالب صنديد.

أطواء بدر: جمع طوي، أي بئر مطوية من آبار بدر.

العرصة: هو كل موضع واسع لا بناء فيه.

---

(١) الأعراف: الآية (٧٣). (٢) أضواء البيان (٢/ ٣٥).

(٣) تقدم تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الآية (٤٤) من هذه السورة.

الرَّكِي: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد آخره، جنس للركية، وهي البئر قبل أن تطوى جمعها ركايا.

★ فوائد الحديث:

تقدم بيان بعض ما في هذا الحديث من الفوائد والعبر والعظات تحت قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا﴾ . . . الآية (٤٤).

والغرض من ذكره هنا بيان أن ما فعله النبي ﷺ يوم بدر من مخاطبة أصحاب القليب بعدما جيّفوا تقريعًا لهم وتوبيخًا مطابق لما فعله صالح عليه السلام مع قومه بعد هلاكهم ونزول العذاب بهم تقريعًا وتوبيخًا على أحد الوجهين في تأويل الآية، وهو اختيار ابن كثير وغيره.

قال ابن كثير: «هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم اللَّه بمخالفتهم إياه، وتمردهم على اللَّه، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٣-٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

★ غريب الآية:

شهوةً: أي: تبعًا لما تطلبه نفوسكم من القبيح. وأصل الشهوة: نزوع النفس إلى ما تريده وتحبه.

مسرفون: الإسراف: الخروج عن حد الاعتدال والحق إلى الفساد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أرسلنا لوطًا، ولو قيل معناه: واذكر لوطًا -يا محمد- إذ قال لقومه، إذ لم يكن في الكلام صلة الرسالة، كما كان في ذكر عاد وثمود، كان مذهبًا، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ يقول: حين قال لقومه من سدوم، وإليهم كان أرسل لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها التي عاقبهم الله عليها إتيان الذكور، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من العالمين»[1].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى أن المراد بهذه الفاحشة اللواط بقوله بعده: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، وبين ذلك أيضًا بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[3]»[4].

قال ابن القيم في معرض حكايته وذكره لما احتج به من ذهب إلى أن عقوبة اللواط أشد من عقوبة الزنى؛ قال: «قالوا: ومن تأمل قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٤).
(٢) الشعراء: الآية (١٦٥).
(٣) العنكبوت: الآية (٢٩).
(٤) أضواء البيان (٢/ ٣٥).

إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]، وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، تبين له تفاوت ما بينهما وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا؛ أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد؛ أي: أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنيّة عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾[2]؛ أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد. ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلًا مثله، ينكحه كما ينكح الأنثى، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة، لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة، التي تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام النساء على الرجال، وخروج أحب الخلق إلى اللَّه من جماعهن، كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته، إلى غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتُرْبي عليه، بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا اللَّه ﷻ، ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة اللَّه التي فطر عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها اللَّه في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب اللَّه سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلوبهم، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ثم أكد سبحانه قبح ذلك، بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

---

(١) الإسراء: الآية (٣٢).

(٢) الشعراء: الآية (١٩).

﴿مُّسْرِفُونَ﴾، فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى»[1].

قال الرازي مبيِّنًا الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل الشنيع: «اعلم أن قبح هذا العمل كالأمر المقرر في الطباع، فلا حاجة فيه إلى تعديد الوجوه على التفصيل، ثم نقول: موجبات القبح فيه كثيرة:

أولها: أن أكثر الناس يحترزون عن حصول الولد؛ لأن حصوله يحمل الإنسان على طلب المال، وإتعاب النفس في الكسب، إلا أنه تعالى جعل الوقاع سببًا لحصول اللذة العظيمة، حتى إن الإنسان بطلب تلك اللذة يقدم على الوقاع، وحينئذ يحصل الولد شاء أم أبى، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع، فوضع اللذة في الوقاع كشبه الإنسان الذي وضع الفخ لبعض الحيوانات، فإنه لا بد وأن يضع في ذلك الفخ شيئًا يشتهيه ذلك الحيوان حتى يصير سببًا لوقوعه في ذلك الفخ، فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيه الحيوان في الفخ، والمقصود منه إبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع. إذا ثبت هذا فنقول: لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تفضي إلى الولد، لم تحصل الحكمة المطلوبة، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل، وذلك على خلاف حكم اللَّه، فوجب الحكم بتحريمه قطعًا، حتى تحصل تلك اللذة بالطريق المفضي إلى الولد.

والوجه الثاني: وهو أن الذكورة مظنة الفعل، والأنوثة مظنة الانفعال، فإذا صار الذكر منفعلًا، والأنثى فاعلًا، كان ذلك على خلاف مقتضى الطبيعة، وعلى عكس الحكمة الإلهية.

والوجه الثالث: الاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهيمة، وإذا كان الاشتغال بالشهوة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، فليكن قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، وهو حصول الولد وإبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع. فأما قضاء الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة، فكان ذلك تشبّهًا بالبهائم، وخروجًا عن الغريزة الإنسانية، فكان في غاية القبح.

والوجه الرابع: هب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل، إلا أنه يبقى في إيجاب العار

---

(١) الجواب الكافي (ص: ٢٦٣-٢٦٥).

العظيم، والعيب الكامل بالمفعول على وجه لا يزول ذلك العيب عنه أبد الدهر، والعاقل لا يرضى لأجل لذة خسيسة منقضية في الحال، إيجاب العيب الدائم الباقي بالغير.

والوجه الخامس: أنه عمل يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول، وربما يؤدي ذلك إلى إقدام المفعول على قتل الفاعل، لأجل أنه ينفر طبعه عند رؤيته، أو على إيجاب إنكائه بكل طريق يقدر عليه. أما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة، فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكبيرة، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

والوجه السادس: أنه تعالى أودع في الرحم قوة شديدة الجذب للمني، فإذا واقع الرجل المرأة قوي الجذب، فلم يبق شيء من المني في المجاري إلا وينفصل. أما إذا واقع الرجل فلم يحصل في ذلك العضو المعين من المفعول قوة جاذبة للمني، وحينئذ لا يكمل الجذب، فيبقى شيء من أجزاء المني في تلك المجاري، ولا ينفصل، ويعفن ويفسد ويتولد منه الأورام الشديدة والأسقام العظيمة، وهذه فائدة لا يمكن معرفتها إلا بالقوانين الطبية. فهذه هي الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل.

ورأيت بعض من كان ضعيفًا في الدين يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾[2]، وذلك يقتضي حل وطء المملوك مطلقًا سواء كان ذكرًا أو أنثى، قال: ولا يمكن أن يقال أنا نخصص هذا العموم بقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: لأن هاتين الآيتين كل واحد منهما أعم من الأخرى من وجه، وأخص من وجه، وذلك لأن المملوك قد يكون ذكرًا، وقد يكون أنثى، وأيضًا الذكر قد يكون مملوكًا، وقد لا يكون مملوكًا، وإذا كان الأمر كذلك

---

(١) الروم: الآية (٢١).

(٢) المؤمنون: الآية (٥و٦).

(٣) الشعراء: الآية (١٦٥).

لم يكن تخصيص إحداهما بالأخرى أولى من العكس، والترجيح من هذا الجانب؛ لأن قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾[١] شرع محمد، وقصة لوط شرع سائر الأنبياء، وشرع محمد عليه الصلاة والسلام أولى من شرع من تقدمه من الأنبياء، وأيضًا الأصل في المنافع والملاذ الحل، وأيضًا الملك مطلق للتصرف. فقل له الاستدلال إنما يقبل في موضع الاحتمال، وقد ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد حرمة هذا العمل، والمبالغة في المنع منه، والاستدلال إذا وقع في مقابلة النقل المتواتر، كان باطلًا»[٢].

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ : «والجملة مستأنفة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح، ولقد أنكر اللَّه تعالى عليهم أولًا إتيان الفاحشة، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، فإن سبك النظم الكريم، وإن كان على نفي كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين، لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين، كما مرّ تحقيقه مرارًا في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[٣]، أو مسوقة جوابًا عن سؤال مقدر، كأنه قيل من جهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل: بيانًا للعلة وإظهارًا للزاجر: ما سبقكم بها أحد لغاية قبحها وسوء سبيلها، فكيف تفعلونها؟ قال عمرو بن دينار: **«ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط»**[٤]»[٥].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيدًا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل من الآخر فظاعة، ولكن المراد أن إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾[٦]»[٧].

وقال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ : «و(بل) هنا للخروج

---

(١) المؤمنون: الآية (٦).

(٢) مفاتح الغيب (١٤/ ١٧٦-١٧٧).

(٣) الأنعام: الآية (٢١).

(٤) أخرجه: ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥١٧/ ٨٦٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٥٩/ ٥٤٠٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٤٥).

(٦) الشعراء: الآية (١٦٦).

(٧) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٢٣١).

من قصة إلى قصة، تنبئ بأنهم متجاوزو الحد في الاعتداء، وقيل: إضراب عن تقريرهم وتوبيخهم والإنكار، أو عن الإخبار عنهم بهذه المعصية الشنيعة إلى الحكم عليهم بالحال التي تنشأ عنها القبائح، وتدعو إلى اتباع الشهوات، وهي الإسراف، وهو الزيادة المفسدة، لما كانت عادتهم الإسراف أسرفوا حتى في باب قضاء الشهوة، وتجاوزوا المعتاد إلى غيره، ونحوه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[1]، وقيل: إضراب عن محذوف تقديره: ما عدلتم بل أنتم، وقال الكرماني: بل رد لجواب، زعموا أن يكون لهم عذر؛ أي: لا عذر لكم ولا حجة، بل أنتم، وجاء هنا ﴿مُّسْرِفُونَ﴾، باسم الفاعل؛ ليدل على الثبوت، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء، وجاء في (النمل): ﴿تَجْهَلُونَ﴾[2]، بالمضارع؛ لتجدد الجهل فيهم، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال»[3].

قال محمد رشيد رضا: «ومجموع الآيات -أي: قوله هنا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وقوله في (الشعراء): ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وقوله في (النمل): ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ - يدل على أنهم كانوا مرزوئين بفساد العقل والنفس، بجمعهم بين الإسراف والعدوان والجهل، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة، في الجناية على النسل وعلى الصحة، وعلى الفضيلة والآداب العامة، ولا غيرها من منكراتهم -فيجتنبوها، أو يجتنبوا الإسراف فيها- ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك... فقبح اللواطة وفحشها ليس بكونها لذة بهيمية كما قيل، إذ اللذة البهيمية لا قبح فيها لذاتها؛ لأنها مقتضى الفطرة، ومبدأ حكمة بقاء النسل، بل فحشها باستعمالها بما يخالف مقتضى الفطرة وحكمتها، وبما يترتب عليها من المضار البدنية والاجتماعية والأدبية الكثيرة»[4].

قال الألوسي: «وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطة من أعظم الفواحش... والمقصود تهويل أمر تلك الفاحشة، وألحق بها بعضهم السحاق»[5].

---

(١) الشعراء: الآية (١٦٦).
(٢) النمل: الآية (٥٥).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٣٧).
(٤) المنار (٨/ ٥١١-٥١٢).
(٥) روح المعاني (٨/ ١٧٢-١٧٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حد اللوطي ومُواقع البهيمة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث دليل على أن جريمة اللواط من كبائر الذنوب وعظيم الموبقات، وقد احتج بهذا الحديث من ذهب من العلماء إلى القول بأن اللوطي يقتل سواء أحصن أو لم يحصن، وقد اختلف العلماء في ذلك بعد إجماعهم على تحريم هذه الفعلة الشنعاء.

● **تنبيه:**

ذكر ابن العربي رحمه الله هذا الحديث في أحكامه، وتبعه القرطبي والسيوطي تحت قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأما ابن كثير -رحمه الله تعالى- فذكره تحت قوله عزوجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2].

* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه، قال: قلت له: ما شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل**»[3].

★ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث من ذهب إلى أن حكم واطئ البهيمة كحكم اللوطي سواء. قالوا: «لأنه وطء لا يحل بحال، فكان فيه القتل كحد اللوطي»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤/ ٦٠٧-٦٠٨/ ٤٤٦٢) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٤٧/ ١٤٥٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦١)، والحاكم (٤/ ٣٥٥) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٢) الأعراف: الآية (٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤/ ٦٠٩-٦١٠/ ٤٤٦٤)، والترمذي (٤/ ٤٦/ ١٤٥٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦٤). والحديث صححه الألباني في الإرواء (٨/ ١٣/ ٢٣٤٨).

(٤) أفاده ابن القيم في «الجواب الكافي» (ص: ٢٧١-٢٧٢).

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في عقوبة من ارتكب فاحشة قوم لوط، وسنذكر إن شاء اللَّه أقوال العلماء في ذلك، وأدلتهم، وما يظهر رجحانه بالدليل من ذلك، فنقول وباللَّه -جل وعلا- نستعين:

قال بعض العلماء: الحكم في ذلك: أن يقتل الفاعل والمفعول به مطلقًا سواء كانا محصنين أو بكرين، أو أحدهما محصنًا والآخر بكرًا.

وممن قال بهذا القول: مالك بن أنس وأصحابه، وهو أحد قولي الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد. وحكى غير واحد إجماع الصحابة على هذا القول، إلا أن القائلين به اختلفوا في كيفية قتل من فعل تلك الفاحشة، فقال بعضهم: يقتل بالسيف، وقال بعضهم: يرجم بالحجارة، وقال بعضهم: يحرق بالنار، وقال بعضهم: يرفع على أعلى بناء في البلد فيرمى منه منكسًا ويتبع بالحجارة.

وحجة من قال بقتل الفاعل والمفعول به في اللواط مطلقًا: ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١). قال ابن حجر: ورجاله موثقون، إلا أن فيه اختلافًا. اهـ.

وما ذكره يحيى بن معين من أن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب ينكر عليه حديث عكرمة هذا عن ابن عباس، فيه أن عمرًا المذكور ثقة، أخرج له الشيخان ومالك كما قدمناه مستوفى.

ويعتضد هذا الحديث بما رواه سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية: أنه يرجم. أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي.

وبما أخرجه الحاكم وابن ماجه عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به، أحصنا أو لم يحصنا**»(٢) قال الشوكاني: وإسناده ضعيف.

قال ابن الطلاع في أحكامه: لم يثبت عن رسول اللَّه ﷺ أنه رجم في اللواط، ولا أنه حكم فيه، وثبت عنه أنه قال: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**» رواه عنه ابن

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) الحديث «اقتلوا الفاعل والمفعول به» مضى تخريجه قريباً. وزيادة: «أحصنا أو لم يحصنا» ليست من لفظ الحديث، وإنما هي من كلام يحيى بن سعيد وربيعة كما عند الحاكم في مستدركه (٤/ ٣٥٥).

عباس وأبو هريرة. اهـ.

قال الحافظ: وحديث أبي هريرة لا يصح، وقد أخرجه البزار من طريق عاصم بن عمر العمري عن سهيل عن أبيه عنه، وعاصم متروك. وقد رواه ابن ماجه من طريقه بلفظ: **«فارجموا الأعلى والأسفل»**[1] اهـ.

وأخرج البيهقي عن علي ﷺ: أنه رجم لوطيًا، ثم قال: قال الشافعي: وبهذا نأخذ برجم اللوطي محصنًا كان أو غير محصن.

وقال: هذا قول ابن عباس، قال: وسعيد بن المسيب يقول: السنة أن يرجم اللوطي أحصن أو لم يحصن.

وقال البيهقي أيضًا: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الفارسي قالا: ثنا أبو عمرو بن مطر، ثنا إبراهيم بن علي، ثنا يحيى بن يحيى، أنبأ عبد العزيز بن أبي حازم، أنبأ داود بن بكر عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سليم **«أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق ﷺ** في خلافته يذكر له: أنه وجد رجلًا في بعض نواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة، وأن أبا بكر ﷺ جمع الناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألهم عن ذلك، فكان من أشدهم يومئذ قولًا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال: إن هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم، نرى أن نحرقه بالنار. فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار. فكتب أبو بكر ﷺ إلى خالد بن الوليد ﷺ يأمره أن يحرقه بالنار». هذا مرسل.

وروي من وجه آخر عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن علي ﷺ في غير هذه القصة قال: يرجم ويحرق بالنار.

ويذكر عن ابن أبي ليلى عن رجل من همدان: أن عليًا ﷺ رجم رجلًا محصنًا في عمل قوم لوط. هكذا ذكره الثوري عنه مقيدًا بالإحصان. وهشيم رواه عن ابن أبي ليلى مطلقًا، اهـ منه بلفظه.

فهذه حجج القائلين بقتل الفاعل والمفعول به في اللواط.

---

(١) ابن ماجه (٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦٢).

وحجة من قال: إن ذلك القتل بالنار هو ما ذكرناه عن أصحاب رسول اللَّه ﷺ آنفًا.

وحجة من قال: إن قتله بالسيف قوله ﷺ: **«فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**، والقتل إذا أطلق انصرف إلى القتل بالسيف.

وحجة من قال: إن قتله بالرجم هو ما قدمنا من رواية سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس: أنه يرجم. وما ذكره البيهقي وغيره عن علي أنه رجم لوطيًا، ويستأنس لذلك بأن اللَّه رمى أهل تلك الفاحشة بحجارة السجيل.

وحجة من قال: يرفع من أعلى بناء أو جبل ويلقى منكسًا ويتبع بالحجارة: أن ذلك هو الذي فعله الحكيم الخبير بقوم لوط؛ كما قال: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[1].

قال مقيده عفا اللَّه عنه: وهذا الأخير غير ظاهر؛ لأن قوم لوط لم يكن عقابهم على اللواط وحده، بل عليه وعلى الكفر، وتكذيب نبيهم ﷺ. فهم قد جمعوا إلى اللواط ما هو أعظم من اللواط، وهو الكفر باللَّه، وإيذاء رسوله ﷺ.

القول الثاني: هو أن اللواط زنى فيجلد مرتكبه مائة إن كان بكرًا ويغرب سنة، ويرجم إن كان محصنًا. وهذا القول هو أحد قولي الشافعي.

وذكر البيهقي عن الربيع بن سليمان: أن الشافعي رجع إلى أن اللواط زنى، فيجري عليه حكم الزنى، وهو إحدى الروايتين عن أحمد رحمهم اللَّه تعالى.

ورواه البيهقي عن عطاء وعبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما، وهو قول أبي يوسف ومحمد وسعيد بن المسيب والحسن وقتادة والنخعي والثوري والأوزاعي وغيرهم.

واحتج أهل هذا القول بما رواه البيهقي عن محمد بن عبدالرحمن عن خالد الحذاء عن ابن سيرين عن أبي موسى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان»**[2] أخبرنا أبو عبد اللَّه

---

(١) الحجر: الآية (٧٤).

(٢) أخرجه من حديث أبي موسى رضي الله عنه: البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٧٥/ ٥٤٥٨)، وفي السنن الكبرى له (٨/ ٢٣٣).

الحافظ، ثنا أبو العباس بن يعقوب، ثنا يحيى بن أبي طالب، ثنا أبو بدر، ثنا محمد بن عبدالرحمن، فذكره. قال الشيخ: ومحمد بن عبدالرحمن هذا لا أعرفه، وهو منكر بهذا الإسناد. انتهى منه بلفظه.

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في «نيل الأوطار» في هذا الحديث: وفي إسناده محمد بن عبدالرحمن كذبه أبو حاتم.

وقال البيهقي: لا أعرفه، والحديث منكر بهذا الإسناد. ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى، وفيه بشر بن المفضل البجلي وهو مجهول. وقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه، اهـ منه.

واستدل القائلون بهذا القول أيضًا بقياس اللواط على الزنى بجامع أن الكل إيلاج فرج في فرج محرم شرعًا، مشتهى طبعًا.

ورد بأن القياس لا يكون في الحدود؛ لأنها تدرأ بالشبهات. والأكثرون على جواز القياس في الحدود، وعليه درج في «مراقي السعود» بقوله:

والحد والكفارة التقدير ... جوازه فيها هو المشهور

إلا أن قياس اللائط على الزاني يقدح فيه بالقادح المسمى: (فساد الاعتبار)؛ لمخالفته لحديث ابن عباس المتقدم: أن الفاعل والمفعول به يقتلان مطلقًا، أحصنا أو لم يحصنا، ولا شك أن صاحب الفطرة السليمة لا يشتهي اللواط، بل ينفر منه غاية النفور بطبعه كما لا يخفى.

القول الثالث: أن اللائط لا يقتل ولا يحد حد الزنى، وإنما يعزر بالضرب والسجن ونحو ذلك. وهذا قول أبي حنيفة.

واحتج أهل هذا القول بأن الصحابة اختلفوا فيه، واختلافهم فيه يدل على أنه ليس فيه نص صحيح، وأنه من مسائل الاجتهاد، والحدود تدرأ بالشبهات، قالوا: ولا يتناوله اسم الزنى؛ لأن لكل منهما اسمًا خاصًا به؛ كما قال الشاعر:

من كف ذات حر في زنى ذي ذكر ... لها محبان لوطي وزناء

قالوا: ولا يصح إلحاقه بالزنى لوجود الفارق بينهما؛ لأن الداعي في الزنى من الجانبين بخلاف اللواط، ولأن الزنى يفضي إلى الاشتباه في النسب وإفساد الفراش بخلاف اللواط. قال في «مراقي السعود»:

والفرق بين الأصل والفرع قدح إبداء مختص بالأصل قد صلح
أو مانع في الفرع. . . . .
إلخ.

واستدل أهل هذا القول أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾[1] الآية.

قالوا: المراد بذلك: اللواط. والمراد بالإيذاء: السبّ أو الضرب بالنعال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ قال: «**الرجلان الفاعلان**».

وآخرج آدم والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ يعني سبًّا، قاله صاحب «الدر المنثور»[2].

وقال ابن القيم: «وأما واطئ البهيمة، فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يؤدب، ولا حد عليه، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه، وقول إسحق.

والقول الثاني: حكمه حكم الزاني، يجلد إن كان بكرًا، ويرجم إن كان محصنًا، وهذا قول الحسن.

والقول الثالث: أن حكمه حكم اللوطي، نص عليه أحمد، فيخرج على الروايتين في حده، هل هو القتل حتمًا أو هو كالزاني؟

والذين قالوا: حده القتل، احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «**من أتى بهيمةً فاقتلوه، واقتلوها معه**»[3].

قالوا: ولأنه وطء لا يباح بحال؛ فكان فيه القتل كحد اللوطي.

ومن لم يرَ عليه حدًّا قالوا: لم يصح فيه الحديث، ولو صح لقلنا به، ولم يحل لنا مخالفته.

---

(١) النساء: الآية (١٦).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٠-٤٥).

(٣) مضى تخريجه قريباً.

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة، فوقف عندها، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك.

وقال الطحاوي: الحديث ضعيف، وأيضًا فراويه ابن عباس، وقد أفتى به لا حد عليه، قال أبو داود: وهذا يضعف الحديث.

ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوُّط، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم»[1].

* * *

(١) الداء والدواء (ص: ٣٠٣-٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حرّم اللَّه عليهم من العمل الخبيث إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطًا وأهله، ولذلك قيل: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ فجمع، وقد جرى قَبْلُ ذِكْرُ لوطٍ وَحْدَهُ دون غيره. وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى: أخرجوا لوطًا ومن كان على دينه من قريتكم، فاكتفى بذكر لوط في أول الكلام عن ذكر أتباعه، ثم جمع في آخر الكلام، كما قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[1]، وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يقول: إن لوطًا ومن تبعه أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار»[2].

قال محمد رشيد رضا: «فإن قيل: إنه لم يسبق ذكر لمن آمن معه، فيعود إليهم ضمير ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، قلنا: إن هذا مما يعرف بالقرينة، وقد صرح به في آية (النمل)، ففيها: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾[3] بدل ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، والباقي سواء، إلا أن العطف في أولها بالفاء، كآية (العنكبوت) التي اختلف فيها الجواب، وهي: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ومتى كان الكلام مفهومًا كان صحيحًا فصيحًا،وإن أشكل على جامدي النحاة إعرابه، كما سبق نظيره.

فإن قيل: إن في حكاية الجوابين تعارضًا في المعنى محكيًا بصيغة النفي والإثبات فيهما، فكيف وقع هذا في كتاب اللَّه تعالى؟ وما الذي يدفع هذا

---

(١) الطلاق: الآية (١).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣٥).
(٣) النمل: الآية (٥٦).
(٤) العنكبوت: الآية (٢٩).

التعارض؟ قلنا: إنه لا تعارض ولا تنافي بين الجوابين، لحملهما على الوقوع في وقتين. ولا شك أنه كان ينهاهم كثيرًا، فكان يسمع في كل وقت كلامًا ممن حضر منهم، وقد قلنا: إن قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ، بل العبرة والموعظة، فيذكر في كل سورة من القصة الواحدة من المعاني والمواعظ ما لا يذكر في الأخرى، ومجموعها هو كل ما أراد اللَّه تعالى أن يعظ به هذه الأمة. فمن المعهود أن الرسل عليهم السلام -وكذا غيرهم من الوعاظ الذين ينهون الضالين والمجرمين عن المنكر- يكررون لهم الوعظ بمعان متقاربة، ويسمعون منهم أجوبة متشابهة، وقد يقول بعضهم ما لا يقول غيره فيعجبهم ويقرونه عليه فيسند إليهم كلهم، كما يسند إليهم فعل الواحد منهم إذا رضوه وأقروه عليه ولو بعد فعله، كما تقدم آنفًا في إسناد عقر الناقة إلى قوم صالح وإنما عقرها واحد منهم، وقد حكى اللَّه تعالى من قول رسوله لوط ﷺ لقومه في سورة (العنكبوت) ما لم يحكه في سورتي (الأعراف) و(النمل)، فزاد على إتيانهم الرجال قطع السبيل، وإتيانهم المنكر في النادي الحافل، والمجلس الحاشد، فكأنهم ضاقوا به حينئذ ذرعًا واستعجلوه العذاب الذي أنذرهم إذا أصروا على عصيانه، والأظهر أن هذا كان بعد أمرهم بإخراجه، وأن التوعد بالإخراج كان قبل الأمر به، واللَّه أعلم.

فإن قيل: هذا مقبول؛ لأن مثله معهود معروف، ولكن ما وجه بدء جملة الجواب بالواو تارة وبالفاء أخرى؟ وما وجه اختصاص كل منهما بموضعه؟

قلنا: إن عطف الجملة على ما قبلها بكل من الواو والفاء جائز إلا أن في الفاء زيادة معنى؛ لأنها تفيد ربط ما بعدها بما قبلها بما يقتضي وجوب تلوه له فهو جماع معانيها العامة من التعقيب والسببية وجزاء الشرط، والأصل العام في هذا الارتباط أن يكون ما بعد الفاء أثرًا لفعل وقع قبله، وكل من آيتي (النمل) و(العنكبوت) جاء بعد إسناد فعل إلى القوم، وهو قوله في الأولى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]، وفي الثانية: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[2]، فلذلك عطف الجواب على ما بعدهما بالفاء. وأما آية (الأعراف) فقد جاءت بعد

(١) النمل: الآية (٥٥).
(٢) العنكبوت: الآية (٢٩).

جملة اسمية وهي قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[1]، وإسناد صفة الإسراف إليهم فيها مقصود بالذات دون ما قبله من فعل الفاحشة الذي كان بتكراره علة لهذه الصفة وكان الإصرار عليه معلولًا لها، وثَمَّ وجه آخر لأن عطف هذه بالواو مبني على ما استظهرناه من كون الأمر بإخراجه ﷺ من بعضهم قد كان بعد الإنذار والوعيد به من آخرين منهم، فكان بهذا في معنى المعطوف عليه، فكأنه قال: فما كان جواب قومه إلا أن قال بعضهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[2]، وأن قال بعضهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[3]، ورддه آخرون: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، وهذه الدقة في اختلاف التعبير في المواقع المتحدة أو المتشابهة لأمثال هذه النكت لا تجدها مطردة إلا في كتاب اللَّه تعالى، وهي من إعجازه اللفظي، ولذلك يغفل عنها أكثر المفسرين»[4].

وقال: «فإن قيل: إن المعهود من أهل الرذائل أن ينكروها، أو يسموها بغير اسمها، ويألمون ممن يعيرهم بها؛ لما جبل اللَّه عليه البشر من حب الكمال وكره النقص، فكيف علل قوم لوط إخراجه هو ومن آمن معه بأنهم يتطهرون ويتنزهون من أدران الفواحش، وهو شهادة لهم بالكمال وشهادة على أنفسهم بالنقص؟

فالجواب ما قال الزمخشري فيه وهو أنه: سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخارهم بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد[5]، اهـ. ومثله معهود من المجاهرين بالفسق، وللنقص والرذائل دركات، كما أن للكمال والفضائل درجات، فأولاها: أن يلم بالرذيلة وهو يشعر بقبحها، ويلوم نفسه عليها، ثم يتوب إلى ربه منها، ويليها أن يعود إليها المرة بعد المرة مستترًا مستخفيًا، ويليها أن يصر عليها، حتى يزول شعوره بقبحها، ويليها أن يجهر بها، ويكون قدوة سيئة للمستعدين لها، ويليها أن يفاخر بها أهلها، ويحتقر من يتنزهون عنها، وهذه أسفل الدركات، وهي دركة قوم لوط، ولا يهبط إليها ولا يسف من يؤمن باللَّه واليوم

---

(١) الأعراف: الآية (٨١).
(٢) الشعراء: الآية (١٦٧).
(٣) النمل: الآية (٥٦).
(٤) تفسير المنار (٨/ ٥١٢-٥١٤).
(٥) الكشاف (٢/ ٩٢-٩٣).

الآخر، بل وصف اللَّه المؤمنين بأنهم إذا عملوا السيئات يعملونها بجهالة، ثم يتوبون من قريب، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»[١].

* * *

(١) المصدر السابق (٨/ ٥١٤-٥١٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغابرين: أي: الباقين في عذاب اللَّه، قاله ابن عباس وقتادة. يقال: غبر الشيءُ: إذا مضى، وغبر: إذا بقي، فهو من الأضداد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما أبى قوم لوط -مع توبيخ لوط إياهم على ما يأتون من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالة ربه بتحريم ذلك عليهم- إلا التمادي في غيهم، أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين به، إلا امرأته، فإنها كانت للوط خائنة، وباللَّه كافرة.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ يقول: من الباقين، وقيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: الغابرات؛ لأنه يريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ . . .

فإن قال قائل: فكانت امرأة لوط ممن نجا من الهلاك الذي هلك به قوم لوط؟

قيل: لا، بل كانت فيمن هلك.

فإن قال: فكيف قيل: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقد قلت: إن معنى الغابر: الباقي؟ فقد وجب أن تكون قد بقيت؟

قيل: إن معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه، وإنما عنى بذلك: إلا امرأته كانت من الباقين قبل الهلاك، والمعمرين الذين قد أتى عليهم دهر كبير، ومر بهم زمن كثير حتى هرمت فيمن هرم من الناس، فكانت ممن غبر الدهر الطويل قبل هلاك القوم، فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب، وقيل: معنى ذلك: من الباقين في عذاب الله»[1].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٦).

وقال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أنه لم ينج مع لوط إلا خصوص أهله، وقد بيّن تعالى في (الذاريات)، بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١]، وقوله هنا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أوضحه في مواضع أخر: فبيّن أنها خائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك، قال فيها، هي وامرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٢]، وقال فيها وحدها، أعني امرأة لوط: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾[٣]»[٤].

قلت: والخيانة المذكورة هنا غير مقصود بها الخيانة في العرض؛ بل خيانتها كانت بكفرها، وتأييدها لعمل قومها، وإخبارها قومها بمن حل بلوط من الضيوف؛ فإن الله ﷻ نزه أنبياءه عن أن تقع أزواجهم في الفاحشة.

* * *

(١) الذاريات: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٢) التحريم: الآية (١٠).

(٣) هود: الآية (٨١).

(٤) أضواء البيان (٢/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأمطرنا على قوم لوط الذين كذّبوا لوطًا ولم يؤمنوا به مطرًا من حجارة من سجيل أهلكناهم به، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فانظر -يا محمد- إلى عاقبة هؤلاء الذين كذّبوا اللَّه ورسوله من قوم لوط، فاجترموا معاصي اللَّه، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حرّم اللَّه من أدبار الرجال، كيف كانت، وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيره من العقوبة، عاقبة من كذّبك، واستكبر عن الإيمان باللَّه وتصديقك، إن لم يتوبوا من قومك»[1].

وقال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا هذا المطر ما هو، ولكنه بيّن في مواضع أخر أنه مطر حجارة أهلكهم اللَّه بها، كقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[2]، وأشار إلى أن السجيل الطين بقوله في (الذاريات): ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[3]، وبيّن أن هذا المطر مطر سوء لا رحمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾[4]، وقوله تعالى في (الشعراء): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾[5]»[6].

فصل في بيان ما اشتملت عليه قصة لوط مع قومه من الفوائد والعبر من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: «وأما قصة لوط، فنذكر أيضًا ما فيها من الزيادة على القصص الثلاث:

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٧).
(٢) الحجر: الآية (٧٤).
(٣) الذاريات: الآية (٣٣).
(٤) الفرقان: الآية (٤٠).
(٥) الشعراء: الآية (١٧٣).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٣٦).

الأولى: التصريح أن هذا الفعل لم يفعل قبلهم.

الثانية: موعظة نبيهم بذلك، فدل على أنه متقرر عندهم أن أول من ابتدع القبيح ليس كغيره.

الثالثة: تعظيم هذه الفاحشة بمخاطبتهم بالاستفهام.

الرابعة: تغليظها بالألف واللام، فدل على الفرق بينها وبين الزنى لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[١].

الخامسة: تنبيههم على مخالفة العقول والشهوات لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾[٢] فتتركون موضع الشهوة مع حُسنه عقلًا ونقلًا.

السادسة: تنبيههم على العلة أنها ليست للشهوة بل للسرف.

السابعة: هذا الجواب العُجاب تلك النصيحة والبيان بأدلة العقل والنقل.

الثامنة: إقرارهم أن آل لوط الطيبون، وأنهم الأخباث.

التاسعة: تصريحهم أن هذا هو الذي نقموا عليه، وجعلوه سببًا لإخراجهم من البلد.

العاشرة: ما في إهلاك امرأته من الدلالة على التوحيد، والدلالة على أن من أحب قومًا حُشر معهم، وإن لم يعمل عملهم.

الحادية عشرة: ذكر الأمر بالنظر في عاقبة المجرمين»[٣].

* * *

---

(١) الإسراء: الآية (٣٢).

(٢) الأعراف: الآية (٨١).

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

★ غريب الآية:

أوفوا: الإيفاء: التتميم.

الكيل: معلوم، وهو ما يكال به.

الميزان: معلوم، وهو ما يوزن به.

ولا تبخسوا الناس أشياءهم: البخس: النقص، ويكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه، وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم.

ولا تفسدوا: أي: لا تحدثوا الفساد، وهو خلاف الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأرسلنا إلى ولد مدين، ومدين هم ولد مدين بن إبراهيم خليل الرحمن فيما حدثنا به ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحق، فإن كان الأمر كما قال: فمدين قبيلة كتميم. وزعم أيضًا ابن إسحق: أن شعيبًا الذي ذكر الله أنه أرسله إليهم من ولد مدين هذا، وأنه شعيب بن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: بثرون.

فتأويل الكلام على ما قاله ابن إسحق: ولقد أرسلنا إلى ولد مدين أخاهم شعيب ابن ميكيل، يدعوهم إلى طاعة الله، والانتهاء إلى أمره، وترك السعي في الأرض بالفساد، والصدّ عن سبيله، فقال لهم شعيب: يا قوم! اعبدوا الله وحده لا شريك

له، ما لكم من إله يستوجب عليكم العبادة غير الإله الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضركم، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه، ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يقول: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقول: ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها، ومن ذلك قولهم: تحسبها حمقاء وهي باخسة، بمعنى: ظالمة، ومنه قول الله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[1] يعني به: رديء...

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه من عبادة غير الله والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن، ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يقول: بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يقول: هذا الذي ذكرت لكم، وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض خير لكم في عاجل دنياكم، وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم مصدقيّ فيما أقول لكم وأؤدّي إليكم عن الله من أمره ونهيه»[2].

قال ابن كثير: «وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم؛ أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسًا، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه»[4].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب أنه أمر قومه في هذه الآية بأشياء:

الأول: أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في

(١) يوسف: الآية (٢٠).
(٢) جامع البيان (٨/ ٢٣٦-٢٣٧).
(٣) المطففين: الآيات (١-٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٧).

شرائع جميع الأنبياء، فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.

والثاني: أنه ادعى النبوة فقال: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة؛ لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئًا لا نبيًّا، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه. فأما أن تلك المعجزة من أي الأنواع كانت فليس في القرآن دلالة عليه، كما لم يحصل في القرآن الدلالة على كثير من معجزات رسولنا . . .

والثالث: أنه قال: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

واعلم أن عادة الأنبياء عليهم السلام إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالًا أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد بدؤوا بمنعهم عن ذلك النوع. وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ . . .

والرابع: قوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، والمراد أنه لما منع قومه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل.

والخامس: قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ وذلك لأنه لما كان أخذ أموال الناس بغير رضاها يوجب المنازعة والخصومة، وهما يوجبان الفساد، لا جرم قال بعده: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ . . .

وحاصل هذه التكاليف الخمسة يرجع إلى أصلين: التعظيم لأمر اللَّه، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة، والشفقة على خلق اللَّه، ويدخل فيه ترك البخس، وترك الإفساد، وحاصلها يرجع إلى ترك الإيذاء، كأنه تعالى يقول: إيصال النفع إلى الكل متعذر، وأما كف الشر عن الكل فممكن، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الخمسة، قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ وهو إشارة إلى هذه الخمسة، والمعنى: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في الآخرة إن كنتم مؤمنين بالآخرة، والمراد: ترك البخس وترك الإفساد خير لكم في طلب المال في المعنى؛ لأن الناس إذا علموا منكم الوفاء والصدق والأمانة، رغبوا في المعاملات معكم، فكثرت أموالكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم

مصدقين لي في قولي»[1].

وقال ابن عاشور: «حاصل ما أمر به شعيب ﷺ قومه بعد الأمر بالتوحيد ينحصر في ثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء. فالأول قوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشترين؛ لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حب الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمن الشيء الوافي، كما يحسبه المشتري، وأما النهي عن بخس الناس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع؛ لأن المشتري هو الذي يبخس شيء البائع، ليهيئه لقبول الغبن في ثمن شيئه، وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال،..

وما جاء في هذا التشريع هو أصل من أصول المعاملة بين الأمة؛ لأن المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل، فالمنتج يزداد إنتاجًا وعرضًا في الأسواق، والطالب -من تاجر أو مستهلك- يقبل على الأسواق لا يخشى غبنًا ولا خديعة ولا خلابة، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها، وتحسينياتها، فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين، ويعيش الناس في رخاء وتحابب وتآخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ هذا الأصل الثّاني من أصول دعوة شعيب ﷺ للنّهي عن كلّ ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصّلاح في الأرض»[2].

وقال الألوسي: «وفائدة التصريح بالنهي عن النقص بعد الأمر بالإيفاء: تأكيد ذلك الأمر، وبيان قبح ضده»[3].

قال أبو حيان: «وفي إضافة الأشياء إلى الناس دليل على ملكهم إياها، خلافًا

---

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ١٨٠-١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ القسم الثاني/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٣) روح المعاني (٨/ ١٧٦-١٧٧).

للإباحية الزنادقة، كانوا يبخسون الناس في مبايعاتهم، وكانوا مكاسين، لا يدعون شيئًا إلا مكسوه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كراهة الخداع في البيع

* عن عبد اللَّه بن عمر ﵄ قال: قال رجل للنبي ﷺ: إني أُخدع في البيوع، فقال: «**إذا بايعت فقل: لا خلابة**»، فكان الرجل يقوله[(٢)].

★ غريب الحديث:

خلابة: مصدر خلبت الرجل: إذا خدعته، أخلبه خلبًا وخلابة.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفقه: «أن الخداع في البيع مكروه، وأنه لو لم يكن مكروهًا لما قال ﷺ لذلك المخدوع: «**إذا بايعت فقل: لا خلابة**»»[(٣)].

قال ابن بطال: «اختلف الفقهاء فيمن باع بيعًا غبن فيه غبنًا لا يتغابن الناس بمثله، فقال مالك: إن كانا عارفين بتلك السلعة، وبأسعارها وقت البيع لم يفسخ البيع كثيرًا كان الغبن أو قليلًا، وإن كانا أو أحدهما غير عارف بتقلب السعر وبتغيره وتفاوت الغبن، فسخ البيع، إلا أن يريدا أن يمضياه، ومن أصحاب مالك من اعتبر مقدار ثلث قيمة السلعة، ولم يحد مالك في ذلك حدًّا، ومذهبه إذا خرج عن تغابن الناس في مثل تلك السلعة أنه يفسخ، وبهذا قال أبو ثور، وقال أبو حنيفة والشافعي: ليس له أن يفسخ في الغبن الكثير كما لا يفسخ في القليل، وقد قال ابن القاسم في «العتبية»: إنه لا يفسخ في الغبن الكثير، واحتج الكوفيون فقالوا: إن حبان بن منقذ أصابته آفة في رأسه فكان يخدع في البيوع، فقال له النبي ﷺ: «**إذا بايعت فقل: لا خلابة، ولك الخيار ثلاثًا**»، قالوا: فموضع الدليل منه هو أنه كان يخدع في البيع، ومن كان يخدع في عقله بضعف يلحقه الغبن في عقوده، فجعل له

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٦)، والبخاري (٥/ ٨٦/ ٢٤٠٧)، ومسلم (٣/ ١١٦٥/ ١٥٣٣)، وأبو داود (٣/ ٧٦٥-٧٦٧/ ٣٥٠٠)، والنسائي (٧/ ٢٨٩/ ٤٤٩٦).

(٣) أفاده الحافظ في الفتح (٤/ ٤٢٣)، والعيني في عمدة القاري (٨/ ٣٩٣).

النبي ﷺ الخيار لما يلحقه من ذلك، فلو كان الغبن شيئًا يملك به فسخ العقد، لما احتاج إلى شرط الخيار مع استغنائه عنه، وقال مالك: هذه الحجة لنا؛ لأنه ﷺ قال له: «**لك الخيار**»، ولم يقل له: اشترط الخيار، وإنما قال له: «**قل: لا خلابة**»؛ أي: لا خديعة، فلو كان الغبن مباحًا، لم يكن لقوله: «**لا خلابة**» معنى، ولم ينفعه ذلك، فلما كان ذلك ينفعه، جعل له النبي ﷺ الخيار بعد ذلك، لينظر فيما باعه، ويسأل عن سعره، ويرى رأيه في ذلك، وإنما جعل ذلك في حبان ليعلمنا الحكم في مثله، وإنما تعرف الأحكام بما بيّنه ﷺ، فبيّن ﷺ حكم من يغبن في بيعه إذا لم يكن عارفًا بما يبيعه، ودليل آخر: وهو قوله ﷺ: «**لا تلقوا الركبان للبيع، فمن تلقاها فهو بالخيار إذا دخل السوق**»[(١)]، وإنما جعل له الخيار في ذلك لأجل الغبن الذي يلحقه؛ لأنه لم يدخل السوق، ولا عرف سعر ما باع، ومن يتلقاه فإنما يقصد الغبن والاسترخاص، فعلم بهذا أن الغبن يوجب الخيار، وأيضًا فإنه لو ابتاع سلعة فوجد بها عيبًا، كان له الخيار بالرد؛ لأجل النقص الموجود بها، فلا فرق بأن يجد النقص بالسلعة أو بالثمن؛ لأنه في كلا الموضعين قد وجد النقص الذي يخرج به عن القصد، فإن قيل: يلزمكم أن تفسدوا البيع وإن كان غبنًا يسيرًا، قيل: البيع لا يخلو من الغبن اليسير؛ لأن كل واحد منهما يقصد الاسترخاص، فأجيز على حسب تعارفهم فيه، فإذا خرج عن عرفهم ثبت فيه الخيار، ذكر هذا كله ابن القصار»[(٢)].

وقال ابن العربي: «إنما أذن اللّه سبحانه في الأموال بالأكل بالحق والتعامل بالصدق، وطلب التجارة بذلك، فمتى خرج عن يد أحد شيء من ماله بعلمه لأخيه، فقد أكل كل واحد منهما ما يرضي اللّه ويرتضيه، وإن خرج شيء من ماله عن يده بغير علمه، فلا يخلو أن يكون مما يتغابن الناس بمثله، مما لا غنى عنه في ارتفاع الأسواق وانخفاضها عنه، فإنه حلال جائز من غير خلاف؛ إذ لا يمكن الاحتراز منه وإن كان بأكثر من ذلك فقد اختلف الناس فيه، فقال علماؤنا: إذا جرى ذلك في بيع كان صاحبه بالخيار، إن شاء أمضاه بعد العلم به، وإن شاء رده، وقال بعضهم وآخرون غيرهم: إنه لا رد فيه، والصحيح هو الأول، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤١٠)، والبخاري (٤/ ٤٥٤/ ٢١٥٠)، ومسلم (٣/ ١١٥٧/ ١٥١٩[١٧])، والنسائي (٧/ ٢٩٠/ ٢١٥٠).

(٢) شرح البخاري (٦/ ٢٤٦-٢٤٧).

لرجل كان يخدع في البيوع: «**إذا بايعت فقل: لا خلابة**»، وفي غير الصحيح: «**واشترط الخيار ثلاثًا**»، وفي رواية: «**ولك الخيار ثلاثًا**»، فإن قيل... كان هذا الرجل قد أصابته مأمومة في الجاهلية، أثرت في عقله، فكان يخدع لأجل ذلك في بيعه، فقال له النبي ﷺ ما قال، لما كان عليه من الحال، حتى كان يقول لما أصابه: لا خلابة لا خلابة، فالجواب: أن النبي ﷺ لو كان الذي قال له من حكمه، لما أصابه من عقله، لما جوز بيعه؛ لأن بيع المعتوه لا يجوز بخيار ولا بغير خيار، ولكنه أمره بأن يصرح عن قوله حتى يقع الاحتراز منه»[1].

* * *

(١) أحكام القرآن (٢/ ٧٨٨-٧٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تصدّون: الصد: الصرف. والمعنى: تصرفونهم عن الهدى.

عوجًا: أي: انحرافًا وفسوقًا عن أمر اللَّه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: ولا تجلسوا لكل طريق -وهو الصراط- توعدون المؤمنين بالقتل، وكانوا فيما ذكر يقعدون على طريق من قصد شعيبًا، وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوّفونه ويقولون: إنه كذاب...

وأما قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ فإنه يقول: وتردّون عن طريق اللَّه، وهو الرد عن الإيمان باللَّه، والعمل بطاعته، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ يقول: تردّون عن طريق اللَّه من صدّق باللَّه ووحده، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ يقول: وتلتمسون لمن سلك سبيل اللَّه، وآمن به، وعمل بطاعته ﴿عِوَجًا﴾ عن القصد والحق إلى الزيغ والضلال...

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ﴾ يذكرهم شعيب نعمة اللَّه عندهم بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلًا عددهم، وأن رفعهم من الذلة والخساسة، يقول لهم: فاشكروا اللَّه الذي أنعم عليكم بذلك وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، ﴿وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه، ألم يهلك بعضهم غرقًا

بالطوفان، وبعضهم رجمًا بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟ والإفساد في هذا الموضع معناه: معصية الله»[١].

وقال القرطبي: «اختلف العلماء في معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان؛ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المفضِيَة إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ. وهذا ظاهر الآية.

وقال أبو هريرة: هذا نهي عن قطع الطريق، وأخذ السَّلْب؛ وكان ذلك من فعلهم..

وقال السدي أيضًا: كانوا عشّارين متقبلين. ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعًا من الوظائف المالية بالقهر والجبر، فضمَّنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي. والمترتبون في الطرق، إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد.

وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْفٌ على الناس، وإذاعة للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدين إلا اسمه.

يعضُد هذا التأويل ما تقدم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس»[٢].

قلت: الدعاة إلى اللَّه تعالى يتعرضون في حياة دعوتهم إلى أنواع من الأذى ومما تعرض له هذا النبي الكريم الحليم جماعة من سفهاء قومه يصدون الناس عنه ويصرفونهم عنه ويشينون سمعته ويذيعون كل ما يصد عن دعوته.

ولهم نظائر في هذا الزمان من دعاة الباطل ودعاة أبواب جهنم فبعضهم يصد عن الإسلام عمومًا ويصفه بكل أوصاف القبح؛ بل بلغ ببعضهم الوقاحة بتصوير رسول

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) جامع أحكام القرآن (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

الإسلام بصور قبيحة يتنزه عنها أقل الناس عقلًا وفطرة وبعضهم يصف السنة بالتشدد والتنطع وبعضهم يصفها بالجزئيات والقشور، وبعضهم يصفها بالتخلف والحَرْفيّة وغير ذلك من المصطلحات التي يلقيها إبليس في روعهم؛ ولكن اللَّه ينصر عباده المخلصين، ويكتب لهم من الحسنات والطهر من السيئات ما اللَّه به عليم، فنرجو من اللَّه أن يجعلنا من أوليائه ممن يحب الكتاب والسنة.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

طائفة: الطائفة: الجماعة من الناس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -تعالى ذكره-: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾: وإن كانت جماعة منكم وفرقة ﴿ءَامَنُواْ﴾ يقول: صدّقوا ﴿بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ﴾ من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه، وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين، فاتبعوني على ذلك، ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ يقول: وجماعة أخرى لم يصدّقوا بذلك، ولم يتبعوني عليه، ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يقول: والله خير من يفصل، وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميل إلى أحد، ولا محاباة لأحد، والله أعلم»[1].

قال الرازي: «المقصود منه تسلية قلوب المؤمنين وزجر من لم يؤمن؛ لأن قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ تهديد، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾، والمراد إعلاء درجات المؤمنين، وإظهار هوان الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا، فإن لم تظهر في الدنيا فلا بد من ظهورها في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يعني أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف، فلا بد وأن يخص المؤمن التقي بالدرجات العالية، والكافر الشقي بأنواع العقوبات، ونظيره قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٤٠).

(٢) ص: الآية (٢٨).

(٣) مفاتح الغيب (١٤/ ١٨٣-١٨٤).

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لتعودنّ: أي: لتصيرنّ إلى ملتنا. وقيل: كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر؛ أي: لتعودنّ إلينا كما كنتم من قبل، وأصل العود: الرجوع، وهو مصير الشيء إلى الحال التي كان عليها. ويجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء.

قد افترينا: الافتراء: أقبح الكذب، مشتق من الفَرْي، وهو قَطْعُ الجلدِ لِلْخَرْزِ.

في ملتكم: الملة: الدين والشريعة. جمعها: مِلَلٌ.

ربنا افتح: أي: احكم واقض. ومنه قيل للقاضي والحكم: فتاح؛ لأنه يفتح مواطن الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يعني بالملأ: الجماعة من الرجال، ويعني بالذين استكبروا: الذين تكبروا عن الإيمان بالله، والانتهاء إلى أمره، واتباع رسوله شعيب لما حذّرهم شعيب بأس الله على خلافهم أمر ربهم، وكفرهم به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ ومن تبعك وصدّقك وآمن بك، وبما جئت به معك من قريتنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يقول: لترجعَنّ أنت وهم في ديننا وما نحن عليه، قال شعيب مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾؟

ومعنى الكلام: أن شعيبًا قال لقومه: أتخرجوننا من قريتكم، وتصدّوننا عن سبيل الله، ولو كنا كارهين لذلك؟ ثم أدخلت (ألف) الاستفهام على (واو) (وَلَوْ).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾:

يقول -جل ثناؤه-: قال شعيب لقومه، إذ دعوه إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها، وتوعدوه بطرده ومن تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقول: قد اختلقنا على اللَّه كذبًا، وتخرّصنا عليه من القول باطلًا إن نحن عدنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا اللَّه منها، بأن بصّرنا خطأها، وصواب الهدى الذي نحن عليه، وما يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها، ونترك الحق الذي نحن عليه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾: إلا أن يكون سبق لنا في علم اللَّه أنا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذ قضاء اللَّه، فينفذ مشيئته علينا، ﴿رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ يقول: فإن علْم ربنا وسع كل شيء، فأحاط به، فلا يخفى عليه شيء كان، ولا شيء هو كائن، فإن يكن سبق لنا في علمه أنا نعود في ملتكم، فلا يخفى عليه شيء كان، ولا شيء هو كائن، فلا بد من أن يكون ما قد سبق في علمه، وإلا فإنا غير عائدين في ملتكم»[1].

وقد استشكل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ على اعتبار أن شعيبًا لم يكن قبل على ملتهم، وأجابوا بنفي ذلك عن شعيب عليه السلام، وأجاب شيخ الإسلام عن هذا الإشكال فقال: «قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ ظاهره دليل على أن شعيبًا والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم؛ لقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾، ولقول شعيب: نعود فيها؟ ولقوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، فدل على أنهم كانوا فيها. ولقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾.

فدل على أن اللَّه أنجاهم منها بعد التلوث بها، ولقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾، ولا يجوز أن يكون الضمير عائدًا على قومه؛ لأنه صرّح فيه

---

(١) جامع البيان (٩/ ١-٢).

بقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾، ولأنه هو المحاور له بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا﴾ إلى آخرها، وهذا يجب أن يدخل فيه المتكلم، ومثل هذا في سورة (إبراهيم): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] الآية»[2].

وقال في توجيه هذه الآية وما في معناها: «التحقيق: أن اللَّه سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب، كما في حديث هرقل. ومن نشأ بين قوم مشركين جهال، لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم، إذا كان معروفًا بالصدق والأمانة، وفعل ما يعرفون وجوبه، وترك ما يعرفون قبحه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]، فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم، ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحًا.

وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلًا عن أن تقرّ به، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾[4] الآية، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[5]، فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق، وكلاهما عرفوه بالوحي.

وما ذكر أنه ﷺ بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي، فإنه سيد ولد آدم، والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره، من جهة تأييد اللَّه له بالعلم والهدى، وبالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم.

ولهذا يضيف اللَّه الأمر إليهما في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾[6] الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[7] الآية؛ وذلك أن نوحًا أول رسول بعث إلى المشركين، وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين، وقوم إبراهيم مبدؤه من عبادة الكواكب، ذاك الشرك الأرضي، وهذا السماوي، ولهذا سدّ ﷺ ذريعة هذا

---

(١) إبراهيم: الآية (١٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩).
(٣) الإسراء: الآية (١٥).
(٤) النحل: الآية (٢).
(٥) غافر: الآية (١٥).
(٦) الحديد: الآية (٢٦).
(٧) آل عمران: الآية (٣٣).

وهذا»[١].

وقال الخازن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: «قال الواحدي: معنى العود هنا: الابتداء. والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية: أن شعيبًا وأصحابه قالوا: ما كنا لنرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا، فأمورنا راجعة إلى الله، غير خارجة عن قبضته، يسعد من يشاء بالطاعة، ويشقي من يشاء بالمعصية.

وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله، ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر، ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[٢]، وكان نبينا محمد ﷺ كثيرًا ما يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٣].

قال الزجاج -رحمه الله تعالى-: المعنى: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها؛ وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون، وأنه تعالى كان عالمًا في الأزل بجميع الأشياء، فالسعيد من سعد في علم الله تعالى، والشقي من شقي في علم الله تعالى»[٤].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٠-٣١).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٥).

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١١٢و٢٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣) مختصراً، والترمذي (٤/ ٣٩٠-٣٩١/ ٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠/ ٣٨٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٦) مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) لباب التأويل (٢/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب -وهم ﴿ٱلْمَلَأُ﴾- الذين جحدوا آيات اللَّه، وكذّبوا رسوله، وتمادوا في غيّهم لآخرين منهم: لئن أنتم اتبعتم شعيبًا على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد اللَّه، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوّته، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقول: لمغبونون في فعلكم، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون إلى دينه الذي يدعوكم إليه، وهالكون بذلك من فعلكم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الرجفة: أصل الرجف: الحركة والاضطراب الشديد. تقول: رجفت الأرض والبحر رَجْفًا. والمراد هنا الصيحة؛ لأنها تزلزل قلوبهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى ههنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة (هود) فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[1]. والمناسبة في ذلك -والله أعلم- أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[2]، فجاءت الصيحة أسكتتهم.

وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورة (الشعراء): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾»[5].

* * *

(١) هود: الآية (٩٤).
(٢) هود: الآية (٨٧).
(٣) الشعراء: الآية (١٨٩).
(٤) الشعراء: الآية (١٨٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٨-٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لم يَغْنَوْا: لم يُقِيمُوا. وأصله من غَنِيَ بالمكان: إذا أقام به مستغنيًا به عن غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأهلك الذين كذّبوا شعيبًا فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاءً، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ يقول: كأن لم ينزلوا قطّ، ولم يعيشوا بها حين هلكوا . . .

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لم يكن الذين اتبعوا شعيبًا الخاسرين؛ بل الذين كذبوه كانوا هم الخاسرين الهالكين؛ لأنه أخبر عنهم -جل ثناؤه-: أن الذين كذّبوا شعيبًا قالوا للذين أرادوا اتباعه: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1]، فكذّبهم اللَّه بما أحل بهم من عاجل نكاله، ثم قال لنبيه محمد ﷺ: ما خسر أتباع شعيب، بل كان الذين كذّبوا شعيبًا لما جاءت عقوبة اللَّه هم الخاسرين دون الذين صدّقوا وآمنوا به»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «والآية بيان مستأنف من قبل اللَّه ﷻ ناقض لقول الملأ من قوم شعيب لقومهم، ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، وقولهم قبله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾[3]، كأن سائلًا يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الأمر فيها وكيف كان عاقبة أهلها؟ فأجيب عن الأول بقوله: الذين كذبوا شعيبًا وهددوه وأنذروه الإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم، فحرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقًا أو في ذلك العيش الرغيد والأمد

---

(١) الأعراف: الآية (٩٠).
(٢) جامع البيان (٩/ ٥-٦).
(٣) الأعراف: الآية (٨٨).

المديد، فمتى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن.

وأجيب عن الثاني بقوله: الذين كذّبوا شعيبًا وزعموا أن من يتبعه يكون خاسرًا وأكدوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعتزون به من تقاليد ملتهم، ومن مالهم ووطنهم، ولما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا دون الذين اتبعوه، فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين، فالجملة تفيد حصر الخسار في المكذبين له بالنص، وتقتضي نفيه عن المتبعين له بالأولى، ومناسبة الجزاء للذنب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق سببًا للحرمان الأبدي منه، وجعل الحرص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل سببًا للخسران بالحرمان منه ومن غيره.

واختار بعضهم في نكتة الفصل والتكرار وجهًا آخر، وهو أنه بيان مستأنف من اللَّه تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة في الوعظ والتوبيخ وما في معناهما نحو: أنت الذي جنيت علينا، أنت الذي سلطت علينا أعداءنا، أنت الذي فرقت كلمتنا، أنت الذي أوقعت الشقاق بيننا.

وقال الزمخشري في «الكشاف»: إن في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيهًا لرأيهم واستهزاءً بنصحهم لقومهم، واستعظامًا لما جرى عليهم، اهـ. وقد خفيت على بعض العلماء الأذكياء دلالة العبارة على هذه المعاني كلها لعدم تأملها»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ١٢-١٣).

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

آسى: أحزن. يقال: أَسَيْتُ عليه أسىً: إذا حزنت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأدبر شعيب عنهم شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذّبوه حزنًا عليهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وأدّيت إليكم ما بعثني به إليكم من تحذيركم غضبه على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بأمري إياكم بطاعة الله، ونهيكم عن معصيته، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ يقول: فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم؟»[1].

وقال الشنقيطي: «بيّن -جل وعلا- الرسالات التي أبلغها رسوله شعيب إلى قومه في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[2] الآية، ونحوها من الآيات. وبيّن نصحه لهم في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، أنكر نبي الله شعيب -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- الأسى؛ أي: الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم، وإقامة الحجة عليهم مع تماديهم في الكفر والطغيان لجاجًا وعنادًا، وإنكاره لذلك يدل على أنه لا

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦).

(٢) هود: الآية (٨٤).

(٣) هود: الآية (٨٩).

ينبغي، وقد صرّح تعالى بذلك فنهى نبينا ﷺ عنه في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، ومعنى (لا تأس): لا تحزن، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[2] الآية»[3].

وقال القاسمي: «قال الجشمي: من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال، لما لم يقبلوا نصيحة نبيهم. فتدل على وجوب قبول النصيحة في الدين، وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظَّلَمة، بل يجب أن يحمد اللَّه ويشكر، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]»[5].

* * *

---

(١) المائدة: الآية (٦٨).

(٢) النحل: الآية (١٢٧).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٦-٣٧).

(٤) الأنعام: الآية (٤٥).

(٥) محاسن التأويل (٧/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤﴾

★ **غريب الآية:**

البأساء: الشدة والمكروه.

الضراء: الضر، وهو سوء الحال، وهو ضد النفع. والضراء تقابل بالسراء والنعماء.

يضّرّعون: أي: يتضرعون. وقد تقدم قريبًا معنى التضرع، فليراجع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ معرّفه سنته في الأمم التي قد خلت من قبل أمته، ومذكر من كفر به من قريش لينزجروا عما كانوا عليه مقيمين من الشرك بالله، والتكذيب لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ قبلك ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهو البؤس وشظف المعيشة وضيقها، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي الضر وسوء الحال في أسباب دنياهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك ليتضرعوا إلى ربهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائهم»[1].

وقال ابن عطية: «هذه الآية تتضمن وعيدًا للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ؛ لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية قال: ومن يؤمّن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «تقدم مثل هذا في قوله تعالى من سورة (الأنعام): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[3] . . . فإنه بمعنى

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦-٧).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٣٢).

(٣) الأنعام: الآية (٤٢).

ما هنا، ولكن السياق مختلف، فلما كان ما هنا قد ورد عقب قصص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة في الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه في عصر التنزيل وما بعده. ولما كان ما هنالك قد ورد في سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحاجة قومه جعل خطابًا خبريًّا له لتسليته وتثبيت قلبه من جهة، ولتخويف كفار قريش وإنذارهم من جهة أخرى. وهذا ملاحظ هنا أيضًا، ولكن بالتبع للاعتبار بالسنة العامة، لا بالقصد الأول»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

ثم بدّلنا: التبديل: التغيير وهو جعل الشيء مكان الآخر.

عَفَوا: أصل العفو الترك. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾[2].

والمعنى: كثروا وكثرت أموالهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أهل القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء، ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، وهي البأساء والضراء؛ وإنما جعل ذلك سيئة؛ لأنه مما يسوء الناس، ولا تسوؤهم الحسنة، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ يقول: حتى كثروا، وكذلك كل شيء كثر، فإنه يقال فيه: قد عفا، كما قال الشاعر:

ولكنا نعض السيفَ منها ... بأسوُق عافيات الشحم كُوم

... واختلفوا في تأويل قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ فقال بعضهم نحو الذي قلنا فيه...

وقال آخرون: معنى ذلك: حتى سُرّوا...

وهذا الذي قاله قتادة في معنى: ﴿عَفَوا۟﴾ تأويل لا وجه له في كلام العرب؛ لأنه لا يعرف العفو بمعنى السرور في شيء من كلامها إلا أن يكون أراد: حتى سُرّوا بكثرتهم وكثرة أموالهم، فيكون ذلك وجهًا وإن بعُد.

وأما قوله: ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ فإنه خبر من اللّه عن هؤلاء

---

(١) الأعراف: الآية (٩٥).

(٢) البقرة: الآية (١٧٨).

القوم الذين أبدلهم مكان الحسنة السيئة التي كانوا فيها استدراجًا وابتلاءً أنهم قالوا إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافنا، ونحن لا نعدو أن نكون أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعايش والرخاء فيها، وهي السراء؛ لأنها تسر أهلها، وجهل المساكين شكر نعمة اللَّه، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضله بالإنابة إلى طاعته، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون، يقول جل جلاله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾»[1].

قال محمد رشيد رضا: «ومن الشواهد على هذا الابتلاء في القصص التي قفى عليها بهذه العبر: قول هود عليه السلام لقومه: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، وقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3]، وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[4]، ولكن لم تزد الآلاء هؤلاء الكافرين إلا بغيًا وبطرًا وفسادًا في الأرض»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على التفطن لأمر اللَّه واستشعار الابتلاء في السراء والضراء

* عن صهيب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيرًا له»**[6].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عثيمين: «في هذا الحديث: الحث على الإيمان وأن المؤمن دائمًا في

(١) جامع البيان (٩/ ٧-٩).
(٢) الأعراف: الآية (٦٩).
(٣) الأعراف: الآية (٧٤).
(٤) الأعراف: الآية (٨٦).
(٥) تفسير المنار (٩/ ١٦).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

خير ونعمة.

وفيه الحث على الصبر على الضراء وأن ذلك من خصال المؤمنين. فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا محتسبًا تنتظر الفرج من اللَّه ﷻ وتحتسب الأجر على اللَّه فذلك عنوان الإيمان. وإن رأيت بالعكس فلُم نفسك وعدّل مسيرتك وتُب إلى اللَّه.

وفي هذا الحديث: الحث على الشكر عند السراء؛ لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق اللَّه له، وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1]، وإذا وفّق اللَّه العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية، فإذا وفق فهي نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة، وهكذا لأن الشكر قل من يقوم به، فإذا منّ اللَّه عليك وأعانك عليه فهذه نعمة»[2].

وقال القاري: «وجه حصر الخير في كل حال للمؤمن الكامل؛ لأن غيره إن أصابته سراء شبع وبطر، وإن أصابته ضراء جزع وكفر، بخلاف حال المؤمن، فإنه كما قيل:

إذا كان شكر نعمة اللَّه نعمة ... عليّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتسع العمر

إذا مس بالنعماء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبه الأجر»[3].

وقال ابن علان بعد ذكره لحال المؤمن الكامل الإيمان مع ما يصيبه من سراء وضراء، قال: «أما غير كامل الإيمان، فإنه يتضجر ويتسخط من المصيبة، فيجتمع عليه نصبها ووزر سخطه، ولا يعرف للنعمة قدرها، فلا يقوم بحقها ولا يشكرها، فتنقلب النعمة في حقه نقمة، وينعكس عليه الحال، نعوذ باللَّه من النقصان بعد الزيادة، ومن الحور بعد الكور»[4].

وقال الحافظ ابن حجر: «والذي يظهر أن المصيبة إذا قارنها الصبر حصل

---

(١) إبراهيم: الآية (٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٤٥).

(٣) المرقاة (٩/ ١٥٣).

(٤) دليل الفالحين (١/ ١٤٧).

التكفير ورفع الدرجات على ما تقدم تفصيله، وإن لم يحصل الصبر نظر إن لم يحصل من الجزع ما يذم من قول أو فعل فالفضل واسع، ولكن المنزلة منحطة عن منزلة الصابر السابقة، وإن حصل فيكون ذلك سببًا لنقص الأجر الموعود به أو التكفير، فقد يستويان، وقد يزيد أحدهما على الآخر، فبقدر ذلك يُقضى لأحدهما على الآخر»[1].

* * *

(١) فتح الباري (١٠/ ١٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(١)]

★ غريب الآية:

بَغْتَةً: أي: فجأة؛ ليكون أكثر حسرة. والفجأة: الأخذ على غِرَّةٍ دون سابق علم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة أتاهم على غرة منهم بمجيئه وهم لا يدرون، ولا يعلمون أنه يجيئهم، بل هم بأنه آتيهم مكذّبون، حتى يعاينوه ويروه»[(٢)].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: فكان عاقبة ذلك أن أخذناهم بالعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيحل بهم؛ لأنهم كانوا يجهلون سنن اللّه تعالى في الاجتماع البشري، فلا هم عرفوها بعقولهم، ولا هم صدقوا الرسل في نُذُرهم، وهذا معنى قوله تعالى في سياق سورة (الأنعام) الذي ذكرناه آنفًا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[(٣)]، وذلك شأن الكافرين والجاهلين: إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسوا، وإذا مسهم الخير أشروا وبطروا، فإذا كان ذلك الخير قوة وسلطة بغوا في الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل. . .

وقد قال اللّه تعالى في هذا المعنى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[(٤)]، وقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ

---

(١) الأعراف: الآية (٩٥).
(٢) جامع البيان (٩/٩).
(٣) الأنعام: الآية (٤٤).
(٤) الإسراء: الآيتان (٨٣و٨٤).

ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[١]، المراد بالفرح ما كان عن بطر وغرور، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾[٢] اقرأ تتمة الآية وما بعدها.

وأما المؤمنون بالله وما جاء به رسله حقًّا فهم الذين تكون الشدائد والمصائب تربية لهم وتمحيصًا، كما تكون للكافرين عقابًا وإبلاسًا، وقد بيّن الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه إياه بالتفصيل في قصة أُحُد من سورة (آل عمران) إذ قضت حكمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب، فيظهر عليهم المشركون، فينزل تلك الآيات الحكيمة المبينة للحقائق وسنن الاجتماع في الحروب والشدائد التي أولها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣]، ومنها قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤]، ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداولات بأسبابها وحكمها ويتحرى الاتعاظ وتربية نفسه بها، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها، والآيات التي بعد ما أشرنا إليه منها تتمة وإيضاح لها»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موت الفجأة وأنه أخذة أسف للكافر والفاجر ورحمة للمؤمن

* عن عبيد بن خالد وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: «**موت الفجأة أخذة أسف**»، وحدّث به مرة عن النبي ﷺ[٦].

---

(١) الشورى: الآية (٤٨).
(٢) يونس: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٣) آل عمران: الآيات (١٣٧-١٤١).
(٤) آل عمران: الآية (١٤٠).
(٥) تفسير المنار (٩/ ١٦-١٨).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٩)، وأبو داود (٣/ ٣٨١/ ٣١١٠) موقوفاً ومرفوعاً. قال المنذري: «وحديث عبيد - هذا- الذي أخرجه أبو داود، رجال إسناده ثقات. والوقف لا يؤثر؛ فإن مثله لا يؤخذ بالرأي، فكيف وقد أسنده مرة، والله أعلم» (مختصر سنن أبي داود ٤/ ٢٨٢).

★ **غريب الحديث:**

أخذة أسف: قال السندي: «قوله: أخذة أسف، بفتح السين؛ أي: غضب، أو بكسرها؛ أي: غضبان»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «الأسِف: الغضبان؛ ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[2]، ومعناه -والله أعلم- أنهم فعلوا ما أوجب الغضب عليهم والانتقام منهم»[3].

وقد بوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الجنائز: باب موت الفجاءة، البغتة.

أورد فيه حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في الرجل الذي أخبر النبي ﷺ بافتلات نفس أمه، وأنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدق عنها، الحديث[4].

قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن رشيد: مقصود المصنف -والله أعلم- الإشارة إلى أنه ليس بمكروه؛ لأنه ﷺ لم يظهر منه كراهيته لما أخبره الرجل بأن أمه افتلتت نفسها، وأشار إلى ما رواه أبو داود بلفظ: «**موت الفجأة أخذة أسف**» وفي إسناده مقال، فجرى على عادته في الترجمة بما لم يوافق شرطه، وإدخال ما يومئ إلى ذلك ولو من طرف خفي، انتهى»[5].

ونقل عن ابن المنير قال: «لعل البخاري أراد بهذه الترجمة أن من مات فجأة فليستدرك ولده من أعمال البر ما أمكنه مما يقبل النيابة، كما وقع في حديث الباب»[6].

قلت: وإنما كره من كره موت الفجاءة لما فيه من خوف حرمان الوصية، وترك الإعداد للمعاد، والاغترار والتسويف بالتوبة؛ كما قال ابن بطال[7].

---

(١) حاشية المسند (٢٤/ ٢٠٣). (٢) الزخرف: الآية (٥٥).
(٣) معالم السنن (١/ ٢٦١).
(٤) البخاري (٣/ ٣٢٥/ ١٣٨٨) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.
(٥) فتح الباري (٣/ ٣٢٥).
(٦) فتح الباري (٣/ ٣٢٥).
(٧) شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٧٨).

أما من كان متأهبًا للموت مراقبًا له فهو غير مكروه في حقه.

قال النووي: «وذكر المدائني أن إبراهيم الخليل وجماعة من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ماتوا فجأة، قال: وهو موت الصالحين، وهو تخفيف على المؤمن، ويحتمل أن يقال: إنه لطف ورفق بأهل الاستعداد للموت المتيقظين، وأما غيرهم ممن له تعلقات يحتاج إلى الإيصاء والتوبة واستحلال من بينه وبينه معاملة أو مصاحبة ونحو ذلك، فالفجاءة في حقه أخذة أسف»[1].

* * *

(١) المجموع شرح المهذب (٥/ ٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بركات: البركة: كثرة الخير وتزايده. أصلها: الثبوت.

أفأمِن: الأمن: الطمأنينة عند الخوف.

بأسنا: البأس: العذاب والبؤس: الفقر. والأصل: الشدة.

ضحىً: الضحى: انبساط الشمس وامتداد النهار، وسمي الوقت به.

وهم يلعبون: أي: وهم فيما لا يجدي عليهم؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه: لاعب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]؛ أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[3]، الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم

(١) يونس: الآية (٩٨).
(٢) الصافات: الآيتان (١٤٧و١٤٨).
(٣) سبأ: الآية (٣٤).

به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي: عذابنا ونكالنا، ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلًا، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم»(١).

وقال القرطبي: «وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم؛ إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرًا لذنوبهم. ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾(٢)، وعن هود: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾(٣)، فوعدهم المطر والخصب على التخصيص. يدل عليه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: كذبوا الرسل. والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا»(٤).

قال السمرقندي: «في الآية دليل على أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكرًا، وتكون عقوبة له إذا لم يكن شاكرًا؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾(٥) يعني: الغنى يكون وبالًا لمن لا يشكر اللَّه تعالى وعقوبة له»(٦).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٧)، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٨)، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٠-٤٥١).
(٢) نوح: الآيتان (١٠و١١).
(٣) هود: الآية (٥٢).
(٤) جامع أحكام القرآن (٧/ ٢٥٣).
(٥) الزخرف: الآية (٣٣).
(٦) بحر العلوم (١/ ٥٥٧).
(٧) المائدة: الآيتان (٦٥و٦٦).
(٨) الطلاق: الآيتان (٢و٣).

ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا﴾[2] الآية، وقول هود: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[3] الآية، وقول نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾[4].

قال القرطبي: «جعل تعالى التقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[5]»[6].

وقال ابن الجوزي في آية (المائدة): «وقد أعلم اللّٰه تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق؛ كما قال: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾»[7].

وقال الآلوسي: «وفي الآية -على ما قيل- إشكال وهو أنه يفهم بحسب الظاهر منها أنه لم يفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وفي (الأنعام): ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[8]، وهو يدل على أنه فتح عليهم بركات من السماء والأرض؛ وهو معنى قوله سبحانه: ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ لأن المراد منها الخصب والرخاء والصحة والعافية لمقابلة (أخذناهم بالبأساء والضراء)، وحمل فتح البركات على إدامته أو زيادته عدول عن الظاهر، وغير ملائم لتفسيرهم الفتح بتيسير الخير ولا المطر والنبات. وأجاب عنه الخلخالي بأنه ينبغي أن يراد بالبركات غير الحسنة، أو يراد آمنوا من أول الأمر فنجوا من البأساء والضراء كما هو الظاهر، والمراد في سورة (الأنعام) بالفتح ما أريد بالحسنة ههنا، فلا يتوهم الإشكال، انتهى. وأنت خبير بأن إرادة آمنوا من أول الأمر إلى آخره غير ظاهرة؛ بل الظاهر أنهم لو أنهم آمنوا بعد أن ابتلوا ليسرنا عليهم ما يسرنا مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء كإمطار الحجارة، وبعضها من الأرض كالرجفة، وبهذا ينحل الإشكال؛ لأن آية (الأنعام) لا تدل على أنه فتح لهم هذا الفتح كما هو ظاهر لتاليها، وما ذكر من أن المراد بالفتح هناك ما أريد بالحسنة ههنا

---

(١) الجن: الآية (١٦).
(٢) هود: الآية (٣).
(٣) هود: الآية (٥٢).
(٤) نوح: الآيات (١٠-١٢).
(٥) إبراهيم: الآية (٧).
(٦) جامع أحكام القرآن (٦/ ١٥٦).
(٧) زاد المسير (٢/ ٣٠٠).
(٨) الأنعام: الآية (٤٤).

إن كان المراد به أن الفتح هناك واقع موقع إعطاء الحسنة بدل السيئة هنا حيث كان ذكر كل منهما بعد ذكر الأخذ بالبأساء والضراء، وبعده الأخذ بغتة فربما يكون له وجه لكنه وحده لا يجدي نفعًا، وإن كان المراد به أن مدلول ذلك العام المراد به التكثير هو مدلول الحسنة فلا يخفى ما فيه، فتدبر.

وقيل: المراد بالبركات السماوية والأرضية الأشياء التي تحمد عواقبها، ويسعد في الدارين صاحبها، وقد جاءت البركة بمعنى السعادة في كلامهم، فلتحمل هنا على الكامل من ذلك الجنس، ولا يفتح ذلك إلا للمؤمن، بخلاف نحو المطر والنبات والصحة والعافية، فإنه يفتح له وللكافر أيضًا استدراجًا ومكرًا»[١].

* * *

(١) روح المعاني (٩/ ١٠-١١).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾

★ **غريب الآية:**

مكر الله: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة. وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يتحرى بذلك فعل الجميل، وعلى ذلك تحمل هذه الآية وما كان على شاكلتها من الآيات التي أضيف فيها المكر إلى الله ﷻ إضافة صفة لموصوف. وأما المذموم من المكر، وهو أن يتحرى بمكره فعل قبيح، فهو منزه عنه سبحانه، ولا يضاف إليه من هذا الضرب منه شيء ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ﴾[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفأمن -يا محمد- هؤلاء الذين يكذّبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا مع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وهم الهالكون»[2].

وقال السعدي: «وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا بقوله: «**يا مقلّب القلوب! ثبّت قلبي على دينك**»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن؛ فإن العبد -ولو بلغت له الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة»[3].

---

(١) فاطر: الآية (٤٣).

(٢) جامع البيان (٩/ ٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦٨).

قال محمد رشيد رضا: «إذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر اللَّه تعالى جهلًا يورث الخسر، فكيف حال من يأمن مكر اللَّه وهو مسترسل في معاصيه اتّكالًا على عفوه ومغفرته ورحمته؟ قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(١)]، فأعلم الناس باللَّه وأعبدهم له وأقربهم إليه هم أبعد خلقه عن الأمن من مكره؛ إذ لا يصح أن يأمن منه إلا من أحاط بعلمه ومشيئته، وليس هذا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[(٢)]، ألم تر إلى الرسل الكرام كيف كانوا يستثنون مشيئته حتى فيما عصمهم به؟ كقول شعيب الذي حكاه اللَّه عنه قبيل هذه الآيات: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾[(٣)]، وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «**يا مقلّب القلوب والأبصار! ثبّت قلبي على دينك**» كما ثبت في الصحاح[(٤)]، وقد ذكر تعالى أن الراسخين في العلم يدعونه بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[(٥)]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾[(٦)]، ويقابل الأمن من مكر اللَّه ضده وهو اليأس من رحمة اللَّه. فكل منهما مفسدة تتبعها مفاسد كثيرة»[(٧)].

قال الألوسي: «استدل الحنفية بالآية على أن الأمن من مكر اللَّه تعالى -وهو كما في جمع الجوامع الاسترسال في المعاصي اتكالًا على عفو اللَّه تعالى- كفر، ومثله اليأس من رحمة اللَّه تعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(٨)]، وذهبت الشافعية إلى أنهما من الكبائر لتصريح ابن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه بذلك... وقال بعض المحققين: إن كان في الأمن اعتقاد أن اللَّه تعالى

---

(١) فصلت: الآية (٢٣). (٢) طه: الآية (١١٠).
(٣) الأعراف: الآية (٨٩).
(٤) إذا كان يقصد بالصحاح -وهو غالب الظن- الصحيحين والسنن، فلا تسلم هذه التسمية؛ لاحتواء السنن على أحاديث ضعاف. والحديث أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١١٢و٢٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣) مختصراً، والترمذي (٤/ ٣٩٠-٣٩١/ ٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠/ ٣٨٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٦) مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي.
(٥) آل عمران: الآية (٨). (٦) فاطر: الآية (٢٨).
(٧) تفسير المنار (٩/ ٢٨-٢٩). (٨) يوسف: الآية (٨٧).

لا يقدر على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس اعتقاد عدم القدرة على الرحمة والإحسان أو نحو ذلك، فذلك مما لا ريب في أنه كفر. وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد، ولم يكن فيه تهاون وعدم مبالاة بالله تعالى، فذلك كبيرة، وهو كالمحاكمة بين القولين»[1].

قال ابن عثيمين: «في هذه الآية دليل على أن لله مكرًا، والمكر هو التوصل إلى إيقاع الخصم من حيث لا يشعر. ومنه جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري: «الحرب خدعة»[2].

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحًا مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[5]. ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها، وفي المقام التي لا تكون مدحًا لا يوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله به فلا يقال: إن من أسماء الله: الماكر، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه»[6].

قال ابن عاشور: «واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذبين، الذي ابتُدىء الحديث عنه من قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[7]، ثم قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾[8] الآيات، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر

---

(١) روح المعاني (٩/ ١٣).

(٢) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٣٠٨)، والبخاري (٦/ ١٩٤/ ٣٠٣٠)، ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٩)، وأبو داود (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٩)، والترمذي (٤/ ١٦٦/ ١٦٧٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٣/ ٨٦٤٣).

(٣) الأنفال: الآية (٣٠).

(٤) النمل: الآية (٥٠).

(٥) الأعراف: الآية (٩٩).

(٦) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١/ ١٧٠).

(٧) الأعراف: الآية (٩٤).

(٨) الأعراف: الآية (٩٧).

الرسول ﷺ، وعن الغرور بأن دين الشرك هو الحق، فهو أمن ناشئ عن كفر، والمأمون منه هو وعيد الرسل إياهم وما أطلق عليه أنه مكر اللَّه.

ومن الأمن من عذاب اللَّه أصناف أخرى تغاير هذا الأمن، وتتقارب منه، وتتباعد، بحسب اختلاف ضمائر الناس ومبالغ نياتهم، فأما ما كان منها مستندًا لدليل شرعي فلا تبعة على صاحبه، وذلك مثل أمن المسلمين من أمثال عذاب الأمم الماضية المستند إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1]، وإلى قول النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[2] فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**أعوذ بسبحات وجهك الكريم**»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: «**أعوذ بسبحات وجهك الكريم**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ الآية، فقال: «**هذه أهون**»[3]، كما تقدم في تفسيرها في سورة (الأنعام)، ومثل أمن أهل بدر من عذاب الآخرة لقول النبي ﷺ: «**ما يدريك لعل اللَّه اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**»[4] في قصة حاطب بن أبي بلتعة، ومثل إخبار النبي ﷺ عبد اللَّه بن سلام أنه لا يزال آخذًا بالعروة الوثقى[5]، ومثل الأنبياء، فإنهم آمنون من مكر اللَّه بإخبار اللَّه إياهم بذلك، وأولياء اللَّه كذلك، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[6]. فمن العجيب ما ذكره الخفاجي أن الحنفية قالوا: الأمن من مكر اللَّه كفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾»[7].

(١) الأنفال: الآية (٣٣). (٢) الأنعام: الآية (٦٥).

(٣) أخرجه من حديث جابر ﷺ: أحمد (٣/ ٣٠٩)، والبخاري (٨/ ٣٧٠-٣٧١/ ٤٦٢٨)، والترمذي (٥/ ٢٤٤/ ٣٠٦٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٠/ ١١١٦٤)، وليس فيه «سبحات».

(٤) أخرجه من حديث علي ﷺ: أحمد (١/ ٧٩-٨٠)، والبخاري (٦/ ١٧٦-١٧٧/ ٣٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤١-١٩٤٢/ ٢٤٩٤)، وأبو داود (٣/ ١٠٨-١١٠/ ٢٦٥٠)، والترمذي (٥/ ٣٨١-٣٨٣/ ٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٧/ ١١٥٨٥).

(٥) أخرجه من حديث قيس بن عباد عن عبداللَّه بن سلام ﷺ: أحمد (٥/ ٤٥٢)، والبخاري (٧/ ١٦٢-١٦٣/ ٣٨١٣)، ومسلم (٤/ ١٩٣١/ ٢٤٨٤[١٤٩]).

(٦) يونس: الآيتان (٦٢و٦٣).

(٧) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤-٢٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان أن الأمن من مكر اللَّه من الكبائر

* عن ابن عباس ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ كان متكئًا فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر؟ فقال: «**الشرك باللَّه، والإياس من روح اللَّه، والأمن من مكر اللَّه، وهذا أكبر الكبائر**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث التنبيه على أن الأمن من مكر اللَّه من أعظم الذنوب الكبائر، بل هو أكبر الكبائر.

قال ابن حجر الهيثمي: «عدّ ذلك كبيرة -أي: أمن مكر الله- هو ما أطبقوا عليه لما علمت من الوعيد الشديد الذي فيه، بل جاء تسميته أكبر الكبائر... وبكونه أكبر الكبائر صرح ابن مسعود كما رواه عنه عبدالرزاق والطبراني»[٢].

قال القاسمي: «قال الكمال بن أبي شريف: عطفهما -يعني: الإياس والأمن- في الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر، ظاهر في أنهما غير الكفر.

وقال أيضًا: مراد الشافعية بكونه كبيرة أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها في حد الآمن من المكر، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعادًا دخل به في حد اليائس. وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه، فينبغي أن يكون كل منهما كافرًا عند الشافعية أيضًا، ويحمل عليه نص القرآن، انتهى»[٣].

وفيه: «شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله»[٤].

---

(١) أخرجه: ابن أبي حاتم (٣/ ٩٣١)، والبزار [(١/ ٧١/ ١٠٦) كشف الأستار]، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٠٤)، وقال: «رواه البزار والطبراني، ورجاله موثقون»، وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٦٤) وحسّن إسناده وعزاه للبزار وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط». والحديث حسّنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١٧) والعلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٠٥١).

(٢) الزواجر (١/ ١٧٤).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٣).

(٤) أفاده شيخ الإسلام في «كتاب التوحيد» [(ص: ٥٢٦) تيسير العزيز الحميد]، وانظر «القول المفيد» (٢/ ٢٠٩).

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة، وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أو نفي الإيمان.

قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ أو قال: «**ليس منا من فعل كذا وكذا**».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»»[1].

* * *

(١) فتح المجيد (ص: ٤٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

★غريب الآية:

أَوَلم يهدِ: أي: أَوَلم يبيّن ويوضّح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أَوَلم نبيّن، وكذا قال مجاهد والسدي، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أولم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

وقال أبو جعفر ابن جرير في تفسيرها: «يقول تعالى: أو لم نبيّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيرًا»[١].

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٣]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾[٥]، أي:

---

(١) جامع البيان (٩/ ٩).
(٢) طه: الآية (١٢٨).
(٣) السجدة: الآية (٢٦).
(٤) إبراهيم: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٥) مريم: الآية (٩٨).

هل ترى لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[1]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه»[7].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٦).
(٢) الأحقاف: الآيات (٢٥-٢٧).
(٣) سبأ: الآية (٤٥).
(٤) الملك: الآية (١٨).
(٥) الحج: الآيتان (٤٥و٤٦).
(٦) الأنعام: الآية (١٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥١-٤٥٢).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نقصّ: أي: نتلو عليك ونبيّن لك أخبارها؛ من قولهم: قصّ فلان الخبر؛ أي: أتى بقصته، من قصّها، وأصله من قصّ الأثر؛ أي: تتبّعه حتى عرف صاحبه أين سلك.

من أنبائها: أي: من أخبارها. والنبأ: الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به العلم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ أي: من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[2]»[3].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).

(٢) هود: الآيتان (١٠٠و١٠١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٢).

الآية، في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه من التفسير، بعضها يشهد له القرآن.

منها: أن المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بما سبق في علم اللَّه يوم أخذ الميثاق أنهم يكذبون به، ولم يؤمنوا به، لاستحالة التغير فيما سبق به العلم الأزلي. ويروى هذا عن أبيّ بن كعب وأنس، واختاره ابن جرير(١)، ويدل لهذا الوجه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢) الآية، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٣)، ونحو ذلك من الآيات.

ومنها: أن معنى الآية أنهم أخذ عليهم الميثاق، فآمنوا كرهًا، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعًا. ويروى هذا عن السدي، وهو راجع في المعنى إلى الأول.

ومنها: أن معنى الآية أنهم لو ردوا إلى الدنيا مرة لكفروا أيضًا، فما كانوا ليؤمنوا في الرد إلى الدنيا بما كذبوا به من قبل؛ أي: في المرة الأولى، ويروى هذا عن مجاهد. ويدل لمعنى هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ﴾(٤) الآية، لكنه بعيد من ظاهر الآية.

ومنها: أن معنى الآية: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، وهذا القول حكاه ابن عطية، واستحسنه ابن كثير، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة. ووجهه ظاهر؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾(٥)، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٦)، وقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾(٧)، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٨)، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها أوجه من التفسير، كلها يشهد له قرآن، وكلها حق، فنذكر جميعها، والعلم عند اللَّه تعالى»(٩).

---

(١) جامع البيان (٩/ ١١).
(٢) يونس: الآية (٩٦).
(٣) يونس: الآية (١٠١).
(٤) الأنعام: الآية (٢٨).
(٥) النساء: الآية (١٥٥).
(٦) الصف: الآية (٥).
(٧) البقرة: الآية (١٠).
(٨) المنافقون: الآية (٣).
(٩) أضواء البيان (٢/ ٣٧-٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولم نجد لأكثر أهل هذه القرى، التي أهلكناها واقتصصنا عليك يا محمد نبأها، ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ يقول: من وفاء بما وصيناهم به من توحيد اللَّه، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وهجر عبادة الأوثان والأصنام. والعهد: هو الوصية، وقد بينا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته. ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن اللَّه فطر عباده وجبلهم على الإقرار بربوبيته وإقامة ألوهيته

* عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[3].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء،**

---

(١) الأعراف: الآية (١٠٢). (٢) جامع البيان (٩/ ١٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠/ ٨٠٧١).

هل تحسون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة ﷺ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[١]»[٢].

★ فوائد الحديثين:

احتج الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره[٣] بهذين الحديثين على أن المراد بالعهد المذكور في هذه الآية: هو ما جبل اللَّه عليه بني آدم «وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع اللَّه غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك». وقد اختلف المفسرون في تحديد المراد بالعهد في هذه الآية على ثلاثة أقوال، هذا أحدها.

«**والثاني**: ما جعله اللَّه في عقولهم من وجوب شكر النعمة، وأن اللَّه هو المنعم، قاله علي بن عيسى.

والثالث: أنه ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، قاله الحسن»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «والصواب أن العهد يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطري وشرعي وعرفي مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض في تعاهدهم وتعاقدهم؛ لأنه جاء نكرة في سياق النفي مع تأكيد النفي بـ(مِنْ)، كأنه قال: وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدًا ما يفون به»[٥].

* * *

(١) الروم: الآية (٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨).

(٣) (٣/ ٤٥٣).

(٤) انظر «النكت والعيون» (٢/ ٢٤٤).

(٥) تفسير المنار (٩/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب، صلوات اللّٰه وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء اللّٰه أجمعين، ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بحججنا ودلائلنا البينة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: قومه، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: جحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، وكقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]؛ أي: الذين صدوا عن سبيل اللّٰه وكذبوا رسله؛ أي: انظر -يا محمد- كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء اللّٰه -موسى وقومه- من المؤمنين به»[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها اللّٰه تعالى في هذه السورة، وذكر في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص، لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام.

واعلم أن الكناية في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم. وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فيه مباحث:

البحث الأول: هذه الآية تدل على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن

---

(١) النمل: الآية (١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٣-٤٥٤).

غيره، إذ لو لم يكن مختصًّا بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

والبحث الثاني: هذه الآية تدل على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة، ومعجزات كثيرة»[١].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾

★غريب الآية:

حقيق على: أي: حريص على أن لا أقول. وقُرئت: (حقيقٌ عليَّ)، بمعنى: واجبٌ عليّ أن لا أقول.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون، يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنـي رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها، أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله، ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق على أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك، لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصًا وقد جاءهم ببينة من الله واضحة، على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل، الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب ﷺ، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم»[1].

قال ابن جرير: «﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يقول: قال موسى لفرعون

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٧١-٧٢).

ومثله: قد جئتكم ببرهان من ربكم يشهد أيها القوم على صحة ما أقول، وصدق ما أذكر لكم من إرسال اللَّه إياي إليكم رسولًا، فأرسل -يا فرعون- معي بني إسرائيل»[١].

قال أبو حيان: «الظاهر أن موسى لم يطلب من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه، وفي غير هذه الآية دعاؤه إياه إلى الإقرار بربوبية اللَّه تعالى وتوحيده. قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[٢]، وكل نبي داعٍ إلى توحيد اللَّه تعالى. وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[٣]، فهذا ونظائره دليل على أنه طلب منه الإيمان خلافًا لمن قال: إن موسى لم يدعه إلى الإيمان ولا إلى التزام شرعه»[٤].

فائدة دعوية:

قال أبو حيان: «هذه محاورة من موسى ﷺ لفرعون، وخطاب له بأحسن ما يدعى به وأحبها إليه، إذ كان من ملك مصر يقال له: فرعون، كنمرود في يونان، وقيصر في الروم، وكسرى في فارس، والنجاشي في الحبشة. وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علمًا شخصيًا، بل يكون علم جنس كأسامة وثعالة. ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لينبه على الوصف الذي ادعاه، وأنه فيه مبطل لا محق. ولما كان قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾أردفها بما يدل على صحتها، وهو قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ولما قرر رسالته فرع عليها تبليغ الحكم، وهو قوله: ﴿فَأَرْسِلْ﴾ ولم ينازعه فرعون في هذه السورة في شيء مما ذكره موسى إلا أنه طلب المعجزة. ودل ذلك على موافقته لموسى، وأن الرسالة ممكنة لإمكان المعجزة، إذ لم يدفع إمكانها؛ بل قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ويأتي الكلام على هذا الطلب من فرعون للمعجزة»[٥].

* * *

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٤).

(٢) النازعات: الآيتان (١٨و١٩).

(٣) المؤمنون: الآية (٤٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٥٧).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٣٥٥-٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، يقول: بحجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول، ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾»[1].

قال أبو حيان: «لما عرض موسى ﷺ رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه، وهو مجيئه بالبينة والخارق المعجز، استدعى فرعون منه خرق العادة الدال على الصدق. وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار، وتجويزه ذلك. ويحتمل أن يكون: على سبيل التعجيز لما تقرر في ذهن فرعون أن موسى لا يقدر على الإتيان ببينة. والمعنى: إن كنت جئت بآية من ربك فأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٥٧).

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فإذا هي ثعبان: الثعبان: ما عظم من الحيات. وقيل: الحية الذكر، مشتق من ثَعِبْتُ الماءَ أَثْعَبُهُ: إذا فَجَّرْته فَانْفَجَرَ.

نَزَع: النَّزْعُ هو إزالةُ الشيء عن مكانه. ومنه نَزْعُ الرّداء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾وهو الذكر العظيم من الحيات، ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر بيّن لا خفاء في كونه ثعبانًا حقيقيًا يسعى وينتقل من مكان إلى آخر، تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى، كما سيأتي من أعمال سحرة فرعون، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ناصعة البياض تتلألأ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾إليه، وهم فرعون وملؤه، أو لكل من ينظره، والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الأمور الغريبة. وقد وصف اللَّه تعالى بياضها في (طه) و(النمل) و(القصص) بأنه ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً﴾[1] أي: من غير علة كالبرص»[2].

قال الألوسي: «والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالنحاس إلى الذهب؛ إذ لو كان ذلك تخييلًا لبطل الإعجاز، ولم يكن لذكر ﴿مُّبِينٌ﴾ معنى مبين، وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر، ويدل لذلك أيضًا أنه لا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ما ذكر وتخصيص الإرادة له، والقول بأن قلب الحقائق

---

(١) طه: الآية (٢٢)، النمل: الآية (١٢)، القصص: الآية (٣٢).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٤).

محال والقدرة لا تتعلق به، فلا يكون النحاس ذهبًا بل رصاص مموه، والحق جواز الانقلاب، إما بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس ذهبًا على ما هو رأي المحققين، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصف الذي صار به نحاسًا ويخلق فيه الوصف الذي يصير به ذهبًا على ما هو رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحال إنما هو انقلابه ذهبًا مع كونه نحاسًا؛ لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاسًا وذهبًا، وعلى أحد هذين الاعتبارين توكأ أئمة التفسير في أمر العصا»[١].

قال ابن عطية: «وهاتان الآيتان عرضهما موسى ﷺ للمعارضة ودعا إلى اللَّه بهما، وخرق العادة بهما وتحدى الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقًا فبهما تحدى، وإذا جعلنا التحدي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك؛ لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد: ويقال: التحدي هو الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحو ثالث، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعًا؛ لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معًا، وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلها»[٢].

* * *

(١) روح المعاني (٩/ ٢١).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٣٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

إن هذا لساحر: السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره. وأصله: خفاء الأمر. ثم استعير للكلام المُنَمَّقِ الحَسَن. تقول: سحرني بكلامه: إذا أخذ بمجامع قلبك. وأطلق ذلك على الكلام من حيث إنه يغير المعاني عن مقرها إلى مقر آخر، وهو ممدوح في الأشياء الحسنة شرعًا، ومذموم في غيرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: قال الملأ -وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون- موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافترائهم، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال محمد رشيد رضا: «وفي معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ما حكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه في سورة (يونس): ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

---

(١) القصص: الآية (٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٥-٤٥٦).

(٣) يونس: الآية (٧٨).

وما قال الملأ من قوم فرعون هذا القول إلا تبعًا لقوله هو، الذي حكاه تعالى عنه في سورة (الشعراء): ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[1] أي: رددوا قوله وصار يلقيه بعضهم إلى بعض، كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهارًا للموافقة عليه، وتعميمًا لتبليغه. وإنما لم يصرحوا بكلمة ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ كما صرح هو لأنهم كانوا دونه خوفًا وانزعاجًا، وأقل منه حرصًا على الطعن في دعوة موسى، ولكن ذكرها السحرة في تناجيهم مع فرعون، وهو أجدر بذكرها، فحكاها اللّٰه تعالى عنهم بقوله من سورة (طـه): ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الشعراء: الآيتان (٣٤و٣٥).

(٢) طه: الآيات (٦٢-٦٤).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أَرْجِه: أَنْظِرْه إلى أجل.

حاشرين: أي: جامعين للسحرة، والحشر: الجمع. وقيل: الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عند الحرب وغيرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: قال الملأ لفرعون حين استشارهم بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: ﴿أَرْجِهْ﴾ أي: أرجئ وأخّر أمره وأمر أخيه، ولا تفصل فيه بادي الرأي، وأرسل في مدائن ملكك رجالًا أو جماعات من الشرطة والجند حاشرين؛ أي: جامعين سائقين للسحرة منها، فالحشر الجمع والسوق، وإنما يوجد السحرة في المدائن الجامعة الآهلة بدور العلم والصناعة، فإن ترسلهم ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بفنون السحر ماهر فيها، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى فلا يفتتن به أحد.

قرأ الجمهور: ﴿سَٰحِرٍ﴾ بصيغة اسم الفاعل، وحمزة والكسائي هنا وفي (يونس): ﴿سحار﴾ سحّار بصيغة المبالغة له، وجاء ذلك بالإمالة وعدمها، وبها قرأ الجميع في (الشعراء) ورسمهما في المصحف الإمام واحد هكذا: (سحر) ليحتمل القراءتين. ووجههما أن فرعون لما طلب كل ساحر عليم في مدائن البلاد، خصّ بالذكر المهرة المتمرّنين في السحر، المكثرين منه، أو أن بعض ملئه طلب هؤلاء فقط؛ لأنهم أجدر بإتيان موسى بمثل ما جاء به من الأمر العظيم، كما حكى اللَّه تعالى عن فرعون في سورة (طه): ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[1]، وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين في

---

(١) طه: الآيتان (٥٧و٥٨).

العلم لعله يوجد عند بعض المقتصدين أو المقلين من السحر ما لا يوجد عند المكثرين منه، فبينت القراءتان كل ما قيل مع الإيجاز البليغ»[١].

وقال الرازي: «هذه الآية تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان، وهذا يدل على صحة ما يقوله المتكلمون من أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبًا على أهل ذلك الزمان، فلما كان السحر غالبًا على أهل زمان موسى ﷺ كانت معجزته شبيهة بالسحر، وإن كان مخالفًا للسحر في الحقيقة، ولما كان الطب غالبًا على أهل زمان عيسى ﷺ كانت معجزته من جنس الطب، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد -عليه الصلاة والسلام- لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة»[٢].

وقال القاسمي: «قال الجُشمي: تدل الآية على عظيم معجزة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير اللَّه تعالى، حتى نسبوه إلى السحر. وتدل على أن عادة البشر، أن من رأى أمرًا عظيمًا أن يعارضه. فلذلك دعا فرعون بالسحرة. فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن، لعارضوه. وتدل على أن الطريق في المعجزات، المعارضة بإتيان مثله، ولذلك قال تعالى في القرآن: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٣]، ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه. وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال، لذلك قالوا: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾[٤]، فيدل على أن من أقوى الدواعي إلى ترك الدين، المحافظة على الرياسة والمال والجاه، كما هو عادة الناس في هذا الزمن»[٥].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٦١-٦٢).
(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٣) يونس: الآية (٣٨).
(٤) الأعراف: الآية (١١٠).
(٥) محاسن التأويل (٧/ ٢٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وإنكم لمن المقرَّبين: أي: لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلًا. فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا، وليجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده»[١].

قال أبو حيان: «وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليل على شدة اضطراره لهم، وأنهم كانوا عالمين بأنه عاجز، ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى عليه السلام»[٢].

قال الرازي: «الآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبدًا ذليلًا مهينًا عاجزًا، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام، وتدل أيضًا على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان، وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون؛ لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان، فلم لم يقلبوا التراب ذهبًا، ولِم لم ينقلوا ملك فرعون إلى أنفسهم؟ ولِم لم يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا؟ والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق، وأن لا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب. والله أعلم»[٣].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٦).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٦٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٩-٢١٠).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ۝١١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ استئناف بياني كنظائره؛ أي: قال السحرة لموسى ﷺ بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم: إما أن تلقي ما عندك أولًا، وإما أن نكون نحن الملقين لما عندنا من دونك. أما تخييرهم إياه فلثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، وإرهابًا له، وإظهارًا لعدم المبالاة به، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصر بما يقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه، وما قيل من أن علة التخيير مراعاة الأدب لا وجه له ألبتة؛ بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدعي الألوهية والربوبية فيهم، وما طلبوه منه وما وعدهم إياه؛ كله يقتضي أن يحتقروا خصمه، لا أن يتأدبوا معه كما يتأدب أهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض إذا تلاقوا للمباراة، وهو ما وجه الزمخشري به التعليل، وما قاله البيضاوي وغيره من أن علته إظهار التجلد فضعيف؛ إذ لم يروا من موسى شيئًا بأعينهم يقتضيه، وإنما سمعوا أنه ألقى عصاه بحضرة فرعون فصارت ثعبانًا، فاستعدوا لمقابلته بعصي وحبال كثيرة يخيل إليه وإلى كل ناظر أنها ثعابين تسعى، فيبطلون سحره بسحر مثله، كما قال ملكهم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾[1].

وذهب الزمخشري ومن تبعه إلى أن هذا التعبير عن إلقائهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل ﴿نَحۡنُ﴾ وتوكيد الضمير المستتر به. وفي سورة (طه): ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾[2]، وفيه من التوكيد ما يدل على الرغبة في الأولية التي صرحوا بذكرها هنا. فلا فرق بين التعبيرين في المعنى، فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل، وقد اختلف فيه على أقوال، ثالثها -وهو الصحيح

---

(١) طه: الآية (٥٨).

(٢) طه: الآية (٦٥).

المعتمد- : أنه جائز وواقع فيما لا يخل بأداء المعنى، ولا ينافي البلاغة العليا، فكيف إذا كان مزيد تفنن قد يصل إلى حد الإعجاز فيها، وذلك أن تأدية دقائق المعنى مكررة بألفاظ مختلفة في منتهى العسر وكثيرًا ما يكون متعذرًا، فلو لم يؤكد الضمير المتصل ههنا بالضمير المنفصل ﴿نَحْنُ﴾ لما أفاد معنى الرغبة في أولية الإلقاء المصرح به في سورة (طه)، وبذلك علم أن مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وحّد بينهما بجعل كل منهما دالاً على رغبة السحرة في التقدم والأولية، فأيّ خطيب أو كاتب يقدر على إفادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٤-٦٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سحروا أعين الناس: أي: خيلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها بما يتخيل من التمويه الذي جرى مجرى الشعوذة وخفة اليد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فقال لهم موسى ﷺ: ﴿أَلْقُوا﴾ أي: أنتم أولًا قبلي. والحكمة في هذا -واللَّه أعلم- ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[١]»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «﴿قَالَ أَلْقُوا﴾، وفي سورة (طه): ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾[٣]، وهو أدل على رغبته ﷺ في سبقهم للإلقاء. ولعله نطق أولًا بما فيه الإضراب فقال: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم من دوني، ثم أعاد كلمة ﴿أَلْقُوا﴾وحدها لتأكيد رغبته والإيذان بعدم مبالاته. وفي سورتي (يونس) و(الشعراء): ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[٤]، فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة (طه)؛ لأنه جواب لخطابهم إياه باسمه بالتخيير، فالمقام فيها مقام الإضمار حتمًا. وأما إظهاره في

(١) طه: الآيات (٦٦-٦٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٦-٤٥٧).
(٣) طه: الآية (٦٦).
(٤) يونس: الآية (٨٠)، الشعراء: الآية (٤٣).

سورتي (يونس) و(الشعراء) فسببه أنه ليس فيهما ذكر لنداء السحرة إياه وتخييرهم له، فأول آية (يونس): ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟﴾، وقبلها طلب فرعون للسحرة فلو لم يصرح باسم موسى لكان المتبادر أن الذي أمرهم بالإلقاء هو فرعون حسب قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور، وكذلك آية (الشعراء) جاءت بعد ذكر طلب فرعون للسحرة ومجيئهم وسؤالهم إياه الأجر إن كانوا هم الغالبين وإجابته إياهم، فهي أولى من آية (يونس) بما ذكر. وأما زيادة: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾فإنها فائدة نافلة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم أمره وكان مجهولًا عنده، وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية (الأعراف) فيجمع بينهما.

وقد قيل: كيف يأمرهم موسى عليه السلام بإلقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداء، وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاؤوا لأجله ولا بد لهم منه، وأراد التوسل به إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه في سورة (يونس): ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1]، ومثله توسل إبراهيم صلى اللّٰه عليه وعلى نبينا وآلهما إلى إظهار حقيقة التوحيد لعبدة الكواكب من قومه لما رأى كلاً من الكوكب والقمر والشمس بازغًا فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّى ۖ﴾[2]، ثم تعقبه بما يدل على كونه لا يصح أن يكون ربًا وإسماعه إياهم بعد إبطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]»[4].

وقال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا هذا السحر العظيم ما هو؟ ولم يبيّن هل أوجس موسى في نفسه الخوف منه؟ ولكنه بيّن كل ذلك في (طه) بقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[5]، ولم يبيّن هنا أنهم تواعدوا مع موسى موعدًا لوقت مغالبته مع السحرة،

---

(١) يونس: الآيتان (٨١و٨٢).
(٢) الأنعام: الآية (٧٦)، (٧٧)، (٧٨).
(٣) الأنعام: الآية (٧٩).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٦٥-٦٦).
(٥) طه: الآيات (٦٦-٦٩).

وأوضح ذلك في سورة (طه)، في قوله عنهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾[١]»[٢].

قال الألوسي: «واستدل بالآية من قال -كالمعتزلة-: إن السحر لا حقيقة له وإنما هو مجرد تخييل، وفيه أنهم إن أرادوا أن ما وقع في القصة من السحر كان كذلك فمسلم، والآية تدل عليه، وإن أرادوا أن كل سحر تخييل فممنوع، والآية لا تدل عليه، والذي ذهب إليه جمهور أهل السنة أن السحر أقسام، وأن منه ما لا حقيقة له، ومنه ما له حقيقة، كما يشهد بذلك سحر اللعين لبيد بن الأعصم اليهودي رسولَ اللَّه -صلى اللَّه تعالى عليه وسلم-[٣]، وسحر يهود خيبر ابنَ عمر ﷺ حين ذهب ليخرص تمرهم.

وذكروا أنه قد يصل السحر إلى حد المشي على الماء والطيران في الهواء ونحو ذلك، وترتب ذلك عليه كترتب الشبع على الأكل، والري على الشرب، والإحراق على النار، والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو اللَّه تعالى. نعم قال القرطبي: أجمع المسلمون على أنه ليس من السحر ما يفعل اللَّه تعالى عند إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق الحجر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء وأمثال ذلك من آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن أنكر حقيقته استدل بلزوم الالتباس بالمعجزة، وتعقب بأن الفرق مثل الصبح ظاهر»[٤].

* * *

---

(١) طه: الآيتان (٥٨و٥٩).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣٨-٣٩).

(٣) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٩٦)، والبخاري (٦/ ٤١٢/ ٣٢٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

(٤) روح المعاني (٩/ ٢٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

★ غريب الآية:

تلقف: أي تأخذه بقوة وسرعة من الهواء. والمعنى: تَلْتَقِمُ وتَبْتَلِعُ. يقال: لَقِفَ الشيءَ يَلْقَفُهُ ويَتَلَقَّفُهُ: إذا أخذه من الهواء بسرعة.

ما يأفكون: أي: ما يكذبون. والإفك: أشدُّ الكذب، أصله: صرف الشيء عمّا يَحِقُّ أن يكون عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ذكر هنا وفي سورة (طه) أمره تعالى لموسى بالإلقاء، وفي سورة (الشعراء) أنه فعل الإلقاء الذي أمر به ولم يذكر الأمر فحذف من كل سورة ما أثبت مقابله في الأخرى، وهو من قبيل الاحتباك في السور، والإيجاز المؤدي للمعاني المتعددة بأخصر عبارة»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٧).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فوقع الحق: أي: ظهر الحق وثبت.

وبَطَلَ ما كانوا يعملون: أي: انمحى وزال؛ لأنه لا ثبات له أمام الحق. وأصل الباطل: الشيء الزائل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فظهر الحق، وتبين لمن شهده وحضره في أمر موسى، وأنه لله رسول يدعو إلى الحق، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾من إفك السحر وكذبه ومخايله»[1].

قلت: وكذلك في كل زمن يوقع الله الحق ويظهره، ويبطل الباطل وأهله، لكن شريطة أن يقوم أهل الحق بالحق ونصرته؛ كما فعل موسى ﷺ. فقيام الحق إذن مشروط بقيام أهله بالنصرة بالقلب واللسان والبنان والسيف، وكل ما أوتوه من حجج علمية ومادية.

ومتى أغفل أهل الحق الحق وتوانوا في نصرته؛ رفع الباطل رأسه وظهر على الحق، أو ليوشكن الله أن يذهب بالمتوانين في نصرة الحق، ويجيء بمن ينصر دينه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[2]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3]، وقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾[4]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[5].

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢).
(٢) محمد: الآية (٣٨).
(٣) المائدة: الآية (٥٤).
(٤) التوبة: الآية (٤٠).
(٥) محمد: الآية (٧).

قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

غُلِبُوا: أي: هُزِمُوا؛ مأخوذ من الغلبة، وهي الظفر بالعدو في حال النزاع.

صاغرين: أي: أذلاَّء مقهورين مغلوبين. والصَّغار: الذلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: فغلب فرعون وملؤه في ذلك المجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم، ضربه موسى موعدًا لهم بسؤالهم كما بين في سورة (طه): ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾(1) لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجماهير الناس، ولم يقل فغلبهم موسى؛ لأن ذلك لم يكن بكسبه وصنعه، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي: عادوا من ذلك المجمع صاغرين أذلة؛ بما رزئوا به من الخذلان والخيبة، أو صاروا ﴿صَٰغِرِينَ﴾. وإنما خص هذا بفرعون وملئه، وكان المتبادر أن يكون للسحرة أولًا وبالذات ولفرعون بالتبع أو للجميع على سواء؛ لأنه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾(2)»(3).

* * *

(١) طه: الآية (٥٩).

(٢) الأعراف: الآية (١٢٠).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وألقي السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة اللَّه، ساقطين على وجوههم، سجّدًا لربهم، يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقولون: صدّقنا بما جاءنا به موسى، وأن الذي علينا عبادته هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء، وغير ذلك، ويدبر ذلك كله، رب موسى وهارون، لا فرعون»[1].

وقال ابن عطية: «لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى، آمنوا بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة اللَّه تعالى، فخرّوا سجّدًا لله تعالى، متطارحين، وآمنوا نطقًا بألسنتهم. وتبيينهم الرب بذكر موسى وهارون زوال عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه الجهال من أنه رب الناس»[2].

وقال الرازي: «قال المتكلمون: وهذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم، وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى ﷺ خارجة عن حد السحر؛ علموا أنه من المعجزات الإلهية، لا من جنس التمويهات البشرية. ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال؛ لأنهم كانوا يقولون: لعله أكمل منا في علم السحر، فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر. فلأجل كمالهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان، فإذا كان حال علم السحر كذلك، فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد»[3].

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٤٠).
(٣) مفاتح الغيب (١٤/ ٢١٤).

قلت: هذه الملاحظة التي لاحظها المفسر الرازي في فضيلة العلم خصوصًا علم التوحيد المبني على نصوص الكتاب والسنة، ملاحظة جيدة، إذ لا شك أنه كلما قوي طالب العلم الصادق في علم التوحيد كان أثبت وأكثر يقينًا؛ لأن التوحيد هو العمود الفقري والأساس الذي تنبني عليه الشريعة وما سواه فروع له وامتداد للتطبيق العملي الذي هو نتيجة العلم بالتوحيد الذي يأخذ الإنسان ظاهرًا وباطنًا ويطبع به وتصبح أعماله على طريق اليقين، ويعلم أن المستحق للعبادة هو خالقه، لا غيره، وأن هذا المعبود اتصف بالكمال المطلق، وأن كل عظيم مهما عظمت فيه صفة من الصفات فاللَّه تعالى أعظم وأن عظمة ذلك مكتسبة وعظمة اللَّه تعالى ذاتية غير مكتسبة من أحد فهو الذي يطعم ولا يطعم وهو الذي يوجد ولم يوجده أحد وهو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فسبحان من تفرد بكل كمال وتنزه عن كل نقص وتفرد في ملكه، ونور خلقه بحكمه.

وقال: «احتجّ أهل التعليم بهذه الآية فقالوا: الدليل على أن معرفة اللَّه لا تحصل إلا بقول النبي أن أولئك السحرة لما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾لم يتم إيمانهم، فلما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تم إيمانهم، وذلك يدل على قولنا.

وأجاب العلماء عنه: بأنهم لما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال لهم فرعون: إياي تعنون، فلما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾ قال: إياي تعنون؛ لأني أنا الذي ربيت موسى، فلما قالوا: ﴿وَهَٰرُونَ﴾زالت الشبهات، وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السماء. وقيل: إنما خصهما بالذكر بعد دخولهما في جملة العالمين؛ لأن التقدير: آمنا برب العالمين، وهو الذي دعا إلى الإيمان به موسى وهارون. وقيل: خصهما بالذكر تفضيلًا وتشريفًا، كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٩٨).

(٢) مفاتح الغيب (١٤/ ٢١٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لأصلّبنّكم: الصَّلْب: هو الشَّدُّ على الخشبة وغيرها.

وما تَنْقِمُ منّا: أي: لست تكره منّا سوى أن آمنّا بالله وهو الحق. يقال: نَقَمْتُ الشيءَ ونَقِمْتُهُ، بالفتح والكسر: إذا كرهته، والفتح أفصح.

ربنا أفرغ علينا: الإفراغ: أصله: الصَّبُّ. ثم استعير للمعاني فقيل: أفرغ الله علينا الصبر. أي: جَمَّلَنَا به وجعله من أخلاقنا عند القطع والصلب.

صبرًا: الصبر: أصله الحَبْس. وهو حبس النفس عن إظهار الجزع عند المصائب، وعن الشهوات، وحبسها على فعل الأوامر واجتناب النواهي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما توعد به فرعون -لعنه الله- السحرة لما آمنوا بموسى ﷺ وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ﴾ أي: إن غَلَبَه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ﴾[1]، وهو يعلم -وكل من له لب- أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى ﷺ بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج

(١) طه: الآية (٧١).

القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدًا منهم، ولا رآه، ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[1]؛ فإن قومًا صدّقوه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] من أجهل خلق اللَّه وأضلهم...

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[3] أي: على الجذوع...

قال ابن عباس: «وكان أولَ من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون».

وقول السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب اللَّه، لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[4]، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في

---

(١) الزخرف: الآية (٥٤).
(٢) النازعات: الآية (٢٤).
(٣) طه: الآية (٧١).
(٤) طه: الآيات (٧٢-٧٥).

آخره شهداء بررة.

قال ابن عباس، وعُبيد بن عُمير، وقتادة وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء»[1].

قلت: وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، وكذلك صحابة رسول اللَّه ﷺ كانوا عبدة أوثان كفرة وانقلبوا إلى خيرة خلق اللَّه وأفضل الخلق بعد الرسل فأنزل اللَّه ثناءه عليهم في القرآن في غير ما آية وتزكية منه لهم بما يتمنى كل مسلم أن يكون في سلكهم ويسير على منوالهم، ولكن إن فاته ذلك فمحبتهم والترضي عليهم جميعًا. وكم من عالم من العلماء منّ اللَّه عليه بالهداية فانقلب من الضلال إلى الهدى؛ كالرازي والجويني وغيرهم كثير من قدامى ومعاصرين، فالعالم إذا كان صادقًا في علمه ومخلصًا فيه لكن أخطأ في منهجه وعقيدته فغالبًا ما يمنّ اللَّه عليه بالهداية إلى الصواب والحق، فكان سحرة فرعون مثلًا لكل عالم صادق أخطأ في منهجه وعقيدته.

وقال ابن عاشور: «والقرآن لم يتعرض هنا، ولا في سورة (الشعراء)، ولا في سورة (طه) للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون؛ لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة، وهو تأييد اللَّه موسى، وهداية السحرة، وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنة.

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث، كما قال في سورة (النازعات): ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[2]، فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية»[3].

قال الرازي: وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أكمل من قوله: أنزل علينا صبرًا؛ لأنا ذكرنا أن إفراغ الإناء هو صب ما فيه بالكلية، فكأنهم طلبوا من اللَّه كل الصبر لا بعضه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) النازعات: الآية (٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٥٦-٥٧).

والفائدة الثانية: أن قوله: ﴿صَبْرًا﴾ مذكور بصيغة التنكير، وذلك يدل على الكمال والتمام؛ أي: صبرًا كاملًا تامًّا، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[1]أي: على حياة كاملة تامّة.

والفائدة الثالثة: أن ذلك الصبر من قبلهم ومن أعمالهم، ثم إنهم طلبوه من اللَّه تعالى، وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل إلى بتخليق اللَّه وقضائه»[2].

وقال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾: «أي: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين. ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شرًّا محضًا سببًا للفوز بالسعادة؛ لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل اللَّه سبحانه، فوصلوا بالشر إلى الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان.

وإذا كانت المهارة في علم الشر قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا، وثبت أقدامنا على الحق، وأفرغ علينا سجال الصبر، وتوفنا مسلمين، آمين»[3].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٩٦).

(٢) مفاتح الغيب (١٤/ ٢١٨).

(٣) فتح القدير (٢/ ٣٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

★ غريب الآية:

أَتَذَرُ: أي: أتترك. ولم يستعمل منه ماضٍ ولا مصدر. وقيل: أصل ذلك من القذف؛ يقال: فلان يذر الشيءَ؛ أي: يقذفه؛ لقلة اعتداده به.

ونستحيي نساءهم: أي: نستبقيهنّ ولا نقتلهنّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أظهروه لموسى ﷺ، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض؛ أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله العجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قال بعضهم: (الواو) هنا حالية؛ أي: أتذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبيّ بن كعب: (وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك)، حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: هي عاطفة؛ أي: لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلهتك.

وقرأ بعضهم: (إلاهتك)؛ أي: عبادتك، ورُوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر. وقال في رواية أخرى: كان له جُمانة في عنقه معلقة يسجد لها.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: وآلهته -فيما زعم ابن عباس- كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلًا جسدًا.

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام؛ حذرًا من وجوده، فكان خلاف ما رامه، وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه هذا أيضًا، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم اللَّه عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده»[١].

وقال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾: وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان، قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يستطيعون إفسادًا في أرضنا، ولا خروجًا من حظيرة تعبيدنا. وفي سورة (المؤمن): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[٢]، وهو يدل على أنه كان لديه من يدافع عن موسى ممن آمن به سرًّا، وممن كان يحبه وإن لم يؤمن به؛ فقد قال تعالى له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[٣]، وفيه تصريح بما كان له في أنفس المصريين من المحبة والاحترام. وقد حكى اللَّه تعالى لنا دفاع واحد ممن آمن به فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٩-٤٦٠).

(٢) غافر: الآية (٢٦).

(٣) طه: الآية (٣٩).

(٤) غافر: الآية (٢٨).

(٥) تفسير المنار (٩/ ٨٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ من بني إسرائيل -لما قال فرعون للملإ من قومه: سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم-: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ على فرعون وقومه فيما ينوبكم من أمركم، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم من فرعون. . .

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقول: إن الأرض لله، لعل الله أن يورثكم -إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحتسبتم ذلك، واستقمتم على السداد- أرض فرعون وقومه، بأن يهلكهم ويستخلفكم فيها، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يقول: والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه، وأدى فرائضه»[1].

وقال الرازي: «فههنا أمرهم بشيئين وبشرهم بشيئين، أما اللذان أمر موسى ﷺ بهما: فالأول: الاستعانة بالله تعالى. والثاني: الصبر على بلاء الله. وإنما أمرهم أولًا بالاستعانة بالله، وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره. واستعداده بمشاهدة قضاء الله، خفف عليه أنواع البلاء. وأما اللذان بشر بهما: فالأول: قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهذا إطماع من موسى ﷺ قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث، وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف. والثاني: قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فقيل: المراد أمر

(١) جامع البيان (٩/ ٢٧).

الآخرة فقط، وقيل: المراد أمر الدنيا فقط، وهو الفتح والظفر والنصر على الأعداء، وقيل: المراد مجموع الأمرين، وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى اللَّه تعالى وخافه، فاللَّه يعينه في الدنيا والآخرة»[١].

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآيات على أن قوم فرعون لما عجزوا عن موسى في آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض، وأنه عند ذلك أوعده. وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى؛ لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته، ولهذا قال مشايخنا: إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن، التي في إيرادها إبطال أمر النبي ﷺ، إلى القتل، الذي لا يفيد ذلك، دل على عجزهم. وهكذا حال كل ضال مبتدع، إذا أعيته الحجة، عدل إلى التهديد والوعيد. وتدل على أن عند الخوف من الظَّلَمة يجب الفزع إلى اللَّه تعالى، والاستعانة به، والصبر. ولا مفزع إلا في هذين: وهو الانقطاع إلى اللَّه تعالى بطلب المعونة في الدفع، واللطف له في الصبر. وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى»[٢].

قلت: هذه الآية الكريمة التي ذكرها اللَّه عن عبده ورسوله موسى قولة عظيمة أصبحت قرآنًا يتلى يتعبد به آناء الليل وأطراف النهار، وهي من أعظم التسلية للدعاة إلى اللَّه الصادقين وينبغي أن تكون منهاجًا لكل داعية يريد بدعوته وجه اللَّه ونصرة دينه والدعوة إلى توحيده ونصرة نبيه ﷺ، فيقرن دعوته بالاستعانة باللَّه في كل لحظة، وأنه لا حول له ولا قوة. ويقرن دعوته بكامل الصبر، فإذا لم يفعل ذلك فلن يتم له مقصوده، ثم يعلم أن ما يؤول إليه الأمر من العاقبة الحسنة هو لمن استعان وصبر واتقى، مهما طالت الشدائد، وأظلمت الدنيا في وجهه، واحتلكت الظروف، وتكالب الأحزاب فرادى وجماعات ودولًا؛ فإن اللَّه ناصر دينه وعباده المخلصين الصادقين، فنرجو اللَّه أن يجعلنا منهم وأن لا يحبط لنا عملًا.

---

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٢٢١).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال قوم موسى لموسى -حين قال لهم: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾-: ﴿أُوذِينَا﴾ بقتل أبنائنا ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ يقول: من قبل أن تأتينا برسالة اللّه إلينا؛ لأن فرعون كان يقتل أولادهم الذكور حين أظله زمان موسى على ما قد بينت فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ يقول: ومن بعد ما جئتنا برسالة الله؛ لأن فرعون لما غُلبت سحرته، وقال للملأ من قومه ما قال، أراد تجديد العذاب عليهم بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

وقيل: إن قوم موسى قالوا لموسى ذلك حين خافوا أن يدركهم فرعون وهم منه هاربون، وقد تراءى الجمعان فقالوا له: يا موسى! ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ كانوا يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا»[٢].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) جامع البيان (٩/ ٢٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: قال موسى لقومه: لعل ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾، يقول: يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، لا تخافونهم، ولا أحدًا من الناس غيرهم، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾يقول: فيرى ربكم ما تعملون بعدهم من مسارعتكم في طاعته، وتثاقلكم عنها»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم مسؤولية الاستخلاف في الأرض وما في ذلك من حض على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**». وفي حديث ابن بشّار: «**لينظر كيف تعملون**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معنى «**مستخلفكم فيها**»: جاعلكم خلفاء من القرون الذين من قبلكم»[٤].

وقال القاري: «أي: أنتم بمنزلة الوكلاء في التصرف فيها، وإنما هي في الحقيقة لله تعالى. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾أي: تتصرفون، أو معناه: جاعلكم

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٩). (٢) جامع البيان (٩/ ٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢)، ومسلم (٥/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٢١٩١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٤٠٠٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٦٩).

(٤) شرح مسلم (٦/ ٢٦٧).

خلفاء من كان قبلكم، وقد أعطى ما في أيديهم إياكم، فكيف تعتبرون بحالهم، وتتدبرون في مآلهم. وقال الطيبي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: الاستخلاف: إقامة الغير مقام نفسه؛ أي: جعل اللَّه الدنيا مزينة لكم ابتلاءً هل تتصرفون فيها كما يحب ويرضى، أو تسخطونه وتتصرفون فيها بغير ما يحب ويرضى»[2].

قلت: وقوله في هذا الحديث: «فناظر كيف تعملون» فيه حض على العزم على الشكر عند حلول النعم، وذلك نظير قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال أبو حيان: «وهي جملة تجري مجرى البعث والتحريض على طاعة اللَّه تعالى»[3].

وفيه من الفوائد: التحذير من الاغترار بالدنيا، والافتتان بزينتها وزخرفها. وقد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾. الآية (١٤) من سورة (آل عمران)، فليراجع، وباللَّه التوفيق.

وفيه تنبيه على أهمية «الاتعاظ، وأخذ العبرة من الأمم السابقة؛ فإن ما حصل لبني إسرائيل يحصل لغيرهم إذا تعاطوا أسبابه»[4].

* * *

---

(١) انظر كلامه في الكاشف (٧/ ٢٢٦٠).

(٢) المرقاة (٦/ ٢٦٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٤) انظر «نزهة المتقين» (ص: ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

السنين: جمع سنة، وهي الحول القحط المجدب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه، على ما هم عليه من الضلالة ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾، يقول: بالجدوب سنة بعد سنة والقحوط، يقال منه: أسنَتَ القومُ: إذا أجدبوا، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾يقول: واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾يقول: عظة لهم، وتذكيرًا لهم؛ لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة»[(١)].

وقال الرازي: «ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية، وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب، وترغب فيما عند الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «وفي هذه الآية تنبيه للأمة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله؛ فإن سلب النعمة للمنعم عليهم تنبيه لهم على استحقاقهم إعراض الله تعالى عنهم»[(٥)].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٢٨).
(٢) الإسراء: الآية (٦٧).
(٣) فصلت: الآية (٥١).
(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢٤).
(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٦٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يطيروا: يتشاءموا. وأصل التطير أن العرب كانت تزجر الطير إذا أرادت أمرًا، فإن أخذ جهة اليسار تشاءمت، وإن أخذ جهة اليمين تفاءلت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة؛ أي: قحط وجدب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ما جاءنا هذا الجدب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبينا ﷺ في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾[1]، وذكر نحوه أيضًا عن قوم صالح مع صالح في قوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[2]، وذكر نحو ذلك أيضًا عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾[3]، وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم ومعاصيهم، لا من قبل الرسل، قال في (الأعراف): ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، وقال في سورة (النمل) في قوم صالح: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[4]، وقال في (يس): ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾[5]»[6].

قال الرازي: «بيّن تعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم، يقدمون على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ قال ابن

---

(١) النساء: الآية (٧٨).
(٢) النمل: الآية (٤٧).
(٣) يس: الآية (١٨).
(٤) النمل: الآية (٤٧).
(٥) يس: الآية (١٩).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٣٩).

عباس: يريد بالحسنة: العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة، و﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا، ولم يعلموا أنه من اللَّه فيشكروه عليه، ويقوموا بحق النعمة فيه. وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يريد القحط والجدب والمرض والضر والبلاء، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: يتشاءموا به. ويقولوا: إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه، والتطير: التشاؤم، في قول جميع المفسرين، وقوله: ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ هو في الأصل: يتطيروا، أدغمت التاء في الطاء؛ لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الطائر قولان: القول الأول: قال ابن عباس: يريد شؤمهم عند اللَّه تعالى؛ أي: من قِبل اللَّه؛ أي: إنما جاءهم الشر بقضاء اللَّه وحكمه، فالطائر ههنا: الشؤم. ومثله قوله تعالى في قصة ثمود: ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا، قال الأزهري: وقيل للشؤم: طائر وطير وطيرة؛ لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيرًا وطائرًا وطيرة؛ لتشاؤمهم بها. ثم أعلم اللَّه تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة فقال: «**لا طيرة ولا هام**»[2]، وكان النبي ﷺ يتفاءل، ولا يتطير[3]. وأصل الفأل: الكلمة الحسنة، وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة، قال محمد الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا بد من ذكر فرق بين البابين. والأقرب أن يقال: إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية. فالكلمة التي تجري على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير، وحركات البهائم، فإن أرواحها ضعيفة، فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال. القول الثاني في تفسير الطائر: قال

---

(١) النمل: الآية (٤٧).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٢٦٥/ ٥٧٥٧)، ومسلم (٤/ ١٧٤٤/ ٢٢٢٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٦/ ٧٥٩٢).

(٣) أخرجه من حديث بريدة ﷺ: أحمد (٥/ ٣٤٧-٣٤٨)، وأبو داود (٤/ ٢٣٦/ ٣٩٢٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٥٤/ ٨٨٢٢)، وصححه ابن حبان (١٣/ ١٤٢/ ٥٨٢٧) (الإحسان).

أبو عبيدة: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: حظهم. وهو ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم، والعرب تقول: أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه؛ أي: حصل له ذلك السهم. واعلم أن على كلا القولين المعنى أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء اللَّه تعالى وبتقديره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن الكل من اللَّه تعالى؛ وذلك لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة، ويقطعونها عن قضاء اللَّه تعالى وتقديره، والحق أن الكل من اللَّه.. فإسنادها إلى غير اللَّه يكون جهلًا بكمال اللَّه تعالى»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «وفي الآية من نكت البلاغة أنه عبر عن مجيء الحسنة بـ(إذا) الدالة على تحقق الوقوع، وعرفها لإفادة أنها الأصل الثابت الغالب بغلبة رحمة اللَّه وفضله على سخطه وعقابه، وعبر بإصابة السيئة بـ(إن) التي هي أداة الشك؛ أي: إن شرطها مشكوك في وقوعه، وإما منزل منزلة المشكوك فيه؛ لندرته أو لسبب آخر، وذكر السيئة لإفادة أن وقوعها قليل، وخلاف الأصل الغالب، وأفاد بالتعبيرين أن القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات، وأن الحسنة على عظمتها وكثرتها ما زادتهم إلا غرورًا بحالهم، وتماديًا في ظلمهم، وإصرارًا على بغيهم، وأن السيئة لم تفدهم عظة ولا عبرة، ولم تحدث لهم توبة»[٢].

قال أبو السعود: «وهذا -أي: دعواهم استحقاق الحسنات، وتشاؤمهم بموسى عند حلول ونزول النقمات بهم- كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم، ونهاية جهلهم وغباوتهم، فإن الشدائد ترقق القلوب، وتلين العرائك، لا سيما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها، بل ازدادوا عتوًّا وعنادًا»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التطير وبيان أنه من الشرك

* عن عبد اللَّه بن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ قال: «الطيرة شرك، ثلاثًا. وما منا

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢٤-٢٢٥).
(٢) المنار (٩/ ٨٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٤).

إلا ، ولكن اللَّه يذهبه بالتوكل»[1] .

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث من الفقه تحريم التطير ، وأنه نوع من أنواع الشرك . وسيأتي تفصيل هذه المسألة عند قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ الآيتان (١٨و١٩) من سورة (يس) ، وباللَّه التوفيق .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (١/ ٤٣٨)، وأبو داود (٤/ ٢٣٠/ ٣٩١٠)، والترمذي (٤/ ١٣٧-١٣٨/ ١٦١٤) وقال : «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١١٧٠/ ٣٥٣٨)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤٩١/ ٦١٢٢)، والحاكم (١/ ١٨) وقال : «حديث صحيح سنده، ثقات رواته».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق، وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أيّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به»[٢].

وقال: «وهكذا أخبر اللَّه عنهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦١).

(٣) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٤) البداية والنهاية (١/ ٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الطوفان: السيل المغرق.

القمل: واحده: قملة، معروف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى الطوفان: فقال بعضهم هو الماء، . . . وقال آخرون: بل هو الموت، . . . وقال آخرون: بل ذلك كان أمرًا من اللَّه طاف بهم، . . . والصواب من القول في ذلك عندي، ما قاله ابن عباس على ما رواه عنه أبو ظبيان، أنه أمر من اللَّه طاف بهم، وأنه مصدر من قول القائل: طاف بهم أمر اللَّه يطوف طوفانًا، كما يقال: نقص هذا الشيء ينقص نقصانًا، وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد، وجاز أن يكون الموت الذريع، . . .

وأما القمل فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، . . . وقال آخرون: بل هو الدَّبَى، وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له، . . . وقال آخرون: بل القمل البراغيث»(١).

قال الماوردي: «وأما الدم ففيه قولان: أحدها: أن ماء شربهم كان يصير دمًا عبيطًا، فكان إذا غرف القبطي من الماء صار دمًا، وإذا غرف الإسرائيلي كان ماءً، والثاني: أنه رعاف كان يصيبهم، قاله زيد بن أسلم»(٢).

---

(١) جامع البيان (٩/ ٣٠-٣٣).

(٢) النكت والعيون (٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ فإن معناه: علامات ودلالات على صحة نبوة موسى، وحقية ما دعاهم إليه، مفصّلات: قد فُصِلَ بَيْنَها، فجعل بعضها يتلو بعضًا، وبعضها في إثر بعض»[1].

وقال ابن عطية: «وهذه عقوبات وأنواع من العذاب، بعثها اللَّه عليهم ليزدجروا وينيبوا»[2].

وأما قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ فقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاستكبر هؤلاء الذين أرسل اللَّه عليهم ما ذكر في هذه الآيات، من الآيات والحجج، عن الإيمان باللَّه، وتصديق رسوله موسى ﷺ، واتباعه على ما دعاهم إليه، وتعظموا على اللَّه وعتوا عليه، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ يقول: كانوا قومًا يعملون بما يكرهه اللَّه من المعاصي والفسق، عتوًّا وتمرّدًا»[3].

قال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر، وجهلهم، حيث عاهدوا في كل آية يأتي بها على صدقه، وإثبات العهد أنهم لا يؤمنون بها، وليس هذا عادة مَنْ غرضه الحق، وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها، وتدل على وجوب التدبر في الآيات»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان حكم قتل الجراد والضفادع وغير ذلك

* عن أبي زهير النميري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقتلوا الجراد؛ فإنه جند اللَّه الأعظم»[5].

★ **فوائد الحديث:**

احتج بهذا الحديث من ذهب إلى أن الجراد لا يقتل إذا حل بأرض قوم وإن

---

(١) جامع البيان (٩/ ٣٩).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٤٣).
(٣) جامع البيان (٩/ ٤٠).
(٤) محاسن التأويل (٧/ ٢٣٨).
(٥) أخرجه: الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٩٧/ ٧٥٧)، وفي مسند الشاميين (٢/ ٤٣٨/ ١٦٥٦)، وفي الأوسط (١٠/ ١٢٨/ ٩٢٧٣)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٣٢/ ١٠١٢٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٨٨-١٧٨٩/ ١٢٩٣). والحديث حسنه الألباني لشواهده، انظر «السلسلة الصحيحة» (٢٤٢٨).

أفسد، وقالوا: هو خلق عظيم من خلق اللَّه، يأكل من رزق اللَّه ولا يجري عليه القلم. **قال القرطبي**: «وقال أهل الفقه كلهم: يقتل، . . . واحتجّوا بأن في تركها فساد الأموال، وقد رخص النبي ﷺ بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله، فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أولى أن يجوز قتلها، ألا ترى أنهم قد اتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب لأنهما يؤذيان الناس؟ فكذلك الجراد»(١).

قلت: وعلى هذا فالنهي عن قتله محمول -واللَّه أعلم- على إذا ما لم يتعرض للمزارع والمحاصل بالفساد؛ **قال البيهقي**: «وهذا إن صح، فإنما أراد به -واللَّه أعلم- إذا لم يتعرض لإفساد المزارع، فإذا تعرض له، جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل، أو المراد به تعذر مقاومته بالقتال والقتل»(٢).

* عن عبدالرحمن بن عثمان: «**أن طبيبًا سأل النبي ﷺ عن ضفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «في هذا دليل على أن الضفدع محرم الأكل، وأنه غير داخل فيما أبيح من دواب الماء.

فكل منهي عن قتله من الحيوان، فإنما هو لأحد أمرين: إما لحرمته في نفسه كالآدمي، وإما لتحريم لحمه، كالصرد والهدهد ونحوهما، وإذا كان الضفدع ليس بمحترم كالآدمي، كان النهي فيه منصرفًا إلى الوجه الآخر»(٤).

قال المناوي: «نهى عن قتلها، لا لحرمتها، بل لنجاستها أو لقذارتها ونفرة الطبع منها، أو أنه عرف منها من المضرة فوق ما عرفه الطبيب من المنفعة»(٥).

* عن أبي يعفور قال: سألت عبد اللَّه بن أبي أوفى عن الجراد فقال: «غزونا مع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٨).

(٢) البيهقي في الشعب (٧/ ٢٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٣)، وأبو داود (٤/ ٢٠٣-٢٠٤/ ٣٨٧١)، والنسائي (٧/ ٢٣٩/ ٤٣٦٦)، والحاكم (٤/ ٤١٠-٤١١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) معالم السنن (٥/ ٣٥٦) مختصر المنذري.

(٥) فيض القدير (٦/ ٤٣٦).

النبي ﷺ سبع غزوات أو ستًّا كنا نأكل معه الجراد»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «**أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فيه إباحة الجراد، وأجمع المسلمون على إباحته»[٣].

قال الحافظ: «قد أجمع العلماء على جواز أكله بغير تذكية، إلا أن المشهور عند المالكية اشتراط تذكيته، واختلفوا في صفتها فقيل: بقطع رأسه، وقيل: إن وقع في قدر أو نار حل، وقال ابن وهب: أخذه ذكاته، ووافق مطرف منهم الجمهور، في أنه لا يفتقر إلى ذكاته، لحديث ابن عمر: «**أحلت لنا ميتتان السمك والجراد، والكبد والطحال**» أخرجه أحمد والدارقطني مرفوعًا، وقال: إن الموقوف أصح، ورجح البيهقي أيضًا الموقوف، إلا أنه قال: إن له حكم الرفع»[٤].

وقال الصنعاني في حديث ابن عمر: «يدل على حل ميتة الجراد، على أيِّ حال وجدت، فلا يعتبر في الجراد شيء، سواء مات حتف أنفه أو بسبب، والحديث حجة على من اشترط موتها بسبب عادي، أو بقطع رأسها وإلا حرمت»[٥].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٣)، والبخاري (٩/ ٧٧٤/ ٥٤٩٥)، ومسلم (٣/ ١٥٤٦/ ١٩٥٢)، وأبو داود (٤/ ١٦٤/ ٣٨١٢)، والترمذي (٤/ ٢٣٦/ ١٨٢١-١٨٢٢)، والنسائي (٧/ ٢٣٩/ ٤٣٦٧).

(٢) أخرجه مرفوعاً: أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١١٠١-١١٠٢/ ٣٣١٤)، وعبد بن حميد (رقم ٨٢٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١١/ ٢٤٤/ ٢٨٠٣)، والدارقطني (٤/ ٢٧١-٢٧٢). وأخرجه البيهقي (١/ ٢٥٤) موقوفاً وقال: «هذا إسناد صحيح، وهو في معنى المسند»، وأخرجه أيضاً مرفوعاً وقال: «إلا أن الصحيح من هذا الحديث هو الأول» -يعني الموقوف-. وذكر الدارقطني في «العلل» (١١/ ٢٦٦-٢٦٧) أن الموقوف هو الصواب، قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٣٩٢): «وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: «أحل لنا كذا، وحرم علينا . .» ينصرف إلى إحلال النبي ﷺ وتحريمه».

(٣) شرح مسلم (٧/ ٣٢).

(٤) فتح الباري (٩/ ٧٧٤).

(٥) سبل السلام (١/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

الرجز: العذاب الشديد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ ولما نزل بهم عذاب اللَّه وحل بهم سخطه، ثم اختلف أهل التأويل في ذلك الرجز الذي أخبر اللَّه أنه وقع بهؤلاء القوم، فقال بعضهم: كان ذلك طاعونًا... وقال آخرون: هو العذاب... وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز، وهو العذاب والسخط من اللَّه عليهم فزعوا إلى موسى بمسألته ربه كشف ذلك عنهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ لأن كل ذلك كان عذابًا عليهم، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان طاعونًا، ولم يخبرنا اللَّه أيّ ذلك كان، ولا صح عن رسول اللَّه ﷺ بأي ذلك كان خبرٌ فنسلم له، فالصواب أن نقول فيه كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، ولا نتعداه إلا بالبيان الذي لا تمانع فيه بين أهل التأويل، وهو لما حل بهم عذاب اللَّه وسخطه ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ يقول: بما أوصاك وأمرك به، وقد بينا معنى العهد فيما مضى، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ يقول: لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ يقول: لنصدقن بما جئت به ودعوت إليه، ولنقرّنّ به لك، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول: ولنخلّينّ معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم أن يذهبوا حيث شاؤوا»[1].

(١) جامع البيان (٩/ ٤٠-٤١) باختصار.

واختار الرازي أن الرجز هو الأنواع الخمسة المذكورة، قال: «ثم إنهم اختلفوا في المراد بهذا الرجز، فقال بعضهم: إنه عبارة عن الأنواع الخمسة المذكورة من العذاب الذي كان نازلًا بهم. وقال سعيد بن جبير: الرجز معناه: الطاعون، وهو العذاب الذي أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان في يوم واحد، فتركوا غير مدفونين. واعلم أن القول الأول أقوى؛ لأن لفظ (الرجز) لفظ مفرد محلى بالألف واللام فينصرف إلى المعهود السابق، وههنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدم ذكرها، وأما غيرها فمشكوك فيه، فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى بين ما كانوا عليه من المناقضة القبيحة؛ لأنهم تارة يكذبون موسى ﷺ، وأخرى عند الشدائد يفزعون إليه فزع الأمة إلى نبيها، فيسألونه: أي: يسأل ربه رفع ذلك العذاب عنهم، وذلك يقتضي أنهم سلموا إليه كونه نبيًّا مجاب الدعوة، ثم بعد زوال تلك الشدائد يعودون إلى تكذيبه والطعن فيه، وأنه إنما يصل إلى مطالبه بسحره، فمن هذا الوجه يظهر أنهم يناقضون أنفسهم في هذه الأقاويل»[1].

وقال أبو حيان: «وفي قولهم: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ دلالة على أنه طلب منهم الإيمان، كما أنه طلب منهم إرسال بني إسرائيل، وقدموا الإيمان؛ لأنه المقصود الأعظم الناشئ منه الطواعية، وفي إسناد الكشف إلى موسى حيدة عن إسناده إلى اللّٰه تعالى؛ لعدم إقرارهم بذلك»[2].

قال ابن عاشور: «وليس قولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بإيمان باللّٰه ورسالة موسى، ولكنهم كانوا مشركين وكانوا يجوزون تعدد الآلهة، واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى رب له تصرف وقدرة، وأنه أصابهم بالمصائب؛ لأنهم أضروا عبيده، فسألوا موسى أن يكف عنهم ربه، ويكون جزاءه الإذن لبني إسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربهم»[3].

---

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٢٢٨-٢٢٩).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٧٤).
(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٧٢).

وقال: «ووعدُهم بالإيمان لموسى وعد بالإيمان بأنه صادق في أنه مرسل من رب بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر، وليس وعدًا باتباع الدين الذي جاء به موسى عليه السلام؛ لأنهم مكذبون به في ذلك وزاعمون أنه ساحر يريد إخراج الناس من أرضهم ولذلك جاء فعل الإيمان متعلقًا بموسى، لا باسم اللَّه، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنهم أن الرب الذي يدعو إليه موسى هو رب خاص به وبقومه، كما دل عليه قوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾، وقد وضحوا مرادهم بقولهم: ﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾»[1].

* * *

(١) المصدر نفسه (٩/ ٧٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ينكثون: النكث: نقض العهد الذي يلزم الوفاء به.

اليم: البحر.

وكانوا عنها غافلين: الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله، وتصديق رسوله، مع ما أُيّد به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التي أراهم الله إياها عيانًا، وجعلها عليهم دليلًا وبرهانًا. وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمننّ به وليرسلنّ معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق، ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون فيكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]، فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل هذا، والعظيم الحليم القدير ينظرهم، ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم، ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالًا وسلفًا لمن أشبههم من

(١) الأعراف: الآية (١٣٤).

الكافرين، ومثلًا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين، كما قال تبارك وتعالى -وهو أصدق القائلين- في سورة (حم والكتاب المبين): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[١]»[٢].

* * *

(١) الزخرف: الآيات (٤٦-٥٦).

(٢) البداية والنهاية (١/ ٢٤٩-٢٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾(٣)»(٤).

وقال ابن عاشور: «والقوم الذين كانوا يستضعفون هم بنو إسرائيل، كما وقع في الآية الأخرى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٥)، وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة، إلى تعريفهم بطريق الموصلية؛ لنكتتين:

أولاهما: الإيماء إلى علة الخبر، أي أن اللَّه ملكهم الأرض، وجعلهم أمة حاكمة، جزاءً لهم على ما صبروا على الاستعباد غيرة من اللَّه على عبيده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد ﷺ، بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاءً على صبرهم على الأذى في اللَّه، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم»(٦).

وقال أبو السعود: «والجمع بين صفتي الماضي والمستقبل -أي: في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾- للدلالة على استمرار الاستضعاف

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٢) القصص: الآيتان (٥و٦).
(٣) الدخان: الآيات (٢٥-٢٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦٦).
(٥) الشعراء: الآية (٥٩).
(٦) التحرير والتنوير (٩/ ٧٦).

وتجدده، وهم بنو إسرائيل، ذُكروا بهذا العنوان؛ إظهارًا لكمال لطفه تعالى بهم، وعظيم إحسانه إليهم، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على فضل الشام وفضل أهله

* عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع فقال رسول اللَّه ﷺ: «**طوبى للشأم**»، فقلنا: لأيّ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

نؤلّف: من التأليف؛ أي: نجمع.

الرقاع: جمع رقعة، وهي ما يكتب فيه.

طوبى: اسم الجنة، وقيل: هي شجرة في الجنة، وأصلها: فُعْلى، من الطيب، طوبى لك: أي أصبت خيرًا وطيبًا، والمقصود بها هنا الطيب، لا الجنة.

الشام: بلاد عن مشأمة القبلة وسميت لذلك، أو لأن قومًا من بني كنعان تشاءموا إليها؛ أي: تياسروا، أو لأن أرضها شامات بيض وحمر وسود. وهي الآن بلاد سوريا والأردنّ ولبنان وفلسطين تقريبًا.

* عن ابن حوالة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنودًا مجندة، جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق**» قال ابن حوالة: خِرْ لي يا رسول اللَّه إن أدركت ذلك، فقال: «**عليك بالشام! فإنها خيرة اللَّه من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم، فعليكم بيمنكم! واسْقُوا مِنْ غُدَرِكُمْ، فإن اللَّه توكل لي بالشام وأهله**»[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٥)، والترمذي (٥/ ٦٩٠/ ٣٩٥٤) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان (١٦/ ٢٩٣/ ٧٣٠٤) والحاكم (٢/ ٢٢٩) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. قلت: لكن فيه ابن شماسة، وليس من رجالهما، وإنما هو من رجال مسلم، فالحديث على شرط مسلم.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٠)، وأبو داود (٣/ ١٠/ ٢٤٨٣) واللفظ له، وصححه ابن حبان (١٦/ ٢٩٥/ ٧٣٠٦) والحاكم (٤/ ٥١٠) ووافقه الذهبي.

★ **غريب الحديث:**

خِر لي: من الخِيَرة بمعنى الاختيار؛ أي: اختر لي جندًا ألزمه.

غُدَركم: جمع غدير، وهو الحوض.

توكل: ضمِن حفْظها وحِفْظ أهلها من الكفار وشرهم.

* **عن قرة عن النبي ﷺ قال: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»**[1].

★ **غريب الحديث:**

خذلهم: أي: ترك نصرتهم ومعاونتهم.

حتى تقوم الساعة: أي: يقرب قيامها؛ لأن الساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول: اللَّه.

* **عن ابن عمر قال: ذكر النبي ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يَمَننا»، قالوا: يا رسول الله! وفي نجدنا، قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا» قالوا: يا رسول الله! وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: «هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»**[2].

★ **غريب الحديث:**

الشام واليمن: سميت اليمن لأنها عن يمين الكعبة، والشام عن يسار الكعبة، والمشأمة: الميسرة.

نجد: نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة. وأصل نجد: ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور فإنه ما انخفض منها، فنجد ليس مكانًا مخصوصًا بعينه، واللَّه أعلم.

الزلازل: أي: الحسية والمعنوية، وهي تزلزل القلوب واضطراب أهلها.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٦)، والترمذي (٤/ ٤٢٠/ ٢١٩٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٨و١٢٦)، والبخاري (١٣/ ٥٧/ ٧٠٩٤)، والترمذي (٥/ ٦٨٩/ ٣٩٥٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

الفتن: البلايا والمحن الموجبة لضعف الدين وقلة الديانة.

قرن الشيطان: حزبه وأهل وقته وزمانه وأعوانه. فكان أولُ الفتن ظهورًا من جهة المشرق، فكان ذلك سببًا للفرقة بين المسلمين، وكل ذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به. وكذلك البدع المختلفة نشأت من تلك الجهة.

* عن عبد اللَّه بن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ستخرج نار من حضرموت، أو من نحو حضرموت، قبل يوم القيامة تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله! فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام**»[1].

★ غريب الحديث:

ستخرج نار: هي نار حقيقية، وهي علامةٌ من علامات الساعة.

حضرموت: بلدة قرب عدن باليمن، والنسبة إليها: حضرمي.

تحشر الناس: تجمعهم وتسوقهم.

* عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني رأيت كأن عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام**»[2].

★ غريب الحديث:

رأيت: أي: في المنام.

عمود: أسطوانة.

نور ساطع: رافع لامع واصل أثره في الآفاق.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٨)، والترمذي (٤/ ٤٣١/ ٢٢١٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث ابن عمر»، وصححه ابن حبان (١٦/ ٢٩٤/ ٧٣٠٥).

(٢) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢)، والحاكم (٤/ ٥٠٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وتعقبهما الشيخ الألباني في «تخريج أحاديث فضائل الشام» (ص: ١٥) بقوله: «وقد وهما في قولهما: إنه على شرطهما؛ وإنما هو صحيح فقط؛ لأن في السند يونس بن ميسرة بن حلبس، ولم يخرج له الشيخان شيئاً، وهو ثقة». وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٥٨) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد، وفي أحدهما ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وقد توبع على هذا، وبقية رجاله رجال الصحيح».

عُمِد به: ذهب به وقصد به.

الفتنة: المحنة والابتلاء والجمع: فتن.

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد: فضائل عظيمة ظاهرة للشام وأهله ودليل على أنها أرض مباركة، وهي شاهدة بالقوة لقول من قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ أرض الشام وحدها شرقها وغربها، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما، قال ابن عطية: «وقال أبو جعفر النحاس: وقيل: يراد أرض مصر، وهو قول الحسن في كتاب النقاش، وقالت فرقة: يريد الأرض كلها، قال القاضي أبو محمد: . . . ولكن الذي يليق بمعنى الآية وما رُوي فيها هو أنه مَلَّكَ أبناء المستضعفين بأعيانهم مشارق الأرض ومغاربها، لا سيما بوصفه الأرض بأنها التي بارك فيها، ولا يتصف بهذه الصفة، وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض الشام، لما بها من الماء والشجر والنعم والفوائد»[1].

قلت: وقد دلت هذه الأحاديث على فضل الشام وفضل أهله من وجوه:

الأول: أن النبي ﷺ دعا لها بالبركة مع ما دلت عليه نصوص الكتاب العزيز من أنها أرض مباركة، بارك اللَّه فيها. قال شيخ الإسلام: «ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب اللَّه تعالى: قوله تعالى في قصة موسى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[2]، ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغاربها بعد أن أغرق فرعون في اليم، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[3] وحوله أرض الشام، وقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٤٦).

(٢) الأعراف: الآيات (١٢٩-١٣٧).

(٣) الإسراء: الآية (١).

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[١]، ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه اللَّه ولوطًا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والفرات، وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[٢]، وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان، وقوله تعالى في قصة سبإ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾[٣]، وهما كانا بين اليمن مساكن سبأ، وبين منتهى الشام من العمارة القديمة، كما قد ذكره العلماء، فهذه خمس نصوص حيث ذكر اللَّه أرض الشام، في هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول إليها، وانتقال بني إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبأ إليها: وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها»[٤].

وقال القاري في بيان وجه دعائه ﷺ للشام بالبركة مع ما علم في الكتاب من أنها أرض مباركة: «لعل تقديمه على اليمن مشير إلى أنه مبارك في أصله لقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ولوجود كثير من الأنبياء فيه، فالمراد زيادة البركة، أو البركة الحاصلة لأهل المدينة، وسائر المؤمنين على الخصوص»[٥].

الثاني: أن النبي ﷺ حث على سكنى الشام، وأخبر بتكفل اللَّه تبارك وتعالى لمن سكنه من أهل الإسلام.

قال القاري في قوله: «إن اللَّه قد توكل لي بالشام»: «قال القاضي: أراد بالتوكل: التكفل؛ فإن من توكل في شيء، فقد تكفل بالقيام به، والمعنى: أن اللَّه ضمن لي حفظها وحفظ أهلها من بأس الكفرة واستيلائهم بحيث يتخطفهم ويدمرهم بالكلية»[٦].

الثالث: أن اللَّه ﷻ اختصه عن غيره من البلدان بما بُسِط عليه من أجنحة ملائكة الرحمن.

قال المناوي: «أي أن ملائكة البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٧٠و٧١).
(٢) الأنبياء: الآية (٨١).
(٣) سبأ: الآية (١٨).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥٠٥-٥٠٦).
(٥) المرقاة (١٠/ ٦٣٩).
(٦) المرقاة (١٠/ ٦٤٥).

تحفها وتحوطها بإنزال البركات ودفع المهالك والمؤذيات»[١].

وقال القاري في قوله: «ملائكة الرحمن»: «فيه إيماء إلى أن المراد بهم ملائكة الرحمة «**باسطة أجنحتها عليها**» أي: على بقعة الشام وأهلها بالمحافظة عن الكفر[٢]»[٣].

الرابع: أن النبي ﷺ أخبر أن الإيمان يكون بالشام عند وقوع الفتن، وكون الملاحم العظام، وأن بقية المؤمنين ينحازون إليها في آخر الزمان، وأن أهلها يتمسكون بالطاعة، ويعتصمون بلزوم السنة والجماعة، وأن بها طائفة منصورة إلى قيام الساعة.

قال المناوي: «تكون الشام زمن الفتن محل أمن، وأهل الإسلام بها أسلم»[٤].

الخامس: **قال شيخ الإسلام**: «ومن ذلك أنها خيرة اللَّه من الأرض، أن أهلها خيرة اللَّه وخيار أهل الأرض، واستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديثين، حديث عبد اللَّه بن خوالة الأزدي عن النبي ﷺ قال: **«ستجندون أجنادًا: جندًا بالشام، وجندًا باليمن، وجندًا بالعراق، فقال الخوالي: يا رسول الله! اختر لي، قال: عليك بالشام، فإنها خيرة اللَّه من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فمن أبى فليلحق بيمنه، وليتق من غدره، فإن اللَّه قد تكفل لي بالشام وأهله»**[٥]، وكان الخوالي يقول: ومن تكفل اللَّه به فلا ضيعة عليه، ففي هذا الحديث مناقب: أنها خيرة، وحديث عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ قال: **«ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم، تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيث ما باتوا، وتقيل معهم حيث ما قالوا»**[٦] فقد أخبر أن خير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، بخلاف من يأتي إليه أو يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام،

---

(١) فيض القدير (٤/ ٣٦١).

(٢) لو كانت العبارة: «بالمحافظة من الكفر» لكان أوضح، والمعنى: حفظهم عن أن يقعوا في الكفر.

(٣) المرقاة (١٠/ ٦٤١). (٤) فيض القدير (٤/ ٣١٩).

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو ﷺ: أحمد (٢/ ٨٤)، وأبو داود (٣/ ٩-١٠/ ٢٤٨٢)، والحديث ضعيف السند لكن صححه الشيخ الألباني بطريق آخر وشاهد ذكرهما في السلسلة الصحيحة (٣٢٠٣).

وفي هذا الحديث بشرى لأصحابنا الذين هاجروا من حران وغيرها إلى مهاجر إبراهيم، واتبعوا ملة إبراهيم ودين نبيهم محمد ﷺ تسليمًا، وبيان أن هذه الهجرة التي لهم، بعد هجرة أصحاب رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة؛ لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره، وقد جعل مهاجر إبراهيم يعدل لنا مهاجر نبينا ﷺ، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة»[١].

وقال الطيبي في قوله ﷺ: «عليك بالشام فإنها خيرة اللَّه من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده»: «يعني أن الشام مختار اللَّه من الأرض، فلا يختارها إلا خيرة اللَّه من عباده، فإن أبيتم أيها العرب ما اختاره اللَّه تعالى، واخترتم بلادكم ومسقط رأسكم من البوادي، فالزموا يمنكم، واسقوا من غدرها؛ لأنه أوفق لكم من البوادي، ألا ترى كيف جمع الضميرين في القرينتين، بعد أن أفرده في قوله: «**عليكم بالشام**» فعلم من هذا أن الشام أولى بالاختيار، واليمن عند الاضطرار»[٢].

السادس: أن النبي ﷺ نفى الخير عن أهل الإسلام، عند وجود فساد أهل الشام.

قال ابن العربي: «وأما مدحه للشام عند الفتنة، فلأنه كان مأوى الجهاد والرباط، فإذا فسد أهله فسد الناس كلهم؛ لأنهم إذا تركوا الجهاد ذلّوا»[٣].

السابع: أنها أرض المحشر والنشر.

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٢) شرح الطيبي (١٢/ ٣٩٦٢).

(٣) عارضة الأحوذي (٩/ ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعرشون: يبنون. يقال: عُرْشُ مكّة؛ أي: بناؤها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فإنه يقول: وفي وعد اللَّه الذي وعد بني إسرائيل بتمامه على ما وعدهم من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوهم فرعون. و(كلمته الحسنى): قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[1] . . .

وأما قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾؛ فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ يقول: وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كله، وخرّبنا جميع ذلك»[2].

قال محمد رشيد رضا: «والعبرة في هذه الآيات. . . أن يتفكر تالي القرآن في تأثير الإيمان والوحي في موسى وهارون عليهما السلام؛ إذ تصديا لأعظم ملك في أعظم دولة في الأرض قاهرة لقومهما ومعبدة لهم في خدمتها منذ قرون كثيرة، فدعَواه إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتعبيد بني إسرائيل وأنذراه وهدداه، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات البينات حتى أظفرهما اللَّه تعالى به

---

(١) القصص: الآيتان (٥و٦).

(٢) جامع البيان (٩/ ٤٣-٤٤).

وأنقذا قومهما من ظلمه وظلم قومه.

فجدير بالمؤمنين باللَّه تعالى ورسله من المسلمين أن ينتقلوا من التفكر في هذا إلى التفكر في وعد اللَّه تعالى للمؤمنين بالنصر، كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم، وأن لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم؛ فإن قوة الحق التي نصرها اللَّه تعالى برجل أو رجلين على أعظم الدول لا تُغلب إذا نصرنا اللَّه ونحن مئات الملايين، واللَّه تعالى يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[1]، ويقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) محمد: الآية (٧).

(٢) الروم: الآية (٤٧).

(٣) تفسير المنار (٩/ ١٠١-١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جاوزنا: تَعَدَّيْنَا. يقال: جُزْتُ البلَدَ وجاوَزْتُهُ: إذا تَعَدَّيْته وخَلَّفْته ورائي.

البحر: أصله المكان المتسع ذو الماء العظيم.

يعكفون: العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهموها، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى، فلم تزجرهم تلك الآيات، ولم تعظهم تلك العبر والبينات، حتى قالوا -مع معاينتهم من الحجج ما يحق أن يذكر معها البهائم، إذ مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، يقومون على مُثُل لهم يعبدونها من دون الله-: اجعل لنا يا موسى إلهًا، يقول: مثالًا نعبده، وصنمًا نتخذه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها، ولا تنبغي العبادة لشيء سوى الله الواحد القهار، وقال موسى صلوات الله عليه: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله، وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض»[(١)].

قال ابن عطية: «الظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل

---

(١) جامع البيان (٩/ ٤٥).

لنا صنمًا نفرده بالعبادة ونكفر بربك، فعرفهم موسى أن هذا جهل منهم؛ إذ سألوا أمرًا حرامًا، فيه الإشراك في العبادة، ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر باللَّه ﷻ، وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أبي واقد الليثي له في غزوة حنين، إذ مروا على دوح سدرة خضراء عظيمة: «**اجعل لنا -يا رسول الله- ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**»، وكانت ذات أنواط سرحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم، ولها يوم يجتمعون إليها فيه، فأراد أبو واقد وغيره أن يشرع ذلك رسول اللَّه ﷺ في الإسلام، فرأى رسول اللَّه ﷺ أنها ذريعة إلى عبادة تلك السرحة، فأنكره، وقال: «**اللَّه أكبر! قلتم -والله- كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**، لتتبعنّ سنن من قبلكم»، قال القاضي أبو محمد: ولم يقصد أبو واقد بمقالته فسادًا، وقال بعض الناس كان ذلك من بني إسرائيل كفرًا، ولفظة الإله تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أولًا أصح عندي، واللَّه تعالى أعلم»(١).

وقال محمد رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ : «وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء، وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والخصاف، يشمل كلما يصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم، والجهل الذي هو سفه النفس وطيش العقل، وأهمه المناسب للمقام جهل التوحيد وما يجب من إفراد الرب تعالى بالعبادة من غير واسطة، ولا التقيد بمظهر من المظاهر يتوجه إليه معه، ولا سيما مظهر الأصنام والتماثيل لبعض المخلوقات، التي اغتر الجاهلون من قبل بنفعها، أو الخوف من ضررها، فالأول كالكواكب والنيل والعجل أبيس، والثاني كالثعبان، ثم جهل ما كرم اللَّه تعالى به البشر، فجعلهم أهلًا لمعرفته، ودعائه ومناجاته كفاحًا بغير واسطة، يقربهم إليه، فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد، وهو الأحد الصمد الذي يتوجه إليه ويقصد وحده، ولذلك قال إماما الموحدين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والتسليم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، وهذا النوع من الجهل هو الذي قال اللَّه تعالى

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٢) الأنعام: الآية (٧٩).

فيه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[(١)]، وإسناد الجهل إلى القوم أبلغ من إسناده إلى ضمير المخاطبين؛ لأنه حكم على جماعتهم بما هو كالمتحقق المعروف من حالهم، الذي هو علة لمقالهم، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولًا أوليًّا»[(٢)].

قال الفوزان: «ففيه -أي: ما صدر من بني إسرائيل هنا- آفة الجهل، وأن الجهل قد يوقع في الكفر بالله ﷻ، وهذه خطورة عظيمة، ولا ينجي من هذا الجهل إلا تعلم العقيدة الصحيحة، والتأكد منها وتدريسها، وتكرارها على الناس، وتعليمها للناس، ونشرها بكل وسيلة في المساجد وفي المدارس، وفي وسائل الإعلام، وفي المجالس وفي البيوت»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين

* عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلت: يا رسول الله! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

ذات أنواط: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم؛ أي: يعلقونه عليها للبركة، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك، وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سمي من المنوط.

---

(١) البقرة: الآية (١٣٠).

(٢) المنار (٩/ ١١٠-١١١).

(٣) إعانة المستفيد (١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٤/ ٤١٢-٤١٣/ ٢١٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦/ ١١١٨٥) واللفظ له، وصححه ابن حبان (١٥/ ٩٤/ ٦٧٠٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال سليمان آل الشيخ: «أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه، وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة عندها تبركًا، كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع اللّه، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور، من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟ وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا؟!... وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها، هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركًا، ويقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا، وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾، فكيف بغيرهم من غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟

وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمى شركه ما سماه، كمن يسمي دعاء الأموات والذبح لهم والنذر ونحو ذلك، تعظيمًا ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه، وقس على ذلك.

وفيها أن من عبد فهو إله؛ لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذًا له مع اللّه تعالى.

وفيها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلًا فنهي عن ذلك فانتهى لا يكفر، وأن (لا إله إلا الله) تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة.. فكيف بما هو أعظم منه؟ ففيه رد على الجهال الذين يظنون على أن معناها الإقرار بأن اللّه خالق كل شيء وأن ما سواها مخلوق، ونحو ذلك من العبارات، والإغلاظ على من وقع ذلك منه جهلًا..

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك فمن قولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ إلى آخره -قاله المصنف- (يعني شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب).

وفيه أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة، كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة.

وفيه سد الذرائع، والغضب عند التعليم، وأن ما ذم اللَّه به اليهود والنصارى، فإنه لنا لنحذره -ذكر ذلك المصنف-»[1].

قلت: وأغلب بلدان المسلمين اليوم، لا تكاد تخلو من ذوات أنواط، لا ذات أنواط واحدة، يدان لها في الأرض بأنواع العبادات؛ من حج وطواف وتبرك وذبح وغيرها مما لا يجوز أن يصرف إلا لله تعالى.

والمسلمون الذين يقعون في ذلك، غافلون تمام الغفلة عن أمثال هذه النصوص الواضحة، بل تجد في المسلمين من يتصدى بماله وقلمه وجاهه وسلطانه لتأييد ونشر هذه الشركيات عياذًا باللَّه.

وعَرِّجْ على بعض البلاد الإسلامية لترى ما يتفطر له قلب الموحد من مواسم شركية على القبور والأضرحة بمختلف الأسماء؛ فهذا يبتغى عنده الأولاد! وهذا يبتغى عنده تفريج الكرب وهبة البيوت والمساكن! وهذا يستشفى به من أنواع الأمراض! وغير ذلك كثير.

فاللهم جدد الإيمان في قلوب عبادك، وامح عنهم الشرك والخرافات، وألهمهم رشدهم، وردهم إلى الحق ردًّا جميلًا.

وأنتم أيها العلماء! قوموا لله شهداء بالقسط، وانصروا اللَّه ينصركم، وبينوا للناس التوحيد، وحاربوا فيهم الشرك والبدع؛ أداءً لما أوجب اللَّه عليكم من البيان ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[2].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٦-١٧٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٨٧).

تنبيه مهمّ جدًّا:

قال سليمان آل الشيخ أيضًا: «ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب، كشرب سؤرهم والتمسك بهم، أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في «شرح مسلم»، في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئًا من ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ، وهذا خطأ صريح لوجوه: منها: عدم المقاربة، فضلًا عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة. ومنها: عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى اللَّه عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، ومن شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم، من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح، وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم، ومنها: أنا لو ظننا صلاح شخص؛ فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلًا للتبرك بآثاره. ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره، لا في حياته ولا بعد موته، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فهلاّ فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وكذلك التابعون هلاّ فعلوه مع سعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وأويس القرني، والحسن البصري، ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم، فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ. ومنها: أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم»[1].

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٨-١٨٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾

⋆ **غريب الآية:**

مُتَبَّر: مأخوذ من التَّبار، وهو الهلاك؛ يقال: تَبَّرَهُ يُتَبِّرُهُ: إذا بالغ في هلاكه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن قيل موسى لقومه من بني إسرائيل، يقول -تعالى ذكره-: قال لهم موسى: إن هؤلاء العكوف على هذه الأصنام، اللَّه مهلك ما هم فيه من العمل، ومفسده، ومخسرهم فيه بإثابته إياهم عليه العذاب المهين، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم إياها، فمضمحل؛ لأنه غير نافع عند مجيء أمر اللَّه وحلوله بساحتهم، ولا مدافع عنهم بأس اللَّه إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذّبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن»[1].

* * *

---

(١) جامع البيان (٩/ ٤٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾

★ **غريب الآية:**

أَبْغيكم: أي: أطلب لكم إلهًا غير اللَّه تعالى؛ يقال: بغيتُهُ وبغَيْتُ له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لقومه: أسِوَى اللَّه ألتمسكم إلهًا، وأجعل لكم معبودًا تعبدونه، واللَّه الذي هو خالقكم، فضّلكم على عالمي دهركم وزمانكم، يقول: فأبغيكم معبودًا لا ينفعكم، ولا يضركم تعبدونه وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق، إن هذا منكم لجهل»[(١)].

وقال أبو حيان: «ما أحسن ما خاطبهم موسى عليه السلام بدأهم أولًا بنسبتهم إلى الجهل، ثم ثانيًا: أخبرهم بأن عباد الأصنام ليسوا على شيء، بل مآل أمرهم إلى الهلاك وبطلان العمل. وثالثًا: أنكر وتعجب أن يقع هو عليه السلام في أن يبغي لهم غير اللَّه إلهًا»[(٢)].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٤٦).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يسومونكم: أي: يكلفونكم ذلك ويَحْمِلُونَكُمْ عليه؛ يقال: سَامَهُ خَسْفًا: إذا حمله على مكروه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجَر رسول اللَّه ﷺ: واذكروا مع قيلكم هذا الذي قلتموه لموسى -بعد رؤيتكم من الآيات والعبر، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم-: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر باللَّه من قومه، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يقول: إذ يحملونكم أقبح العذاب وسيئه. وقد بيّنا فيما مضى من كتابنا هذا ما كان العذاب الذي كان يسومهم سيئه، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الذكور من أولادكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يقول: يستبقون إناثهم، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول: وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من اللَّه لكم ونعمة عظيمة»[1].

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من اللَّه يجب مقابلتها بالشكر. وتدل على أن المحن في الأولاد والأهل بمنزلة المحن في النفس، ويجري مجراه»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٤٧).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[١]

★ **غريب الآية:**

ميقات: الميقات: الوقت المضروب للشيء، والوعد الذي جعل له وقت. وقد يقال للمكان الذي يجعل وقتًا للشيء، كميقات الحج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما أتمّ اللَّه نعمته عليهم، بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية.

فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمّها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى، ويتهيأ لوعد اللَّه، ويكون لنزولها، موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها»[٢].

وقال ابن كثير: «قد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج، وروي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى ﵇، وفيه أكمل اللَّه الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣]»[٤].

وقال القرطبي: «والفائدة في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ -وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون- لئلاّ يتوهم أن المراد: أتممنا الثلاثين بعشر منها، فبين أن العشر سوى الثلاثين.

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٦).

(٣) المائدة: الآية (٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦٨).

فإن قيل: فقد قال في (البقرة): ﴿أَرْبَعِينَ﴾[١]، وقال هنا: ﴿ثَلَاثِينَ﴾ فيكون ذلك من البداء؟ قيل: ليس كذلك؛ فقد قال: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، والأربعون، والثلاثون، والعشرة، قول واحد ليس بمختلف. وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف؛ قال: ﴿أَرْبَعِينَ﴾ في قول مؤلف، وقال: ﴿ثَلَاثِينَ﴾ يعني شهرًا متتابعًا وعشرًا، وكل ذلك أربعون؛ كما قال الشاعر:

عشر وأربع ....

يعني أربع عشرة ليلة البدر، وهذا جائز في كلام العرب»[٢].

وقال: «قال علماؤنا: دلت هذه الآية على أن ضرب الأجل للمواعدة سنّة ماضية، ومعنى قديم أسسه اللّه تعالى في القضايا، وحكم به للأمم، وعرفهم به مقادير التأني في الأعمال. وأول أجل ضربه اللّه تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[٣]. وقد بيّنا معناه فيما تقدم في هذه السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٤]. قال ابن العربي: فإذا ضُرب الأجل لمعنى يحاول فيه تحصيل المؤجل، فجاء الأجل ولم يتيسر، زِيد فيه تبصرة ومعذرة. وقد بيّن اللّه تعالى ذلك لموسى ﷺ، فضرب له أجلًا ثلاثين، ثم زاده عشرًا تتمة أربعين، وأبطأ موسى ﷺ في هذه العشر على قومه، فما عقلوا جواز التأني والتأخر حتى قالوا: إن موسى ضلّ أو نسي، ونكثوا عهده، وبدّلوا بعده، وعبدوا إلهًا غير اللّه. قال ابن عباس: «إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف فيكم هارون، فلما فصل موسى إلى ربه زاده اللّه عشرًا، فكانت فتنتهم في العشر الذي زاده اللّه بما فعلوه من عبادة العجل، على ما يأتي بيانه. ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدرة، كما أن الأجل مقدر. ولا يكون إلا باجتهاد من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر: من وقت وحال وعمل، فيكون مثل ثلث المدة السالفة، كما أجل اللّه لموسى. فإن رأى

(١) البقرة: الآية (٥١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٧٥).
(٣) ق: الآية (٣٨).
(٤) الأعراف: الآية (٥٤).

الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدة واحدة جاز، ولكن لا بد من التربص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر، قاله ابن العربي[١]»[٢].

وقال: «ودلت الآية أيضًا على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾؛ لأن الليالي أوائل الشهور. وبها كانت الصحابة ﷺ تخبر عن الأيام؛ حتى روي عنها أنها كانت تقول: «**صمنا خمسًا مع رسول اللَّه ﷺ**»، والعجم تخالف في ذلك، فتحسب بالأيام؛ لأن معولها على الشمس. ابن العربي: وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك، ولهذا قال: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾»[٣].

قلت: وهذا الذي قرره هنا من الحساب والتأريخ بالليالي فيه نظر، ولا يسلم له؛ بل الأمر فيه سعة، فيؤخذ بالأنسب، وعلى حسب ما اقتضاه المقام.

وقد أرّخ اللَّه تعالى لوقائع عدة بالأيام؛ قال تعالى في حكاية قول اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾[٤] في (البقرة) و(آل عمران) (٢٤)، والنار تمس الكافرين ليلًا ونهارًا.

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾[٥] وهي أيام التشريق، وقال: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾[٦] وهي أيام العشر؛ كما في صحيح البخاري عن ابن عباس، والذكر يقع في أيامها ولياليها.

وقال في حق زكريا حين طلب الآية: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[٨] فأرخ بالأيام.

وأرخ لخلق السموات والأرض في ثمانية مواضع من كتابه بستة أيام في الأعراف (٥٤)، ويونس (٣) وق (٣٨) والفرقان (٥٩) والسجدة (٤) والحديد (٤) وهود (٦) وفصلت (١٠).

---

(١) انظر كلامه في «أحكام القرآن» (٢/ ٧٩٠-٧٩١).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٧٥-٢٧٦).
(٣) المصدر السابق (٧/ ٢٧٦-٢٧٧).
(٤) البقرة: الآية (٨٠).
(٥) البقرة: الآية (٢٠٣).
(٦) الحج: الآية (٢٨).
(٧) آل عمران: الآية (٤١).
(٨) آل عمران: الآية (١٤٠).

وأرخ للأمم الهالكة فقال: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾(١).

وأرخ صالح عليه السلام لوقوع العذاب بقومه بالأيام فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾(٢).

وجمع اللَّه تعالى في التأريخ بين الليالي والأيام فقال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾(٣) وفي (الحاقة): ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾(٤).

وأرخ لعذاب عاد بالأيام فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾(٥).

وقال تأريخًا لأيام الدنيا: ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾(٦). واللَّه أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في إعذار الحكام إلى المحكومين مرة بعد أخرى

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أعذر اللَّه إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة**»(٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذا أيضًا أصل لإعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى. وكان هذا لطفًا بالخلق، ولينفذ القيّام عليهم بالحق. يقال: أعذر في الأمر؛ أي: بالغ فيه؛ أي: أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده. وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم؛ لتتم حجته عليهم؛ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٨)، وقال: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾(٩)، قيل: هم الرسل. ابن عباس: هو الشيب؛ فإنه يأتي في سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سن الصبا. وجعل الستين

---

(١) يونس: الآية (١٠٢).
(٢) هود: الآية (٦٥).
(٣) سبأ: الآية (١٨).
(٤) ١: الآية (٧).
(٥) فصلت: الآية (١٦).
(٦) الحاقة: الآية (٢٤).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٠)، والبخاري (١١/ ٢٨٦-٢٨٧/ ٦٤١٩).
(٨) الإسراء: الآية (١٥).
(٩) فاطر: الآية (٣٧).

غاية الإعذار؛ لأن الستين قريب من معترَك العبّاد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار: الأول بالنبي ﷺ، والثاني: بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين؛ قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾[1]، فذكر ﷻ أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها. قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا، ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس»[2].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (١٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «يعني أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه، استخلف عليهم أخاه الكبير هارون -عليهما السلام- للحكم بينهم، والإصلاح فيهم، إذ كانت الرياسة فيهم لموسى، وكان هارون وزيره، ونصيره، ومساعده؛ كما سأله ربه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[2]»[3].

قال أبو حيان: «أمره حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها أن يكون خليفته في قومه، وأن يصلح في نفسه، أو ما يجب أن يصلح من أمر قومه، ونهاه أن يتبع سبيل من أفسد. وفي النهي دليل على وجود المفسدين. ولذلك نهاه عن اتباع سبيلهم. وأمره إياه بالصلاح، ونهيه عن اتباع سبيل المفسدين، هو على سبيل التأكيد، لا لتوهم أنه يقع منه خلاف الإصلاح واتباع تلك السبيل؛ لأن منصب النبوة منزه عن ذلك. ومعنى ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ استبد بالأمر، وذلك في حياته إذ راح إلى مناجاة ربه، وليس المعنى: أنك تكون خليفتي بعد موتي. ألا ترى أن هارون ﷺ مات قبل موسى، عليهما السلام، وليس في قول الرسول ﷺ لعلي: «أنت مني كهارون من موسى» دليل على أنه خليفته بعد موته؛ إذ لم يكن هارون خليفة بعد موت موسى، وإنما استخلف الرسول عليًا على أهل بيته إذ سافر الرسول ﷺ في بعض مغازيه؛ كما استخلف ابن أم مكتوم على المدينة، لم يكن في ذلك دليل على أنه يكون خليفة بعد موت الرسول»[4].

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٢).
(٢) طه: الآيات (٢٩-٣٢).
(٣) تفسير المنار (٩/ ١٢١).
(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٧٩-٣٨٠).

قال ابن عاشور: «وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحًا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره، لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادًا على مَن لاحت عنده صلاحًا، ثم إذا تردد فعل بين كونه خيرًا من جهة، وشرًّا من جهة أخرى، وجب اعتبار أقوى حالتيه فاعتُبر بها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحًا، وإن استوى جهتاه ألغي إن أمكن إلغاؤه، وإلا تخيّر، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان منزلة علي ﷺ وبعض فضائله

* عن سعد بن أبي وقاص أن رسول اللّه ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف عليًّا، فقال: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟ قال: **«ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»**[2].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «وقوله -عليه الصلاة والسلام- لعلي: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»**: مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة وبعض المعتزلة؛ في أن الخلافة كانت حقًّا لعلي، واستخلاف النبي عليه الصلاة والسلام له لذلك بهذا الحديث وأشباهه مما احتجوا به.

ثم اختلفوا بعد في تقديم غيره، فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره، ثم كفر بعضهم عليًّا؛ لأنه لم يقم في طلب حقه، وهؤلاء استحق مذهبنا أن لا يرد عليهم، وقد قالوا بأشنع من هذا فيمن هو أفضل ممن ذكرنا، ولا امتراء في كفر

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٨٧-٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٢-١٨٤)، والبخاري (٨/ ١٤١/ ٤٤١٦)، ومسلم (٤/ ١٨٧٠/ ٢٤٠٤)، والترمذي (٥/ ٥٩٦/ ٣٧٢٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٤/ ٨١٤٠).

القائلين بهذا؛ لأن من كفر الأمة كلها والصدر الأول فقد أبطل نقل الشريعة وهدم الإسلام، وأما من عداهم فإنهم لا يسلكون هذا. فأما الإمامية وبعض المعتزلة فتخطئهم، وأما بعض المعتزلة فلا يقول ذلك لقولها بجواز تقديم المفضول على الفاضل في الإمامة على ما تقدم من الخلاف في ذلك.

وهذا الحديث بكل حال لا حجة فيه لأحد منهم، بل فيه من فضائل علي ومنزلته ما لا يحط من منزلة غيره، وليس في قوله هذا دليل على استخلافه بعده؛ لأنه إنما قال له حين استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فقال له ذلك لا لاستخلافه بعده، بدليل أن هارون الذي يستشهد به لم يكن خليفة بعد موسى، وإنما مات في حياته، وقبل موت موسى بنحو أربعين سنة على ما قال أهل الخبر، إنما استخلفه موسى حين ذهب لمناجاة ربه فقال له: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ كما نص اللَّه تعالى.

وقوله: «غير أنه لا نبي بعدي» معناه -واللَّه أعلم- لما ذكر.

قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»: يريد في تقديمه على من يخلفه، استثنى من حال هارون بعض صفاته وهي النبوة؛ لأن هارون كان نبيًّا، وقد أعلم النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه لا نبي بعده، ومعناه منذ بعث؛ أي: بعد مبعثه انقطعت النبوة فلا نبي حتى تقوم الساعة.

وفي طي ذلك تنبيهه -عليه الصلاة والسلام- على ما اقترفه غلاة الرافضة على عليّ من النبوة حتى ترقى بعضهم فيه إلى دعوى ألوهيته من زمنه ﷺ إلى أيامنا هذه، وقد حرّق بعضهم ﷺ على هذه الدعوة، فزادهم ذلك ضلالًا، وقالوا: الآن تحققنا أنه الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا الله؛ فلهذا خص هذا الكلام في شأن علي دون أبي بكر وعمر وغيرهم إذ لم يدّع ذلك أحد لهم ولا اعتقده فيهم.

وفيه بيان أن عيسى حين نزوله لا يكون رسولًا لهذه الأمة ولا مجددًا شريعة، وإنما يأتي بالحكم بشريعة محمد -عليه الصلاة والسلام»[1].

* * *

(١) إكمال المعلم (٧/ ٤١١-٤١٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بما كلمه، من وحيه وأمره ونهيه، تشوق إلى رؤية اللَّه، ونزعت نفسه لذلك، حبًّا لربه، واشتياقًا لرؤيته.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن اللَّه تبارك وتعالى، أنشأ الخلق في هذه الدار، على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية اللَّه.

وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة؛ فإنه قد دلت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية اللَّه تعالى.

ولهذا رتب اللَّه الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنعًا لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ إذا تجلى اللَّه له ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾»[2].

قال ابن عثيمين: «أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته، وذلك لأن الكلام صار حين المجيء، لا سابقًا عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته.

فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وإنه لا يتعلق بمشيئته؛ كما تقوله الأشاعرة.

وفي هذه الآية إبطال زعم من زعم أن موسى فقط هو الذي كلم اللَّه، وحرف

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٨٧-٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1] إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها»[2].

قال القنوجي: «قال الزمخشري: تكليمه أن يخلق الكلام منطوقًا به في بعض الأجرام، كما خلقه محفوظًا في الألواح، انتهى. وإليه ذهب المعتزلة، وهو مذهب فاسد، يردّه الكتاب والسنة، وأين للشجر وذلك الجرم أن يقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[3] الآية؟

وذهب الحنابلة ومن وافقهم من أهل الحديث أن كلامه تعالى حروف وأصوات مقطعة، وأنه قديم، وهو الحق، وقد نطق به السنة المطهرة، وقال جمهور المتكلمين: إن كلامه صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات، وأرادوا به الكلام النفسي. ولا توجد له رائحة في السنة المطهرة، وكذا ما ذكره الشيخ في «التأويلات»: أن موسى سمع صوتًا دالاً على كلام اللّه، وهو ظاهر البطلان لمخالفة نص القرآن.

وقد سكت جمع من السلف والخلف عن الخوض في تأويل صفة كلام اللّه تعالى. وقالوا: إنه متكلم بكلام قديم يليق بذاته بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوق، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[4]، ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[5]»[6].

وقد تقدم الكلام على صفة الكلام لله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ الآية (١٦٤) من سورة (النساء)، فليراجعه من شاء.

* * *

(١) النساء: الآية (١٦٤).
(٢) شرح الواسطية (مجموع الفتاوى ٨/ ٣٥٨).
(٣) طه: الآية (١٤).
(٤) الشورى: الآية (١١).
(٥) الروم: الآية (٢٧).
(٦) فتح البيان (٥/ ٨-٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾(١)

★ غريب الآية:

فإن استقرّ مكانه: أي: فإن ثبت الجبل مكانه وسكن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حيًّا في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترًا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة.

ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب، والمتعصب وإن كان بصره صحيحًا فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلًا بما أوجبه اللّه عليه من النظر الصحيح، وتلقّي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم.

وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجًا وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

... وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والأشعرية، فالمعتزلة استدلوا بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ كما تقدم، وبأمره بأن ينظر إلى الجبل. والأشعرية قالوا: إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة، ولا يخفاك أن الرؤية

(١) الأعراف: الآية (١٤٣).

الأخروية هي بمعزل عن هذا كله، والخلاف بينهم هو فيها، لا في الرؤية في الدنيا، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة، وكلامهم فيها معروف»[١].

قال القنوجي: «وقد تمسك أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية، وقالوا: (لن) للتأبيد والدوام، وهذا غلط؛ إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة العربية ولم يقل به أحد منهم. والكتاب والسنة على خلاف ذلك؛ فقد قال تعالى في حق اليهود: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[٢] مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[٣]، وقوله: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[٤]، والسنة أكثر من أن تحصى»[٥].

قال ابن القيم: «قد أخبر اللَّه سبحانه عن أعلم الخلق به في زمانه، وهو كليمه ونجيه وصفيه من أهل الأرض أنه سأل ربه تعالى النظر إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل ما هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان، والصابئة، والفرعونية، بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى اللَّه عنه، فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم باللَّه تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، وأشد تنزيهًا له منه؟!!

الوجه الثاني: أن اللَّه ﷻ لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه. ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء، لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه، أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي

---

(١) فتح القدير (٢/ ٣٤١-٣٤٢).
(٢) البقرة: الآية (٩٥).
(٣) الزخرف: الآية (٧٧).
(٤) الحاقة: الآية (٢٧).
(٥) فتح البيان (٥/ ١٠).

أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يقل: لا تراني، ولا: إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله. وهذا يدل على أنه ﷻ يُرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟

الوجه الخامس: أن اللَّه ﷻ قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالًا لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى؛ فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد، لا ثواب له ولا عقاب عليه، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته، ويريهم نفسه؟ فأعلم ﷻ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ﷻ قد كلمه منه إليه، وخاطبه، وناجاه، وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم. وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلم أحدًا، أو يراه أحد، ولهذا سأله موسى ﷺ النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي اللَّه جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله، كما لم يثبت الجبل لتجليه»[٢].

---

(١) هود: الآيتان (٤٦و٤٧).

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٩٦-١٩٨).

وقال الشنقيطي: «استدل المعتزلة النافون لرؤية اللَّه بالأبصار يوم القيامة بهذه الآية على مذهبهم الباطل، وقد جاءت آيات تدل على أن نفي الرؤية المذكور، إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرونه -جل وعلا- بأبصارهم؛ كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، وقوله في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[2]؛ فإنه يفهم من مفهوم مخالفته أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه -جل وعلا-.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3]: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه اللَّه الكريم»[4]، وذلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[5]، وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، وتحقيق المقام في المسألة: أن رؤية اللَّه -جل وعلا- بالأبصار: جائزة عقلًا في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها عقلًا في دار الدنيا: قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[6]؛ لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق اللَّه تعالى، وأما شرعًا فهي جائزة وواقعة في الآخرة؛ كما دلت عليه الآيات المذكورة، وتواترت به الأحاديث الصحاح، وأما في الدنيا فممنوعة شرعًا كما تدل عليه آية (الأعراف) هذه، وحديث «**إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»[7]؛ كما أوضحناه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»»[8].

* * *

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٢و٢٣).

(٢) المطففين: الآية (١٥). (٣) يونس: الآية (٢٦).

(٤) أخرجه من حديث صهيب ﷺ: أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١)، والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦١-٣٦٢/ ١١٢٤٣)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧).

(٥) ق: الآية (٣٥). (٦) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٧) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: أبو داود (٤/ ٤٩٥-٤٩٦/ ٤٣٢٠).

(٨) أضواء البيان (٢/ ٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1]

★ **غريب الآية:**

تجلى: أي: ظهر وبدا.

جعله دكًا: أي: جعله أرضًا مستوية، لا أكمة فيها. ومنه: ناقة دكّاء: أي: لا سنام لها، وأرض دكّاء مسوّاة.

وخرّ موسى صعقًا: أي: سقط مغشيًا عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما اطلع الرب للجبل جعل اللَّه الجبل دكًا؛ أي: مستويًا بالأرض، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشيًا عليه»[2].

قال ابن القيم في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: «هذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه، في دار كرامته، ويريهم نفسه؟ فأعلم ﷻ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة نبي اللَّه موسى عليه الصلاة والسلام

* عن أنس: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ

(١) الأعراف: الآية (١٤٣).
(٢) جامع البيان (٩/ ٥٢).
(٣) حادي الأرواح (ص: ١٩٧-١٩٨).

دَكًّا﴾، قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى، قال: فساخ الجبل، وخرّ موسى صَعِقًا»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**قال حماد: هكذا**»: **قال السندي**: «يعني أنه أخرج طرف الخنصر، بيانًا للتجلي، ولعل المراد به، أنه تجلى له أدنى تجلي، كأنه بمنزلة إخراج الخنصر من الإنسان، وقد قررنا مرارًا أن الوجه في أمثال هذه الأحاديث التفويض والتسليم مع الإيمان بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٢)]»[(٣)].

قوله: «**فساخ الجبل**»: **قال ابن جرير**: «ولم يقل: فتفتت، ولا تحول ترابًا، ولا شك أنه إذا ساخ فذهب ظهر وجه الأرض، فصار بمنزلة الناقة التي قد ذهب سنامها، وصارت دكّاء بلا سنم، وأما إذا دك بعضه فإنما يكسر بعضه بعضًا، ويتفتت ولا يسوخ، . . . فمعنى الكلام إذًا: فلما تجلى ربه للجبل ساخ، فجعل مكانه أرضًا دكّاء»[(٤)].

وفي الحديث كما في الآية: إثبات التجلي لله ﷻ، على الوجه اللائق بجلاله وجماله ﷻ، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، على ما نطق به كتاب ربنا ﷻ، وأكدته سنة نبينا ﷺ، خلافًا لمن نفاه من المعتزلة، جريًا على مذهبهم الباطل في نفي الصفات عمومًا، وفي نفي صفة الرؤية خصوصًا، وخلافًا للأشاعرة الذين اختلف مسلكهم في نفي هذه الصفة، -كغيرها من الصفات التي على شاكلتها- بين متأول لها، بما يخالف مقتضى لفظ الآية، وبين مفوض متظاهر بالإثبات، وكلا مسلكي نفاة الصفات باطل، مناقض للقرآن والسنة، ودلالة نصوصهما، ولمراد اللَّه ورسوله ﷺ من كلامهما، وبهذا تعلم أن القول بالتفويض والتأويل، اللذين يزعم أصحابهما أنهم متبعون للسنة، وعلى سبيل السلف الصالح، من شر أقوال أهل البدع والزيغ والإلحاد والضلال.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٩)، والترمذي (٥/ ٢٤٨/ ٣٠٧٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة»، وصححه الحاكم (٢/ ٣٢٠-٣٢١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
(٢) الشورى: الآية (١١).
(٣) حاشية المسند (١٩/ ٢٨٢).
(٤) جامع البيان (٩/ ٥٤).

قال محمد الجامي: «وأما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن اللَّه يتجلى لعباده في الموقف، وفي الجنة من فوقهم، ويخاطبهم، ويسلم عليهم، ويرونه بأبصارهم كما يرون الشمس، ليس دونها سحاب»[١].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «بينا رسول اللَّه ﷺ جالس جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم! ضرب وجهي رجل من أصحابك. فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار. قال: ادعوه. فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ؟ فأخذتني غضبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: **لا تخيروني بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، أو حوسب بصعقة الأولى**»[٢].

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد: فضيلة ظاهرة لموسى عليه الصلاة والسلام.

قال أبو العباس القرطبي: «قد تحصل من هذا الحديث: أن نبينا محمدًا ﷺ محقق أنه أول من يفيق، وأول من يخرج من قبره قبل الناس كلهم، الأنبياء وغيرهم، إلا موسى عليه السلام فإنه حصل له فيه تردد، هل بعث قبله، أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق؟ وعلى أيّ الحالين كان، فهي فضيلة عظيمة لموسى عليه السلام، ليست لغيره، واللَّه تعالى أعلم»[٣].

وقال أبو عبد اللَّه القرطبي: «وهذه فضيلة عظيمة لموسى عليه السلام، ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى عليه السلام على محمد ﷺ مطلقًا؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرًا كليًا، واللَّه أعلم»[٤].

وقد استشكل ظاهر قوله ﷺ هنا: «**فإن الناس يصعقون يوم القيامة..**» إلخ،

---

(١) الصفات الإلهية (ص: ٣٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠-٤١)، والبخاري (٥/ ٨٩-٩٠/ ٢٤١٢)، ومسلم (٤/ ١٨٤٥/ ٢٣٧٤)، وأبو داود (٥/ ٥١/ ٤٦٦٨).

(٣) المفهم (٦/ ٢٣٤).

(٤) التذكرة (ص: ١٦٩).

بالأحاديث الدالة على أن موسى عليه السلام قد توفي، وأن نبينا ﷺ رآه في قبره، وسيأتي إن شاء اللَّه تعالى توجيه ذلك، وبسط الخلاف فيه، وبيان وجه الصواب من ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ الآية (٦٨) من سورة (الزمر)، وباللَّه التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾موسى من غشيه، والتعبير بالإفاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي، وبطلان تفسير قتادة له بالموت، وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا أنه رأى ربه فمات، أو مات ثم رأى ربه، ولو مات لقال تعالى: (فلما بعث) إلخ، كما قال في السبعين الذين اختارهم من قومه، وذهبوا معه إلى الجبل وطلبوا منه أن يريهم اللّٰه جهرة فأخذتهم الصاعقة؛ فإنه قال: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[2] كما في سورة (البقرة)، وسيأتي خبرهم في هذه القصة من هذه السورة. ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك وتقديسًا عما لا ينبغي في شأنك مما سألتك أو من لوازمه، أو كما حكى تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾[3]، وأكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من اللّٰه تعالى، ونفي العلم إنما يصح عندهم بمعنى أن ما سأله غير ممكن، أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا، لا أنه غير ممكن في نفسه وغير واقع البتة ولا في الآخرة. ومعنى التوبة: الرجوع، والمراد هنا: الرجوع عما طلب، إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب. قال مجاهد: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾أن أسألك الرؤية، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾قال ابن عباس ومجاهد: «**أي: من بني إسرائيل**»، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «**وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد**»، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال: وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) البقرة: الآية (٥٦).

(٣) هود: الآية (٤٧).

إلى يوم القيامة. قال: وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثرًا طويلًا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحق بن يسار، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات، والله أعلم»[1].

قال أحمد بن المنير: «وأما تسبيح موسى ﷺ فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه، وعن الخلف في خبره الحق، وقوله الصدق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقدس علمه وخبره عن الخُلف. وأما التوبة في حق الأنبياء، فلا تستلزم كونها عن ذنب؛ لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهًا مبرأً من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل»[2].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ١٢٦).

(٢) الإنصاف (٢/ ١١٥ الكشاف).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

★ غريب الآية:

اصطفيتك: أي: اخترتك واختصصتك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن موسى ﷺ لما طلب الرؤية، ومنعه اللَّه منها، عدد اللَّه عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه، وأمره أن يشتغل بشكرها، كأنه قال له: إن كنت قد منعتك الرؤية، فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا، فلا يضق صدرك بسبب منع الرؤية، وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها واشتغل بشكرها. والمقصود تسلية موسى ﷺ عن منع الرؤية، وهذا أيضًا أحد ما يدل على أن الرؤية جائزة على اللَّه تعالى؛ إذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان إلى ذكر هذا القدر حاجة»[1].

قال الشوكاني: «امتن اللَّه سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره أن يأخذ ما آتاه؛ أي: أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم، والإكرام الجليل»[2].

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: كيف اصطفاه على الناس برسالاته مع أن كثيرًا من الناس قد ساواه في الرسالة؟ قلنا: إنه تعالى بين أنه خصه من دون الناس، بمجموع الأمرين، وهو الرسالة مع الكلام بغير واسطة، وهذا المجموع ما حصل لغيره، فثبت أنه إنما حصل التخصيص ههنا لأنه سمع الكلام بغير واسطة، وإنما

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٢٤٥).
(٢) فتح القدير (٢/ ٣٤٣).

كان الكلام بغير واسطة سببًا لمزيد الشرف، بناءً على العرف الظاهر؛ لأن من سمع كلام الملك العظيم، من فلق فيه، كان أعلى حالًا، وأشرف مرتبة ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اصطفاء الله تعالى لموسى ﷺ

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتجّ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق؟ فقال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى، مرتين**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته»:

قال الحافظ: «الغرض منه شهادة آدم لموسى أن الله اصطفاه»[3].

قال العيني: «أي: أخلصك الله بذلك، ويقال: جعلك خالصًا صافيًا عن شائبة ما لا يليق بك، وفيه تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[4]»[5].

وقال الباجي: «يريد -والله أعلم-: آثره بالرسالة على من لم يرسله، وهذا كله على وجه التقرير له على فضله الذي لا يقتضي الإصابة في محاجته، وأن لا يلوم أباه على ما يعي واسع علمه وفضله ولومه عليه»[6].

قال الغنيمان: «وفرق بين الرسالة والتكليم، فهو -أي التكليم- قدر زائد على الرسالة؛ لأنها تحصل بإرسال ملك أو بالوحي، وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه، وهذا الذي اختص به موسى من بين الرسل، فدل هذا على أن الله تعالى كلمه بدون

---

(١) مفاتح الغيب (١٤/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٨)، والبخاري (٦/ ٥٤٥/ ٣٤٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٢/ ٢٦٥٢)، وأبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠١)، والترمذي (٤/ ٣٨٦/ ٢١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٥/ ١٠٩٨٦)، وابن ماجه (١/ ٣١/ ٨٠).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٥١).

(٤) النساء: الآية (١٦٤).

(٥) عمدة القاري (١٣/ ١٦٠).

(٦) المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٢٠١).

واسطة، بل أسمعه كلامه منه إليه، وهو أمر واضح»[١].

قال الحافظ: «وفيه استعمال التعريض بصيغة المدح، يؤخذ ذلك من قول آدم لموسى: «**أنت الذي اصطفاك اللَّه برسالته**».. إلى آخر ما خاطبه به؛ وذلك أنه أشار بذلك إلى أنه اطلع على عذره وعرفه بالوحي، فلو استحضر ذلك ما لامه مع وضوح عذره»[٢].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٣١).
(٢) فتح الباري (١١/ ٦٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الألواح: جمع لوح، وهو ما يكتب فيه.

موعظة: الموعظة: اسم من الوعظ، وهو زجر مقترن بتخويف. وقيل: هو التذكير بالخير فيما يَرِقُّ له القلب.

سأريكم دار الفاسقين: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون التي هلكت. وقيل: جهنم. وقيل: مصر؛ أي: سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم. وقيل: الشام. وهذان القولان يدل عليهما: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾[(١)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكتبنا لموسى في ألواحه، وأدخلت الألف واللام في ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ بدلًا من الإضافة، كما قال الشاعر:

والأحلامُ غيرُ عَوازب

وكما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[(٢)]؛ يعني: هي مأواه.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يقول: من التذكير والتنبيه على عظمة الله وعز سلطانه، ﴿مَّوْعِظَةً﴾ لقومه ومن أمر بالعمل بما كتب في الألواح، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يقول: وتبيينًا لكل شيء من أمر الله ونهيه»[(٣)].

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾: يقول -تعالى ذكره-: وقلنا لموسى إذ

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٢) النازعات: الآية (٤١).
(٣) جامع البيان (٩/ ٥٧).

كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء: خذ الألواح بقوة. وأخرج الخبر عن الألواح والمراد ما فيها.

واختلف أهل التأويل في معنى القوة في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناها: بجدّ...

وقال آخرون: معنى ذلك: فخذها بالطاعة لله»[١].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾: يقول -تعالى ذكره-: قلنا لموسى: وأمر قومك بني إسرائيل يأخذوا بأحسنها، يقول: يعملوا بأحسن ما يجدون فيها...

فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أكان من خصالهم ترك بعض ما فيها من الحسن؟

قيل: لا، ولكن كان فيها أمر ونهي، فأمرهم اللَّه أن يعملوا بما أمرهم بعمله، ويتركوا ما نهاهم عنه، فالعمل بالمأمور به أحسن من العمل بالمنهي عنه.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: يقول -تعالى ذكره- لموسى إذ كتب في الألواح من كل شيء: خذها بجد في العمل بما فيها واجتهاد، وأمر قومك يأخذوا بأحسن ما فيها، وانههم عن تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي؛ فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم فإني سأريه في الآخرة عند مصيره إليّ ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وهي نار اللَّه التي أعدها لأعدائه.

وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدًا إلام يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك...

وقال آخرون: معنى ذلك: سأدخلكم أرض الشام، فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة...

وقال آخرون: معنى ذلك: سأريكم دار قوم فرعون، وهي مصر...

---

(١) المصدر السابق (٩/ ٥٨).

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في تأويل ذلك؛ لأن الذي قبل قوله -جل ثناؤه-: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أمر من الله لموسى وقومه بالعمل بما في التوراة، فأولى الأمور بحكمة الله تعالى أن يختم ذلك بالوعيد على من ضيعه، وفرط في العمل لله، وحاد عن سبيله، دون الخبر عما قد انقطع الخبر عنه، أو عما لم يجر له ذكر»[1].

قال الشوكاني: «﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[2]، وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[3]، ومن الأحسن: الصبر على الغير، والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، والفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه»[4].

وقال محمد رشيد رضا: «والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ لهذه الآية من وجوه:

أحدها: أن الكتاب الإلهي يجب أخذه بقوة وإرادة وجد وعزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح وتكوين الأمة تكوينًا جديدًا صالحًا، ويتأكد ذلك في الرسول المبلغ له والداعي إليه والمنفذ له بقوله وعمله، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة. وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وإن لم تكن بهداية الدين، والدين أحوج إلى القوة والعزيمة؛ لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعًا، وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب أو ميثاق الكتاب بقوة، أمرًا مقرونًا بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم، كما تقدم في سورة (البقرة)[5]، وسيأتي مثله في هذه السورة (الأعراف)، وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم التي كان لها من القوى العددية والحربية والنظامية والمالية والصناعية ما ليس لهم، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى لا بالتغني بقراءته في المحافل، ولا بالتبرك المحض بالمصحف، كما يفعل

---

(١) المصدر السابق (٩/ ٥٨-٥٩).
(٢) الزمر: الآية (٥٥).
(٣) الزمر: الآية (١٨).
(٤) فتح القدير (٢/ ٣٤٣).
(٥) البقرة (٦٣) و(٩٣).

مقلدة الخلف الطالح، إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به في الدنيا والآخرة، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالإعراض عنه وهجر هدايته في الدنيا والآخرة، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

ثانيها: أن سبب تخويف بني إسرائيل عند تبليغهم الميثاق الإلهي بوقوع الجبل بهم، وأمرهم في تلك الحال أن يأخذوه بقوة هي أن أحكام التوراة التي أُخِذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجة، وحكمة ما فيها من الشدة والحرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة، وكان القوم أو الأقوام الذين وُعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين أولي قوة وأولي بأس شديد، وكان من سنة اللّه تعالى في البشر أن تتربى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر، والجهاد بالمال والنفس، ولهذا أمر اللّه تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببني إسرائيل في طريق التيه، وهو الجنوبي من برية سيناء، دون الطريق الشمالي القريب من مدن فلسطين؛ إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جباري الكنعانيين وقتئذ، فكتب اللّه تعالى عليهم التيه أربعين سنة ملك في أثنائها الذين استذلهم المصريون، ونشأ من صغارهم ومواليدهم جيل جديد تربى في حجر الشرع الجديد، والتيه الشديد، كما بيناه في تفسير سورة (المائدة).

ثالثها: أن الإسرائيلين قد عظم ملكهم بإقامة شريعتهم بقوة حتى إذا غلب الغرور على العمل وظنوا أن اللّه تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو (شعب الله)؛ فسقوا وظلموا، فأنزل اللّه بهم البلاء، وسلط عليهم البابليين الأقوياء، فثلوا عرشهم وتبروا ملكهم، ثم ثابوا إلى رشدهم، فرحمهم اللّه وأعاد لهم بعض ملكهم وعزهم، ثم ظلموا وأفسدوا، فسلط عليهم النصارى، فمزقوهم كل ممزق، فظلوا عدة قرون متكلين على المسيح الموعود ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات، ثم ربّتهم الشدائد، ونوّرهم العلم العصري، فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما في الإمكان من الأسباب، وفي مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء، مع

---

(١) البقرة: الآيتان (٢٦و٢٧).

المحافظة على التقاليد الدينية في ذلك، حتى انتهى بهم السعي إلى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه في بيان العبرة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾[1] من هذه السورة[2].

رابعها: أن المسلمين الذين اتبعوا سننهم وسنن النصارى شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع في الضر دون النفع، كما فصلناه في غير هذا الموضع، قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب (الإسلام) ولقب (أمة خاتم الرسل) ﷺ، ولكنهم لما يثوبوا إلى رشدهم؛ لأن الذين سلبوا ملكهم وعزهم لم يسوسوهم بشدة مربية كافية، بل اجتهدوا في إفساد عقائدهم وأخلاقهم، وإيقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم، بتوليهم التربية والتعليم لكثيرين منهم، كانوا عونًا لهم على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج، كالعثمانيين والمصريين، كما فصلناه في مواضع أخرى، ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المخربون يجدّون في قتل هذه الأمة، وهم يظنون أنهم يجددون، ويفسدون عليها أمرها، ويحسبون أنهم يصلحون، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[3][4].

قلت: هذا التفسير الذي أشار إليه الشيخ محمد رشيد رضا في الآية وأن اللَّه تعالى يقبل من الإنسان إخلاصه وحسن عمله ومتابعته لأنبيائه ورسله، ولا ينظر إلى نسبه وشرفه وأنه من سلالة كذا وقبيلة كذا أو بلد كذا؛ فإن هذه أمور فيها دلالة على آياته تبارك وتعالى، لا أنها مفخرة يقف عندها الإنسان ويتغنى بها بالليل والنهار، فيترك السنن الكونية والسنن الشرعية فلا يأخذ بأسباب النجاة ولا يطيع نبيًّا ولا رسولًا في أمر ولا نهي وهذا الواقع تمثل في اليهود، وكان لهم النصيب الأوفر لما ابتلوا به من رعونة وحماقة وسفه، وزعموا أنهم شعب اللَّه المختار وأنهم أبناء اللَّه وأحباؤه!! وكان للنصارى مثله في بعض الأوقات ولكنهم اهتدوا للأخذ بالأسباب المادية، فكونوا حضارة قوية تتصف بالعدة وبالعدد، فغلبوا على الأمم بما أوتوا من جدية وأخذ بقوة الأسباب. وأما المسلمون فصدرهم الأول الذين جمعوا بين الأسباب المادية وامتثال أوامر اللَّه واجتناب نواهيه وتحكيم شرعه؛ كان لهم من الملك والخلافة ما لم يكن لأمة قبلهم ولا كان لمن بعدهم حتى الآن، وبعد هذا

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٢) انظر تفسير المنار (٩/ ١٠٢-١٠٤).
(٣) البقرة: الآية (١٢).
(٤) تفسير المنار (٩/ ١٩٣-١٩٥).

ضعف حالهم، وبدأ يضعف شيئًا فشيئًا، فصار حالهم إلى أن دخلهم الإفرنج، فحكم بلادهم، وصادر خيراتهم، ومحا هويتهم، ولم يبق في بلادهم غالبًا إلا اسم الإسلام وبعض رسمه، وخلفهم في الإجهاز على أمة الإسلام تلامذتهم، وورثتهم من أبناء الأمة، فزادوا في الطين بلة، وأصبحت الاستقامة في بلاد الإسلام جريمة كبرى، وكل من استقام على أمر اللَّه فهو في سجل المجرمين في نظرهم!! ويجب أن يتابع متابعة دقيقة إما بمضايقته، أو التحذير منه، وأحيانًا سجنه وضربه وقتله!! وأصبح أمر الفرائض وأداؤها جريمة كبرى!! ولا سيما صلاة الصبح!! وهكذا التزيي بزي الإسلام وسمته بكل ما في الكلمة من معنى، وأصبح الرعب والإرهاب لأهل الإسلام في ديارهم وبلادهم؛ فالمسلم المستقيم لا يأمن على نفسه أن يؤخذ غرة في لحظة من ليل أو نهار، وهذا الواقع هو في معظم البلاد الإسلامية، وفي بعضها متنفس؛ بل بعضها ينصر الإسلام ويبيت المسلم فيها آمنًا مطمئنًّا، فنرجو اللَّه أن ترجع للإسلام قوته ومهابته، ويعبده المسلم فيها على أمن واطمئنان؛ لا على خوف وهلع وكأنه من كبار المجرمين، واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر ألواح موسى عليه السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدمُ موسى. قال موسى: أنت آدم الذي خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك اللَّه برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرّبك نجيًا، فبكم وجدت اللَّه كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا. قال آدم: فهل وجدت فيها: (وعصى آدم ربه فغوى)؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه اللَّه عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟** قال رسول اللَّه ﷺ: **فحجّ آدمُ موسى**»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: «وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء» يعني: الألواح

---

(١) أخرجه: البخاري (١١/ ٦١٨/ ٦٦١٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٣/ ٢٦٥٢[١٥]) واللفظ له. وقد تقدم قريباً تخريجه موسعاً.

التي قال اللّٰه تعالى فيها: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، وهي جمع لوح، بفتح اللام، وسُمّي بمصدر لاحَ الشيءُ يلوح لَوحًا: إذا ظهر، وسمّي بذلك لظهور ما يُكتب فيه. فأما اللُّوح، بضم اللام: فهو ما بين السماء والأرض...

وقوله: «فيها تبيان كل شيء» أي: كل شيء قُصد إلى تبيينه، أو من كل نوع شيئًا، أو من كل أصل فرعًا»[1].

وقال الطيبي: ««فيها تبيان كل شيء» أي: أعطاك التوراة فيها تبيان لكل شيء من الإخبار بالغيوب، والقصص، والحلال، والحرام، والموعظة، وغير ذلك، وهو من قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾»[2].

قال الحافظ: «وفي هذا الحديث عدة من الفوائد... منها: إطلاق العموم وإرادة الخصوص في قوله: «أعطاك علم كل شيء»، والمراد به كتابه المنزل عليه وكل شيء يتعلق به؛ وليس المراد عمومه؛ لأنه قد أقر الخضر على قوله: «وإني على علم من علم اللّٰه علمنيه اللّٰه لا تعلمه أنت»[3]»[4].

* * *

(١) المفهم (٦/ ٦٦٦-٦٦٧).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٥٣٢).

(٣) أخرجه من حديث أبي بن كعب ﷺ: أحمد (٥/ ١١٧-١١٨)، والبخاري (٨/ ٥٢٢/ ٤٧٢٥)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠/ ٢٣٨٠)، والترمذي (٥/ ٢٨٩-٢٩٢/ ٣١٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٩-٣٩٠/ ١١٣٠٨)، وأبو داود مختصراً (٥/ ٨١/ ٤٧٠٧).

(٤) فتح الباري (١١/ ٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سأصرف عن آياتي: أي: سأنحّي وأعدل بهم عنها؛ يقال: صرفه عن كذا: إذا عدل به عنه ونحاه. وقيل: أصل الصرف: ردّ الشيء من حالة إلى حالة وإبدال غيره به. وقيل: هو التقليب والتحويل.

الرُّشْدُ: ويقال: الرَّشَدُ والرَّشَادُ: الهداية والاستقامة والصلاح. وحقيقة الرُّشد والرَّشَد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة.

الغيّ: الضلال والجهل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: سأنزع عنهم فهم الكتاب...

وقال آخرون في ذلك: معناه: سأصرفهم عن الاعتبار بالحجج...

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده، وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله وغير ذلك من فرائضه، والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته. وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقّت عليهم كلمة اللَّه أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته، والاعتبار والادّكار بها مصروفون؛ لأنهم لو وفّقوا لفهم بعض ذلك، فهدوا للاعتبار به، اتّعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنه -جل

ثناؤه- قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، فلا تبديل لكلمات اللَّه. . .

يقول -تعالى ذكره-: وإن ير هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - وتكبرهم فيها بغير الحق: تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان باللَّه ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيد يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًّا- ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره، ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: هي سحر وكذب، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم طريقًا؛ جهلًا منهم وحيرة، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلوا وهلكوا، وقد بينا معنى ﴿الْغَيِّ﴾ فيما مضى قبلُ بما أغنى عن إعادته، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يقول: يسلكوه ويجعلوه لأنفسهم طريقًا لصرف اللَّه إياهم عن آياته، وطبعه على قلوبهم، فهم لا يفلحون ولا ينجحون. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها، ويذكروا فينيبوا؛ عقوبة منّا لهم على تكذيبهم بآياتنا، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يقول: وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقية ما أمرناهم به ونهيناهم عنه ﴿غَافِلِينَ﴾ لا يتفكرون فيها، لاهين عنها لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا، فعطبوا»[١].

وقال ابن كثير في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: «أي: كما استكبروا بغير حق، أذلهم اللَّه بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٣]»[٤].

وقال: «وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦٠-٦١).

(٢) الأنعام: الآية (١١٠). (٣) الصف: الآية (٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٥).

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[1]»[2].

وقال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾: «الغفلة هنا: هي الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والفطنة، لا أي نوع من أنواع الغفلة، بل هي المبينة في قوله تعالى من أواخر هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[3] الضالون من هؤلاء الغافلين عن آيات اللّه تعالى، وما تهدي إليه من معرفته، والاستعداد للحياة الأخرى الباقية، هم الذين يقول اللّه تعالى في وصفهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[4]، ويقول: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[5]؛ إذ كان لهم من الانهماك فيما هم فيه، والغرور به، واحتقار ما سواه، ما يصدهم عن توجيه عقولهم إلى غيره»[6].

وقال الزمخشري في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: «فيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرَفون عن الآيات لتكبّرهم، وكفرهم بها؛ لئلاّ يكونوا مثلهم، فيسلك بهم سبيلهم»[7].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٥).
(٣) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٤) إبراهيم: الآية (٣).
(٥) النساء: الآية (١٦٧).
(٦) تفسير المنار (٩/ ١٩٨).
(٧) الكشاف (٢/ ١١٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

حبطت: أي: بطلت وفسدت. وأصله من قولهم: حبطت الدابة: إذا أكلت أكلًا انتفخ بطنها منه فماتت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق، وكل مكذب حجج اللَّه ورسله وآياته، وجاحد أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، ومنكر لقاء اللَّه في آخرته، ذهبت أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبتت؛ لأنهم عملوا لغير اللَّه، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضي اللَّه، فصارت أعمالهم عليهم وبالًا، يقول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: هل ينالون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلود في نار أحاط بهم سرادقها؛ إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمن، نعوذ باللَّه من غضبه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٦١).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اتخذ: الاتخاذ: اصطفاء الشيء لأمر ما.

من حليهم: الحلي: ما اتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما.

جسدًا: الجسد: الجسم.

له خوار: الخوار: صوت البقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واتخذ بنو إسرائيل قوم موسى -من بعد ما فارقهم موسى ماضيًا إلى ربه لمناجاته، ووفاءً للوعد الذي كان ربه وعده- ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ وهو ولد البقرة، فعبدوه، ثم بيّن -تعالى ذكره- ما ذلك العجل فقال: ﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، والخوار: صوت البقر، يخبر جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل، وذلك أن الرب جل جلاله، الذي له ملك السموات والأرض، ومدبّر ذلك، لا يجوز أن يكون جسدًا له خوار، لا يكلّم أحدًا، ولا يرشد إلى خير، وقال هؤلاء الذي قص اللَّه قصصهم لذلك: هذا إلهنا وإله موسى، فعكفوا عليه يعبدونه جهلًا منهم، وذهابًا عن اللَّه وضلالًا.

وقد بيّنا سبب عبادتهم إياه، وكيف كان اتخاذ من اتخذ منهم العجل، فيما مضى بما أغنى عن إعادته...

وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يقول: ألم ير الذين عكفوا على العجل الذي اتخذوه من حليهم يعبدونه، أن العجل لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلًا؟ يقول: ولا يرشدهم إلى طريق، وليس ذلك من صفة ربهم الذي له العبادة

حقًّا، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى، يقول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: اتخذوا العجل إلهًا، ﴿وَكَانُوا﴾ باتخاذهم إياه ربًّا معبودًا ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم؛ لعبادتهم غير من له العبادة، وإضافتهم الألوهة إلى غير الذي له الألوهة»[1].

وقال النسفي في قوله تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: «إنما نسبت إليهم مع أنها كانت عواري في أيديهم؛ لأن الإضافة تكون لأدنى ملابسة. وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان، فدخل دارًا استعارها يحنث، على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه دليل على أن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها، نعم المتخذ هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل إليهم»[2].

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على صحة الحجاج في الدين، وأنه تعالى دلّهم، في بطلان اتخاذ العجل إلهًا، بأنه لا يتكلم ولا يهدي. وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفذ فيه الحيلة، ولا تنفذ في الكلام. وتدل على أن إزالة الشبه في الدين واجب، كما أزالها اللَّه تعالى. وتدل على أن القوم كانوا جهالًا غير عارفين حقيقة الأشياء، لذلك عبدوا العجل»[3].

وقال الشنقيطي: «بين في هذه الآية الكريمة سخافة عقول عبدة العجل، ووبخهم على أنهم يعبدون ما لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا، وأوضح هذا في (طه)، بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[4]، وقد قدمنا في سورة (البقرة)، أن جميع آيات اتخاذهم العجل إلهًا حذف القول فيها المفعول الثاني في جميع القرآن، كما في قوله هنا: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾؛ أي: اتخذوه إلهًا، وقد قدمنا أن النكتة في حذفه دائمًا: التنبيه على أنه لا ينبغي التلفظ بأن عجلًا مصطنعًا من جماد إله، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائمًا في (طه) بقوله: ﴿فَقَالُوا هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٦٢).
(٢) تفسير النسفي (٢/ ٧٧).
(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٥٤).
(٤) طه: الآية (٨٩).
(٥) أضواء البيان (٢/ ٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

★ غريب الآية:

سقط في أيديهم: أي ندموا وتحيروا في أمرهم. وأصل السقوط: الوقوع من عُلُوٍّ إلى سفل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف -جل ثناؤه- صفته عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم، وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف، وعاجز عن شيء: قد سقط في يديه، وأسقط، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره فيكتفه، فالمرمي به مسقوط في يدي الساقط به، فقيل لكل عاجز عن شيء ومصارع لعجزه متندم على ما فاته: سقط في يديه وأسقط.

وعنى بقوله: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾»(١).

وقال صديق حسن خان: «في هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال والاعتراف بعظم ما أقدموا عليه من الذنب، والندم على ما صدر منهم، والرَّغب إلى الله في إقالة عثرتهم واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم، وسيأتي في سورة (طه) إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦٢-٦٣).

قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد»[1].

وقال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن عبدة العجل اعترفوا بذنبهم، وندموا على ما فعلوا، وصرّح في سورة (البقرة) بتوبتهم ورضاهم بالقتل وتوبة الله -جل وعلا- عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]»[3].

وقال أبو السعود: «تقديم الرحمة على المغفرة، مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية، إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي، وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم»[4].

* * *

---

(١) فتح البيان (٥/ ٢٢).

(٢) البقرة: الآية (٥٤).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٤١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

★ غريب الآية:

أَسِفًا: أي: شديد الغضب. والأسَف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك. والأسيف أيضًا: الحزين.

بئسما خلفتموني: أي: بئس العمل عملتم بعدي؛ يقال: خَلَفَهُ يخلفه: إذا سَدَّ مَسَدَّهُ وناب عنه، ويقال: خلفه بما يكره، ويقال في الخير أيضًا.

أعجلتم أمر ربكم: أي: سبقتموه. والعجلة: التسرع، وهو التقدم بالشيء قبل وقته.

ولا تشمت بي الأعداء: أي: لا تسرّهم. والشماتة: إظهار السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، وانتصاب ﴿غَضْبَٰنَ﴾ و﴿أَسِفًا﴾ على الحال..

قال ابن جرير: أخبره اللَّه قبل رجوعه بأنهم فتنوا، فلذلك رجع غضبان أسفًا، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ هذا ذم من موسى لقومه؛ أي: بئس العمل ما عملتموه من بعد غيبتي عنكم، يقال: خلفه بخير وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان باللَّه وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلون أحوالهم واضطراب أفعالهم، ثم قال منكرًا عليهم: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، والعجلة: التقدم بالشيء قبل وقته، . . . والمعنى:

أعجلتم عن انتظار أمر ربكم؛ أي: ميعاده الذي وعدنيه وهو الأربعون، ففعلتم ما فعلتم، وقيل معناه: تعجلتم سخط ربكم، وقيل معناه: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي: طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه، وهم عاكفون على عبادة العجل»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفًا أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[٢]، وقال ههنا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسقني مساقهم، ولا تخلطني معهم، وإنما قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ لتكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى ﷺ براءةَ ساحةِ هارون ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[٣]، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»[٤].

قال ابن جرير: «اختلف أهل العلم في سبب إلقائه إياها -أي: الألواح-، فقال بعضهم: ألقاها غضبًا على قومه الذين عبدوا العجل،.. وقال آخرون: إنما ألقى موسى الألواح؛ لفضائل أصابها فيها لغير قومه، فاشتد ذلك عليه،.. والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك أن يكون سبب إلقاء موسى الألواحَ كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجلَ؛ لأن اللهَ -جل ثناؤه- بذلك أخبر في كتابه فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾»[٥].

وقال ابن عطية بعد حكايته القول الثاني: «وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى ﷺ به، والأول هو الصحيح»[٦].

---

(١) فتح القدير (٢/ ٣٤٩).
(٢) طه: الآيات (٩٢-٩٤).
(٣) طه: الآية (٩٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٧).
(٥) جامع البيان (٩/ ٦٤-٦٥).
(٦) المحرر الوجيز (٢/ ٤٥٧).

وقال ابن كثير: «ثم ظاهر السياق، أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولًا غريبًا، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون، وأفاكون وزنادقة»[(١)].

قال ابن العربي: «وفي هذا -أي: فيما أظهر هارون لموسى عليه السلام من العذر لما أخذ برأسه يجره إليه- دليل على أن لمن خشي القتل عند تغيير المنكر أن يسكت عنه»[(٢)].

قال السيوطي: «قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ استدل به ابن تيمية على أن من ألقى كتب علم من يده إلى الأرض وهو غضبان لا يلام»[(٣)].

قال القاسمي نقلًا عن الجشمي: «وتدل الآية على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين»[(٤)].

قال ابن عاشور: «وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة، غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد، ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الخبر ليس كالمعاينة

* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة: إن الله ﷻ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت**»[(٦)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٧).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٩٣).

(٣) الإكليل (ص: ١٣١)

(٤) محاسن التأويل (٧/ ٢٥٨).

(٥) التحرير والتنوير (٩/ ١١٦).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤/ ١٢٤٥١)، وفي الأوسط (١/ ٤٥-٤٦/ ٢٥)، والبزار (كشف الأستار ١/ ١١١/ ٢٠٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٩٦-٩٧/ ٦٢١٣-٦٢١٤) والحاكم (٢/ ٣٨٠) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٥٣) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح».

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «"ليس الخبر كالمعاينة" أي: المشاهدة؛ إذ هي تحصيل العلم القطعي. وقد جعل اللَّه لعباده آذانًا واعية، وأبصارًا ناظرة، ولم يجعل الخبر في القوة كالنظر بالعيان»[١].

قوله: «ألقى الألواح فانكسرت»:

قال المناوي: «أفاد هذا أنه ليس حال الإنسان عند معاينته الشيءَ كحاله عند الخبر عنه في السكون والحركة؛ لأن الإنسان لعله يسكن إلى ما يرى أكثر من الخبر عنه وإن كان صادقًا عنده وكان خبر اللَّه عند موسى ثابتًا»[٢].

قال شيخ الإسلام: «وليس لشكٍّ موسى في خبر اللَّه، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبِرِ، فقد لا يتصور المخبَرَ به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولًا عن تصور المخبَرِ به، وإن كان مصدِّقًا به، ومعلوم أن عند المعاينة، حصل له من تصور المخبَرِ به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذاك التصديق»[٣].

وقال أيضًا: «وقد تنازع الناس في السمع والبصر، أيهما أكمل؟ فذهبت طائفة منهم ابن قتيبة، إلى أن السمع أكمل، لعموم ما يعلم به وشموله، وذهب الجمهور إلى أن البصر أكمل، فليس المخبَرُ كالمعايِن، وليس كل ما يعاين يمكن الإخبار عنه، وليس العلم الحاصل بالخبر، كالعلم الحاصل بالعيان، وإن كان الخبر لا ريب في صدقه، لكن نفس المرء للمعاين، لا يحصل العلم به قبل العيان كما يحصل عند العيان، والتحقيق في هذا الباب أن العيان أتم وأكمل، والسماع أعم وأشمل، فيمكن أن يعلم بالسماع، والخبر أضعاف ما يمكن علمه بالعيان والبصر أضعافًا مضاعفة، ولهذا كان الغيب كله، إنما يعلم بالسماع والخبر، ثم يصير المغيب شهادة، والمخبر عنه معاينة، وعلم اليقين، عين اليقين»[٤].

---

(١) فيض القدير (٥/ ٣٥٨). (٢) فيض القدير (٥/ ٣٥٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٥).
(٤) درء التعارض (٧/ ٣٢٥)، وانظر مفتاح دار السعادة (١/ ٣٥٨).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ «**كان يتعوذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء**»[١].

★ **غريب الحديث:**

دَرك: يروى بفتح الراء وإسكانها، فبالفتح الاسم، وبالإسكان المصدر، والمتعوذ منه أن يلحقه شقاء في الدنيا يتعبه ويثقله، وفي الآخرة يعذبه.

جهد البلاء: يروى بفتح الجيم وضمها، وهو التعب والمشقة، قاله ابن دريد، وقال غيره: بالضم: الوسع والطاقة، وبالفتح: المبالغة والغاية.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ نقلًا عن النووي: «في الحديث دلالة لاستحباب الاستعاذة من الأشياء المذكورة، وأجمع على ذلك العلماء في جميع الأعصار والأمصار»[٢].

وقال القرطبي: «إنما دعا النبي ﷺ بهذه الدعوات، وتعوذ بهذه التعوذات؛ إظهارًا للعبودية، وبيانًا للمشروعية، ليقتدى بدعواته، ويتعوذ بتعويذاته، والله أعلم»[٣].

قال الكرماني: «وإنما دعا -صلى الله تعالى عليه وسلم- بذلك تعليمًا لأمته، وهذه كلمة جامعة؛ لأن المكروه إما أن يلاحظ من جهة المبدأ، وهو سوء القضاء، أو من جهة المعاد، وهو درك الشقاء؛ إذ شقاوة الآخرة هو الشقاء الحقيقي، أو من جهة المعاش، وذلك إما من جهة غيره، وهو شماتة الأعداء، أو من جهة نفسه، وهو جهد البلاء، نعوذ بالله من ذلك»[٤].

وقال القرطبي: «وشماتة الأعداء هي ظفرهم به، أو فرحهم بما يلحقه من الضرر والمصائب»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٦)، والبخاري (١١/ ٦٢٧/ ٦٦١٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠/ ٢٧٠٧)، والنسائي (٨/ ٦٦٣/ ٥٥٠٦).

(٢) فتح الباري (١١/ ١٧٩).

(٣) المفهم (٧/ ٣٥).

(٤) شرح البخاري (٢٢/ ١٥١).

(٥) المفهم (٧/ ٣٥).

قال فضل اللّه الجيلاني: «استعاذ ﷺ من شماتة الأعداء لعظم مواقعها، وشدة تأثيرها في الأنفس البشرية، ونفور طباع العباد عنها، وقد يتسبب عن ذلك تعاظم العداوة المفضية إلى استحلال ما حرمه اللّه تعالى. وفي الحديث دلالة على أن الكلام المسجوع لا يُكره إذا صدر عن غير قصد ولا تكلف، فهو السجع المحمود. والمحمود من السجع ما جاء بانسجام واتفاق. ومنه ما هو مذموم، وهو ما يأتي بتكلف واستكراه»[١].

* * *

(١) فضل اللّه الصمد (١/ ٥٣٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر اللَّه في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ مستغفرًا من فعله بأخيه، ولأخيه من سالف له بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا»[(١)].

وقال الشوكاني: «طلب المغفرة له أولًا، ولأخيه ثانيًا؛ ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من اللَّه مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء؛ فهو ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[(٢)].

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: «هذا ثناء يدل على مزيد الثقة في الرجاء، والدعاءُ في جملته أقوى في استعتاب هارون من الاعتذار له، وأدل على تخييب أمل الأعداء في شيء مما يثير حفيظة الشماتة»[(٣)].

* * *

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦٩).
(٢) فتح القدير (٢/ ٣٥٠).
(٣) المنار (٩/ ٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾

★غريب الآية:

سينالهم: سيلحقهم ويصيبهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ إلهًا ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ بتعجيل الله لهم ذلك، ﴿وَذِلَّةٌ﴾ وهي الهوان؛ لعقوبة الله إياهم على كفرهم بربهم، ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ في عاجل الدنيا قبل آجل الآخرة»[1].

قال ابن كثير: «أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضًا، كما تقدم في سورة (البقرة): ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغارًا في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعةً، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة، متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين.

وهكذا روى أيوب السختياني، عن أبي قلابة الجرمي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل»[3].

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦٩).
(٢) البقرة: الآية (٥٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٧-٤٧٨).

قال الشاطبي: «ووجهه -أي: كون المبتدع يلقى عليه الذل في الدنيا- ظاهر؛ لأن المتخذين للعجل إنما ضلوا به حتى عبدوه؛ لما سمعوا من خواره، ولما ألقى إليهم السامري فيه، فكان في حقهم شبهة خرجوا بها عن الحق الذي كان في أيديهم.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾، فهو عموم فيهم وفيمن أشبههم، من حيث كانت البدع كلها افتراءً على الله؛ حسبما أخبر في كتابه في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] الآية.

فإذن؛ كل من ابتدع في دين الله؛ فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي عزه وجبريته؛ فهم في أنفسهم أذلاّء.

وأيضًا؛ فإن الذلة الحاضرة في الدنيا موجودة في غالب الأحوال، ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا بالسلاطين، ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك؛ استخفى ببدعته، وهرب بها من مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقية.

وقد أخبر اللَّه تعالى أن هؤلاء الذين اتخذوا العجل أن سينالهم ما وعدهم، فأنجز اللَّه وعده، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

وصدق ذلك الواقع باليهود حيثما حلُّوا، وفي أي زمان كانوا، لا يزالون أذلاّء مقهورين: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾، ومن جملة اعتدائهم اتخاذهم العجل.

هذا بالنسبة إلى الذلة، وأما الغضب؛ فمضمونٌ بصادق الأخبار، فيُخاف أن يكون المبتدع داخلًا في حكم الغضب، واللَّه الواقي بفضله»[3].

قلت: دين اللَّه صاف كامل مكتمل في أصوله وفروعه، وسلوكه وأخباره وسيره، فمن غيره وبدله بزيادة أو نقص؛ بدل اللَّه وجهه وحاله؛ كما قال هؤلاء العلماء رحمهم اللَّه الحسن البصري وأبو قلابة في تفسير هذه الآية التي سياقها في

---

(١) الأنعام (١٤٠).

(٢) البقرة: الآية (٦١).

(٣) الاعتصام (١/ ٢١٧-٢١٩).

بني إسرائيل الذين اتخذوا العجل حيث أخبر اللَّه أنه سينزل بهم غضبه وذلته، ولم يفرق هؤلاء العلماء بين الذين اتخذوا العجل، وبين غيرهم ممن يأتي بعدهم، وإن كان من أمة الإسلام، زيادة على ما في التوراة وصحف موسى، فقد ضرب اللَّه تعالى على اليهود الذلة، وأنزل عليهم غضبه وهوانه إلى يوم القيامة، وما هي من المبتدعة ببعيد، فهذا تاريخ الإسلام يشهد أنهم زادوا ونقصوا في دين اللَّه وحرفوا الصفات في كتاب اللَّه، وبعضهم ألقاها وطردها، وحرفوا القدر فذهبوا فيه مذهبين: إما جبرية على مذهب المشركين، وإما مجوسية على مذهب المثبتين خالقًا للظلمات وخالقًا للنور، وإما مرجئة عطلوا الأعمال وفصلوها عن الإيمان، وإما متعصبة للمذاهب، مقدسون للشيوخ، معرضون عن نصوص الكتاب والسنة، وإما رافضة سابون ومكفرون لصحابة رسول اللَّه ﷺ، ومتلاعبون بكل أصول الدين وفروعه، جعلوا لأنفسهم دينًا جديدًا أسسه يهودي اسمه عبد اللَّه بن سبإ، وما تركوا صنفًا من أصناف الشرك إلا عملوا به، وأحدثوا في دينهم هذا حيلًا من أهمها التستر بآل البيت، وهم في الواقع أعداء آل البيت. وإما صوفية وهم امتداد للرفض في كل جزئياته وكلياته ما عدا سب الصحابة فإنهم لا يظهرونه، وإما خوارج يكفرون الأمة بالذنب والمعصية، ويعرضون عن نصوص المشيئة وعن نصوص الشفاعة في إخراج المؤمنين من النار. وإما علمانيون منحلون ومفارقون للكتاب والسنة، يتمسحون بهما متى شاؤوا للتلاعب على العامة بأنهم ينتسبون إلى الإسلام، وهم أعداؤه، وإما شيوعيون واشتراكيون قامت دعوتهم على حرب الرسل والكتب المنزلة من عند اللَّه من بدايتها إلى نهايتها، فهؤلاء كلهم تلاحظ فيهم ما قال اللَّه تعالى بأن عليهم مسكنة وذلة وغضب. فاللهم نجنا من شرهم واكفناهم بما شئت وكيف شئت.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله -تعالى ذكره- أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل، وارتدادهم عن دينهم، يقول -جل ثناؤه-: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط من بعد سيئ أعمالهم، وصدّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائب على المنيبين بإخلاص قلوبهم، ويقين منهم بذلك، ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم، يقول: لساترٌ عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين»[1].

قال الرازي: «وهذه الآية تدل على أن السيئات بأسرها مشتركة في أن التوبة منها توجب الغفران؛ لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يتناول الكل. والتقدير: أن من أتى بجميع السيئات، ثم تاب، فإن الله يغفرها له، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين، والله أعلم»[2].

قال الألوسي: «وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلت وعظمت، فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم

ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه:

---

(١) جامع البيان (٩/ ٧١).

(٢) مفاتح الغيب (١٥/ ١٥).

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا ربي لعفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ويعجبني قول بعضهم، وما أولى هذا المذنب به:

أنا مذنب أنا مخطئ أنا عاصي هو غافر هو راحم هو عافي
قابلتهن ثلاثة بثلاثة وستغلبن أوصافه أوصافي»[1].

* * *

(١) روح المعاني (٩/ ٧٠-٧١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سكت: سكن. والسكوت: الإمساك عن الكلام. والمعنى: انقطع عنه الغضب.

وفي نسختها: النسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر. ويقال للأصل الذي كتبت منه: نسخة، وللفرع: نسخة.

يرهبون: أي: يخافون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «وفي هذا النظم الكريم من البلاغة، والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك، المغري عليه بالتحكم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت، ما لا يخفى»[1].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾: ولما كفّ موسى عن الغضب، وكذلك كل كافٍّ عن شيء: ساكت عنه. وإنما قيل للساكت عن الكلام: ساكت؛ لكفّه عنه. وقد ذكر عن يونس النحوي أنه قال: يقال: سكت عنه الحزن، وكل شيء فيما زعم. ومنه قول أبي النجم:

وهمّت الأفعى بأن تسبّحا وسكت المكّاء أن يصبّحا

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ يقول: أخذها بعدما ألقاها، وقد ذهب منها ما ذهب، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: وفيما نسخ فيها؛ أي: منها ﴿هُدًى﴾ بيان للحق، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يقول: للذين يخافون الله، ويخشون عقابه على معاصيه.

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٦).

واختلف أهل العربية في وجه دخول (اللام) في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ مع استقباح العرب أن يقال في الكلام: رهبت لك، بمعنى: رهبتك، وأكرمت لك، بمعنى: أكرمتك. فقال بعضهم: ذلك كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[١] أوصل الفعل باللام. وقال بعضهم: من أجل ربهم يرهبون. وقال بعضهم: إنما دخلت عقيب الإضافة: الذين هم راهبون لربهم وراهبو ربهم، ثم أدخلت (اللام) على هذا المعنى؛ لأنها عقيب الإضافة لا على التعليق. وقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأن الاسم تقدم الفعل، فحسن إدخال (اللام). وقال آخرون: قد جاء مثله في تأخير الاسم في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٢].

وذكر عن عيسى بن عمر أنه قال: سمعت الفرزدق يقول: نقدت له مائة درهم، يريد: نقدته مائة درهم، قال: والكلام واسع»[٣].

وقال ابن كثير: «استدل بعضهم بقوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ على أنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم»[٤].

قال عبدالقادر بن شيبة الحمد: «وفي قوله: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾دليل على أنها لم تتكسر عندما ألقاها، ولم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها موسى ﷺ. قال القرطبي رحمه الله: قال أبو الفرج بن الجوزي: من يصححُ عن موسى ﷺ أنه رماها رمي كاسر؟ والذي ذُكر في القرآن ألقاها، فمِن أين لنا أنها تكسرت؟ اهـ»[٥].

* * *

(١) يوسف: الآية (٤٣).
(٢) النمل: الآية (٧٢).
(٣) جامع البيان (٩/ ٧١).
(٤) البداية والنهاية (١/ ٢٦٩).
(٥) تهذيب التفسير (٥/ ٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

اختار: الاختيار: الاصطفاء؛ يقال: اخْتَرْتُ هذا: إذا اصطفيته.

فلما أخذتهم الرجفة: أي: ماتوا. والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة.

أهلكتهم: أي: أَمَتَّهُمْ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾[2].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العِدّة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء؛ ليكون منه ومنهم اعتذار إلى اللّه عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل، وطلب لكمال العفو عمن بقي منهم...

واختلف العلماء في سبب الرجفة التي حلّت بهم...

وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه، ويحتمل أن كانت كالإغماء ونحوه، و﴿الرَّجْفَةُ﴾ الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم، فلما رأى موسى ذلك أسف عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأت بالقوم، فجعل يستعطف ربه: أي رب لو أهلكتهم قبل هذه الحال وإياي لكان أحق عليّ، وهذا وقت هلاكهم فيه مفسد عليّ مؤذٍ لي، ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل، ويحتمل قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل؛ أي: وقت عبادتهم على القول بذلك، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي؛ أي: فأنت قد سترت وعفوت حينئذ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فساد لبني إسرائيل، فمنحى

(١) الأعراف: الآية (١٥٥).

(٢) النساء: الآية (١٧٦).

الكلام على هذا محض استعطاف، وعلى التأويل الأول منحاه الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف»[1].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٥٩-٤٦٠).

قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

★ غريب الآية:

فتنتك: أي ابتلاؤك واختبارك عبادَك ليشكروا أم يكفروا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: أتهلك هؤلاء الذين أهلكتهم بما فعل السفهاء منا؛ أي: بعبادة من عبد العجل، قالوا: وكان اللَّه إنما أهلكهم لأنهم كانوا ممن يعبد العجل، وقال موسى ما قال ولا علم عنده بما كان منهم في ذلك...

وقال آخرون: معنى ذلك: أن إهلاكك هؤلاء الذين أهلكتهم هلاك لمن وراءهم من بني إسرائيل إذا انصرفتُ إليهم، وليسوا معي، و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ على هذا القول كانوا المهلكين الذين سألوا موسى أن يريهم ربهم...

وقال آخرون في ذلك بما حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾: أتؤاخذنا وليس منا رجل واحد ترك عبادتك، ولا استبدل بك غيرك؟

وأولى القولين بتأويل الآية قول من قال: إن موسى إنما حزن على هلاك السبعين بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، وأنه إنما عنى بـ(السفهاء): عبدة العجل؛ وذلك أنه محال أن يكون موسى ﷺ كان تخير من قومه لمسألة ربه ما أراه أن يسأل لهم إلا الأفضل، فالأفضل منهم، ومحال أن يكون الأفضل كان عنده من أشرك في عبادة العجل، واتخذه دون اللَّه إلهًا.

قال: فإن قال قائل: فجائز أن يكون موسى ﵇ كان معتقدًا أن اللَّه سبحانه يعاقب قومًا بذنوب غيرهم فيقول: أتهلكنا بذنوب من عبد العجل، ونحن من ذلك برآء؟

قيل: جائز أن يكون معنى الإهلاك: قبض الأرواح على غير وجه العقوبة، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾[1] -يعني: مات- فيقول: أتميتنا بما فعل السفهاء منا؟

وأما قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ فإنه يقول -جل ثناؤه-: ما هذه الفعلة التي فعلها قومي من عبادتهم ما عبدوا دونك، إلا فتنة منك أصابتهم، ويعني بالفتنة: الابتلاء والاختبار، يقول: ابتليتهم بها ليتبين الذي يضل عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بترك عبادته، وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى اللّه، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سبب منه -جل ثناؤه-. . .

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يقول: أنت ناصرنا، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ يقول: فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا عليها، ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾: تعطّف علينا برحمتك، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ يقول: خير من صفح عن جرم، وستر على ذنب»[2].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت. ولعله ﷺ استفاد هذا من قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾[3]. ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: تضلّ بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدي بها من تشاء منهم، ومثله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4]. ثم رجع إلا الاستعطاف والدعاء فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: المتولي لأمورنا، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما أذنبناه، ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ للذنوب»[5].

قال صديق حسن خان: «قال الواحدي: وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر»[6].

* * *

(١) النساء: الآية (١٧٦).
(٢) جامع البيان (٩/ ٧٦-٧٧).
(٣) طه: الآية (٨٥).
(٤) هود: الآية (٧).
(٥) فتح القدير (٢/ ٣٥٤).
(٦) فتح البيان (٥/ ٣١).

قوله تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

إنا هدنا إليك: أي: تُبنا. والهَوْد: التوبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن دعاء نبيه موسى ﷺ أنه قال فيه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾أي: اجعلنا ممن كتبت له ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾، وهي الصالحات من الأعمال، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ممن كتبت له المغفرة لذنوبه . . .

وقوله: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾يقول: إنا تبنا إليك»[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذا من بقية دعاء موسى ﷺ عند مشاهدة الرجفة. فقوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾معناه: أنه قرر أولًا أنه لا ولي له إلا اللَّه تعالى، وهو قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ثم إن المتوقع من الولي والناصر أمران: أحدهما: دفع الضرر. والثاني: تحصيل النفع. ودفع الضرر مقدم على تحصيل النفع، فلهذا السبب بدأ بطلب دفع الضرر، وهو قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ثم اتبعه بطلب تحصيل النفع، وهو قوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾وقوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾أي: وجّب لنا، والكتابة تذكر بمعنى الإيجاب، وسؤاله الحسنة في الدنيا والآخرة كسؤال المؤمن من هذه الأمة حيث أخبر اللَّه تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾[3].

واعلم أن كونه تعالى وليًّا للعبد يناسب أن يطلب العبد منه دفع المضار وتحصيل

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٦).

(٢) جامع البيان (٩/ ٧٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٠١).

المنافع ليظهر آثار كرمه وفضله وإلهيته، وأيضًا اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع يناسب طلب هذه الأشياء، فذكر السبب الأول أولًا، وهو كونه تعالى وليًا له، وفرّع عليه طلب هذه الأشياء، ثم ذكر بعده السبب الثاني، وهو اشتغال العبد بالتوبة والخضوع، فقال: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ قال المفسرون: ﴿هُدْنَآ﴾ أي: تبنا ورجعنا إليك، قال الليث: الهود: التوبة، وإنما ذكر هذا السبب أيضًا؛ لأن السبب الذي يقتضي حسن طلب هذه الأشياء ليس إلا مجموع هذين الأمرين كونه إلهًا وربًّا ووليًّا، وكوننا عبيدًا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأول: عهد عزة الربوبية. والثاني: عهد ذلة العبودية، فإذا حصلا واجتمعا فلا سبب أقوى منهما»[1].

* * *

---

(١) مفاتح الغيب (١٥/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿قَالَ﴾ اللَّه لموسى: هذا الذي أصبت به قومك من الرجفة ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ من خلقي، كما أصيب به هؤلاء الذين أصبتهم به من قومك، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ يقول: ورحمتي عمت خلقي كلهم، وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: مخرجه عام ومعناه خاص، والمراد به: ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد ﷺ، واستشهد بالذي بعده من الكلام، وهو قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية... وقال آخرون: بل ذلك على العموم في الدنيا وعلى الخصوص في الآخرة... وقال آخرون: هي على العموم، وهي التوبة...

وأما قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فإنه يقول: فسأكتب رحمتي التي وسعت كل شيء، ومعنى أكتب في هذا الموضع، أكتب في اللوح الذي كتب فيه التوراة للذين يتقون، يقول: للقوم الذين يخافون اللَّه، ويخشون عقابه على الكفر به، والمعصية له في أمره ونهيه، فيؤدون فرائضه، ويجتنبون معاصيه، وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي وصف اللَّه هؤلاء القوم بأنهم يتقونه، فقال بعضهم: هو الشرك... وقال آخرون: بل هو المعاصي كلها... وأما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فإنه يقول: وللقوم الذين هم بأعلامنا وأدلتنا يصدقون ويقرون»[1].

قال السمعاني في قوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾: «وهذا على وفق قول أهل السنة؛ فإن لله تعالى أن يصيب بعذابه من يشاء من عباده أذنب أو لم يذنب،

(١) جامع البيان (٩/ ٧٩-٨١) باختصار.

وصحّف بعض القدرية، فقرأ: (عذابي أصيب به من أساء) من الإساءة، وليس بشيء»[١].

قال أبو حيان: «قرأ زيد بن علي والحسن وطاوس وعمرو بن فائد: (مَنْ أَسَاءَ) من الإساءة. وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس. وعمرو بن فائد رجل سوء. وقرأ بها سفيان بن عيينة مرة واستحسنها، فقام إليه عبدالرحمن المقرئ وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر ولم أفطن لما يقول أهل البدع. وللمعتزلة تعلق بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهة خلق المرء أفعاله، وإن (أساء) لا فعل فيه لله تعالى. والانفصال عن هذا كالانفصال عن سائر الظواهر»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الرحمة لله تعالى

* عن أبي هريرة قال: «قام رسول اللّه ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: **لقد حجّرت واسعًا**. يريد رحمة الله»[٣].

★ غريب الحديث:

حجّرت: بمهملة ثم بمعجمة ثقيلة ثم راء؛ أي: ضيّقت، وزنًا ومعنىً.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «وهذا الدعاء حرام؛ لأنه دعا أن لا يرحم أحدًا غيرهما»[٤].

والمعنى -**يقول القسطلاني**-: «ضيّقت واسعًا، وخصّصت ما هو عام، يريد

---

(١) تفسير القرآن (٢/ ٢٢١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٠٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٣)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١٠)، وأبو داود (١/ ٢٦٣-٢٦٤/ ٣٨٠)، والترمذي (١/ ٢٧٥-٢٧٦/ ١٤٧)، والنسائي (٣/ ١٩/ ١٢١٥)، وابن ماجه (١/ ١٧٦/ ٥٢٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢١/ ١٦٢).

عليه -الصلاة والسلام- رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء»[١].

قال ابن بطال: «وأما إنكار النبي ﷺ على الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم أحدًا معنا، بقوله: «لقد حجّرت واسعًا» ولم يعجبه دعاؤه لنفسه وحده، فلأنه بخل برحمة اللَّه على خلقه، وقد أثنى اللَّه على من فعل خلاف ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٢]، وأخبر تعالى أن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض، فينبغي للمؤمن الاقتداء بالملائكة والصالحين من المؤمنين، ليكون من جملة من أثنى اللَّه عليه ورضي فعله، فلم يخص نفسه بالدعاء دون إخوانه المؤمنين، حرصًا على شمول الخير لجميعهم»[٣].

* عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**جعل اللَّه الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[٤].

* عن سلمان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض. فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة**»[٥].

⋆ فوائد الحديثين:

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن كل ما في جميع الأرض، من رحمة في قلوب جميع الخلق، جزء من مائة جزء مما أعد اللَّه لعباده من الرحمة، وإن باقي المائة، وذلك تسعة وتسعون، جزء مأخرة عنده ﷻ لهم»[٦].

---

(١) إرشاد الساري (١٣/ ٤٦).
(٢) الحشر: الآية (١٠).
(٣) شرح البخاري (٩/ ٢٢٠).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٤)، والبخاري (١٠/ ٥٢٩/ ٦٠٠٠)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥٢[١٩])، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٣[٢١]).
(٦) بهجة النفوس (٤/ ١٥٣-١٥٤).

وهذا الحديث -يقول النووي-: «من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين؛ قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار، المبنية على الأكدار، الإسلامُ والقرآنُ والصلاةُ والرحمةُ في قلبه، وغيرُ ذلك مما أنعم اللَّه تعالى به، فكيف الظن بمئة رحمة في الدار الآخرة، وهي دار القرار ودار الجزاء، واللَّه أعلم»[١].

وقال ابن أبي جمرة في قوله ﷺ: «فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا»: «وأما قولنا: لمن ذلك الإمساك؟ هل لجميع الخلق، أو لِعَبِيدٍ معينين منهم؟ أما من الحديث فليس فيه ما يدل على ذلك، لكن قد أفصح الكتاب والسنة بذلك، أما الكتاب فآيات عديدة، منها قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.. إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.. إلى قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣]، وأما السنة فالأخبار فيها كثيرة، منها الأخبار بأمر الساعة، وكيف يحشر جميع الخلق، فيقال بعد الحساب للكل ما عدا الثقلين الجن والإنس: كونوا ترابًا، فيعودون ترابًا، والثقلان قسمان: إما شقي ففي النار، وإما سعيد ففي الجنة، فمن كان في النار أو صار ترابًا، لم يبق له في تلك الرحمة نصيب، وبقيت موفرة لأهل دار الكرامة، وهم المؤمنون، من الثقلين الجن والإنس، جعلنا الله من أهل دار السعادة بمنّه»[٤].

وفي الحديث إثبات صفة الرحمة وهي من صفات اللَّه الثابتة بالكتاب والسنة، وهي صفة كمال لائقة بذاته كسائر صفاته العلى، لا يجوز نفيها ولا تعطيلها؛ لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه.

وأما قول الزمخشري وأصحابه إن الرحمة مجاز في حق اللَّه تعالى وأنها عبارة عن إنعامه على عباده، فهي نزعة اعتزالية قد حفظ اللَّه تعالى منها سلف المسلمين وأئمة الدين، فإنهم أقروا ما ورد على ما ورد، وأثبتوا لله تعالى ما أثبته له نبيه ﷺ من غير تصرف بكناية أو مجاز، وقالوا: لسنا أغير على اللَّه من رسوله.

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ٥٧).
(٢) المؤمنون: الآيات (١-١٠).
(٣) الأعراف: الآيتان (١٥٦و١٥٧).
(٤) بهجة النفوس (٤/ ١٥٤).

وقد رد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على القائلين بأن رحمة اللَّه مجاز، ردًا مفصّلًا في كتابه «الصواعق»[١] نذكره ملخصًا:

«**الرد الأول**: إن الإلحاد إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم أو بإنكار معناه، فإن كان إنكار لفظه إلحاد فمن ادّعى أن الرحمن مجاز لا حقيقة فإنه يجوز إطلاق القول بنفيها، فلا يستنكف أن يقول: ليس بالرحمن ولا الرحيم، كما يصح أن يقال للرجل الشجاع: ليس بأسد على الحقيقة، وإن قالوا: نتأدب في إطلاق هذا النفي، فالأدب لا يمنع صحة الإطلاق، وإن كان الإلحاد هو إنكار معاني أسمائه وحقائقها، فقد أنكرتم معانيها التي تدل عليها بإطلاقها، وما صرفتموه إليه من المجاز فنقيض معناها، أو لازم من لوازم معناها، وليس هو الحقيقة، ولهذا يصرح غلاتهم بإنكار معانيها بالكلية، ويقولون: هي ألفاظ لا معاني لها.

الرد الثاني: إن الحامل لكم على دعوى المجاز في اسم (الرحمن) هو بعينه موجود في اسم العليم، والقدير، والسميع، والبصير، وسائر الأسماء فإن المعقول من العلم صفة عرضية تقوم بالقلب إما ضرورية وإما نظرية والمعقول من الإرادة حركة النفس الناطقة لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها أو ينفع غيرها أو يضره، والمعقول من القدرة القوة القائمة بجسم تتأتى به الأفعال الاختيارية فهل تجعلون إطلاق هذه الأسماء والصفات على اللَّه حقيقة أم مجازًا؟ فإن قلتم حقيقةً تناقضتم أقبح التناقض إذ عمدتم إلى صفاته سبحانه فجعلتم بعضها حقيقة وبعضها مجازًا مع وجود المحذور فيما جعلتموه حقيقة، وإن قلتم لا يستلزم ذلك محذورًا فمن أين استلزم اسم (الرحمن) المحذور، وإن قلتم الكل مجاز لم تتمكنوا بعد ذلك من إثبات حقيقة اللَّه ألبتة لا في أسمائه ولا في الإخبار عنه بأفعاله وصفاته، وهذا انسلاخ من العقل والإنسانية.

الرد الثالث: أن نفاة الصفات يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى، فإن (العليم) و(القدير) و(السميع) و(البصير) أسماء تتضمن ثبوت الصفات في اللغة فيمن وصف بها، فاستعمالها لغير من وصف بها استعمال للاسم في غير ما وضع له، فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها، فإن الاسم المشتق تابع

(١) انظر نص كلامه في «مختصر الصواعق» (ص: ٣٤٢-٣٤٨).

للمشتق منه في النفي والإثبات، فإذا انتفت حقيقة الرحمة والعلم والقدرة والسمع والبصر، انتفت الأسماء المشتقة منها عقلًا ولغةً، فيلزم من نفي الحقيقة أن تنفي الصفات والاسم جميعًا.

الرد الرابع: إنه كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح اللَّه بها كتابه في (أم القرآن)، وهي من أظهر شعار التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام، وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال، كيف يكون مجازًا؟ هذا من أشنع الأقوال، فهذان الاسمان اللذان افتتح اللَّه بهما (أم القرآن)، وجعلهما عنوان ما أنزله من الهدي والبيان. وضمنهما الكلمة التي لا يثبت لها شيطان، وافتتح بها كتابه نبيُّ اللَّه سليمان، وكان جبرائيل ينزل بها على النبي ﷺ عند افتتاح كل سورة من القرآن.

الرد الخامس: قولهم: (الرحمة: رقة القلب) تريدون رحمة المخلوق أم رحمة الخالق أم كل ما سمي رحمة شاهدًا أو غائبًا، فإن قلتم بالأول صدقتم ولم ينفعكم ذلك شيئًا، وإن قلتم بالثاني والثالث كنتم قائلين غير الحق، فإن الرحمة صفة الرحيم، وهي في كل موصوف بحسبه، فإن كان الموصوف حيوانًا له قلب فرحمته من جنسه رقة قائمة بقلبه، وإن كان ملكًا فرحمته تناسب ذاته، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة، لم يلزم أن تكون رحمته من جنس المخلوق لمخلوق وهذا يطرد في سائر الصفات كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياة والإرادة إلزامًا وجوابًا، فكيف يكون رحمة أرحم الراحمين مجازًا دون السميع العليم؟

الرد السادس: إن اسم (الرحمة) استعمل في صفة الخالق وصفة المخلوق، فإما أن يكون حقيقة في الموصوفين، أو حقيقة في الخالق مجازًا في المخلوق أو عكسه، فإذا كانت حقيقة فيهما، فإما حقيقة واحدة وهو التواطؤ أو حقيقتان وهو الاشتراك، ومحال أن تكون مشتركة؛ لأن معناها يفهم عند الإطلاق ويجمعهما معنى واحد ويصح تقسيمها، وخواص المشترك منفية عنها، ولأنها لم يشتق لها وضع في حق المخلوق، ثم استعيرت من المخلوق للخالق، تعالى اللَّه عما يقول أهل الزيغ والضلال فبقي قسمان: أحدهما: أن تكون حقيقة في الخالق مجازًا في المخلوق، والثاني: أن تكون حقيقة متواطئة أو مشتركة، وعلى التقديرين فبطل أن يكون إطلاقها على اللَّه سبحانه مجازًا.

الرد السابع: إنه من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازًا، ورحمة العبد الضعيفة القاصرة المخلوقة المستعارة من ربه التي هي من آثار رحمته حقيقة، وهل في قلب الحقائق أكثر من هذا.

الرد الثامن: وهو ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: يقول اللَّه تعالى: **«أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»**[1]، فهذا صريح في أن اسم (الرحمة) مشتق من اسمه (الرحمن) تعالى، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ، ومثل هذا قول حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ:

فشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

فإذا كانت أسماء الخلق المحمودة مشتقة من أسماء اللَّه الحسنى كانت أسماؤه يقينًا سابقة، فيجب أن تكون حقيقة؛ لأنها لو كانت مجازًا لكانت الحقيقة سابقة لها. فإن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، فيكون اللفظ قد سمي به المخلوق ثم نقل إلى الخالق، وهذا باطل قطعًا.

الرد التاسع: ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«لما قضى اللَّه الخلق كتب كتابًا فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»**[2]، وفي لفظ: «غلبت»، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[3]، فوصف نفسه سبحانه بالرحمة، وتسمى بـ(الرحمن) قبل أن يكون بنو آدم، فادّعاء المدّعي أن وصفه بـ(الرحمن) مجاز من أبطل الباطل.

الرد العاشر: إنه من المعلوم أن المعنى المستعار يكون في المستعار منه أكمل منه في المستعار له، وأن المعنى الذي دل عليه اللفظ بالحقيقة أكمل من المعنى الذي دل عليه بالمجاز، وإنما يستعار لتكميل المعنى المجازي تشبيهه بالحقيقي،

---

(١) أخرجه من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: أحمد (١/ ١٩٦)، وأبو داود (٢/ ٣٢٢/ ١٦٩٤)، والترمذي (٤/ ٢٧٨/ ١٩٠٧) وقال: «حديث صحيح»، وصححه الحاكم (٤/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٢-٢٥٨)، والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٥).

(٣) الأنعام: الآية (٥٤).

كما يستعار (الشمس) و(القمر) و(البحر) للرجل الشجاع والجميل والجواد، فإذا جعل (الرحمن) و(الرحيم) و(الودود) وغيرهما من أسمائه سبحانه حقيقة في العبد، مجازًا في الرب لزم أن تكون هذه الصفات في العبد أكمل منها في الرب تعالى.

الرد الحادي عشر: إن الله ﷻ فرق بين رحمته والرضوان وثوابه المنفصل فقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[(١)]، فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابًا منفصلًا مخلوقًا. وقول من قال: هي إرادتُه الإحسانَ، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة؛ فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم، فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان»[(٢)].

قال الشيخ ابن عثيمين مبيِّنًا أوجه الفرق بين الرحمة التي يتصف بها الخالق، والرحمة التي يتصف بها المخلوق: «ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق، لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، . . فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا الله ﷻ الذي خلقها، فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة، رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟ الجواب: أبدًا، لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق، أنها صفة تقتضي الإحسان إلى المخلوق، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة؛ لأنها من صفاته، فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق؛ لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن؛ لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها»[(٣)].

* عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت

(١) التوبة: الآية (٢١).
(٢) انظر النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٨٠-٨٥).
(٣) القول المفيد (١/ ٤٣٨).

النار: أي رب! يدخلني الجبابرة والملوك والعظماء والأشراف، وقالت الجنة: يا رب! يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين، فقال اللَّه للنار: أنت عذابي أصيب بكِ من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي وسعتِ كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «اعلم أن الرحمة المضافة إلى اللَّه تعالى نوعان:

أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: «**احتجت الجنة والنار**»، فذكر الحديث وفيه: «**فقال للجنة إنما أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء**»، فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة؛ لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء، ومنه قوله ﷺ: «**خلق اللَّه الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض**»... ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾[٢]، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[٣]، وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديمًا وحديثًا وهو قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣و٧٨)، وأبو يعلى (٢/ ٤٨٣/ ١٣١٣)، وصححه ابن حبان (١٦/ ٤٩٢/ ٧٤٥٤). وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٢) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات؛ لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط».

(٢) هود: الآية (٩).

(٣) الأعراف: الآية (٥٧).

(٤) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

إصرهم: الإصر: الثقل. والإصر: العهد أيضًا. وقد جمعت هذه الآية المعنيين.

الأغلال: أي: الأثقال. واحده: غل، وهو مختص بما يقيد به، فيجعل الأعضاء وسطه.

عزّروه: معناه هنا: نصروه وأيدوه. والتعزير في الأصل: النصرة مع التعظيم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا القول إبانة من الله -جل ثناؤه- عن أن الذين وعد موسى نبيه ﷺ، أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ هم أمة محمد ﷺ؛ لأنه لا يعلم لله رسول وصف بهذه الصفة -أعني ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾- غير نبينا محمد ﷺ، وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل..

وأما قوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ فإن الهاء في قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ عائد على الرسول، وهو محمد ﷺ»[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾:

(١) جامع البيان (٩/ ٨١-٨٣) باختصار.

«يقول -تعالى ذكره-: يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف، وهو الإيمان باللَّه ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك المعروف الذي يأمرهم به، وينهاهم عن المنكر، وهو الشرك باللَّه، والانتهاء عما نهاهم اللَّه عنه.

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك ما كانت الجاهلية تحرمه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ وذلك لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المطاعم والمشارب التي حرمها اللَّه...

وأما قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: يعني بالإصر العهد والميثاق، الذي كان أخذه على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة،.. وقال بعضهم: عنى بذلك أنه يضع عمن اتبع نبي اللَّه ﷺ التشديد الذي كان على بني إسرائيل في دينهم»[1].

قال ابن عطية مرجّحًا: «وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد بأن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عليهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال... ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ عبارة مستعارة أيضًا لتلك الأثقال، كقطع الجلد من أثر البول، وأن لا دية، ولا بد من قتل للقاتل، وترك الأشغال يوم السبت... هذا قول جمهور المفسرين... وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بـ قول اللَّه ﷻ في اليهود: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغليلها»[2].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: «يقول -تعالى ذكره-: فالذين صدقوا بالنبي الأمي، وأقروا بنبوته، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يقول: وقّروه وعظّموه وحموه من الناس،.. وقوله: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يقول: وأعانوه على أعداء اللَّه وأعدائه بجهادهم ونصب الحرب لهم، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ﴾ يعني القرآن والإسلام، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يقول: الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها -جل ثناؤه- أتباع محمد ﷺ، هم

---

(١) جامع البيان (٩/ ٨٤) باختصار.

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٤٦٣-٤٦٤) باختصار.

المنجحون المدركون ما طلبوا ورجوا بفعلهم ذلك»[1].

قال الرازي: «إنه تعالى وصف محمدًا ﷺ في هذه الآية بصفات تسع:

الصفة الأولى: كونه رسولًا، وقد اختص هذا اللفظ بحسب العرف بمن أرسله اللَّه تعالى إلى الخلق لتبليغ التكاليف[2].

الصفة الثانية: كونه نبيًا، وهو يدل على كونه رفيع القدر عند اللَّه تعالى.

الصفة الثالثة: كونه أمّيًا. قال الزجاج: معنى (الأمّيّ) الذي هو على صفة أمة العرب. قال عليه الصلاة والسلام: «إنّا أمة أمّيّة، لا نكتب ولا نحسب»[3]، فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤون، والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أمّيًا. قال أهل التحقيق: وكونه أمّيًا، بهذا التفسير، كان من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه: الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب اللَّه تعالى منظومًا مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه، ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها، فإنه لا بد وأن يزيد فيها، وأن ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ، يتلو كتاب اللَّه من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير. فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[4]، والثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهمًا في أنه ربما طالع كتب

---

(١) جامع البيان (٩/ ٨٥-٨٦) باختصار.

(٢) قال شيخ الإسلام في بيان وجه الفرق بين لفظ (الرسول) و(النبي): «فالنبي هو الذي ينبئه اللَّه، وهو ينبئ بما أنبأ اللَّه به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر اللَّه ليبلغه رسالة من اللَّه إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن اللَّه رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.. فقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعلم، ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً، وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾». (النبوات ٣/ ٧١٤-٧١٩).

(٣) سيأتي تخريجه قريباً في الأحاديث الأصول.

(٤) الأعلى: الآية (٦).

الأولين، فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة، كان ذلك من المعجزات، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]، الثالث: أن تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلًا وفهمًا، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريًا مجرى الجمع بين الضدّين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وجارٍ مجرى المعجزات.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله؛ لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم النفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله، فلما قال ذلك، دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، قال الزجاج: يجوز أن يكون قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ استئنافًا، ويجوز أن يكون المعنى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[2].

قال ابن كثير: «هذه صفة الرسول في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد اللَّه بن مسعود: «إذا سمعت اللَّه يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأَرْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه اللَّه تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٨).

(٢) مفاتح الغيب (١٥/ ٢٥-٢٦).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1]»[2].

ثم قال الرازي: «الصفة السادسة: قوله: ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، والمراد منه أضداد الأمور المذكورة وهي عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾، من الناس من قال: المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها وهذا بعيد لوجهين: الأول: أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات، وهذا محض التكرير. الثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة؛ لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؛ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع، وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل، فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل، إلا لدليل منفصل.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ﴿الْخَبَائِثَ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة (المائدة) إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ وأقول: كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سببًا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل منفصل. وعلى هذا الأصل: فرع الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تحريم بيع الكلب؛ لأنه روى عن ابن عباس عن النبي ﷺ في كتاب الصحيحين أنه قال: «الكلب خبيث، وخبيث ثمنه»[3]، وإذا ثبت أن ثمنه خبيث وجب أن يكون حرامًا لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، وأيضًا الخمر محرمة؛ لأنها رجس بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿رِجْسٌ﴾ والرجس خبيث بدليل إطباق أهل اللغة عليه، والخبيث حرام لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

---

(١) النحل: الآية (٣٦). (٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٨-١١٩) والبخاري (٤/ ٥٣٦/ ٢٢٣٧) ومسلم (٣/ ١١٩٨/ ١٥٦٧) وأبو داود (٣/ ٧١٠/ ٣٤٢٨) والترمذي (٣/ ٤٣٩/ ١١٣٣) والنسائي (٧/ ٢١٥/ ٤٣٠٣) وابن ماجه (٢/ ٧٣٠/ ٢١٥٩) كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه. أما حديث ابن عباس فليس في الصحيحين، وإنما أخرجه أحمد (١/ ٢٧٨).

الصفة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾»[١].

وقال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على أن شريعته ﷺ أسهل الشرائع، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية، وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة[٢]. وتدل على وجوب تعظيم الرسول، ونصره بالجهاد، ونصرته بنصرة دينه، وكل أمر يؤدي إلى توهين ما يتصل بذلك؛ لأن جميع ذلك من باب النصرة، وهذا لا يختص بعصره، فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف، ولعل الجهاد بالبيان وإيراد الحجة ووضع الكتب فيه، وحل شبه المخالفين، يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف، ولهذا قلنا منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل»[٣].

قال الرازي: «واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة؛ لأن كل ما كان ضررًا كان إصرًا وغلاً، وظاهر هذا النص يقتضي عدم المشروعية، وهذا نظير لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٤] في الإسلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**بعثت بالحنيفية السهلة السمحة**»[٥]، وهو أصل كبير في الشريعة»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض صفات الرسول ﷺ

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا**»، يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين[٧].

---

(١) مفاتح الغيب (١٥/ ٢٦-٢٧).

(٢) قال ابن العربي: «وكان فيما سبق من الشرائع تكاليف كثيرة، فيها مشاق عظيمة، وخفف تلك المشاق لمحمد ﷺ، فمنها مشقتان عظيمتان: الأولى في البول، كان إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه، فخفف الله ذلك عن هذه الأمة بالغسل بالماء.. ومن الإصر الذي وضع إحلال الغنائم، وكانت حراماً على سائر الأمم، ومنها أن لا تجالس الحائض ولا تؤاكل، فخفف الله ذلك في دينه، فقال ﷺ: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنه بأعلاها» في أعداد لأمثالها». (أحكام القرآن ٢/ ٧٩٥).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٧٨).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة (الأنعام).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة (الأنعام).

(٦) مفاتيح الغيب (١٥/ ٢٧).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣ و٥٢)، والبخاري (٤/ ١٥٩/ ١٩١٣)، ومسلم (٢/ ٧٦١/ ١٠٨٠[١٥])، وأبو داود (٢/ ٧٣٩-٧٤٠/ ٢٣١٩)، والنسائي (٤/ ٤٤٦-٤٤٧/ ٢١٣٩-٢١٤٠).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرحه وبيان معناه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في سورة (البقرة) تحت قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الآية (٧٨).

* عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: «**أجل -والله- إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1]، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفتَحُ بها أعين عمي، وآذان صم، وقلوب غلف»[2].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرح غريبه وبيان فوائده عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الآية (١١٩) من سورة (البقرة)، وعند قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ﴾ الآية: (١٥٩) من سورة (آل عمران).

* عن الفلتان بن عاصم قال: «**كنا قعودًا مع النبي ﷺ في المسجد، فشخص بصره إلى رجل يمشي في المسجد، فقال: يا فلان، أتشهد أني رسول الله؟ قال: لا. قال: أتقرأ التوراة؟ قال: نعم، قال: والإنجيل؟ قال: نعم، قال: والقرآن؟ قال: والذي نفسي بيده، لو أشاء لقرأته. قال: ثم أنشده، فقال: تجدني في التوراة والإنجيل؟ قال: نجد مثلك ومثل أمتك ومثل مخرجك، وكنا نرجو أن تكون فينا، فلما خرجت، تخوفنا أن تكون أنت، فنظرنا فإذا ليس أنت هو. قال: ولم ذاك؟ قال: إن معه من أمته سبعين ألفًا ليس عليهم حساب ولا عقاب، وإن ما معك نفر يسير، قال: فوالذي نفسي بيده لأنا هو، وإنها لأمتي، وإنهم لأكثر من سبعين ألفًا،**

---

(١) الأحزاب: الآية (٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (٤/ ٤٣١/ ٢١٢٥).

وسبعين ألفًا، وسبعين ألفًا»[١].

★ **غريب الحديث:**

فشخص بصره: شخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق، وتحديد النظر وانزعاجه.

★ **فوائد الحديث:**

المقصود من إيراد هذا الحديث هنا: بيان أن هذه الصفة التي نعت اللَّه بها نبيه ﷺ في كتابه هي صفته ﷺ الموصوف بها «في كتب الأنبياء قبله بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم»[٢].

قال القسطلاني: «وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته، لكن أهل الكتاب كما قال اللَّه تعالى: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣]، و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[٤]، وإلا فهم -قاتلهم الله- عرفوا محمّدًا ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوهما وبدّلوهما ليطفئوا نور اللَّه بأفواههم، ويأبى اللَّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوته ﷺ في كتابيهما -بعد تحريفهما- طافحة، وأعلام شريعته ورسالته فيهما لائحة»[٥].

وقال القاضي عياض: «ومن دلائل نبوّته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب، من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد من ذلك في أشعار الموحّدين المتقدمين؛ من شعر تُبّع والأوس بن حارثة، وكعب بن لؤي، وسفيان بن مجاشع، وقسّ بن ساعدة،

---

(١) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٨/ ٣٣٣-٣٣٤/ ٨٥٥)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ٢٠٧-٢٠٨/ ٣٥٤٤)، قال البزار: «لا نعلم أحداً يرويه عن رسول اللَّه ﷺ إلا بهذا الإسناد»، وصححه ابن حبان (١٤/ ٥٤١-٥٤٢/ ٦٥٨٠) واللفظ له. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٤٢) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات من أحد الطريقين»، وذكره في (١٠/ ٤٠٧-٤٠٨) منه وقال: «رواه البزار ورجاله ثقات».

(٢) أفاده ابن كثير في التفسير (٣/ ٤٨١) بتصرف يسير.

(٣) البقرة: الآية (١٤٦).

(٤) النساء: الآية (٤٦).

(٥) المواهب اللدنية (٣/ ١٧٤-١٧٥).

وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم، وعرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثكلان الحميري، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبّع، من صفته وخبره. وما أُلفيَ من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبيّنوه، ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم، مثل ابن سلام وابني سعية، وابن يامين، ومخيريق، وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود، وبحيرا، ونصطور الحبشة، وصاحب بصرى، وضغاطر، وأسقُفّ الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارى الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى. وقد اعترف بذلك هرقل، وصاحب رُومة عالما النصارى ورئيساهم، ومقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء.

والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر.

وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذُكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتجّ عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحُفهم، وذمَّهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليِّهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكذب؛ فما منهم إلاّ من نفر عن معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهارَه.

ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب الدّيار ونبذ القتال، وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]»[2].

* عن أبي موسى قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره، قال: «بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا»[3].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «فيه ما يجب الاقتداء به من التيسير في الأمور، والرفق

---

(١) آل عمران: الآية (٩٣).

(٢) الشفا (١/ ٥١٥-٥١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٩)، ومسلم (٣/ ١٣٥٨/ ١٧٣٢)، وأبو داود (٥/ ١٧٠/ ٤٨٣٥).

بالناس، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة والتنفير لقلوبهم، لا سيما فيمن كان قريب العهد به، وكذلك يجب فيمن قارب حد التكليف من الأطفال، ولم يتمكن رسوخ الأعمال في قلبه، ولا التمرن عليها، ألا يشدد عليه ابتداءً؛ لأن لا ينفر عن عمل الطاعات، نعم وكذلك يجب للإنسان في نفسه في تدريبها على الأعمال إذا صدقت إرادته، ألا يبتدئها أولًا إلا بتدريج وتيسير، حتى إذا أنست بحاله ودامت عليها، ينقلها لحال آخر، وزاد عليها في عمل أكثر من الأول، حتى يرى قدر احتمالها، ولا يكلفها ما لعلها تعجز عنه ولا يدوم عليه»(١).

قال النووي: «إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على «يسروا»، لصدق ذلك على من يسر مرة، أو مرات، وعسر في معظم الحالات، فإذا قال: «**ولا تعسروا**» انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب»(٢).

وقال الطيبي: «والأحاديث.. متعاضدة على معنى عدم الحرج والتضييق في أمور الملة الحنيفية السمحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٣).. كأنه قيل: وسع الله عليكم دينكم يا أمة نبي الرحمة خاصة، ورفع عنكم الحرج أيًّا كان»(٤).

وانظر زوائد فوائد عند الآية (١٨٥) من سورة (البقرة).

* عن علي ﷺ قال: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثًا؛ فظنوا به الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه»(٥).

★ **غريب الأثر:**

أهناه: في الأصل بالهمز: اسم تفضيل من هنأ الطعام، بالهمزة: إذا ساغ أو جاء بلا تعب ولم يعقبه بلاء، لكن قُلبت همزته ألِفًا للازدواج والمشاكلة.

أتقاه: اسم تفضيل من الاتقاء، على الشذوذ؛ لأن القياس بناء اسم التفضيل من

---

(١) الإكمال (٦/ ٣٧).
(٢) شرح مسلم (١٢/ ٣٦-٣٧).
(٣) الحج: الآية (٧٨).
(٤) شرح الطيبي (٨/ ٢٥٩٠).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٢)، وابن ماجه (١/ ٩/ ٢٠) واللفظ له. وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله محتج بهم في الصحيحين».

الثلاثي المجرد، وهو مبني على توهم أن التاء حرف أصلي.

★ **فوائد الأثر:**

قال السندي: «قوله: «**الذي هو أهناه**» أي: الذي هو أوفق به من غيره، وأهدى وأليق بكمال هداه.

قوله: «**وأتقاه**» أي: وأنسب بكمال تقواه، وهو أن قوله صواب، ونصح واجب العمل به؛ لكونه جاء من عند الله تعالى، وبلّغه الناس بلا زيادة ونقصان»[1].

وقوله: «**الذي هو أهداه**»: قال السندي: «أي: الظنون، وهو أن ذلك الحديث صدق حق»[2].

* * *

(١) حاشية ابن ماجه (١/ ١٢).

(٢) حاشية المسند (٢/ ٢٨٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذا أمر من اللَّه ﷻ لنبيه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع، وذلك أنه لما رجّى الأمة المتبعة للنبي الأمي، التي كتب لهم رحمته، عقب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي معه تحصل تلك المنازل، وهذه الآية خاصة لمحمد ﷺ بين الرسل؛ فإن محمدًا ﷺ بعث إلى الناس كافة، وإلى الجن، قاله الحسن، وتقتضيه الأحاديث، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم، ثم إنه لما أعلن بالرسالة من عند اللَّه، أردف بصفة اللَّه التي تقتضي الإذعان له، وهي أنه ملك السموات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، هو الحض على اتباع محمد ﷺ»[1].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ فإنه من نعت رسول اللَّه ﷺ، . . ومعنى قوله: ﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ يقول: الذي يصدق باللَّه وكلماته. ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فقال بعضهم: معناه: وآياته، . . وقال آخرون: بل عنى بذلك عيسى ابن مريم ﵇، . . والصواب من القول في ذلك عندنا: أن اللَّه -تعالى ذكره- أمر عباده أن يصدقوا بنبوة النبي الأمي، الذي يؤمن باللَّه وكلماته، ولم يخصص الخبر -جل ثناؤه- عن إيمانه من كلمات اللَّه ببعض

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

دون بعض، بل أخبرهم عن جميع الكلمات، فالحق في ذلك أن يعم القول، فإن رسول اللَّه ﷺ كان يؤمن بكلمات اللَّه كلها، على ما جاء به ظاهر كتاب اللَّه. وأما قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا به أيها الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة اللَّه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يقول: لكي تهتدوا فترشدوا، وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه»[1].

وقال الرازي: «هذه الآية تدل على أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى جميع الخلق، وقال طائفة من اليهود يقال لهم العيساوية، وهم أتباع عيسى الأصفهاني: إن محمدًا رسول اللَّه صادق، مبعوث إلى العرب، وغير مبعوث إلى بني إسرائيل، ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية؛ لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يتناول كل الناس»[2].

وسيأتي تفصيل الرد عليهم وعلى من قال بمثل قولهم من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه ﷺ رسول إلى جميع الناس، وصرح بذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[4]، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[5]، وقيد في موضع آخر عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[6]، وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات»[8].

قال ابن عاشور: «والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة -أي: في قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ - تذكير اليهود ووعظهم، حيث جحدوا نبوءة محمد ﷺ، وزعموا أنه لا رسول بعد موسى،

(١) جامع البيان (٩/ ٨٦-٨٧) باختصار.
(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٢٩).
(٣) سبأ: الآية (٢٨).
(٤) الفرقان: الآية (١).
(٥) هود: الآية (١٧).
(٦) الأنعام: الآية (١٩).
(٧) آل عمران: الآية (٢٠).
(٨) أضواء البيان (٢/ ٣٣٤).

واستعظموا دعوة محمد ﷺ، فكانوا يعتقدون أن موسى لا يشبهه رسول، فذكروا بأن اللَّه مالك السموات والأرض، وهو واهب الفضائل، فلا يستعظم أن يرسل رسولًا، ثم يرسل رسولًا آخر؛ لأن الملك بيده، ولأن اللَّه هو الذي لا يشابهه أحد في ألوهيته، فلا يكون إلهان للخلق، وأما مرتبة الرسالة فهي قابلة للتعدد، وبأن اللَّه يحيي ويميت، فكذلك هو يميت شريعة ويحيي شريعة أخرى، وإحياء الشريعة إيجادها بعد أن لم تكن؛ لأن الإحياء حقيقته إيجاد الحياة في الموجود، ثم يحصل من هذه الصفات إبطال عقيدة المشركين، بتعدد الآلهة، وبإنكار الحشر.

وقد انتظم أن يفرع على هذه الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرسول في قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾، والمقصود طلب الإيمان بالنبي الأمي؛ لأنه الذي سيق الكلام لأجله، ولكن لما صُدّر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن باللَّه، وفيهم من يؤمن باللَّه ولا يؤمن بالنبي الأمي، جُمع بين الإيمان باللَّه والإيمان بالنبي الأمي في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجهًا للفرق كلهم، ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان باللَّه والنبي الأمي، مع قضاء حق التأدب مع اللَّه بجعل الإيمان به مقدمًا على طلب الإيمان بالرسول ﷺ للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان باللَّه، على نحو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[1]، وهذا الأسلوب نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ﴾ فإنهم آمنوا باللَّه ورسله، وإنما المقصود زيادة النهي عن اعتقاد التثليث، وهو المقصود من سياق الكلام.

والإيمان باللَّه الإيمانُ بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات، والإيمان بالرسول الإيمانُ بأخص صفاته وهو الرسالة، وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم.

وفي قوله: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ.

ووصف النبي الأمي بالذي يؤمن باللَّه وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى

---

(١) النساء: الآية (١٥٠).

وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب؛ لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق. وهذا نظير قوله تعالى في تفضيل المسلمين: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾[١]»[٢].

وقال في قوله: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾: «أوثر هنا بكلماته دون كتبه؛ لأن المقصود الإيماء إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله؛ أي: أثر كلمته، وهي أمر التكوين؛ إذ كان تكوّن عيسى عن غير سبب التكون المعتاد، بل كان تكونه بقول الله: (كن)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]، فاقتضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى؛ أي: بكونه رسولًا من الله، وذلك قطع لمعذرة النصارى في التردد في الإيمان بمحمد ﷺ، واقتضى أن الرسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله وليس ابن الله، وفي ذلك بيان للإيمان الحق، ورد على اليهود فيما نسبوه إليه، ورد على النصارى فيما غلوا فيه»[٤].

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا كثرة كلماته، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[٦]»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
الدالة على عموم رسالته ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس

* عن أبي الدرداء قال: «كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فاتّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى

---

(١) آل عمران: الآية (١١٩).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٠).
(٣) آل عمران: الآية (٥٩).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٤١).
(٥) الكهف: الآية (١٠٩).
(٦) لقمان: الآية (٢٧).
(٧) أضواء البيان (٢/ ٣٣٤).

أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول اللَّه ﷺ: **أما صاحبكم هذا فقد غامر**، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول اللَّه ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء وغضب رسول اللَّه ﷺ وجعل أبو بكر يقول: واللَّه -يا رسول الله- لأنا كنت أظلم، فقال رسول اللَّه ﷺ: **هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: (يا أيها الناس إني رسول اللَّه إليكم جميعًا) فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»[1].

★ غريب الحديث:

غامر: بالغين المعجمة؛ أي: خاصم. والمعنى: دخل في غمرة الخصومة. والغامر الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره. وقيل: هو من الغِمر، بكسر المعجمة، وهو الحقد؛ أي: صنع أمرًا اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ويحقد الآخر عليه.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**إني قلت: (يا أيها الناس. .) وقال أبو بكر: صدقت**»:

قال القسطلاني: «وهذا خطاب عام يرد على العيسوية من اليهود المصدقين ببعثته إلى العرب، لا إلى بني إسرائيل؛ لأنا نقول إنهم أقروا بأنه رسول، وإذا كان كذلك كان صادقًا في كل ما يدعيه، وقد ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدّعي عموم رسالته، فوجب تصديقه وبطل قولهم إنه كان مبعوثًا لا لبني إسرائيل»[2].

قال شيخ الإسلام: «وهذا القدر يعترف به كل عاقل -من اليهود والنصارى- يعترفون بأن دين المسلمين حق، وأن محمدًا رسول اللَّه ﷺ، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة، بل يعترفون بأن دين الإسلام خير من دينهم، كما أطبقت على ذلك الفلاسفة، كما قال ابن سينا وغيره: أجمع فلاسفة العالم على أنه لا يقرع العالم ناموس أعظم من هذا الناموس، لكن من لم يتبعه يعلل نفسه بأنه لا يجب عليه اتباعه، لأنه رسول إلى العرب الأميين دون أهل الكتاب، لأنه إن كان دينه حقًا

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٨٦/ ٤٦٤٠).

(٢) إرشاد الساري (١٠/ ٢٥٩).

فديننا أيضًا حق، والطريق إلى اللَّه تعالى متنوعة، ويشبهون ذلك بمذاهب الأئمة، فإنه وإن كان أحد المذاهب يرجح على الآخر، فأهل المذاهب الأخر ليسوا كفّارًا ولا من أهل الكتاب، هذه الشبهة التي يضل بها المتكايسون من أهل الكتاب، والمتفلسفة ونحوهم وبطلانها ظاهر، فإنه كما علم علمًا ضروريًّا متواترًا أنه دعا المشركين إلى الإيمان، فقد علم بمثل ذلك أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأنه جاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين، فجاهد بني قينقاع، وبني النضير، وقريظة، وأهل خيبر، وهؤلاء كلهم يهود، وسبى ذريتهم ونساءهم، وغنم أموالهم، وأنه غزا النصارى عام تبوك بنفسه وبسراياه، حتى قتل في محاربتهم زيد بن محمد مولاه الذي كان تبنّاه، وجعفر وغيرهما من أهله، وأنه ضرب الجزية على نصارى نجران. وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده، جاهدوا أهل الكتاب وقاتلوا من قاتلهم، وضربوا الجزية على من أعطاها منهم عن يد وهم صاغرون. وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به، مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه، ويكفر من لم يتبعه منهم، ويذمه ويلعنه، والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه، والوعيد كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾[1] الآية. وفي القرآن من قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ، ما لا يحصى إلا بكلفة. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[2]، ومثل هذا في القرآن كثير جدًّا، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3]، فإذا علم بالاضطرار بالنقل المتواتر - الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته- أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم، وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه، وأنه ضرب الجزية عليهم، وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم، فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات، وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر، وفي ذلك أنزل اللَّه سورة (الحشر)، ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد، وقتل رجالهم وسبى حريمهم

---

(١) النساء: الآية (٤٧).
(٢) البينة: الآيات (١-٧).
(٣) سبأ: الآية (٢٨).

وأخذ أموالهم، وقد ذكره اللَّه تعالى في سورة (الأحزاب)، وقاتل أهل خيبر حتى فتحها، وقتل من قتل من رجالهم، وسبى من سبى من حريمهم، وقسم أرضهم بين المؤمنين، وقد ذكرها اللَّه تعالى في سورة (الفتح)، وضرب الجزية على النصارى، وفيهم أنزل اللَّه سورة (آل عمران)، وغزا النصارى عام تبوك، وفيها أنزل اللَّه سورة (براءة)، وفي عامة السور المدنية مثل (البقرة) و(آل عمران) و(النساء) و(المائدة)، وغير ذلك من السور المدنية، من دعوة أهل الكتاب وخطابهم، ما لا تتسع هذه الفتوى لعشره، ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر، ومن معهما من المهاجرين والأنصار، الذي يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له، وأطوعهم لأمره وأحفظهم لعهده، وقد غزوا الروم كما غزوا فارس، وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس، فقاتلوا من قاتلهم، وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون. ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[1]. قال سعيد بن جبير: تصديق ذلك في كتاب اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[2]، ومعنى الحديث متواتر عنه، معلوم بالاضطرار، فإذا كان الأمر كذلك، لزم بأنه رسول اللَّه إلى كل الطوائف، فإنه يقرر بأنه رسول اللَّه إلى أهل الكتاب وغيرهم، فإن رسول اللَّه لا يكذب، ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر اللَّه، ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن اللَّه، . . فإذا علم أنه نبي كيف ما كان، لزم أن يكون ما أخبر به عن اللَّه حقًّا، وإذا كان رسول اللَّه وجبت طاعته في كل ما يأمر به، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3]، وإذا أخبر أنه رسول اللَّه إلى أهل الكتاب، وأنه تجب عليهم طاعته كان ذلك حقًّا»[4].

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[5].

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً في أحاديث الباب. (٢) هود: الآية (١٧).
(٣) النساء: الآية (٦٤). (٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٠٣-٢٠٧) بتصرف.
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧-٣٥٠)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «المراد أن كل من بلغته دعوته ﷺ وثبتت عنده رسالته، يجب عليه الإيمان به، أميًّا كان أو كتابيًّا، فإن لم يؤمن به لم يدخل الجنة، وعلم منه عموم رسالته ﷺ إلى الكل، والله تعالى أعلم»[(١)].

قال النووي: «وقوله: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» أي: ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما، ذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى، والله أعلم»[(٢)].

وقال أيضًا: «فيه نسخ المِلل كلِّها برسالة نبينا ﷺ»[(٣)].

وقال القاضي عياض: «فيه دليل على أن من في أطراف الأرض وجزائر البحر المقطعة ممن لم تبلغه دعوة الإسلام ولا أمر النبي ﷺ أن الحرج عنه في عدم الإيمان به ساقط؛ لقوله: «لا يسمع بي»؛ إذ طريقة معرفته والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك والخبر لمن لم يشاهده، وجاء بعده بخلاف الإيمان بالله وتوحيده الذي يوصل إليه بمجرد النظر الصحيح ودليل العقل السليم»[(٤)].

وقد تقدم الكلام على هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الآية (١٩) من سورة (آل عمران).

* عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت إلى الناس عامّة»**[(٥)].

---

(١) حاشية المسند (٣٢/ ٣٠٦). (٢) شرح النووي (٢/ ١٦٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) الإكمال (١/ ٤٦٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرح غريبه وبيان بعض فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ الآية (٩٢) من سورة (الأنعام).

وفيه من الفوائد مما لم يتقدم:

أن قوله: «**وبعثت إلى الناس عامة**» يدخل فيه الجن أيضًا، كما صرح بذلك أئمة اللغة.

قال العلامة الخيضري: «قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: الجن داخلون في مسمى الناس لغة. وقال الجوهري: الناس قد يكونون من الجن والإنس. ويؤيد ذلك رواية: «**بعثت إلى كل أحمر وأسود**»[١]؛ فإن العلماء اختلفوا في المراد بهم فقيل: هم الإنس والجن. ويؤيده قول من قال: إن إطلاق السواد على الجن صحيح باعتبار تشابههم بالأرواح، والأرواح يقال لها: أسودة، كما في حديث الإسراء أنه رأى آدم وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة، وأنها نسم بنيه[٢].. وأصرح الأدلة على ذلك.. رواية مسلم: «**وأرسلت إلى الخلق كافة**».

قال ابن عبدالبر: (لا يختلفون في أن محمدًا رسول اللّٰه إلى الإنس والجن، بشير ونذير، وهذا مما فضّل به على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه بعث إلى الخلق كافة؛ الجن والإنس وغيره لم يرسل إلا بلسان قومه). وكذلك نقل ابن حزم.

وكذلك صرح ببعثته إليهم من أصحابنا الحليمي في «شعب الإيمان» والروياني في «البحر»، وغيرهما. وقال ابن تيمية: (أرسل اللّٰه تعالى محمّدًا ﷺ إلى جميع الثقلين؛ الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأن يحلّلوا ما حلّل اللّٰه تعالى ورسوله، ويحرّمون ما حرم اللّٰه تعالى ورسوله ﷺ، وأن يُحبّوا ما أحب اللّٰه تعالى ورسوله، ويكرهوا ما كرهه اللّٰه تعالى ورسوله ﷺ، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به؛ استحق

---

(١) هذه الرواية عند: أحمد (٣/ ٣٠٤)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١).

(٢) الحديث أخرجه مطولاً من حديث أبي بن كعب ﷺ: أحمد (٥/ ١٤٣)، والبخاري (١/ ٦٠٥-٦٠٦/ ٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٨-١٤٩/ ١٦٣).

عقاب اللَّه تعالى، كما يستحق أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسل. وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين).

وقد أخبر اللَّه تعالى في القرآن أنهم آمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، وأمره تعالى أن يخبر بذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ السورة بكمالها، فأمره سبحانه بإعلام أمته بأحوال الجن، وأنه مبعوث إلى الإنس والجن؛ لما في ذلك من هدي الإنس والجن إلى ما يجب عليهم من الإيمان باللَّه تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام واليوم الآخر، وما يجب من طاعة رسله، وتحريم الشرك على الجن وغيرهم، كما قال تعالى في السورة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[2]. وقد اجتمع النبي ﷺ بطوائف من الجن، ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وآمنوا به، والأحاديث بذلك كثيرة. وقال تعالى مخبرًا عنهم أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾[3]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾[4]؛ أي: مذاهب شتّى؛ مسلمون وكفار، وأهل سنة وأهل بدعة، وقد روى الإمام أحمد في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له عن السدي أنه قال: في الجن قدرية، ومرجئة، وشيعة..»[5].

وقال ابن دقيق العيد: «وظاهره -أي: حديث جابر- يقتضي أن كل واحدة من هذه الخمس لم يكن لأحد قبله، ولا يعترض على هذا بأن نوحًا ﷺ بعد خروجه من الفلك كان مبعوثًا إلى كل أهل الأرض؛ لأنه لم يبق إلا من كان مؤمنًا معه وقد كان مرسلًا إليهم؛ لأن هذا العموم في الرسالة لم يكن في أصل البعثة، وإنما وقع لأجل الحادث الذي وقع، وهو انحصار الناس في الموجودين لهلاك سائر الناس. وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل بعثته»[6].

قال الحافظ عقب كلام ابن دقيق: «وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح في

(١) الأحقاف: الآيات (٢٩-٣٢).
(٢) الجن: الآية (٦).
(٣) الجن: الآية (١٤).
(٤) الجن: الآية (١١).
(٥) اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ (٢/ ٧٤-٧٦). وانظر مجموع الفتاوى (١٩/ ٩-١٠).
(٦) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (١/ ١١٤).

حديث الشفاعة: «**أنت أول رسول إلى أهل الأرض**»[1]، فليس المراد به عموم بعثته بل إثبات أولية إرساله، وعلى تقدير أن يكون مرادًا فهو مخصوص بتنصيصه ﷺ في عدة آيات على أن إرسال نوح كان إلى قومه، ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم، واستدل بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من في الأرض فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة، ولو لم يكن مبعوثًا إليهم لما أُهلكوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، وقد ثبت أنه أول الرسل. وأجيب بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح وعلم نوح بأنهم لم يؤمنوا، فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيبَ. وهذا جواب حسن لكن لم ينقل أنه نبئ في زمن نوح غيره. ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته إلى يوم القيامة ونوح وغيره بصدد أن يبعث نبي في زمانه أو بعد فينسخ بعض شريعته. ويحتمل أن يكون دعاؤه قومه إلى التوحيد بلغ بقية الناس، فتمادوا على الشرك، فاستحقوا العقاب، وإلى هذا نحا ابن عطية في تفسير سورة (هود) قال: وغير ممكن أن تكون نبوته لم تبلغ القريب والبعيد لطول مدته. ووجهه ابن دقيق العيد بأن توحيد اللَّه تعالى يجوز أن يكون عامًا في حق بعض الأنبياء، وإن كان التزام فروع شريعته ليس عامًّا؛ لأن منهم من قاتل غير قومه على الشرك، ولو لم يكن التوحيد لازمًا لهم لم يقاتلهم، ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرسال نوح إلا قوم نوح، فبعثته خاصة؛ لكونها إلى قومه فقط، وهي عامة في الصورة؛ لعدم وجود غيرهم، لكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثًا إليهم»[3].

* * *

---

(١) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.. الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(٣) فتح الباري (١/ ٥٧٥-٥٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: يهتدون بالحق؛ أي: يستقيمون عليه ويعملون، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: وبالحق يعطون ويأخذون، وينصفون من أنفسهم فلا يجورون»[(١)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[(٥)] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٨٧).

(٢) آل عمران: الآية (١١٣).

(٣) آل عمران: الآية (١٩٩).

(٤) القصص: الآيات (٥٢-٥٤).

(٥) البقرة: الآية (١٢١).

(٦) الإسراء: الآيات (١٠٧-١٠٩).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١-٤٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أسباطًا: أي: قبائل، كل قبيلة من نسل رجل.

انبجست: أي: انفجرت. وبجس الماء وانبجس: انفجر. لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع.

المنّ والسلوى: المنّ: شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر، والسلوى: طائر. وقيل: المنّ والسلوى: كلاهما إشارة إلى ما أنعم اللَّه به عليهم، وهما بالذات شيء واحد، لكن سمّاه مَنًّا بحيث إنه امتنّ به عليهم، وسمّاه سلوى من حيث إنه كان لهم به التسلّي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فرقناهم، يعني قوم موسى من بني إسرائيل، فرّقهم اللَّه فجعلهم قبائل شتى، اثنتي عشرة قبيلة. وقد بيّنّا معنى (الأسباط) فيما مضى، ومن هم.

واختلف أهل العربية في وجه تأنيث (الاثنتي عشرة) و(الأسباط) جمع مذكر، فقال بعض نحويي البصرة: أراد اثنتي عشرة فرقة، ثم أخبر أن الفرق أسباط، ولم يجعل العدد على (أسباط). وكان بعضهم يستحكي على هذا التأويل ويقول: لا يخرج العدد على عين الثاني، ولكن (الفرق) قبل (الاثنتي عشرة) حتى تكون

(الاثنتا عشرة) مؤنثة على ما قبلها، ويكون الكلام: وقطعناهم فرقًا اثنتي عشرة أسباطًا، فيصح التأنيث لما تقدم. وقال بعض نحويي الكوفة، إنما قال: (اثنتي عشرة) بالتأنيث، و(السبط) مذكر؛ لأن الكلام ذهب إلى (الأمم) فغلّب التأنيث وإن كان (السبط) ذكرًا، وهو مثل قول الشاعر:

وإنّ كلابًا هذه عشر أبطنٍ ... وأنتَ بريءٌ من قبائلها العشرِ

ذهب بـ(البطن) إلى القبيلة والفصيلة، فلذلك جمع (البطن) بالتأنيث.

وكان آخرون من نحويي الكوفة يقولون: إنما أنث (الاثنتا عشرة)، و(السبط) ذكر؛ لذكر (الأمم).

والصواب من القول في ذلك عندي أن (الاثنتي عشرة) أنثت لتأنيث (القطعة). ومعنى الكلام: وقطعناهم قطعًا اثنتي عشرة، ثم ترجم عن (القطع) بـ(الأسباط)، وغير جائز أن تكون (الأسباط) مفسرة عن (الاثنتي عشرة)، وهي جمع؛ لأن التفسير فيما فوق (العشر) إلى (العشرين) بالتوحيد، لا بالجمع، و(الأسباط) جمع لا واحد، وذلك كقولهم: عندي اثنتا عشرة امرأة، ولا يقال: عندي اثنتا عشرة نسوة، ففي ذلك أن (الأسباط) ليست بتفسير للاثنتي عشرة، وأن القول في ذلك على ما قلنا.

وأما (الأمم) فالجماعات، و(السبط) في بني إسرائيل نحو (القرن). وقيل: إنما فرّقوا أسباطًا لاختلافهم في دينهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ إذ فرّقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة، وتيهناهم في التيه فاستسقوا موسى من العطش وغؤور الماء، ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وقد بيّنّا السبب الذي كان قومه استسقوه، وبيّنّا معنى (الوحي) بشواهده، ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾: فانصبت وانفجرت من الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ من الماء، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ يعني كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة

﴿مَّشْرَبَهُمْۚ﴾ لا يدخل سبط على غيره في شربه، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ يكنهم من حر الشمس وأذاها.

وقد بيّنّا معنى (الغمام) فيما مضى قبل، وكذلك (المن) و(السلوى).

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾ طعامًا لهم، ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾ يقول: وقلنا لهم: كلوا من حلال ما رزقناكم أيها الناس وطيبناه لكم، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وفي الكلام محذوف ترك ذكره استغناءً بما ظهر عما ترك، وهو: فأجمعوا ذلك وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقول: وما أدخلوا علينا نقصًا في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا، وفعلهم ما فعلوا، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ينقصونها حظوظها باستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

★ غريب الآية:

وقولوا حطة: أي: قولوا: احطط عنّا ذنوبنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا -يا محمد- من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القول الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وهي قرية بيت المقدس، ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ منها، يقول: أنى شئتم منها، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ يقول: وقولوا: هذه الفعلة حطة تحط ذنوبنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ يتغمد لكم ربكم ذنوبكم التي سلفت منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها، ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ منكم، وهم المطيعون لله على ما وعدتكم من غفران الخطايا»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ٩٠).

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

رجزًا: عذابًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فغيّر الذين كفروا باللَّه منهم ما أمرهم اللَّه به من القول، فقالوا -وقد قيل لهم: قولوا هذه حطة-: حنطة في شعيرة، وقولهم ذلك كذلك هو غير القول الذي قيل لهم قولوه، يقول اللَّه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعثنا عليهم عذابًا أهلكناهم بما كانوا يغيرون ما يؤمرون به، فيفعلون خلاف ما أمرهم اللَّه بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم اللَّه بقيله. وقد بينا معنى الرِّجز فيما مضى»[١].

قال محمد رشيد رضا: «إن اللَّه تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة، لا تاريخ شعوب ومدائن، ولا تحقيق وقائع ومواقع. والعبرة في هذه القصة أن نتقي الظلم والفسق، ونعلم أن اللَّه يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة، وأنه قد عاقب بني إسرائيل بظلمهم، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل، وكثرة وجود الأنبياء فيهم»[٢].

مقاربة بين ألفاظ هذه الآية وآية (البقرة):

قال الرازي: «اعلم أن هذه القصة أيضًا مذكورة مع الشرح والبيان في سورة (البقرة). بقي أن يقال: إن ألفاظ هذه الآية تخالف ألفاظ الآية التي في سورة (البقرة) من وجوه: الأول: في سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٣]،

---

(١) جامع البيان (٩/ ٩٠).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٣٧٤).

(٣) البقرة: الآية (٥٨).

وههنا قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ . والثاني: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿فَكُلُوا۟﴾ بالفاء، وههنا: ﴿وَكُلُوا۟﴾ بالواو. والثالث: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿رَغَدًا﴾، وهذه الكلمة غير مذكورة في هذه السورة. والرابع: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ ، وقال ههنا على التقديم والتأخير. والخامس: أنه قال في (البقرة): ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ ، وقال ههنا: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ ، والسادس: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وههنا حذف حرف الواو. والسابع: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[1]، وقال ههنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ . والثامن: أنه قال في سورة (البقرة): ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ ، وقال ههنا: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ . واعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها ألبتة، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة. أما الأول: وهو أنه قال في سورة (البقرة): ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ، وقال ههنا: ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾، فالفرق أنه لا بد من دخول القرية أولًا، ثم سكونها ثانيًا. وأما الثاني: فهو أنه تعالى قال في (البقرة): ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟﴾ بالفاء. وقال ههنا: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟﴾ بالواو، والفرق أن الدخول حالة مخصوصة، كما يوجد بعضها ينعدم. فإنه إنما يكون داخلًا في أول دخوله، وأما ما بعد ذلك فيكون سكونًا لا دخولًا. إذا ثبت هذا فنقول: الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار. فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وأما السكون فحالة مستمرة باقية. فيكون الأكل حاصلًا معه لا عقيبه فظهر الفرق. وأما الثالث: وهو أنه ذكر في سورة (البقرة): ﴿رَغَدًا﴾، وما ذكره هنا، فالفرق الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذّ؛ لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم، ولما كان ذلك الأكل ألذ لا جرم ذكر فيه قوله: ﴿رَغَدًا﴾، وأما الأكل حال سكون القرية، فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة، فلا جرم ترك قوله: ﴿رَغَدًا﴾ فيه. وأما الرابع: وهو قوله في سورة (البقرة): ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ ، وفي سورة (الأعراف) على العكس منه، فالمراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر،

(١) البقرة: الآية (٥٩).

إلا أنه لما كان المقصود منهما تعظيم اللَّه تعالى، وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير. وأما الخامس: وهو أنه قال في سورة (البقرة): ﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾، وقال ههنا: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾، فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة، فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع. وأما السادس: وهو أنه تعالى قال في سورة (البقرة): ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالواو، وههنا حذف الواو، فالفائدة في حذف الواو أنه استئناف، والتقدير: كأن قائلًا قال: وماذا حصل بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وأما السابع: وهو الفرق بين قوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾ وبين قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة، والإرسال يشعر بها، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل، ثم جعله كثيرًا، وهو نظير ما ذكرناه في الفرق بين قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾[1] وبين قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾[2]. وأما الثامن: وهو الفرق بين قوله: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ وبين قوله: ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين؛ لأجل أنهم ظلموا أنفسهم، وبكونهم فاسقين؛ لأجل أنهم خرجوا عن طاعة اللَّه تعالى، فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين، فهذا ما خطر بالبال في ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة، وتمام العلم بها عند اللَّه تعالى»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضائح اليهود وتحريفاتهم لأوامر اللَّه وأوامر رسوله ﷺ

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: **«قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾، فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»**[4].

---

(١) الأعراف: الآية (١٦٠).

(٢) البقرة: الآية (٦٠).

(٣) مفاتح الغيب (١٥/ ٣٧-٣٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٢،٣١٨)، والبخاري (٨/ ٣٨٧/ ٤٦٤١)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢/ ٣٠١٥)، والترمذي (٥/ ١٨٨/ ٢٩٥٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٦/ ١٠٩٨٩).

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من سورة (البقرة) الآية (٥٨)، فلتراجع.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يَعْدُونَ: من عَدَا يَعْدُو عَدْوًا وعُدْوَانًا: إذا ظلم. وأصله: مجاوزة الحد.

الحيتان: جمع حوت، وهو السمك العظيم.

شُرَّعًا: أي: بادية خَراطيمُها لكل أحد.

كذلك نَبْلُوهم: أي: نختبرهم ونشدد عليهم في العبادة.

معذرة: مصدر اعْتَذَرَ يَعْتَذِرُ: إذا أَدْلَى بِعُذْرِهِ؛ أي: نعتذر معذرة، كأنه قيل: أطلب منه أن يعذرني.

بَئِيس: شديد.

عَتَوْا: العُتُوُّ: أشدّ الفساد. وأصله: النُّبُوُّ عن طاعة الأمر. والمعنى: خرجوا إلى ما نهوا من الشر والفساد.

خاسئين: جمع خاسئ. وهو الذليل المبعد عن الخير. يقال: أَخْسَأْتُهُ فخَسِئَ؛ أي: أَبْعَدتُهُ فابْتَعَدَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واسأل -يا محمد- هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر القرية التي كانت حاضرة البحر، يقول: كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه، واختلف أهل التأويل فيها، فقال بعضهم: هي أيلة، .. وقال آخرون: معناه ساحل مدين، .. وقال آخرون: هي مقنا، .. وقال آخرون: هي مدين، .. والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر، وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا؛ لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول اللَّه ﷺ يقطع العذر بأن ذلك من أي، والاختلاف فيه على ما وصفت، ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه، إلا بخبر يوجب العلم، ولا خبر كذلك في ذلك.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمر اللَّه، ويتجاوزونه إلى ما حرمه اللَّه عليهم، .. وكان اعتداؤهم في السبت أن اللَّه حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ يقول: إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه عن العمل، ﴿شُرَّعًا﴾ يقول: شارعة ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق، .. وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت، لا تأتيهم الحيتان، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنه في اليوم المحلل صيده، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ ونختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول بفسقهم عن طاعة اللَّه وخروجهم عنها»[1].

وقال في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ : «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: اذكر أيضًا -يا محمد- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة منهم لجماعة، كانت تعظ المعتدين

(١) جامع البيان (٩/ ٩٠-٩٢).

في السبت وتنهاهم عن معصية اللَّه فيه، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره، واستحلالهم ما حرم عليهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية اللَّه، مجيبيهم عن قولهم: عظتنا إياهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ نؤدي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: ولعلهم أن يتقوا اللَّه فيخافوه، فينيبوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعديه على ما حرم عليهم من اعتدائهم في السبت، . .

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها اللَّه به، من ترك الاعتداء فيه، وضيعت ما وعظتها الطائفة الواعظة، وذكرتها ما ذكرتها به من تحذيرها عقوبة اللَّه على معصيتها، فتقدمت على استحلال ما حرم اللَّه عليها، أنجى اللَّه الذين ينهون منهم عن السوء، يعني عن معصية اللَّه، واستحلال حرمه، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يقول: وأخذ اللَّه الذين اعتدوا في السبت، فاستحلوا فيه ما حرم اللَّه من صيد السمك وأكله، فأحل بهم بأسه، وأهلكهم ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يخالفون أمر اللَّه، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو الفسق، . .

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلما تمردوا فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرم اللَّه عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي: بعداء من الخير»[1].

قال القرطبي بعد إيراده لقول قتادة: «صار الشباب قردة والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم»: «فعلى هذا القول إن بني إسرائيل إلا فرقتين، ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم: إذا علمتم أن اللَّه مهلكنا فلم تعظوننا، فمسخهم اللَّه قردة، ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: قال الواعظون: موعظتنا إياكم معذرة إلى ربكم؛ أي: إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم

(١) جامع البيان (٩/ ٩٢-١٠١) باختصار.

تتقون، أسند هذا القول الطبري عن ابن الكلبي، وقال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية، فرقة عصت وصادت، وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا، وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا اثني عشر ألفًا، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وإن هذه الطائفة قالت للناهية: لم تعظون قومًا -تريد العاصية- اللَّه مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن وما عهد من فعل اللَّه تعالى حينئذ بالأمم العاصية، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى اللَّه لعلهم يتقون، ولو كانوا فرقتين، لقالت الناهية للعاصية: ولعلكم تتقون، بالكاف»[1].

وقال أيضًا: «ثم اختلف بعد هذا فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص، هلكت مع العاصية، عقوبة على ترك النهي، قاله ابن عباس، وقال أيضًا: ما أدري ما فعل بهم. وهو الظاهر من الآية، وقال عكرمة: قلت لابن عباس -لما قال: ما أدري ما فعل بهم-: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة، وهذا مذهب الحسن، ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير، قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[2] الآية»[3].

وفي إخبار اللَّه ﷻ عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة، لما احتالوا على إباحة ما حرمه اللَّه تعالى من الصيد، يقول ابن القيم: «قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه؛ إذ الفقيه من يخشى اللَّه تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبًا لموسى ﷺ، وكفرًا بالتوراة وإنما هو استحلال تأويل، واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا واللَّه أعلم مُسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين اللَّه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٠٦-٣٠٧).
(٢) البقرة: الآية (٦٥).
(٣) المصدر السابق (٧/ ٣٠٧).

تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم اللَّه تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاءً وفاقًا»[١].

قال ابن العربي: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ أي: تركوه عن قصد، وهذا يدل على أن النسيان لفظ ينطلق على الساهي والعامد، ردًّا على أهل جهالة زعموا أن الناسي والساهي لمعنى واحد، وهؤلاء قوم لا معرفة لهم باللغة، وقصدهم هدم الشريعة، وقد بينا ذلك في غير موضع، وحققنا معنى قوله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها، فليصلها إذا ذكرها**»[٢] وقلنا معناه: من نام عن صلاة أو تركها، فليصلها متى ذكرها، فالساهي له حالة ذكر، والعامد هو أبدًا ذاكر، وكل واحد منهم يتوجه عليه فرض القضاء متى حَضَرَهُ الذكر دائمًا، أو في حال دون حال، وبهذا استقام نظام الكلام واستقر حكم شريعة الإسلام»[٣].

وقال: «قال علماؤنا: اختلف الناس في الممسوخ، هل ينسل أم لا؟ فمنهم من قال: إن الممسوخ لا ينسل، ومنهم من قال: ينسل»[٤].

قال الطحاوي بعد إيراده لأحاديث دالة على أن الممسوخ لا نسل له، منها قوله ﷺ: «إن اللَّه لم يجعل لمسخ نسلًا ولا عقبًا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»[٥]، قال: «قال قوم في كتاب اللَّه ما يدفع هذه الآثار التي رويتموها في هذا الباب، في نفي من أهلكه أو مسخه، أن لا يكون له نسل ولا عقب، وهو قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ يريد من جعلها منهم، فذكر ﷻ أنه جعلهم من القوم الذين سخط عليهم ولعنهم، وذكر ذلك بالمعرفة لا بالنكرة، فكان ذلك على القردة والخنازير الموجودة المعقولة، لا على من سواها من قردة وخنازير، ولو كان ذلك على قردة وخنازير سوى القردة والخنازير الموجودة المعقولة لكان: وجعل بينهم قردة وخنازير، على النكرة لا على المعرفة، فكان جوابنا لهم في ذلك بتوفيق

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ٢٦٩)، والبخاري (٢/ ٨٩-٩٠/ ٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١٧٨)، والنسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٢)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧/ ٦٩٦).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٧٩٧).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٩٨).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥١/ ٢٦٦٣).

اللَّه ﷻ وعونه، أنه قد يجوز أن يكون القردة والخنازير قد كانت قبل ذلك مخلوقة على ما هي عليه، كسائر الأشياء المخلوقة على ما هي عليه، لا ممسوخة من خلق كانت عليه، إلى قردة وخنازير، وكانت مما تناسل، ومما يعقب كسائر المخلوقين سواها، ثم كان من اللَّه جعله القردة والخنازير، ممن سخط عليه من عباده الذين خرجوا عن أمره، واعتدوا عن عبادتهم التي تعبدهم بها إلى ما سواها، فمسخهم قردة وخنازير، لا تناسل لها ولا أعقاب لها، فكانت في الدنيا ما شاء اللَّه ﷻ كونها فيها، ثم أفناها بلا أعقاب خلفتها، وبقيت القردة والخنازير التي كانت قبل ذلك، ولم يلحقها مسخ حولها عما خلقت عليه، إلى ما هي عليه، فكان منها التناسل في حياتها، والإعقاب بعد موتها، فبان بحمد اللَّه ونعمته احتمال ما حملنا قول رسول اللَّه ﷺ فيما لا يخالف ما في كتاب اللَّه ﷻ، مما يوهم هؤلاء الجاهلين أنه يخالفه، واللَّه ﷻ نسأله التوفيق»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الحيل والنهي عنها

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم اللَّه بأدنى الحيل**»[2].

★ **غريب الحديث:**

الحيل: «جمع حيلة، والحيلة مشتقة من التحول، وهي النوع والحالة كالجلسة والقعدة والركبة فإنها بالكسر للحالة، وبالفتح للمرة كما قيل:

الفَعلة للمرة، والفِعلة للحالة   والمَفْعل للموضع، والمِفْعل للآلة

وهي من ذوات الواو، فإنها من التحول من حال يحول، وإنما انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وهو قلب مقيس مطرد في كلامهم، نحو ميزان وميقات وميعاد، فإنها مِفعال من الوزن والوقت والوعد، فالحيلة هي نوع مخصوص من التصرف

(١) مشكل الآثار (٨/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) أخرجه: ابن بطة في «إبطال الحيل» (ص: ١١٢/ح: ٥٦)، وجوّد إسناده ابن كثير فقال: «وهذا إسناد جيد؛ فإن أحمد بن محمد بن مسلم -هذا- ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وباقي رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً».

والعمل الذي يتحول به فاعله من حال إلى حال، ثم غلب عليها بالعرف استعمالها في سلوك الطرق الخفية التي يتوصل بها الرجل إلى حصول غرضه، بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة، فهذا أخص من موضوعها في أصل اللغة، وسواء كان المقصود أمرًا جائزًا أو محرمًا، أو خص من هذا استعمالها في التوصل إلى الغرض الممنوع منه شرعًا أو عقلًا أو عادة، فهذا هو الغالب عليها في عرف الناس، فإنهم يقولون: فلان من أرباب الحيل، ولا تعاملوه فإنه متحيل، وفلان يعلم الناس الحيل، وهذا من استعمال المطلق في بعض أنواعه كالدابة والحيوان وغيرها»[١].

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث من أوضح الأدلة على بطلان الحيلة في الأحكام، كما قال ابن بطة العكبري،[٢] «فهو نص في تحريم استحلال محارم اللَّه بالحيل»[٣].

والحيل نوعان، يقول ابن القيم: «نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر اللَّه به، وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الباطل المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالمًا، والظالم مظلومًا، والحق باطلًا، والباطل حقًّا، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

قال الإمام أحمد: لا يجوز شيء من الحيل في إبطال حق مسلم.

قال ابن بطة: «فالحيلة في الدين محرمة في الكتاب والسنة، فكل حكم عمل بالحيلة في طلاق أو خلع أو شراء، فهو مردود مذموم عند العلماء الربانيين والفقهاء الديانيين»[٤].

وقال أيضًا: «وأصل الحيلة في شريعة الإسلام خديعة، والخديعة نفاق، والنفاق عند اللَّه ﷻ أعظم من صراح الكفر، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) إبطال الحيل (ص: ١١٢).

(٣) أفاده ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٥١٣).

(٤) إبطال الحيل (ص: ١١٩).

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾[2]، أفلا ترى أن المنافقين أظهروا قبول الأحكام الإسلامية، وألزموا أنفسهم التدين بها، حيلة بذلك وخديعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ولعباده المؤمنين رحمة اللَّه عليهم، ليحقنوا بذلك دماءهم، ويحفظوا أموالهم، فأعطاهم ما أرادوا بما أظهروا، وأكذبهم فيما ادعوا بما أسروا وأبطنوا، ورد عليهم كيدهم وخديعتهم بسوء اعتقادهم، وإرادتهم غير الذي أمر اللَّه به، من خالص التصديق وصافي التوحيد، واستعمالهم آلات الإيمان، لغير ما أرادها اللَّه ﷻ، وهذا باب من الحيلة، وهو أفحشها وأقبحها، وكل ما كان من الحيلة، فمشبه بها، ومنسوب إليها ومتشعب عنها، ألا ترى أن اللَّه ﷻ شرع -برًّا بكافة خلقه وإرفاقًا بهم- رخصًا وصفها عند الحاجة إليها وشدة الضرورة عند نزولها، فقال ﷻ حين فرغ من فرض الصيام: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[4]، فأباح الفطر في السفر وقصر الصلاة، وفرض الحج بوجود الاستطاعة، فلو أن رجلًا سافر لا يريد بسفره إلا الأكل والجماع نهارًا في شهر رمضان حتى يقضي ذلك على مهل متقطّعًا، في قصير الأيام على مر الأوقات، ولو أن رجلًا سافر لا يريد من سفره إلا أن يضع عن نفسه بعض صلاته، وكذلك لو وجب عليه الحج بوجود الاستطاعة، فوهب ماله لبعض ولده عند أوقات الحج ثم استرجعه بعد ذلك، وكذلك لو كان له من أصناف الماشية مال كثير تجب فيه الزكاة الكثيرة، فباعها عند رأس الحول وجرى ثمنها مجرى المال المستفاد، أو مالٌ صامتٌ، فعند رأس الحول ابتاع به عقارًا، حتى إذا جاوز الحول باعه، لكان هذا كله في ظاهره جائزًا في شريعة الإسلام، ماضيًا على أحكامها، ولو استفتى فاعله جميع فقهاء المسلمين في جميع الأمصار، فيما فعل غير مخبر لهم بنيته، ولا ما قصده له من ذلك، لما اختلف عليه اثنان في جوازه وصحته، ولا رأوه حرجًا في فعله، ولا آثمًا في

---

(١) البقرة: الآيتان (٨و٩).
(٢) النساء: الآية (١٤٢).
(٣) البقرة: الآية (١٨٥).
(٤) النساء: الآية (١٠١).

مُرْتَكَبِهِ، وما ظنك الآن إذا كان المفتي هو الآمر بهذا، والدال عليه، والمفتي به؟!»[١].

قال ابن القيم: «وتلخيص هذا أن الحيل المحرمة مخادعة لله، ومخادعة اللَّه حرام، أما المقدمة الأولى: فإن الصحابة والتابعين، وهم أعلم الأمة بكلام اللَّه ورسوله ومعانيه سموا ذلك خداعًا، وأما الثانية: فإن اللَّه ذم أهل الخداع، وأخبر أن خداعهم إنما هو لأنفسهم، وأن في قلوبهم مرضًا، وأنه تعالى خادعهم، فكل هذا عقوبة لهم، ومدار الخداع على أصلين: أحدهما: إظهار فعل لغير مقصوده الذي جعل له، الثاني: إظهار قول لغير مقصوده الذي وضع له، وهذا منطبق على الحيل المحرمة، وقد عاقب اللَّه تعالى المتحيلين على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد، بجد جنتهم عليهم وإهلاك ثمارهم، فكيف بالمتحيل على إسقاط فرائض اللَّه وحقوق خلقه، ولعن أصحاب السبت ومسخهم قردة وخنازير على احتيالهم على فعل ما حرمه عليهم، قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾[٢]، قال: رموا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها، واللَّه أوخم أكلة، أكلة أسرعت في الدنيا عقوبة، وأسرعت عذابًا في الآخرة، واللَّه ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند اللَّه من دماء قوم مسلمين، إلا أنه عجل لهؤلاء وأخّر لهؤلاء، وقوله: «**رموها في السبت**» يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضًا، ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت، إذ لو اجترؤوا على ذلك لاستخرجوها، قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلًا واحتيالًا ظاهره ظاهر الاتقاء، وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا -واللَّه أعلم- مسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين اللَّه، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره، دون حقيقته، مسخهم اللَّه قردة تشبه الإنسان في بعض

(١) المصدر السابق (١٠٨-١١١).
(٢) البقرة: الآية (٦٥).

ظاهره دون الحقيقة، جزاءً وفاقًا، ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرمًا، كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل، والصيد المحرم، عالمًا بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم، وخشيته لله، واستغفاره وتوبته يومًا ما، واعترافه بأنه مذنب عاص، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين اللّه، ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل، فقال: **«لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم اللّه بأدنى الحيل»**[1]، وقد أخبر اللّه تعالى أنه جعل هذه القرية، أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.. وتأمل قوله: **«لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم اللّه بأدنى الحيل»** أي: أسهلها وأقربها، وإنما ذكر أدنى الحيل؛ لأن المطلق ثلاثًا مثلًا، من أسهل الحيل عليه أن يعطي بعض التيوس المستعارة عشرة دراهم ويستعيره لينزو على امرأته نزوة وقد طيبها له، بخلاف الطريق الشرعي التي هي نكاح الرغبة فإنها يصعب معها عودها إلى الأول جدًّا، وكذلك من أراد أن يقرض ألفًا بألف وخمسمائة، فمن أدنى الحيل أن يعطيه ألفًا إلا درهمًا باسم القرض، ويبيعه خرقة تساوي درهمًا بخمسمائة، ولو أراد ذلك بالطريق الشرعي لتعذر عليه، وكذلك حيلة اليهود بنصب الشباك يوم الجمعة وأخذ ما وقع فيها يوم السبت من أسهل الحيل، وكذلك إذابتهم الشحم وبيعه وأكل ثمنه»[2].

وقال أيضًا: «ليس كل ما يسمى حيلة حرامًا، قال اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[3]، أراد بالحيلة التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يثاب عليها، وكذلك الحيلة على

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.
(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٦١-١٦٥) باختصار.
(٣) النساء: الآية (٩٨).

هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على تخليص ماله منهم، كما فعل الحجاج بن علاط بامرأته، وكذلك الحيلة على قتل رأس من رؤوس أعداء اللَّه، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي وكعب بن الأشرف وأبا رافع وغيرهم، فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له... وإذا قسمت باعتبارها لغة، انقسمت إلى الأحكام الخمسة؛ فإن مباشرة الأسباب الواجبة حيلة على حصول مسبباتها، فالأكل والشرب واللبس والسفر الواجب حيلة على المقصود منه، والعقود الشرعية واجبها ومستحبها ومباحها كلها حيلة على حصول المعقود عليه، والأسباب المحرمة كلها حيلة على حصول مقاصدها منها، وليس كلامنا في الحيلة بهذا الاعتبار العام، الذي هو مورد التقسيم إلى مباح ومحظور، فالحيلة جنس تحته التوصل إلى فعل الواجب، وترك المحرم، وتخليص الحق ونصر المظلوم، وقهر الظالم وعقوبة المعتدي، وتحته التوصل إلى استحلال المحرم، وإبطال الحقوق، وإسقاط الواجبات، ولما قال النبي ﷺ: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم اللَّه بأدنى الحيل**» غلب استعمال الحيل في عرف الفقهاء على النوع المذموم، وكما يذم الناس أرباب الحيل، فهم يذمون أيضًا العاجز الذي لا حيلة عنده؛ لعجزه وجهله بطرق تحصيل مصالحه، فالأول ماكر مخادع، والثاني عاجز مفرط، والممدوح غيرهما، وهو من له خبرة بطرق الخير والشر: خفيها وظاهرها، فيحسن التوصل إلى مقاصده المحمودة، التي يحبها اللَّه ورسوله بأنواع الحيل، ويعرف طرق الشر الظاهرة والخفية، التي يتوصل بها إلى خداعه والمكر به، فيحترز منها ولا يفعلها ولا يدل عليها، وهذه كانت حال سادات الصحابة ﭫ؛ فإنهم كانوا أبر الناس قلوبًا، وأعلم الخلق بطرق الشر ووجوه الخداع، وأتقى لله من أن يرتكبوا منها شيئًا، أو يدخلوه في الدين، كما قال عمر بن الخطاب ﭬ: «**لستُ بخَبّ ولا يخدعني الخب**»، وكان حذيفة أعلم الناس بالشر والفتن، وكان الناس يسألون رسول اللَّه ﷺ عن الخير وكان هو يسأله عن الشر، والقلب السليم ليس هو الجاهل بالشر الذي لا يعرفه؛ بل الذي يعرفه ولا يريده؛ بل يريد الخير والبر، والنبي ﷺ قد سمى الحرب خدعة[1]، ولا ريب في انقسام الخداع إلى ما يحبه اللَّه

---

(١) أخرجه من حديث جابر ﭬ: أحمد (٣/ ٣٠٨)، والبخاري (٦/ ١٩٤/ ٣٠٣٠)، ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٩)، وأبو داود (٣/ ٩٩/ ٢٦٣٦)، والترمذي (٤/ ١٦٦/ ١٦٧٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٣/ ٨٦٤٣).

ورسوله وإلى ما يبغضه وينهى عنه، وكذلك المكر ينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم، فالحيلة والمكر والخديعة تنقسم إلى محمود ومذموم، فالحيل المحرمة منها ما هو كفر، ومنها ما هو كبيرة، ومنها ما هو صغيرة، وغير المحرمة منها ما هو مكروه، ومنها ما هو جائز، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو واجب»[1].

ولأرباب الحيل الذين جوزوها شبه كثيرة ذكرها الإمام ابن القيم في كتابه الماتع «إعلام الموقعين»، وبيّن زيفها، ورد على أصحابها ردًّا مجملًا وآخر مفصلًا، نكتفي هنا بذكر المجمل منهما طلبًا للاختصار، ومن أراد التفصيل فليراجع «الإعلام».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال المبطلون للحيل: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، فسبحان اللَّه الذي فرض الفرائض، وحرم المحارم، وأوجب الحقوق رعاية لمصالح العباد في المعاش والمعاد، وجعل شريعته الكاملة قيامًا للناس، وغذاءً لحفظ حياتهم، ودواءً لدفع أدوائهم، وظله الظليل الذي من استظل به أمن من الحرور، وحصنه الحصين الذي من دخله نجا من الشرور، فتعالى شارع هذه الشريعة الفائقة لكل شريعة أن يشرع فيها الحيل التي تسقط فرائضه، وتحل محارمه، وتبطل حقوق عباده، ويفتح للناس أبواب الاحتيال، وأنواع المكر والخداع، وأن يبيح التوصل بالأسباب المشروعة إلى الأمور المحرمة الممنوعة، وأن يجعلها مضغة لأفواه المحتالين، عرضة لأغراض المخادعين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويظهرون خلاف ما يبطنون، ويرتكبون العبث الذي لا فائدة فيه سوى ضحكة الضاحكين، وسخرية الساخرين، فيخادعون اللَّه كما يخادعون الصبيان، ويتلاعبون بحدوده كتلاعب المُجَّان، فيحرمون الشيء ثم يستحلونه إياه بعينه، بأدنى الحيل، ويسلكون إليه نفسه طريقًا توهم أن المراد غيره، وقد علموا أنه هو المراد لا غيره، ويسقطون الحقوق التي وصى اللَّه بحفظها وأدائها بأدنى شيء، ويفرقون بين متماثلين من كل وجه لاختلافهما في الصورة أو الاسم، أو الطريق الموصل إليهما، ويستحلون بالحيل ما هو أعظم فسادًا مما يحرمونه، ويسقطون بها ما هو أعظم وجوبًا مما يوجبونه، والحمد لله الذي نزه شريعته عن هذا التناقض والفساد، وجعلها كفيلة وافية

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٤٠-٢٤٢).

بمصالح خلقه في المعاش والمعاد، وجعلها من أعظم آياته الدالة عليه، ونصبها طريقًا مرشدًا لمن سلكه إليه، فهو نوره المبين، وحصنه الحصين، وظله الظليل، وميزانه الذي لا يَعُول، لقد تعرف بها إلى أَلِبَّاء عباده غاية التعرف، وتحبب بها إليهم غاية التحبب، فأنسوا بها منه حكمته البالغة، وتمت بها عليهم منه نعمه السابغة، ولا إله إلا اللَّه الذي في شرعه أعظم آية تدل على تفرده بالإلهية وتوحده بالربوبية، وأنه الموصوف بصفات الكمال المستحق لنعوت الجلال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وله المثل الأعلى، فلا يدخل السوء في أسمائه، ولا النقص والعيب في صفاته، ولا العبث ولا الجور في أفعاله؛ بل هو منزه في ذاته وأوصافه وأفعاله وأسمائه عما يضاد كماله بوجه من الوجوه، وتبارك اسمه وتعالى جده، وبهرت حكمته، وتمت نعمته، وقامت على عباده حجته، واللَّه أكبر كبيرًا أن يكون في شرعه تناقض واختلاف، فلو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا؛ بل هي شريعة مؤتلفة النظام، متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس، مسلمة لا شية فيها، مؤسسة على العدل والحكمة والمصلحة والرحمة قواعدها ومبانيها، إذا حرمت فسادًا حرمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحًا رعت ما هو فوقه أو شبهه، فهي صراطه المستقيم، الذي لا أَمْتَ فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج؛ بل هي حنيفية التوحيد سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل: لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجى: لو أباحته لكان أرفق؛ بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة بها ألبتة إلى أن تكمل بسياسة ملك، أو رأي ذي رأي، أو قياس فقيه، أو ذوق ذي رياضة، أو منام ذي دين وصلاح؛ بل لهؤلاء كلهم أعظم الحاجة إليها، ومن وفق منهم للصواب، فلاعتماده وتعويله عليها، فقد أكملها الذي أتم نعمته علينا بشرعها قبل سياسات الملوك، وحيل المتحيلين، وأقيسة القياسيين، وطرائق الخلافيين، وأين كانت هذه الحيل والأقيسة والقواعد المتناقضة، والطرائق القدد، وقت نزول قوله:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[١]؟، وأين كانت يوم قوله ﷺ: «لقد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٢] ويوم قوله ﷺ: «ما تركت من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أعلمتكموه»[٣]؟، وأين كانت عند قول أبي ذر: «لقد توفي رسول اللَّه ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا»[٤]، وعند قول القائل لسلمان: «لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال: أجل»[٥]؟ فأين علمهم الحيل والمخادعة والمكر، وأرشدهم إليه ودلهم عليه؟ كلاَّ واللَّه، بل حذرهم أشد التحذير، وأوعدهم عليه أشد الوعيد، وجعله منافيًا للإيمان، وأخبر عن لعنة اليهود لما ارتكبوه، وقال لأمته: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم اللَّه تعالى بأدنى الحيل»، وأغلق أبواب المكر والاحتيال، وسد الذرائع، وفصل الحلال من الحرام، وبين الحدود، وقسم شريعته إلى حلال بين وحرام بين، وبرزخ بينهما، فأباح الأول وحرم الثاني، وحض الأمة على اتقاء الثالث خشية الوقوع في الحرام، وقد أخبر اللَّه تعالى عن عقوبة المحتالين، على حل ما حرمه عليهم، وإسقاط ما فرضه عليهم في غير موضع من كتابه، قال أبو بكر الآجري وقد ذكر بعض الحيل الربوية التي يفعلها الناس: لقد مسخ اليهود قردة بدون هذا. وصدق واللَّه لآكل حوت صيد يوم السبت، أهون عند اللَّه وأقل جرمًا من آكل الربا الذي حرمه اللَّه بالحيل والمخادعة، ولكن كما قال الحسن: عجل لأولئك عقوبة تلك الأكلة الوخيمة وأرجئت عقوبة هؤلاء. وقال الإمام أبو يعقوب الجوزجاني: وهل أصاب الطائفة من بني إسرائيل المسخ إلا باحتيالهم على أمر اللَّه، بأن حفروا الحفائر على

---

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وابن ماجه (١/ ١٦/ ٤٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٧/ ٦١٩)، والحاكم (١/ ٩٦) من حديث العرباض بن سارية. وليس في شيء من ألفاظه عند مخرجيه لفظة: «المحجة».

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: ابن أبي شيبة (٧/ ٧٩/ ٣٤٣٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩/ ١٠٣٧٦)، وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٥٥-١٥٦/ ١٦٤٧). وأخرجه من طريق أخرى: أحمد (٥/ ١٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٣).

(٥) أخرجه من حديث سلمان الفارسي ﷺ: أحمد (٥/ ٤٣٧)، ومسلم (١/ ٢٢٣/ ٢٦٢)، وأبو داود (١/ ١٧-١٨/ ٧)، والترمذي (١/ ٢٤/ ١٦)، والنسائي (١/ ٤١-٤٢/ ٤١)، وابن ماجه (١/ ١١٥/ ٣١٦).

الحيتان في يوم سبتهم، فمنعوها الانتشار يومها إلى الأحد فأخذوها.. وقال بعض الأئمة: في هذه القصة مزجرة عظيمة للمتعاطين الحيل على المناهي الشرعية، ممن تلبس بعلم الفقه وليس بفقيه؛ إذ الفقيه من يخشى اللَّه ﷻ في الربويات، واستعارة التيس الملعون لتحليل المطلقات، وغير ذلك من العظائم والمصائب الفاضحات، التي لو اعتمدها مخلوق مع مخلوق لكان في نهاية القبح، فكيف بمن يعلم السر وأخفى، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقال: وإذا وازن اللبيب بين حيلة أصحاب السبت والحيل التي يتعاطاها أرباب الحيل في كثير من الأبواب، ظهر له التفاوت ومراتب المفسدة التي بينها وبين هذه الحيل، فإذا عرف قدر الشرع وعظمة الشارع وحكمته، وما اشتمل عليه شرعه من رعاية مصالح العباد، تبين له حقيقة الحال، وقطع بأن اللَّه تعالى يتنزه ويتعالى أن يشرع لعباده نقض شرعه وحكمته بأنواع الخداع والاحتيال»[١].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ واعظًا ومحذرًا من هذا الفعل الشنيع: «فحقيق بمن اتقى اللَّه وخاف نكاله، أن يحذر استحلال محارم اللَّه بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من اللَّه ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يومًا تَكَعُّ فيه الرجال، وتنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير الباطن فيه ظاهرًا، والسر علانية، والمستور مكشوفًا، والمجهول معروفًا، ويحصل ويبدو ما في الصدور، كما يبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال، وتسود وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون»[٢].

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٠٥-٢٠٨).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٣-١٦٤).

وإني أقول: ما أشبه اليوم بالأمس، حين تنظر إلى بعض من تلبس بالفقه والعلم يفتي الناس بالطامات، ويحل لهم ركوب المحرمات بما أوتيه من دهاء ومكر وحيل يلبس بها على مرضى القلوب والعوام. وهذه فتاواهم وكتبهم قد انتشرت هنا وهناك، وهذه مواقعهم على الإنترنت، من فتح عليها تحسى سمًّا بمذاق عسل فأرداه قتيلًا بوصف شهيد.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وإذ تأذّن: أي: أعلَمَ.

من يسومهم: أي: يذيقهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾: واذكر -يا محمد- إذ أذن ربك، فأعلم... ليبعثنّ على اليهود من يسومهم سوء العذاب»[١].

قال ابن كثير: «وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقّيت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر اللَّه وشرعه، واحتيالهم على المحارم...

قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: «هي المسكنة، وأخذ الجزية منهم». وقال علي بن أبي طلحة عنه: «هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول اللَّه ﷺ وأمته، إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقتادة. وقال عبدالرزاق عن معمر عن عبدالكريم الجزري عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية.

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه،

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٠٢).

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة؛ لئلاّ يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف»[1].

قال ابن عاشور: «وقد ألمّ بمعنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾[2]»[3].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩٧).

(٢) الإسراء: الآيات (٤-٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قطّعناهم: أي: فرّقناهم في البلاد.

وبلوناهم: أي: اختبرناهم.

بالحسنات: أي: بالخصب والعافية.

والسيئات: أي: الجدب والشدائد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وفرّقنا بني إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ يعني: جماعات شتى متفرقين...

وقوله: ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ يقول: من هؤلاء القوم الذين وصفهم اللّه من بني إسرائيل ﴿الصَّالِحُونَ﴾ يعني: من يؤمن باللّه ورسوله، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: دون الصالح، وإنما وصفهم اللّه -جل ثناؤه- بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادهم عن دينهم، وقبل كفرهم بربهم، وذلك قبل أن يُبعث فيهم عيسى ابن مريم صلوات اللّه عليه.

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا، والدعة والسعة في الرزق، وهي الحسنات التي ذكرها -جل ثناؤه-، ويعني بالسيئات: الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب، والرزايا في الأموال، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم، وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه»[1].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾(١)

★ غريب الآية:

خَلْفٌ: الخلف: مَنْ أتى بعد غيره. وفرّقوا بين الصالح والطالح بالفتحة فقالوا: خَلْفُ سوءٍ وخَلَفُ خيرٍ.

عَرَض هذا الأدنى: ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم. والعرض، بفتح الراء: متاع الدنيا، وبالسكون: ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير. والإشارة في الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فخلف من بعد هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم ﴿خَلْفٌ﴾ يعني: خلف سوء، يقول: حدث بعدهم وخلافهم، وتبدّل منهم بدل سوء...

وقيل: إن الخَلْف الذي ذكر اللّه في هذه الآية أنهم خلَفوا من قبلهم، هم النصارى...

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللّه تعالى إنما وصف أنه خلَف القوم الذين قصّ قصصهم في الآيات التي مضت خلف سوء رديء، ولم يذكر لنا أنهم نصارى في كتابه، وقصتهم بقصص اليهود أشبه منها بقصص النصارى. وبعدُ، فإن ما قبل ذلك خبر عن بني إسرائيل وما بعده كذلك، فما بينهما بأن يكون خبرًا عنهم أشبه؛ إذ لم يكن في الآية دليل على صرف الخبر عنهم إلى غيرهم، ولا جاء بذلك دليل يوجب صحة القول به.

فتأويل الكلام إذن: فتبدّل من بعدهم بدلُ سوء، ورثوا كتاب الله: تعلموه،

---

(١) الأعراف: الآية (١٦٩).

وضيعوا العمل به، فخالفوا حكمه، يرشون في حكم اللَّه، فيأخذون الرشوة فيه من عرض هذا العاجل ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، يعني بـ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾: الأقرب من الآجل الأبعد، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا فعلوا ذلك: إن اللَّه سيغفر لنا ذنوبنا؛ تمنيًا على اللَّه الأباطيل، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾[1]. ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ يقول: وإن شرع لهم ذنب حرام مثله من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه، ولم يرتدعوا عنه. يخبر -جل ثناؤه- عنهم أنهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة»[2].

قال أبو حيان: «ولهذه الأمة من هذه الآية نصيب وافر. وقال رسول اللَّه ﷺ: «**لتسلكنّ سنن من قبلكم**»[3]. ومن اختبر حال علمائها وقضاتها ومفتيها شاهد بالعيان ما أخبر به الصادق»[4].

قلت: رحمة اللَّه على المفسر أبي حيان الذي لم يقتصر فهمه على سياق الآية وظاهرها وأن الأمر في اليهود وعلمائهم فقط؛ بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الأسباب، فمع الأسف الأمة الإسلامية أشبهت اليهود في هذه الفعلة الشنيعة، فكما أشار أبو حيان إلى العلماء والقضاة والمفتين وإلى كثير من ولاة الأمور؛ فإنهم آثروا ما عند الناس على ما عند اللَّه، فباعوا دينهم بدنياهم، ووافقوا على كل باطل، بل دعوا إليه وناصروه من أجل دريهمات معدودات ومتاع قليل، فقلما تجد العالم المخلص الزاهد، والقاضي العادل، والمفتي الورع، فكل هذا أصبح تاريخًا قد مضى إلا من وفقه اللَّه وعصمه.

فما أشبه اليوم بالبارحة! ولعل اليوم أكثر وأفظع وأشر! فإن البطون قد اتسعت، والطمع قد كثر، والشره قد انتشر، واللَّه المستعان.

وقال محمد رشيد رضا: «وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين،

---

(١) البقرة: الآية (٧٩).

(٢) جامع البيان (٩/ ١٠٤-١٠٥).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ من حديث عمرو بن عوف المزني ﷺ: الطبراني في الكبير (١٧/ ١٣/ ٣)، والحاكم (١/ ١٢٩).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤١٥).

حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم، والقرآن الحكيم، ودرسوا ما فيه، غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل، وعرضها الدنيء، والغرور بالنسبة إلى الإسلام، والتحلي بلقبه، والتعلل بأماني المغفرة، مع الإصرار على الذنب، والاتكال على المكفرات والشفاعات، وهم يقرؤون ما في الكتاب من النهي عن الأماني والأوهام، ومن نوط الجزاء بالأعمال، والمغفرة بالتوبة والإصلاح، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن اللَّه لمن رضي عنه؛ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[1]، ولن يرضى اللَّه عن فاسق ولا منافق، ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]، بل ما قص اللَّه علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني إسرائيل إلا لنعتبر بأحوالهم، ونتقي الذنوب التي أخذهم بها، ولكننا مع هذا كله اتبعنا سننهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، إلا أننا نحمد اللَّه أن هذا الاتباع فينا غير عامّ، وأنه لا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق، يطعن فيها الجماهير الذين صار الإسلام فيهم غريبًا، وقد شرحنا ذلك مرارًا، بل صرحت الآيات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب في أمانيّهم، وفي فسقهم، كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[3] إلخ، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[4]»[5].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٢) التوبة: الآية (٩٦).

(٣) النساء: الآية (١٢٣).

(٤) الحديد: الآية (١٦).

(٥) تفسير المنار (٩/ ٣٨٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

★ غريب الآية:

ودرسوا ما فيه: أي: قرؤوه. والدرس: تكرير الشيء؛ يقال: درس الكتاب: إذا كرّر قراءته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ على هؤلاء -المرتشين في أحكامهم، القائلين: سيغفر اللَّه لنا فعلنا هذا، إذا عوتبوا على ذلك- ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهو أخذ اللَّه العهود على بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، فقال -جل ثناؤه- لهؤلاء الذين قصّ قصتهم في هذه الآية موبخًا لهم على خلافهم أمره، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ اللَّه عليهم ميثاق كتابه: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، ولا يضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه؟..

وأما قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾، فإنه معطوف على قوله: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومعناه: فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب، ودرسوا ما فيه. ويعني بقوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾: قرؤوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتاب، فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه، وتركوا العمل به، وخالفوا عهد اللَّه إليهم في ذلك؛ كما حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ قال: علموه وعلموا ما في الكتاب الذي ذكر اللَّه، وقرأ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1].

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وما في الدار الآخرة، وهو ما في المعاد عند اللَّه مما أعد لأوليائه، والعاملين بما أنزل في كتابه، المحافظين على حدوده، ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ اللَّه، ويخافون عقابه، فيراقبونه في أمره

(١) آل عمران: الآية (٧٩).

ونهيه، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم، ويقولون: سيغفر لنا، أن ما عند اللَّه في الدار الآخرة للمتقين العادلين بين الناس في أحكامهم، خير من هذا العرض القليل الذي يستعجلونه في الدنيا على خلاف أمر اللَّه، والقضاء بين الناس بالجور»[١].

قال الألوسي: «قد عرض الزمخشري -عامله اللَّه تعالى بعدله- في تفسير هذه الآية بأهل السنة، وزعم أن مذهبهم هو مذهب اليهود بعينه؛ حيث جوّزوا غفران الذنب من غير توبة، ونقل عن التوراة من ارتكب ذنبًا عظيمًا فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة، وأنت تعلم أن اليهود أكدوا القول بالغفران، وأهل السنة لا يجزمون في المطيع بالغفران، فضلًا عن العاصي بما هو حق اللَّه تعالى، فضلًا عمن عصاه سبحانه فيما هو من حقوق العباد، فالموجبون على اللَّه تعالى وإن كان بالنسبة إلى التائب أقرب إليهم، فهل ما ادّعاه إلا من قبيل ما جاء في المثل: (رمتني بدائها وانسلّت)؟ وما نقله عن التوراة، إن كان استنباطًا من الآية، فلا تدل على ما في الكشاف إلا على تحريفهم ما في التوراة من نعت النبي -صلى اللَّه تعالى عليه وسلم-، وآية الرجم، ونحو ذلك من تسهيلاتهم على الخاصة، وتخفيفاتهم على العامة، يأخذون الرشا بذلك، والتقول على اللَّه عظيمة، وإن كان قد قرأ التوراة التي لم تحرف، وأنها هي تعين الحمل على الشرك بقواطع من كتاب اللَّه تعالى الكريم، أو يكون ذلك لهم وهذا لهذه الأمة المرحومة خاصة، وقد سلم هو نحوًا منه في قوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[٢]، وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمني على الله»[٣].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليُبيننّ الحق للناس، ولا يكتمونه، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[٤]»[٥].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٠٧-١٠٨).
(٢) الأحقاف: الآية (٣١).
(٣) روح المعاني (٩/ ٩٧).
(٤) آل عمران: الآية (١٨٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يُمَسِّكُونَ: أي: يَتَمَسَّكونَ؛ يقال: مَسَكَ بالشيءِ وأَمْسَكَ وتَمَسَّكَ وامْتَسَكَ واسْتَمْسَكَ، كلها بمعنى واحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: يتمسكون به علمًا وعملًا، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم.

ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة، ظاهرًا وباطنًا، ولهذا خصها اللَّه بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن اللَّه بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم»[١].

قال محمد رشيد رضا: «﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: إنّا لا نضيع أجرهم؛ لأنهم هم المصلحون، واللَّه لا يضيع أجر المصلحين، فهو خبرٌ قُرن بالدليل، ومثله قوله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١٢).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[1]»[2].

قال القاسمي: «قال الجشمي: تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب، ووعد من تمسّك به، تنبيهًا لنا وتحذيرًا عن سلوك طريقتهم. وتدل على أن الاستغفار باللسان، وتمني المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل»[3].

- وذكر إقامة الصلاة في هذه الآية تنبيه على أهميتها. **قال الرازي**: «فإن قيل: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت بالذكر؟ قلنا: إظهارًا لعلو مرتبة الصلاة، وإنها أعظم العبادات بعد الإيمان»[4].

* * *

(١) الكهف: الآية (٣٠).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٣٨٥).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٢٩١-٢٩٢).

(٤) التفسير الكبير (١٥/ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وإذ نَتَقْنَا: أي: رفعنا؛ نَتَقَ الشيءَ: جذبه ونزعه حتى يسترخي. ومنه نَتْقُ عُرَى الحِمْل. وكل شيء قَلَعْتَهُ ورَمَيْتَ به فقد نَتَقْتَهُ. والمعنى: زعزعناه من مقره.

كأنه ظُلّة: أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظلّ. والظُّلّة: كل ما أَظَلَّكَ؛ أي: سترك، من سقف وسحابة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر -يا محمد- إذ اقتلعنا الجبل، فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلام، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ من فرائضنا، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يقول: ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه، بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المواثيق»[١].

قال ابن عاشور: «هذه آية أظهرها اللّه لهم تخويفًا لهم؛ لتكون مذكّرة لهم، فيعقب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، فكان رفع الطور معجزة لموسى ﷺ تصديقًا له فيما سيبلّغهم عن اللّه من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة. والقصة تقدمت في سورة (البقرة) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾[٢]»[٣].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٠٨).
(٢) البقرة: الآية (٦٣).
(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾

★ **غريب الآية:**

المبطلون: أي: الذين جاؤوا بالباطل. والإبطال: يقال تارة لمن يبطل شيئًا؛ أي: يفسده ويزيله حقًا كان ذلك الشيء أو باطلًا، وتارة لمن أتى بالباطل. ويقال فيمن يقول شيئًا لا حقيقة له. ويقال فيمن يشتغل عمّا ينفعه من أمر الدنيا والدين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء:

أحدهما: أن معنى أخذه ذرية بني آدم من ظهورهم: هو إيجاد قرن منهم بعد قرن، وإنشاء قوم بعد آخرين كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[1]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ﴾[3]، ونحو ذلك من الآيات. وعلى هذا القول فمعنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أن إشهادهم على أنفسهم إنما هو بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه وحده، وعليه فمعنى ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: قالوا ذلك بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه، ونظيره من إطلاق الشهادة على

(١) الأنعام: الآية (١٣٣). (٢) فاطر: الآية (٣٩).
(٣) النمل: الآية (٦٢).

شهادة لسان الحال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾[١] أي: بلسان حالهم على القول بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾[٢]؛ أي: بلسان حاله أيضًا على القول بأن ذلك هو المراد في الآية أيضًا.

واحتج من ذهب إلى هذا القول بأن اللَّه -جل وعلا- جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك به -جل وعلا- في قوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ قالوا: فلو كان الإشهاد المذكور الإشهاد عليهم يوم الميثاق، وهم في صورة الذر لما كان حجة عليهم؛ لأنه لا يذكره منهم أحد عند وجوده في الدنيا، وما لا علم للإنسان به لا يكون حجة عليه.

فإن قيل: إخبار الرسل بالميثاق المذكور كافٍ في ثبوته، قلنا: قال ابن كثير في تفسيره: الجواب عن ذلك أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من التوحيد، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ الآية، اهـ منه بلفظه.

فإذا علمت هذا الوجه الذي ذكرنا في تفسير الآية، وما استدل عليه قائله به من القرآن، فاعلم أن الوجه الآخر في معنى الآية: أن اللَّه أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق الذي نسيه الكل ولم يولد أحد منهم وهو ذاكر له، وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: هذا الوجه الأخير يدل له الكتاب والسنة.

أما وجه دلالة القرآن عليه، فهو أن مقتضى القول الأول أن ما أقام اللَّه لهم من البراهين القطعية كخلق السموات والأرض، وما فيهما من غرائب صنع اللَّه الدالة على أنه الرب المعبود وحده، وما ركز فيهم من الفطرة التي فطرهم عليها تقوم عليهم به الحجة، ولو لم يأتهم نذير والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، بأن اللَّه تعالى

---

(١) التوبة: الآية (١٧).

(٢) العاديات: الآيتان (٦و٧).

لا يعذب أحدًا حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]؛ فإنه قال فيها: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ولم يقل حتى نخلق عقولًا، وننصب أدلة، ونركز فطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]، فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم: هو إنذار الرسل، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة.

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها بينها في (طه) بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[3]، وأشار لها في (القصص) بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[6]، ومعلوم أن لفظة (كلما) في قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ صيغة عموم، وأن لفظة (الذين) في قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ صيغة عموم أيضًا؛ لأن الموصول يعم كلما تشمله صلته.

وأما السنة: فإنه قد دلت أحاديث كثيرة على أن اللَّه أخرج ذرية آدم في صورة الذر، فأخذ عليهم الميثاق كما ذكر هنا»[7].

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).
(٢) النساء: الآية (١٦٥).
(٣) طه: الآية (١٣٤).
(٤) القصص: الآية (٤٧).
(٥) الملك: الآيتان (٨و٩).
(٦) الزمر: الآية (٧١).
(٧) أضواء البيان (٢/ ٤٢-٤٤).

قال ابن عطية: «في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمنه العهد من توحيد اللَّه وعبادته، لكانت لهم حجتان: إحداهما: كنا غافلين. والأخرى: كنا تباعًا لأسلافنا، فكيف نهلك، والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلنا؟ فوقعت شهادة بعضهم على بعض، أو شهادة الملائكة عليهم، لتنقطع لهم هذه الحجج»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى أخذ اللَّه الميثاق من ذرية آدم من ظهورهم وإشهادهم على أنفسهم بأنه ربهم ومعبودهم الحق وأن ذلك على حقيقته لا مجاز فيه

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**أخذ اللَّه تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾»[٢].

* عن أنس يرفعه: «**إن اللَّه يقول لأهون أهل النار عذابًا: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صُلب آدم: أن لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك**»[٣].

* عن عبدالرحمن بن قتادة السلمي وكان من أصحاب رسول اللَّه ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**خلق اللَّه آدم ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، قال قائل: يا رسول الله! فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر**»[٤].

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٧/ ١١١٩١) والحاكم (١/ ٢٧-٢٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر»، ووافقه الذهبي. وتعقبه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٣) بقوله: «وحقهما أن يقيداه بأنه على شرط مسلم؛ فإن كلثوم بن جبر من رجاله، وسائرهم من رجال الشيخين».

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٧)، والبخاري (٦/ ٤٤٨/ ٣٣٣٤)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠-٢١٦١/ ٢٨٠٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٦)، وصححه ابن حبان (٢/ ٥٠/ ٣٣٨) والحاكم (١/ ٣١) ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٨٦) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات».

* عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق اللَّه تبارك وتعالى آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال هؤلاء للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في يساره: إلى النار ولا أبالي»[1].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن القيم: «الآية دلت على أن هذا الأخذ من بني آدم لا من آدم، وأنه من ظهورهم لا من ظهره وأنهم ذرياتهم أمة بعد أمة وأنه إشهاد تقوم به الحجة له سبحانه فلا يقول الكافر يوم القيامة كنت غافلًا عن هذا، ولا يقول الولد أشرك أبي وتبعته، فإنّ ما فطرهم اللَّه عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وخالقهم وفاطرهم حجةً عليهم، ثم دل حديث عمر وغيره على أمر آخر لم تدل عليه الآية وهو القدر السابق والميثاق الأول، وهو سبحانه لا يحتج عليهم بذلك، وإنما يحتج عليهم برسله، وهو الذي دلت عليه الآية، فتضمنت الآية والأحاديث إثبات القدر والشرع وإقامة الحجة والإيمان بالقدر فأخبر النبي ﷺ لما سئل عنها بما يحتاج العبد إلى معرفته والإقرار به معها، وباللَّه التوفيق»[2].

وقال ابن كثير: «فهذه الأحاديث دالة على أن اللَّه ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو ﷺ، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك. قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: (من آدم من ظهورهم) ولم يقل: (من

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤١)، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٢١/ ٢١٤٤) وقال: «لا نعلم أحداً رواه بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وإسناده حسن». وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٨٥) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) شفاء العليل (١/ ٤٣-٤٤).

ظهره ذريتهم) أي: جعل نسلهم جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[2]، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالًا وقالًا، والشهادة تارة تكون بالقول كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ الآية، وتارة تكون حالًا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾[3] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾[4]، كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[5] قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كافٍ في وجوده، فالجواب: إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية»[6].

وقد تعقب العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصحاب هذا القول فقال: «إذا عرفت هذا - يعني أن حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس له حكم الرفع- فمن العجيب قول الحافظ ابن كثير عقب الأحاديث والآثار التي سبقت إلى الإشارة إلى أنه أخرجها:

(فهذه الأحاديث دالة على أن اللَّه ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو، وقد

---

(١) النمل: الآية (٦٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٣٣).
(٣) التوبة: الآية (١٧).
(٤) العاديات: الآية (٧).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٠٦).

بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم).

قلت (الشيخ الألباني): وليس الأمر كما نفى، بل الإشهاد وارد في كثير من تلك الأحاديث:

الأول: حديث أنس هذا، ففيه كما رأيت قول اللَّه تعالى: «**قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا**». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[1]: (فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية).

قلت: ولفظ حديث ابن عمرو الذي أعله ابن كثير بالوقف إنما هو: «**أخذ من ظهره..**»، فأي فرق بينه وبين لفظ حديث أنس الصحيح؟!

الثاني: حديث عمر بلفظ: «**ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية..**».

الثالث: حديث أبي هريرة الصحيح: «**.. مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة..**».

الرابع: حديث هشام بن حكيم: «**إن اللَّه قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم..**».

الخامس: حديث أبي أمامة: «**لما خلق اللَّه الخلق وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه، وأهل الشمال بشماله، فقال: .. ألست بربكم، قالوا: بلى..**».

ففي ذلك رد على قول ابن القيم أيضًا في كتاب (الروح)[2] بعد أن سرد طائفة من الأحاديث المتقدمة:

(وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية، فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية، والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه).

وقد أفاض جدًا في تفسير الآية وتأويلها تأويلًا ينافي ظاهرها، بل ويعطل دلالتها أشبه ما يكون بصنيع المعطلة لآيات وأحاديث الصفات حين يتأولونها،

---

(١) (٦/ ٢٨٤).

(٢) (ص: ١٦١).

وهذا خلاف مذهب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي تعلمناه منه ومن شيخه ابن تيمية، فلا أدري لماذا خرج عنه هنا لاسيما وقد نقل[١] عن ابن الأنباري أنه قال: (مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن اللَّه أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده، وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولًا عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلًا حين خوطب، وكما فعل ذلك للبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت).

كما نقل أيضًا عن إسحق بن راهويه: (وأجمع أهل العلم أن اللَّه خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم).

قلت: وفي كلام ابن الأنباري إشارة لطيفة إلى طريقة الجمع بين الآية والحديث وهو قوله: (إن اللَّه أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده).

وإليه ذهب الفخر الرازي في تفسيره[٢]، وأيده العلامة ملاّ علي القاري في «مرقاة المفاتيح»[٣]، وقال عقب كلام الفخر: (قال بعض المحققين: إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم اللَّه تعالى في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه هو المخرج في الأزل من صلبه، وأخذ منهم الميثاق الأول، وهو المقالي الأزلي كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني، وهو الحالي الإنزالي. والحاصل أن اللَّه تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقًا آخر أزليًا فقال ما قال من مسح ظهر آدم في الأزل وإخراج

(١) (ص: ١٦٣).
(٢) (٤/ ٣٢٣).
(٣) (١/ ١٤٠-١٤١).

ذريته وأخذه الميثاق عليهم، اهـ وبهذا يزول كثير من الإشكالات فتأمل فيها حق التأمل).

وجملة القول: أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى كما سبق، وأنه لا تعارض بينه وبين آية آخذ الميثاق، فالواجب ضمه إليها، وأخذ الحقيقة من مجموعها، وقد تجلت لك إن شاء الله مما نقلته لك من كلام العلماء، وبذلك ننجو من مشكلتين بل مفسدتين كبيرتين:

الأولى: رد الحديث بزعم معارضته للآية.

والأخرى: تأويلها تأويلًا يبطل معناها، أشبه ما يكون بتأويل المبتدعة والمعتزلة. كيف لا وهم أنفسهم الذين أنكروا حقيقة الأخذ والإشهاد والقول المذكور فيها بدعوى أنها خرجت مخرج التمثيل! وقد عز عليّ كثيرًا أن يتبعهم في ذلك مثل ابن القيم وابن كثير، خلافًا للمعهود منهم من الرد على المبتدعة ما هو دون ذلك من التأويل، والعصمة لله وحده.

ثم إنه ليلوح لي أننا وإن كنا لا نتذكر جميعًا ذلك الميثاق الرباني، وقد بين العلماء سبب ذلك، فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي تشهد فعلًا بأن الله هو الرب وحده لا شريك له، إنما هي أثر ذلك الميثاق، وكأن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى ذلك حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعًا: «**ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة..**» الحديث[1]، قال الحسن عقبه: ولقد قال الله ذلك في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ ... الآية، أخرجه ابن جرير[2]. ويؤيده أن الحسن من القائلين بأخذ الميثاق الوارد في الأحاديث، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعليه فلا يصح أن يقال: إن الحسن البصري مع الخلف القائلين بأن المراد بالإشهاد المذكور في الآية إنما هو فطرهم على التوحيد، كما صنع ابن كثير، والله أعلم»[3].

---

(١) أخرجه من حديث الأسود بن سريع ﷺ: أحمد (٣/ ٤٣٥)، والدارمي (٢/ ٢٢٣) دون قوله: «إلا إنها ليست نسمة..»، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٤/ ٨٦١٦)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٣-٢٨٥/ ٨٢٦-٨٣٥)، وفي الأوسط (٣/ ٨-٩/ ٢٠٠٥)، والحاكم (٢/ ١٢٣) من طريقين، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٣١٦) وقال: «رواه أحمد بأسانيد، والطبراني في الكبير والأوسط، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح».

(٢) (١٥٣٥٣).

(٣) السلسلة الصحيحة (٤/ ١٦٠-١٦٣).

* عن ابن محيريز أنه قال: دخلت أنا وأبو صرمة على أبي سعيد الخدري فسأله أبو صرمة فقال: يا أبا سعيد! هل سمعت رسول اللَّه ﷺ يذكر العزل؟ فقال: «نعم، غزونا مع رسول اللَّه ﷺ غزوة بني المصطلق، فسبينا كرائم العرب، فطالت علينا العزبة ورغبنا في الفداء، وأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا نفعل ورسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا لا نسأله! فسألنا رسول اللَّه ﷺ فقال: **لا عليكم أن لا تفعلوا، ما كتب اللَّه خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون**»[١].

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث فيه بيان ما في الآية من أن اللَّه تعالى فرغ من تقدير الكائنات حين أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم.

قال القاري: «أي: ليست نسمة كائنة في علم اللَّه تعالى من حدوث المحدثات إلى يوم القيامة في حال من الأحوال، إلا كائنة ثابتة في وقت من الأوقات لا يمنعها عزل ولا غيره، والحاصل أن كل إنسان قدره اللَّه، أن سيوجد ولا يمنعه العزل»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه ما عليكم ضرر في ترك العزل؛ لأن كل نفس قدر اللَّه تعالى خلقها لا بد أن يخلقها، سواء عزلتم أم لا. وما لم يقدر خلقها لا يقع سواء عزلتم أم لا. فلا فائدة في عزلكم؛ فإنه إن كان اللَّه تعالى قدر خلقها سبقكم الماء، فلا ينفع حرصكم في منع الخلق»[٣].

قال آل بسام: «فيه الإيمان بالقدر، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس فيه تعطيل للأسباب؛ فإنه قدر الأشياء وقدر لها أسبابها، فلا بد من عمل الأسباب، واللَّه يقدر ما يشاء ويفعل ما يريد، فتعطيل الأسباب وعدم الإيمان بتأثيرها، أو الاعتماد عليها وحدها كلاهما مذهب مذموم، والمذهب الحق المختار الوسط، هو الإيمان بقضاء اللَّه وقدره، وأن للأسباب تأثيرًا، وهو مذهب أهل السنة، وبه تجتمع الأدلة العقلية والنقلية، ولله الحمد»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٨)، والبخاري (٩/ ٣٨١/ ٥٢١٠)، ومسلم (٢/ ١٠٦١/ ١٤٣٨) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ٦٢٤/ ٢١٧٢)، والنسائي (٦/ ٤١٦-٤١٧/ ٣٣٢٧).

(٢) شرح المشكاة (٦/ ٣٤٥).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٠/ ١٠).

(٤) تيسير العلام (٣/ ٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

★ غريب الآية:

واتلُ: أي: واقرأ عليهم. والتلاوة: القراءة وإلقاء الكلام الذي يعاد ويكرر للاعتبار به.

نبأ: النبأ: الخبر ذو الفائدة العظيمة.

فانسلخ منها: أي: خرج منها ونزع منه العلم الذي كان يعلمه. والانسلاخ: الخروج؛ يقال: انسلخت الحية من جلدها؛ أي: خرجت منه.

فأتبعه الشيطان: أي: لحق به؛ يقال: أتبعتُ القومَ؛ أي: لحقتهم.

أَخْلَدَ إلى الأرض: اطمأن وسكن إلى لذّاتها؛ ظانًّا دوامها له. وأصل الإخلاد: اللزوم؛ يقال: أخلد فلان بالمكان: إذا أقام به ولزمه.

إن تحمل عليه: أي: إن تطرده كما يطرد المقاتل مقاتله.

يلهث: اللهث: إخراج اللسان من شدة العطش.

ساء مثلًا: أي: قبح مثلهم؛ يقال: ساء الشيء: قبح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى: فمنها قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي

أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه، ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾[1]، وكان محفوظًا محروسًا بآيات اللَّه، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات اللَّه ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء، ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ ، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة اللَّه، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه اللَّه بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ باللَّه من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه اللَّه فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه، قال ابن عباس: «**ولو شئنا لرفعناه بعمله بها**». وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا، قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد، وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ . . . وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها، وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم، يعني الذين حاربوا موسى وقومه، وقال يمان: اتبع امرأته؛ لأنها هي التي حملته على ما فعل»[2].

(١) الشعراء: الآية (٦٠).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٦٧-١٦٨).

وقال: «شبه سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه وآثر سخط اللَّه على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرَهًا، ولا يزال يَشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثّة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه، وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على اللَّه والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سرٌّ بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره اللَّه من انسلاخه من آياته، واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن اللَّه والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه. وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه: أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا. وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها. وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقل: تبعه؛ فإن في معنى (أتبعه) أدركه ولحقه، وهو أبلغ من (تبعه) لفظًا ومعنىً. ورابعها: أنه غوى بعد الرشد، والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦٥-١٦٦).

والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل في الآخر، وإن اقترنا فالفَرْقُ ما ذكر. وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه. وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى. وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان: إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة:

وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا ... بأبناء حي من قبائل مالك

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض؛ لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع. وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا يقتدي به ويتبعه. وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسًا، وأبخلها وأشدها كلبًا، ولهذا سمي كلبًا. وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن تُرك فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعظ وزُجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب، قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه اللَّه مثلًا لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه»[1].

قال الرازي: «إن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات وتقرير تلك العبارات، يدلع لسانه ويخرجه لأجل ما تمكن في

(١) الفوائد (ص: ١٣٢-١٣٤).

قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب، الذي أخرج لسانه أبدًا، من غير حاجة ولا ضرورة، بل بمجرد الطبيعة الخسيسة»[(١)].

قال القرطبي: «هذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به، وقيل: هو في كل منافق، والأول أصح»[(٢)].

قال الرازي: «هذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيانه.. لما اتبع الهوى انسلخ من الدين، وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم اللَّه في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى، وأقبل على متابعة الهوى كان بُعده عن اللَّه أعظم»[(٣)].

قال محمد رشيد رضا: «وأكبر وجوه العبرة فيما نراه من حال علماء الدنيا، اللابسين لباس علماء الدين، الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات اللَّه، والإخلاد إلى الأرض، واتباع أهوائهم، وتفانيهم في إرضاء الحكام، وإن كانوا مرتدين، والعوام وإن كانوا مبتدعة خرافيين، وهم فتنة للنابتة العصرية، تصدهم عن الإسلام، وللعوام في الثبات على الخرافات والأوهام، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاها، فيما لا يطلب إلا من اللَّه تعالى، والطواف بها والنذر لها وغير ذلك، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم»[(٤)].

قلت: رحمة اللَّه على الشيخ محمد رشيد رضا حيث بين واقعه الذي يعيشه مع علماء السوء، الذين كانوا في ركب كل زنديق كان حاكمًا أو محكومًا، عاميًّا أو جاهلًا، ولا يهمهم إلا تحصيل المصالح والأغراض الخاصة، ولا يهمهم صلاح ولا فساد، ولا توحيد ولا شرك، ولا استقامة ولا انحراف، وهكذا تستوي عندهم الأمور، فلا يفرقون بين حق وباطل، وهذا -مع الأسف- واقع أكثر البلاد التي تنتسب إلى الإسلام إلا الطائفة المنصورة؛ نسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا منهم.

قال القرطبي: «فدلت الآية لمن تدبرها على أن لا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه؛ إذ لا يدري بما يختم له. ودلت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره.. ودلت

---

(١) مفاتح الغيب (١٥/ ٦٠-٦١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٢٣).
(٣) مفاتح الغيب (١٥/ ٦٠).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٤١٦).

على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها ؛ لأن اللَّه تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها ، فوجب أن يُخاف مثل هذا على غيره ، وأن لا يُقبل منه إلا بحجة»[1] .

فصل في ما اشتملت عليه هذه الآيات من الفوائد والعبر من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب : «وقوله : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فيه مسائل :

الأولى : معرفة أن لا إله إلا اللَّه ، كما في قصة آدم وإبليس ، ويعرف ذلك من عرف أسباب الشرك ، وهو الغلو في الصالحين والجهل بعظمة اللَّه .

الثانية : معرفة أن محمدًا رسول اللَّه يعرفه من عرف عداوة علماء أهل الكتاب له .

الثالثة : معرفة الدين الصحيح ، والدين الباطل ؛ لأنها نزلت في إبطال دينهم الذي نصروا ، وتأييد دينه الذي أنكروا .

الرابعة : معرفة عداوة الشيطان ومعرفة حِيَله .

الخامسة : أن من انسلخ من الآيات أدركه الشيطان ، ومن لم ينسلخ منها حَمَته منه ، ثم صار أكثر من ينتسب إلى العلم يظن العكس .

السادسة : خوف الخاتمة كما في حديث ابن مسعود .

السابعة : عدم الاغترار بغزارة العلم .

الثامنة : عدم الاغترار بصلاح العمل .

التاسعة : عدم الاغترار بالكرامات وإجابة الدعاء .

العاشرة : أن الانسلاخ لا يشترط فيه الجهل بالحق أو بغضه . . .

الثانية عشرة : معرفة الفتنة وأنه لا بد منها ، فليتأهب وليسأل اللَّه العافية لقوله : ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٢٣).

(٢) العنكبوت : الآية (٢).

الثالثة عشرة: عدم أمن مكر اللَّه.

الرابعة عشرة: عقوبة العاصي في دينه ودنياه.

الخامسة عشرة: ذكر مشيئة اللَّه، وذكر السبب من العبد.

السادسة عشرة: أن محبة الدنيا تكون سببًا لردة العالِم عن الإسلام.

السابعة عشرة: تمثيل هذا العالِم بالكلب في اللهث على كل حال.

الثامنة عشرة: أن هذا مثل لكل من كذّب بآيات اللَّه فليس مختصًا.

التاسعة عشرة: ذكر كونه سبحانه أمر بقصّ القصص على عباده.

العشرون: ذكر الحكمة في الأمر به.

الحادية والعشرون: قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ كقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾[1]. واللَّه أعلم، وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم العالم الذي يخالف فعلُه قولَه

* عن عبد اللَّه بن مسعود في قوله ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: «هو بلعم بن باعوراء»[3].

* عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردءًا للإسلام، غيّره إلى ما شاء اللَّه، فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك. قال: قلت: يا نبي الله! أيهما أولى بالشرك، المرمي أم الرامي؟ قال: بل الرامي»**[4].

---

(١) الجمعة: الآية (٥).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١١١-١١٢).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٨/ ١١١٩٣)، وعبدالرزاق في التفسير (٢/ ٢٤٣)، والطبراني (٩/ ٢٤٩/ ٩٠٦٤) من طرق عن أبي الضحى عن مسروق عن عبداللَّه به، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٥) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح»، والحاكم (٢/ ٣٢٥) واللفظ له، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم».

(٤) أخرجه: البزار (كشف الأستار ١/ ٩٩/ ١٧٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٢٨١-٢٨٢/ ٨١)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨٧-١٨٨) وقال: «رواه البزار، وإسناده حسن»، وذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ٥٠٩) بسند أبي يعلى، وقال: «هذا إسناد جيد».

★ **غريب الحديث:**

ردءًا للإسلام: الردء: الذي يتبع غيره معينًا له. والردء: العون والناصر. والمعنى: ناصرًا للإسلام ومعينًا لأهله.

★ **فوائد الحديث:**

وهذا الحديث في معنى الآية كما قال ابن كثير، وقد تقدم بيان معنى الآية. وفي هذا الحديث بيان واضح لشدة خوف النبي ﷺ على أمته من العالم الذي هذه صفته، الذي «اتخذ العلم حرفة يتأكل بها ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاظم بها، يدعو الناس إلى اللَّه ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للناس التنسك والتعبد ويسارر ربه بالعظائم، إذا خلا به ذئب من الذئاب، لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذر منه الشارع ﷺ...

وكان يحيى بن معاذ يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب القصور! قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين المحمدية والعالمية؟

وأكثر علماء الزمان ضربان: ضرب منكب على حطام الدنيا، لا يمل من جمعه، وتراه شهره ودهره يتقلب في ذلك، كالهج في المزابل يطير من عذرة إلى عذرة، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب الإكثار، واتخذ المال عدة للنوائب، لا يتنكر عليه تغلب الدنيا. وضرب هم أهل تصنع ودهاء وخداع، وتزين للمخلوقين، وتملق للحكام؛ شحًّا على رئاستهم، يلتقطون الرخص، ويخادعون اللَّه بالحيل ديدنهم المداهنة وساكن قلوبهم المنى، طمأنينتهم إلى الدنيا، وسكونهم إلى أسبابها، اشتغلوا بالأقوال عن الأفعال، وسيكافئهم الجبار المتعال»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت

(١) من كلام المناوي في «الفيض» (٢/ ٤١٩-٤٢٠).

أفعالهم: لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقًّا، كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلّاء، وفي الحقيقة قطّاع الطرق»[١].

* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس لنا مثل السوء الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: «ليس لنا مثل السوء»:

قال الحافظ: «أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها، قال الله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[٣]، ولعل هذا أبلغ في الزجر عن ذلك، وأدل على التحريم مما لو قال مثلًا: لا تعودوا في الهبة»[٤].

* * *

(١) الفوائد (ص: ٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧)، والبخاري (٥/ ٢٩٣/ ٢٦٢٢)، وأخرجه بدون ذكر الجملة الأولى: «ليس لنا مثل السوء»: أحمد (١/ ٢٣٧)، ومسلم (٣/ ١٢٤٠-١٢٤١/ ١٦٢٢)، وأبو داود (٣/ ٨٠٨/ ٣٥٣٨)، والنسائي (٦/ ٥٨٢/ ٣٧١٢)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٩/ ٢٣٩١).

(٣) النحل: الآية (٦٠).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الهداية والإضلال بيد اللَّه، والمهتدي وهو السالك سبيل الحق، الراكب قصد المحجة في دينه، من هداه اللَّه لذلك، فوفقه لإصابته، والضال من خذله اللَّه فلم يوفقه لطاعته، ومن فعل اللَّه ذلك به فهو الخاسر، يعني الهالك»(١).

وفي هذه الآية - **يقول السمعاني**: «دليل على القدرية، حيث نسب الهداية والضلالة إلى فعله من غير سبب»(٢).

قال ابن عاشور: «هذه الجملة تذييل للقصة والمثل، وما أُعقبا به من وصف حال المشركين؛ فإن هذه الجملة تحصّل ذلك كله، وتجري مجرى المثل، وذلك أعلى أنواع التذييل. وفيها تنويه بشأن المهتدين وتلقين للمسلمين للتوجه إلى اللَّه تعالى بطلب الهداية منه، والعصمة من مزالق الضلال؛ أي: فالذين لم يهتدوا إلى الحق بعد أن جاءهم دلت حالهم على أن اللَّه غضب عليهم فحرمهم التوفيق»(٣).

قال محمد رشيد رضا: «وفي الآية من محاسن البديع الاحتباك، وهو حذف الفوز والفلاح من الجملة الأولى للعلم به، من إثبات نظيره ومقابله، وهو الخسران في الجملة الثانية، وحذف الضال من الجملة الثانية لإثبات مقابله، وهو المهتدي في الجملة الأولى، وإفراد المهتدي في الجملة الأولى مراعاة للفظ (من)، وجمع الخاسرين في الثانية، مراعاة لمعناها، فإنها من صيغ العموم، وحكمة إفراد الأول، الإشارة به إلى أن الحق المراد من الهداية الإلاهية نوع واحد، وهو الإيمان

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٠-١٣١).

(٢) تفسير القرآن (٢/ ٢٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٠).

المثمر للعمل الصالح، وحكمة جمع الثاني الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الهدى والضلال خلقًا لله وكسبًا من العباد

* عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**علمنا خطبة الحاجة: الحمد لله نستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.**

ثم يقرأ ثلاث آيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٤]»[٥].

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله**»[٦].

★ **فوائد الحديثين:**

قوله ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له»؛ شهادة بأنه المتصرف في خلقه، ففيه إثبات القضاء الذي هو نظام التوحيد[٧].

وقال ابن القيم: «هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما

---

(١) المنار (٩/ ٤١٧).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٢).

(٣) النساء: الآية (١).

(٤) الأحزاب: الآية (٧٠).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٢-٣٩٣)، وأبو داود (٢/ ٥٩١-٥٩٢/ ٢١١٨)، والترمذي (٣/ ٤١٣/ ١١٠٥) وحسنه، والنسائي (٣/ ١١٦/ ١٤٠٣)، وابن ماجه (١/ ٦٠٩-٦١٠/ ١٨٩٢)، والحاكم (٢/ ١٨٢-١٨٣) وسكت عنه وكذا الذهبي.

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٦)، والترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤٢) وقال: «هذا حديث حسن»، وصححه ابن حبان (١٤/ ٤٣-٤٥/ ٦١٦٩-٦١٧٠)، والحاكم (١/ ٣٠).

(٧) أفاده شيخ الإسلام (١٤/ ٢٢٢).

يقدر اللَّه لعبده وأجلّ ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال، وقد اتفقت رسل اللَّه من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه ولابد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق ومشيئة اللَّه لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا اللَّه ﷻ.

المرتبة الرابعة: الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[2]، فهذه هداية بعد قتلهم، فقيل: المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم...»[3].

وسئل شيخ الإسلام عن الباري سبحانه: هل يضل ويهدي؟ فأجاب: «إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له، خَلَقه بمشيئته وقدرته، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، و هو الذي يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويضل ويهدي، ويسعد ويشقي، ويولي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويشرح صدر

---

(١) الصافات: الآيتان (٢٢و٢٣). (٢) محمد: الآيتان (٤و٥).

(٣) شفاء العليل (١/ ١٨١-١٨٢/ ٢٢٣).

من يشاء للإسلام ويجعل صدر من يشاء ضيّقًا كأنما يصّعد في السماء، وهو يقلب القلوب، ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وهو الذي حبّب إلى المؤمنين الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، وهو الذي جعل المسلم مسلمًا، و المصليَ مصلّيًا، قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[3]، وقال عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[5]، وقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[6]، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾[7]، والفلك مصنوعة لبني آدم، وقد أخبر اللّه تبارك وتعالى أنه خلقها بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[8]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا﴾ . .[9]. الآيات. وهذه كلها مصنوعة لبني آدم. وقال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[10]، فـ(ما) بمعنى: الذي، ومن جعلها مصدرية فقد غلط، لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس والمبنى دلّ على أنه خالق كلّ صانع وصنعته، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[11]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[12]، وهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه، وله فيما خلقه حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ورحمة عامة وخاصة، وهو لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون، لا لمجرد قدرته وقهره، بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، فإنه ﷻ أحكم الحاكمين،

---

(١) البقرة: الآية (١٢٨).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٠).
(٣) السجدة: الآية (٢٤).
(٤) القصص: الآية (٤١).
(٥) المعارج: الآية (١٩-٢١).
(٦) هود: الآية (٣٧).
(٧) هود: الآية (٣٨).
(٨) يس: الآية (٤٢).
(٩) النحل: الآية (٨٠).
(١٠) الصافات: الآيتان (٩٥و٩٦).
(١١) الكهف: الآية (١٧).
(١٢) الأنعام: الآية (١٢٥).

وأرحم الراحمين، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وقد أحسن كل شيء خلقه، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1]، وقد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2]، وقال: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[4]»[5].

وأما قوله ﷺ: «جف القلم على علم الله»: فقال ابن رجب: «هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته، ورفعت الأقلام عنه، وطال عهده، فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها، وجفت الصحيفة التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها. وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة على مثل هذا المعنى، قال اللّٰه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[6]. وفي صحيح مسلم عن عبد اللّٰه بن عمرو عن النبي ﷺ، قال: «**إن اللّٰه كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[7]، وفيه أيضًا عن جابر أن رجلًا قال: يا رسول الله! فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**»، قال: ففيم العمل؟ قال: «**اعملوا، فكلٌّ ميسر لما خلق له**»[8]»[9].

* * *

(١) النمل: الآية (٨٨).
(٢) البقرة: الآية (١٦٤).
(٣) الأعراف: الآية (٥٧).
(٤) المائدة: الآية (١٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٨-٨٠).
(٦) الحديد: الآية (٢٢).
(٧) سيأتي تخريجه تحت الآية الموالية.
(٨) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٢-٢٩٣) ومسلم (٤/ ٢٠٤٠-٢٠٤١/ ٢٦٤٨).
(٩) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[1]

★ غريب الآية:

ذرأنا: أي: خلقنا وأنشأنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البغوي: «أخبر اللَّه تعالى أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس للنار، وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومن خلقه اللَّه لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها»[2].

قال الخازن: «وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في أن اللَّه خالق أعمال العباد جميعها، خيرها وشرها؛ لأن اللَّه ﷻ بين بصريح اللفظ أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس للنار، ولا تَزَيُّدَ على بيان اللَّه ﷻ»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القضاء والقدر

* عن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»**[4].

* عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي. فقلت: طوبى له! عصفور من عصافير الجنة. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أو لا تدرين أن اللَّه خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلًا، ولهذه أهلًا؟»**[5].

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٢) معالم التنزيل (٣/ ٣٠٦).
(٣) لباب التأويل (٢/ ١٥٢).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٣)، والترمذي (٤/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٢١٥٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٠/ ٢٦٦٢)، وأبو داود (٥/ ٨٦/ ٤٧١٣)، والنسائي (٤/ ٣٥٩/ ١٩٤٦)، وابن ماجه (١/ ٣٢/ ٨٢).

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**[1].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث إثبات القضاء والقدر، وأن اللَّه تبارك وتعالى قدر شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وجميع أعمالهم قبل أن يخلقهم، وأنه ﷻ علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك في كتاب، فهو عنده قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وفي ذلك إثبات القدر السابق. وقد خالف في ذلك القدرية ومن سار على دربهم، فأنكروا أن يكون اللَّه عالمًا بالأشياء قبل وقوعها، وقالوا: إن اللَّه تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوها - تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وفي حديث عائشة دليل على أن من مات من أطفال المسلمين أنه من أهل الجنة.

قال النووي: «أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفًا، وتوقف فيه بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا، وأجاب العلماء بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله: **«أعطه؛ إني لأراه مؤمنًا، قال: أو مسلمًا»**[2] الحديث، ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦/ ٣٧٣-٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٢) أخرجه من حديث سعد بن مالك ﷺ: أحمد (١/ ١٨٢)، والبخاري (١/ ١٠٧/ ٢٧)، ومسلم (١/ ١٣٢/ ١٥٠[٢٣٧])، وأبو داود (٥/ ٦٠-٦٢/ ٤٦٨٣)، والنسائي (٨/ ١٠٣).

أن أطفال المسلمين في الجنة، فلما علم قال ذلك في قوله ﷺ: «**ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله اللَّه الجنة بفضل رحمته إياهم**»[١] وغير ذلك من الأحاديث، واللَّه أعلم»[٢].

وقال ابن كثير: «فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء -كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء اللَّه ﷻ. فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبدالبر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مشيئة اللَّه ﷻ - قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه، وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال المشركين خاصةً في المشيئة، انتهى كلامه، وهو غريب جدًا.

وقد ذكر أبو عبد اللَّه القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضًا، واللَّه أعلم.

وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دُعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله! طوبى له! عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء، ولم يدركه، فقال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن اللَّه خلق الجنة وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم**». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيّدة، وقد تكلم

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٣٩-٢٤٠)، والبخاري (٣/ ١٥٣/ ١٢٥١)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢[١٥٠])، والترمذي (٣/ ٣٧٤/ ١٠٦٠)، والنسائي (٤/ ٣٢٥/ ١٨٧٤)، وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٧٠).

فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال أمر هذه الأمة مواتيًا - أو: مقاربًا- ما لم يتكلموا في الولدان والقدر**»[١]، قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين»[٢].

* * *

(١) أخرجه: الطبراني (١٢/ ١٦٢/ ١٢٧٦٤)، وفي الأوسط (٥/ ٥٦/ ٤٠٩٨)، والبزار (مختصر زوائد البزار: ٢/ ١٥٤/ ١٦٠٦)، وابن حبان (١٥/ ١١٨-١١٩/ ٦٧٢٤)، والحاكم (١/ ٣٣) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا نعلم له علة»، ووافقه الذهبي. والحديث صححه أيضاً الشيخ الألباني في الصحيحة (١٦٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٧-٥٨).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

اقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «أما قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم اللَّه لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات اللَّه، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم، فوصفهم ربنا -جل ثناؤه- بأنهم: ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ لإعراضهم عن الحق، وتركهم تدبر صحة نبوة الرسل، وبطول الكفر.

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات اللَّه وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك باللَّه، وتكذيب رسله، فوصفهم اللَّه بتركهم إعمالهما في الحق بأنهم لا يبصرون بها.

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ آيات كتاب اللَّه، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1].

وذلك نظير وصف اللَّه إياهم في موضع آخر بقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]»[3].

قال محمد رشيد رضا: «وبماذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة؟ وما صفاتهم المؤهلة لذلك؟

الجواب: ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، إلخ.. أي: لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتتزكى به أنفسهم من توحيد اللَّه المطهر لها من

---

(١) فصلت: الآية (٢٦). (٢) البقرة: الآية (١٧١).

(٣) جامع البيان (٩/ ١٣١-١٣٢).

الخرافات والأوهام، ومن المهانة والصغار؛ فإن من يعبد اللَّه تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تعلو نفسه، وتسمو بمعرفة ربه رب العالمين ومدبر الكون بتقديره وسننه، فلا تذل نفسه بدعاء غيره، والخوف منه، والرجاء فيه، والاتكال عليه، بل يطلب كل ما يحتاج إليه من ربه وحده، فإن كان مما أقدر اللَّه تعالى عليه خلقه، بإعلامهم بأسبابه، وتمكينهم منها، طلبه بسببه، مراعيًا في طلبه ما علمه من مقادير الخلق وسننه، وذلك عين الطلب من اللَّه تعالى، ولا سيما في نظر العالم بما ذُكر، وإن لم يكن كذلك، توجه إلى اللَّه وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم بسببه، وإقداره على ما لا يقدر عليه من وسائله، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه، أو إيصاله إليه، ممن أعطاهم من أسبابه ما لم يعطه، كالأطباء لمداواة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الإشكال، ولا يتوجه مثل هذا العارف الموحد في طلب شيء إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة، والوسائل المعقولة المجربة كالرقى والنشرات، والتناجيس والطلسمات، والعزائم والتبخيرات، ولا كرامات الصالحين من الأحياء والأموات، دع التقرب إليهم بما يعد من العبادات كالدعاء الذي هو مخ العبادة والركن الأعظم فيها.. واللَّه تعالى يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1] ويقول: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[2] ويقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] ويقول: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾[4] ويقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[5] إلخ.. ويقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾[6] ويقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[7] ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات، والحرص على أعمال الخيرات، وإن شئت فقل: واجتناب الرذائل والتحلي بالفضائل، مناط سعادة الدنيا، وبها مع الإيمان باللَّه واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلًا وتركًا، وسرًا وجهرًا، إلا بالتربية الدينية الصحيحة، ولذلك ترى أعلمهم بصفات

---

(١) الجن: الآية (١٨).
(٢) الأنعام: الآية (٤١).
(٣) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٤) التوبة: الآية (١٣).
(٥) البقرة: الآية (١٥٠).
(٦) المائدة: الآية (٢٣).
(٧) إبراهيم: الآية (١٢).

النفس البشرية وأخلاقها، وقوانين التربية الصورية وآدابها، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالإسراف في الشهوات، والاحتيال على كثرة المقتنيات، والتعالي على الأقران. . فيجترحون فواحش الزنا واللواط، ويقترفون جريمتي الرشوة والقمار، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار، ومنهم أكثر الخونة أعوان الأجانب على استعباد أمتهم، وامتلاك أوطانهم، ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية، واللذات المعنوية، والسعادة الأبدية، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1]، ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات، وأظهر آياته العلمية الباقية إلى آخر الزمان ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الأمي ﷺ كالعلوم الإلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية، وأخبار الغيب الماضية والآتية، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات، ويتكلفون لها غرائب التأويلات، ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[2] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[3] وقال في عدم فقههم للقرآن: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[4] وهذه الآيات جمعت حرمانهم لهداية القلوب والأسماع والأبصار، فهي شاهد لكل ما جاء في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ومثلها في سورتي (الإسراء) و(الكهف)، ولكن الشاهد فيهما على نفي هداية القلوب والأسماع فقط، إذ هو المناسب للموضوع، ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهوه بها أسباب النصر على الأعداء من روحية وعقلية واجتماعية وآلية، التي نصر اللَّه بها المؤمنين على الكافرين في عهد الرسول ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين والمدنيين في الإسلام، وجعل العشرة منهم أهلًا لغلب المائة في طور القوة، والمائة أهلًا لغلب المائتين في طور الضعف، وعلل ذلك بأن الكفار قوم لا يفقهون، وقال في سورة (الحشر): ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

---

(١) الروم: الآية (٧).
(٢) الأنعام: الآية (٦٥).
(٣) الأنعام: الآية (٩٨).
(٤) الأنعام: الآية (٢٥).

﴿قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾(١)، فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أفقه من الكافر بنُظُم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية، وأكمل اتصافًا بها، وتمتعًا بثمرها، فأين هذا الإيمان من مسلمي هذا الزمان؟ ذلك بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها سنن اللَّه تعالى في الاجتماع وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات، ولا سيما في عهد النبوة وزمن المعجزات، ولا يفقهون إدالة اللَّه لأهل الحق من أهل الباطل، بل يحكمون في ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر، دون ما وراءها من الفقه الباطن، كما حكاه اللَّه تعالى عن المنافقين في آخرة سورة (التوبة) من كونهم لا يزدادون بنزول سور القرآن إلا رجسًا؛ أي: خبثًا ونفاقًا، وكونهم يفتنون ويمتحنون مرارًا، ولا يفيدهم ذلك توبة ولا ادكارًا، حتى إذا ما أنزلت سورة فرّوا من سماعها فرارًا، لا يخافون أن يراهم اللَّه، ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾(٢)، وما حكاه تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم إذ توهموا أنهم يقنعون المؤمنين من الأنصار بترك الإنفاق على إخوانهم المهاجرين، وأن ذلك كاف في انفضاضهم من حول الرسول ﷺ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾(٣) أي: لا يفقهون سر كفاية اللَّه تعالى رسوله والمؤمنين وكفالته لهم، ولا يفقهون أن سبب إنفاق الأنصار الأبرار رضوان اللَّه تعالى عليهم هو الإيمان الصادق الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل اللَّه تعالى ابتغاء مرضاته، فلا يؤثر فيهم قولهم: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلا احتقارهم لهم على نفقاتهم، وثباتهم هم على إنفاقهم لا يفقهون هذا ولا ذاك لأنهم محرومون من وجدان الإيمان، وإيثار ما عند اللَّه تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع.

وجملة القول: أن نفي الفقاهة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ما ذكرنا، وما في معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس.

---

(١) الحشر: الآية (١٣).

(٢) التوبة: الآية (١٢٧).

(٣) المنافقون: الآية (٧).

ومن العبرة فيه: أن الذين يدعون الإيمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر ولا يعلمون أن من فقهه فهو المخلوق للجنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم، بل صار كثير ممن لا يوصفون بإيمان ولا إسلام يفقهون من سنن اللّه تعالى المشار إلى بعضهم في القرآن ما لا يفهمون كأسباب النصر في الحرب ولذلك تراهم ينصرون فيها على هؤلاء، واللّه تعالى يقول للمؤمنين: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] ويقول فيهم: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وليس المعنى أنه ينصرهم بخوارق العادات، بل إنهم بمقتضى الإيمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية. وفقاهة الأمر تقتضي العمل بموجبه، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين، وأن لدى أعدائهم من العلم وأخلاق الإيمان أكثر مما عندهم، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الإيمان الإسلامي الكامل. ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الإسلام، ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر، والترقي في معارج العمران، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقة الإسلام، ولا يدرون ما الكتاب وما الإيمان، فالقرآن حجة عليهم، وهم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أبلغ من أن يقال: ليس لهم قلوب يفقهون بها لأن إثبات خلق القلوب لهم، هو موضع قيام الحجة عليهم، والتعبير الآخر يصدق بأمرين: بعدم وجود القلوب لهم بالمرة، وبوجود قلوب لا يفقهون بها، وفي الحالة الأولى لا تقوم عليهم حجة لأنهم لم يؤتوا آلة التكليف وهو العقل والوجدان فلا تكون العبارة نصًّا في قيام الحجة لاحتمالها عدم التكليف، وإنما قال: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ولم يقل: «لا تفقه» لبيان أنهم هم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور واكتناه الحقائق، ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعده وهو: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ومعنى الجملتين يفهم إجمالًا مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلًا؛ أي: ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات اللّه في خلقه، وفيما يسمعون من آيات اللّه المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه، فيهتدوا بكل منها ما فيه إلى سعادتهم

(١) محمد: الآية (٧). (٢) الروم: الآية (٤٧).

في دنياهم وآخرتهم. وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر في آياته تعالى في الأنفس والآفاق وفي تدبر القرآن، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر، فإن الآذان قد خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع، لا من القرآن فقط، كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر، وإنما يكون ذلك على كماله بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له. قال تعالى في آخر سورة (الم السجدة): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[1] فهذان مثلان للآيات البصرية والسمعية وأمثالهما كثير، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئًا منها، وليس الفقه عندهم إلا تقليد علماء فروع الأحكام العملية فيما كتبوه منها، وقد يكون في حكايتها دون العمل بها!

وفي معنى ما هنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى في الذين علم الله رسوخهم في الكفر وثباتهم عليه من سورة (البقرة): ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ﴾[2] فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم انتفاعهم بمواهب القلوب والأسماع والأبصار التي هي آلات العلم والعرفان، وطرق الهدى والإيمان. وقوله في المنافقين بتشبيه أبلغ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[3] ومثله المثل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4] وقوله فيهم من سورة (النحل): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[5] وقوله في سورة (الجاثية): ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6] وقوله في سورة (الأحقاف) بعد ذكر هلاك عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[7] وقوله تعالى في سورة (الأنفال):

---

(١) السجدة: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٢) البقرة: الآية (٧).
(٣) البقرة: الآية (١٨).
(٤) البقرة: الآية (١٧١).
(٥) الآية (١٠٨).
(٦) الآية (٢٣).
(٧) الأحقاف: الآية (٢٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] أي: ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال أنه قد علم أنهم لا خير فيهم لتولوا عن الاستجابة وهم معرضون.

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة كالتشبيه بالتمثيل والاحتجاج، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين، لأجل العظة والذكرى للمؤمنين، كما نرى في آيات (الأنفال)، ومع هذا التكرار البالغ حد الإعجاز في البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالًا من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات اللّه في الأنفس والآفاق؛ لأنهم من أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته تعالى في أعضاء الإنسان ومشاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسية وآياته في الجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار، والغازات التي تتركب منها هذه المواد وغيرها، وسنن النور والكهرباء، والهيئة الفلكية، ومن أصاب منهم حظًا من هذه العلوم فإنما أخذه عن الإفرنج أو تلاميذهم المتفرنجين فكان مقلدًا فيه لهم لا مستقلاً، ولم يتجاوز طريقتهم في البحث عن منافع هذه الأشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها ربًا خالقًا مدبرًا عليمًا حكيمًا، مريدًا قديرًا رحيمًا، يجب أن يعبد وحده، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد، وأن تكون معرفته والزلفى عنده ورجاء لقائه في الآخرة منتهى كل غاية من الحياة، ولو قصد أولئك العلماء هذا من العلم لأصابوه، فإن الأمور بمقاصدها، و«**إنما الأعمال بالنيات**»، ولكنهم غفلوا عنه؛ لتعلق إرادتهم بما دونه، ولهذا كان علمهم على سعته ناقصًا أقبح نقص، وكان الانتفاع به مشوبًا بضرر عظيم باستعمال ما هداهم إليه العلم من خواص الأشياء في الحرب وآلات القتال، التي تدمر العمران وتسحق الألوف الكثيرة من البشر في وقت قصير، وبهذا يصدق على هؤلاء

---

(١) الأنفال: الآيات (٢٠-٢٣).

العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها، وآثروا الجهل على العلم بها، من قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾(١) أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقر وغنم، في كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمشيئتهم في هذه الحياة الدنيا، بل هم أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأن هذه لا تجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزواتها؛ بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك إسرافًا يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهادًا يفرّط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي، ويقصر في حقوق الزوجية، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانية، فيجني على شخصه وعلى نوعه بالتفريط كما يجني عليهما عبيد اللذات بالإفراط، دع الجناية على الأخلاق والآداب وعلى الأمم والشعوب، وهداية الإسلام تحظر هذا وذاك، وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه، وتحرم الإسراف في كل شيء. فلو اهتدى الناس بالقرآن في فقه أسرار الخلق ومنافعه لجمعوا بها بين ارتقائهم في معاشهم، واستعدادهم لمعادهم، واتقوا هذا الإسراف في الشهوات والتنازع عليها الذي أفسد مدنية الإفرنج بما يشكو منه جميع حكمائهم ويجزمون بأنه لا بد أن يقضي عليهم»(٢).

قلت: هذا الفهم الطيب للشيخ محمد رشيد رضا وتنزيله على الواقع الاجتماعي المعيش أمر مهم يربط المسلم بربه، ويعلم أنه مقصر في الفهم الصحيح لهذا الكتاب، وأن كتاب اللّه هو النور المضيء الذي لا يخفى على ذي بصيرة، الذي جاء بخيري الدنيا والآخرة، جاء بالتوحيد بكامل أصوله وفروعه، ومن فقهه اللّه فيه فَصَلَ عن كل الخرافات والأوهام، والوثنيات، والشركيات الإنسية والجنية، والجمادات، والكواكب، وكل ما لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، ولا يثيب ولا يعاقب، فيعيش بفقه التوحيد عزيزًا منيعًا شريفًا بكل ما في

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٢١-٤٢٩).

الكلمة من معنى، ومن فقد فقه التوحيد تخبط تخبطًا وضل ضلالًا لا نهاية له، وقد أدى بهؤلاء تخبطهم وضلالهم حتى عبدوا الفئران والبقر والمومسات من البشر! وعبدوا الشيطان الذي هو أصل الشرك وداعيه! واعتقدوا في كل شيء أن له نفعًا وضرًّا إلا اللَّه فإنه لا يضر ولا ينفع في نظرهم! فلهذا تجدهم يقسمون بغيره ولا يقسمون به، ويخافون من غيره ولا يخافون منه!

وتجدهم في فقه العبادات معرضين عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فإن كان من أهل فقه التعصب يتعصبون تعصب المستميت لقول فلان وعلان، وهكذا تجدهم منحرفين في أخلاقهم وأهليهم؛ لا يبالون بحلال وحرام، ولا بمعصية وطاعة، ولا بمن استقام ممن هو تحت مسؤوليتهم ولا بمن انحرف، وربما لفرط جهلهم حاربوا المستقيم واتهموه بتهم تنفره من الاستقامة.

وأما سنن الحياة -كما أشار الشيخ محمد رشيد رضا- في إنجاح المجتمعات الإسلامية وجعلها أرقى المجتمعات؛ فإن غالب حكام المسلمين وعلمائهم لا يهمهم هذا الأمر ولا يلتفتون إليه، وإنما تهمهم ملذاتهم ومصالحهم، ومجتمعاتهم يقودها غيرهم كامل القيادة، وهم محجورون غاية الحجر، فلا كلمة لهم ولا شخصية مستقلة؛ فإن الظاهرة الفاسدة تولد في بلاد الغرب الكافر وتربى وتحتضن في بلاد الإسلام، فتتزوج وتلد وتتناسل إلى ما لا نهاية.

أما ما أشار إليه من الاستعدادات الحربية والدفاع عن حوزة البلاد؛ فالناس معتمدون في ذلك على اللَّه الحامي لبلاده من الكفرة والملحدين، وإلا لو أراد الغازي أن يرجع إلى غزوه العسكري ما منع من ذلك مانع، فلحظة واحدة تجد أساطيله متربعة في كثير من العواصم الإسلامية. فنرجو اللَّه أن يحفظ بلاد المسلمين من شر الكفرة والملحدين والمنافقين الداخليين والخارجيين، واللَّه المستعان.

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها اللَّه سببًا للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٢]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٥]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق، ولا يعونه، ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[٧] أي: ومثلهم -في حال دعائهم إلى الإيمان- كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسَّ[٨] بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب تفقه ما خلقت له، إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد اللَّه ويوحده، فكفر باللَّه وأشرك به، ولهذا من أطاع اللَّه من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾»[٩].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، القوم الذين غفلوا؛ يعني: سهوا عن آياتي وحججي، وتركوا تدبرها والاعتبار بها، والاستدلال على ما دلت عليه من توحيد ربها، لا البهائم التي قد عرّفها ربها ما سخرها له»[١٠].

قال محمد رشيد رضا: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾أي: أولئك الموصوفون بكل ما

---

(١) الأحقاف: الآية (٢٦).
(٢) البقرة: الآية (١٨).
(٣) البقرة: الآية (١٧١).
(٤) الأنفال: الآية (٢٣).
(٥) الحج: الآية (٤٦).
(٦) الزخرف: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٧) البقرة: الآية (١٧١).
(٨) البَسُّ: السَّوْقُ والزّجر.
(٩) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥١٣-٥١٤).
(١٠) جامع البيان (٩/ ١٣٣).

ذكرهم، الغافلون التامّو الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعًا، أو خيرهما وأكملهما وأدومهما وهي الثانية، فهم طبقات على درجات في الغفلة، الغافلون عن أنفسهم، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم في أفضل ما خلقت لأجله من معرفة اللّه تعالى، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية، وحياتهم القومية، وحياتهم الملية، الذين يعدون كالأنعام من وجه آخر غير الذي تقدم من مجافاة سنن الفطرة، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الأمم والدول وتسخير غيرهم لهم كما يسخر الأنعام في سبيل معيشته.

فالقسم الأول من الغافلين هم الذين قال اللّه تعالى فيهم في أوائل سورة (يونس) بعد التذكير بخلق السموات والأرض واستوائه على عرشه وتدبيره أمر العالم، وكونه يبدئ الخلق ثم يعيده، والإعادة في العادة أهون من البدء، والتذكير بآياته في جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا وتقديره منازل ليعلم منها عدد السنين والحساب، وآياته في اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والأرض، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1] فهذا نص في أن النار مأوى الغافلين عن هذه الآيات؛ أي: عن دلالتها على وجود خالقها ومدبر النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم في طور آخر لا يتعاصى على قدرته، وهو من مقتضى علمه وحكمته، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة، وكون التنعم الروحاني بلقائه ﷻ في دار الكرامة أسمى أنواع النعيم. وإن كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر العلماء بسنن اللّه تعالى وحكمه في خلق العالم العلوي والعالم السفلي، بل حجة اللّه على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر؛ لأنهم لو فطنوا لدلالتها على ما ذكر وفقهوه كما يجب لكانوا أسعد في هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومفاسدها مما هم عليه الآن، ولاستعدوا بذلك لسعادة الآخرة أكمل استعداد.

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى في أول سورة (الروم): ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] فانظر إلى بلاغة القرآن في إعادة ضمير (هم) وهو

(١) يونس: الآيتان (٧و٨).
(٢) الروم: الآية (٧).

للتأكيد الذي اقتضاه وصفهم بالعلم الذي من شأن صاحبه عدم الغفلة.

تلك الصفات هي صفات من خلقوا لسكنى الجحيم، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم، فأهل النار بنص كتاب اللّٰه تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم، ومعرفة آيات اللّٰه الكونية، وفقه آياته التنزيلية، وهما سبب كمال الإيمان، والباعث النفسي على كمال الإسلام والإحسان، ولن ترى في كتب التفسير الكثيرة من نبه قراء كتاب اللّٰه تعالى إلى هذه المعاني الهادية إلى سبيله وصراطه المستقيم، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب اللّٰه مهجورًا، فإذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك: (إن اللّٰه تعالى خلق للنار خلقًا هم على الكفر والمعاصي مجبورون، لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئًا مما من شأنه أن يفهم، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولًا أوليًا، ولهم أعين لا يبصرون بها شيئًا من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجًا أوليًا، ولهم آذان لا يسمعون بها شيئًا من المسموعات، فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ما سلف)[1] اهـ ملخصًا من «روح المعاني»، وما زاد عليه فيه فكلام في الإعراب ونكت التعبير وتحقيق لمعنى الجبر عند بعض المتكلمين، وهو زبدة ما في كتب التفسير. وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين، وإن كانوا يجهلون حقائق هذه الأمور ويصرون على الفجور، اتكالًا على شفاعة أهل القبور، الذين يدعونهم مع اللّٰه أو من دون اللّٰه لمهمات الأمور، ويذبحون لهم النسائك وينذرون لهم النذور، وهي عبادات لغير اللّٰه يخرجون بها من حظيرة الإيمان، والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل، ومعناها أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى الذي يترتب عليه الأعمال المزكية للنفس، فكانوا بذلك أهل جهنم، وليس فيها أنه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم؛ فإن ذوات الجنسين كلها متشابهة، ولم يقل: إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك

---

(١) انظر هذا الكلام في «روح المعاني» (٩/ ١١٨-١١٩).

القوى في أسباب الهدى، بل قال: إنهم هم لم يستعملوها في ذلك، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1]، ولكن الجدل في المذاهب هو الذي أوهمهم. ونحمد الله تعالى أن هدانا إلى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن، وسنن الله تعالى في الإنسان والأكوان، وهو ما لم نطلع على مثله، ولا ما يحوم حوله لإنسان. والتحدث بنعمة الله، مما أمر به الله، فالحمد لله، ثم الحمد لله»[2].

* * *

(١) الملك: الآيتان (١٠و١١).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٢٩-٤٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

★ غريب الآية:

ولله الأسماء الحسنى: أي: البالغة في الحسن غايتَه، والتي لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وهي كل اسم سمّى اللَّه سبحانه به نفسه في كتابه، أو على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام. وهي أعلام وأوصاف: أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني.

يلحدون: أي: يميلون بها عما يجب في حقها من الإيمان بها، وبما دلت عليه من الأحكام، والصفات اللائقة بجلال من تسمّى بها سبحانه، من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل. وأصل الإلحاد: المَيْلُ وترك القصد؛ يقال: ألحد فلان عن كذا: إذا مال عنه. وألحد أيضًا: جار عن الحق، وجادل وماري فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذه الآية مشتملة على الإخبار من اللَّه سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسنى: تأنيث الأحسن؛ أي: التي هي أحسن الأسماء؛ لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة»[1].

وقال أبو حيان: «لما نبه على أن دخول جهنم هو للغفلة عن ذكر اللَّه، والمخلص من العذاب هو ذكر اللَّه، أمر بذكر اللَّه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والقلب إذا غفل عن ذكر اللَّه، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في الحرص وانتقل

(١) فتح القدير (٢/ ٣٧٦).

من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، وقد وجدنا ذلك بالحس حتى إن أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاء في وقت واحد، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر اللَّه تعالى تخلص من آفات الغفلة، وامتثل ما أمره اللَّه به، واجتنب ما نهى عنه»[(١)].

وقال الرازي: «دلت هذه الآية على أن أسماء اللَّه ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال، فهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال وجلال، فإنه لا يجوز إطلاقه على اللَّه سبحانه»[(٢)].

قال ابن القيم: «إن أسماء اللَّه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلًا، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض، لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلًا ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، وهدى اللَّه أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[(٣)].

وقال أيضًا: «إن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك»[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٧٢).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣-١٦٤).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٨).

قال الرازي: «وهذا يدل على أن أسماء اللَّه توقيفية لا اصطلاحية»[١].

ونَصَّ ابن القيم على أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه، هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع[٢].

وفي الآية تحريم الإلحاد في أسماء اللَّه تعالى، وهو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع، **قال ابن القيم**: «والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها وبمعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (لحد). .

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسماء اللَّه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد اللَّه مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه. ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط

---

(١) مفاتح الغيب (١٥/ ٧٤).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦٢).

والمنكوب، وكل من جحد شيئًا عما وصف اللَّه به نفسه أو وصفه به رسوله، فقد ألحد في ذلك فليستقلّ أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى اللَّه عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ اللَّه أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنىً، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريًّا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا، وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل»[1].

ومن الإلحاد أيضًا -يقول الرازي: - «أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه، ولا يتصور مسماه، فإنه ربما كان مسماه أمرًا غير لائق بجلال الله»[2].

ومن أنواع الإلحاد أيضًا: تفسير أسمائه ﷻ على غير مراد اللَّه تعالى ومراد رسوله ﷺ[3].

قال الرازي في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: «تهديد ووعيد لمن ألحد في أسماء الله»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أسماء اللَّه وفضيلة إحصائها

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة**»[5].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٩-١٧٠).
(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٧٥).
(٣) أفاده السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٢٢).
(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٧٦).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (٥/ ٤٤٤-٤٤٥/ ٢٧٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٢/ ٢٦٧٧)، والترمذي (٥/ ٤٩٦/ ٣٥٠٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٣/ ٧٦٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٩/ ٣٨٦٠).

★ **غريب الحديث:**

أحصاها: الإحصاء في كلام العرب على ثلاث مراتب: أولها: العدد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1]، والثانية بمعنى الفهم، ومنه يقال: رجل ذو حصاه؛ أي: ذو لب وفهم. والثالثة بمعنى الإطاقة على العمل والقوة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[2]؛ أي: لن تطيقوا العمل بذلك.

* عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ما قال عبد قط إذا أصابه همّ أو حزن: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب اللّه همه وأبدله مكان حزنه فرحًا، قالوا: يا رسول الله! ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»[3].

★ **فوائد الحديثين:**

قال القاضي عياض نقلًا عن أبي القاسم الطبري: «وفيه إثبات الأسماء المحصورة بهذا العدد. قال: وليس مقتضاه أنه ليس له أسماء غيرها»[4].

قال ابن القيم: «إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد؛ فإن

---

(١) الجن: الآية (٢١). (٢) المزمل: الآية (٢٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠/ ٢٩٣١٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩-١٧٠/ ١٠٣٥٢)، وفي الدعاء (٢/ ١٢٧٩/ ١٠٣٥)، وابن السني في «عمل اليوم الليلة» (٣٤٠)، وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩/ ٥٢٩٧)، والحارث ابن أبي أسامة (بغية الباحث: ح ١٠٦٣)، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٥٣/ ٩٧٢) واللفظ له، والحاكم (١/ ٥٠٩) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبداللّه عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه». وتعقبه الذهبي بقوله: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة». وقد جزم الشيخ ناصر في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩) أن أبا سلمة هذا هو موسى بن عبداللّه الجهني، وهو ثقة من رجال مسلم، وبين كذلك أن عبدالرحمن بن عبداللّه قد سمع من أبيه. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٦) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، إلا أنه قال: «وذهاب غمي» مكان «همي»، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان.

(٤) الإكمال (٨/ ١٧٥).

لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملَك مقرب ولا نبيّ مرسل، كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»، فجعل أسماءه ثلاثة أقسام:

قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.

وقسم أنزل به كتابه، فتعرّف به إلى عباده.

وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطّلع عليه أحد من خلقه ولهذا قال: «**اسْتَأثرتَ به**» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه. ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «**فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن**»[1]، وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله ﷺ: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[2]، وأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**» فالكلام جملة واحدة. وقوله ﷺ: «**ومن أحصاها دخل الجنة**» صفة لا خبر مستقل، والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك قد أعدهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه»[3].

وأما قوله ﷺ: «**من أحصاها دخل الجنة**» فهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح. وهذا الإحصاء -الذي من حققه دخل الجنة- على مراتب.

قال ابن القيم: «المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٨/ ٥٩٣/ ٢١٧٤)، ومسلم (١/ ٤٨١/ ٤٩١)، والترمذي (٤/ ٥٣٧/ ٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨/ ١١٢٨٦)، وابن ماجه مختصراً (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٢٠١)، ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١/ ٥٤٧/ ٨٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٨٩-٤٩٠/ ٣٤٩٣)، والنسائي (١/ ١١١/ ١٦٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٢-١٢٦٣/ ٣٨٤١).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٦-١٦٧).

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلًا إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم، وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء اللَّه، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة، وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان، وهي التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال»[1].

وقال القرطبي: «والمرجو من كرم اللَّه تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله اللَّه الجنة. لكن المرتبة الأولى هي مرتبة أصحاب اليمين، والثانية للسابقين، والثالثة للصديقين»[2].

* * *

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤).

(٢) المفهم (٧/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة، كاملة في نفسها مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه ويدعون إليه وإلى العمل به، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء، والحقوق والمقالات وغير ذلك، وهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم اللَّه عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة، كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم»[1].

قال ابن الجوزي: «وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمة.. والثاني: أنهم من جميع الخلق، قاله ابن السائب، والثالث: أنهم الأنبياء، والرابع: أنهم العلماء، ذكر القولين الماوردي»[2].

وقال أبو حيان: «الظاهر أن هذه الجملة أخبر فيها أن ممن خلق أمة موصوفون بكذا، فلا يدل على تعيين لا في أشخاص ولا في أزمان، وصلحت لكل هاد من هذه الأمة وغيرهم، وفي زمان الرسول وغيره»[3].

وإليه ذهب القرطبي قال: «دلت الآية على أن اللَّه ﷻ لا يخلي الدنيا في وقت من الأوقات، من داع يدعو إلى الحق»[4].

---

(١) تفسير الكريم الرحمن (٣/ ١٢٢).
(٢) زاد المسير (٣/ ١٩٩-٢٠٠).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٢٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٠٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة العلم والعلماء وإحياء الكتاب والسنة في قلوب الأمة

* عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم يقول: «**من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، واللَّه يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر اللَّه لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[١].

★ غريب الحديث:

يفقهه: يفهمه، يقال: فَقُهَ، بالضم: إذا صار الفقه له سجية، وفَقَهَ، بالفتح: إذا سبق غيره إلى الفهم، وفَقِهَ، بالكسر: إذا فهم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «يريد أن أمته آخر الأمم، وأن عليها تقوم الساعة، وإن ظهرت أشراطها وضعف الدين، فلا بد أن يبقى من أمته من يقوم به، والدليل على ذلك قوله: «**لا يضرهم من خالفهم**». وفيه أن الإسلام لا يذل وإن كثر مطالبوه»[٢].

وفي تعيين هذه الطائفة يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد قال أحمد بن حنبل في هذه الطائفة: إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم»[٣].

قال الحاكم معلّقًا على كلام الإمام أحمد: «وفي مثل هذا قيل: من أمّر السنة على نفسه قولًا وفعلًا، نطق بالحق، فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر، أن الطائفة المنصورة التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث، ومن أحق بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين، واتبعوا آثار السلف من الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وعلى آله أجمعين، من قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطار[٤]، وتنعموا بالبؤس في الأسفار، مع مساكنة العلم والأخبار، وقنعوا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠١)، والبخاري (١/ ٢١٧/ ٧١)، ومسلم (٣/ ١٥٢٤/ ١٠٣٧)، وابن ماجه (١/ ٨٠/ ٢٢١) مختصراً دون موضع الشاهد.

(٢) شرح البخاري (١/ ١٥٥).

(٣) الإكمال (٦/ ٣٥٠).

(٤) الدمن: جمع دمنة، ولعل المقصود: المكان القريب من الدار. والأوطار: جمع وطر، وهو الاشتغال بحاجات النفس.

عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار، قد رفضوا الإلحاد الذي تتوق إليه النفوس الشهوانية، وتوابع ذلك من البدع والأهواء، والمقايس والآراء والزيغ، جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاهم، وبواريها فرشهم.. إن أصحاب الحديث خير الناس، وكيف لا يكونون كذلك وقد نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسمرهم المعارضة، واستروا حهم المذاكرة، وخلوقهم المداد، ونومهم السهاد، واصطلاءهم الضياء، وتوسدهم الحصى، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، قلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم»[(١)].

قال القاضي عياض: «وإنما أراد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث، وقال البخاري: هم أهل العلم»[(٢)].

قال النووي: «ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، وقد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد اللّه تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر اللّه المذكور في الحديث»[(٣)].

قال ابن عثيمين: «وهذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان، يمكن أن تكون بمكان تنصر فيه في شيء من أمور الدين، وفي مكان آخر تنصر فيه طائفة أخرى، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقيًا منصورًا مظفرًا»[(٤)].

قال شيخنا العلامة عبدالمحسن العباد في بيان ما تضمنه هذا الحديث من الفقه وما يستنبط منه، قال:

---

(١) معرفة علوم الحديث (٢/ ٣).
(٢) ؟الإكمال (٦/ ٣٥٠).
(٣) شرح مسلم (١٣/ ٥٧-٥٨).
(٤) شرح الواسطية (٢/ ٣٧٨).

«- وجوب الإيمان بوقوع استمرار الحق، وأنه لا ينقطع حتى يأتي أمر اللَّه، كما جاء ذلك عن الذي لا ينطق عن الهوى، صلوات اللَّه وسلامه عليه.

- أن الطائفة المنصورة لها مخالفون ومناوئون.

- الحث على التمسك بالكتاب والسنة، ليكون العبد من هذه الطائفة.

- بيان أن أعداء هذه الطائفة لا يضرونها ولا يؤثرون على استمرار الحق.

- أن استمرار الحق في أمة محمد ﷺ منقبة عظيمة لها»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «أي: يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم، قالوا: ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية»[3].

قال ابن الأثير: «قد تكلم العلماء في تأويل هذا الحديث، كل واحد في زمانه، وأشاروا إلى القائم الذي يجدد للناس دينهم على رأس كل مائة سنة، وكأن كل قائل قد مال إلى مذهبه، وحمل تأويل الحديث عليه، والأولى أن يحمل الحديث على العموم، فإن قوله ﷺ: «**إن اللَّه يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» لا يلزم منه أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلًا واحدًا، وإنما قد يكون واحدًا، وقد يكون أكثر منه، فإن لفظة «من» تقع على الواحد والجمع، وكذلك لا يلزم أن يكون أراد بالمبعوث الفقهاء خاصة، كما ذهب إليه بعض العلماء؛ فإن انتفاع الأمة بالفقهاء، وإن كان نفعا عامًّا في أمور الدين، فإن انتفاعهم بغيرهم أيضًا كثير، مثل أولي الأمر، وأصحاب الحديث، والقراء، والوعاظ، وأصحاب الطبقات من الزهاد، فإن كل قوم ينفعون بفن لا ينفع به الآخر، إذ الأصل في حفظ الدين حفظ

---

(١) عشرون حديثاً من صحيح البخاري (ص: ٤٤).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/ ٢٨٠/ ٤٢٩١) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٥٢٢). قال الشيخ الألباني: «وسكت عنه الحاكم والذهبي، أما المناوي فنقل عنه أنه صححه، فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من المستدرك، والسند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم» (السلسلة الصحيحة ٢/ ١٤٨).

(٣) فيض القدير (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

قانون السياسة، وبث العدل والتناصف الذي به تحقن الدماء، ويتمكن من إقامة قوانين الشرع، وهذا وظيفة أولي الأمر، وكذلك أصحاب الحديث ينفعون بضبط الأحاديث التي هي أدلة الشرع، والقراء ينفعون بحفظ القراءات وضبط الروايات، والزهاد ينفعون بالمواعظ، والحث على لزوم التقوى، والزهد في الدنيا، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر.. فالأحسن والأجدر أن يكون ذلك إشارة إلى حديث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم»[1].

قال في «العون»: «قد عرفت مما سبق أن المراد من التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.

وقال في «مجالس الأبرار»: والمراد من تجديد الدين للأمة إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وقال فيه: ولا يعلم ذلك المجدد إلا بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه؛ إذ المجدد للدين لا بد أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرًا للسنة، قامعًا للبدعة، وأن يعم علمه أهل زمانه، وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخرام العلماء فيه غالبًا، واندراس السنن وظهور البدع، فيحتاج حينئذ إلى تجديد الدين، فيأتي اللَّه تعالى من الخلق بعوض من السلف إما واحدًا أو متعددًا، انتهى...

فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالمًا بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن ونشرها، ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب، أوالتدريس، أو غير ذلك. ومن لا يكون كذلك لا يكون مجددًا ألبتة وإن كان عالمًا بالعلوم مشهورًا بين الناس، مرجعًا لهم. فالعجب كل العجب من صاحب جامع الأصول أنه عد أبا جعفر الإمامي الشيعي والمرتضى أخا الرضى الإمامي الشيعي من المجددين، حيث قال: الحديث إشارة إلى جماعة من الأكابر على رأس كل مائة، ففي رأس الأولى عمر بن عبدالعزيز.. إلى أن قال: وعلى الثالثة: المُقْتَدِر، وأبو جعفر الطحاوي الحنفي، وأبو جعفر الإمامي، وأبو الحسن الأشعري

---

(١) جامع الأصول (١١/ ٣٢٠-٣٢١).

والنسائي، وعلى الرابعة: القادر بالله، وأبو حامد الإسفرائيني، وأبو بكر محمد الخوارزمي الحنفي، والمرتضى أخو الرضى الإمامي. . إلخ. وقد ذكره العلامة محمد طاهر في «مجمع البحار» ولم يتعرض بذكر مسامحته، ولم ينبه على خطئه، ولا شبهة في أن عدهما من المجددين خطأ فاحش، وغلط بين؛ لأن علماء الشيعة وإن وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد، وبلغوا أقصى مراتب من أنواع العلوم، واشتهروا غاية الاشتهار، لكنهم لا يستأهلون المجددية، كيف وهم يخرّبون الدين؟! فكيف يجددون ويميتون السنن فكيف يحيونها؟ ويروجون البدع فكيف يمحونها؟ وليسوا إلا من الغالين المبطلين الجاهلين، وجل صناعتهم التحريف والانتحال والتأويل، لا تجديد الدين وإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، هداهم الله تعالى إلى سواء السبيل»[1].

قال الحافظ: «إنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة، وهو متجه؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبدالعزيز؛ فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد، سواء تعدد أم لا»[2].

وقال القاري: «الأظهر عندي -والله أعلم- أن المراد بمن يجدد ليس شخصًا واحدًا، بل المراد به جماعة يجدد كل أحد في بلد في فن أو فنون من العلوم الشرعية ما تيسر له من الأمور التقريرية أو التحريرية، ويكون سببًا لبقائه وعدم اندراسه وانقضائه إلى أن يأتي أمر الله»[3].

* * *

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩١-٣٩٢).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٦٥-٣٦٦).
(٣) المرقاة (١/ ٥٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

★ غريب الآية:

سنستدرجهم: أي: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر. يقال: استدرجته في الأمر: إذا أخذته فيه قليلًا قليلًا حتى يباغت بما فيه من التبييت، كما يرتقي الراقي الدرج شيئًا فشيئًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين كذّبوا بأدلتنا وأعلامنا، فجحدوها ولم يتذكروا بها، سنمهله بغرّته، ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه هو فيما عليه من تكذيبه بآيات اللَّه إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغاية التي كتب له من المهل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعدّ له، وذلك استدراج اللَّه إياه. وأصل الاستدراج: اغترار المستدرج بلطف من حيث يرى المستدرج أن المستدرج إليه محسن، حتى يورّطه مكروهًا»[(١)].

قال ابن كثير: «ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال صديق حسن خان: «وفي الآية دليل على مسألة القضاء والقدر، وأن اللَّه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون»[(٤)].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٥).
(٢) الأنعام: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥١٦).
(٤) فتح البيان (٥/ ٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أُمْلِي لهم: أي أُمْهِلُهُمْ، وأطيل مدتهم، وأؤخّر عقوبتهم.

إن كيدي: أي: مكري، والكيد: المكر. وقد يراد به معنى العذاب.

متين: شديد وقوي. أصله من المتن، وهو الصلب؛ فإنه أقوى ما في الناس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «معنى الآية: وأمهل هؤلاء المكذّبين المستدرَجين في العمر، وأمدّ لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سنتي في نظام الاجتماع للبشر؛ كيدًا لهم، ومكرًا بهم، لا حبًّا فيهم ونصرًا لهم، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1]، وإن تسأل عن كيدي فهو قوي متين. قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى: «**إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[2]، فمعنى هذا الإملاء أن سنة اللَّه تعالى في الأمم والأفراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، فالمخذول إذا بغى وظلم، ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب ظلمه، يزداد بغيًا وظلمًا، ولا يحسب للعواقب حسابًا، فيسترسل في ظلمه إلى أن تحيق به عاقبة ذلك بأخذ الحكام له أو بتورطه في مهلكة أخرى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى»[3].

* * *

---

(١) المؤمنون: الآيات (٥٤-٥٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٣) ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣) والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٤٥٢-٤٥٣).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾

★ غريب الآية:

جنة: أي جنون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم يتفكر هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جِنّة به، ولا خبل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟..

ويعني بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: ما هو إلا نذير منذركم عقاب الله على كفركم به إن لم تنيبوا إلى الإيمان به. ويعني بقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾: قد أبان لكم -أيها الناس- إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم به»[1].

قال محمد رشيد رضا: «قد حكى الله تعالى عن قوم نوح -أول رسله إلى قوم مشركين- أنهم اتهموه بالجنون، فقالوا بعد قولهم: إنه بشر مثلهم، يريد أن يتفضل عليهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[2]، وفي سورة (القمر) عنهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[3]، وفي سورة (الشعراء) حكاية عن فرعون -لعنه الله- في موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[4]، وقال تعالى عنه في سورة (الذاريات): ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[5]، ثم بيّن تعالى في هذه السورة أن جميع الكفار كانوا يقولون هذا القول في رسلهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[6].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٦).

(٢) المؤمنون: الآية (٢٥).

(٣) القمر: الآية (٩).

(٤) الشعراء: الآية (٢٧).

(٥) الذاريات: الآية (٣٩).

(٦) الذاريات: الآيتان (٥٢و٥٣).

وفي معنى آية (الأعراف) في خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات، منها: قوله تعالى في كفار مكة من سورة (المؤمنون): ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[1]، ومثله في سورة (سبأ): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾[2]، ثم قال فيها: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[3]، وهذه شبيهة بآية (الأعراف). وفي أول سورة (الحجر): ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]، وفي سورة (الصافات): ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[5]، وفي سورة (الطور) من الرد عليهم: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[6]، ومثله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[7]، وفي آخرها: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[8]، وفي سورة (التكوير) بعد وصف ملك الوحي: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[9]...

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون؛ لأنهم ادّعوا أن اللّه تعالى خصّهم برسالته ووحيه على كونهم بشرًا كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الإنسانية، كما علم من نشأتهم ومعيشتهم، ولأنهم ادّعوا ما لا يعهد له عندهم نظير، وليس مما تصل إليه عقولهم بالتفكير، وهو أن الناس يبعثون بعد الموت والبلى خلقًا جديدًا، ولأن كلاً منهم كان يدّعي أن الناس مخطئون وهو المصيب، وضالون وهو المهتدي، وخاسرون وهو المفلح، إلا من اتبعه منهم، ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والنذور لها تقرب المتوسلين بها إلى اللّه زلفى وتشفع لهم عنده، وأثبتوا أن الشفاعة لله وحده، لا

---

(١) المؤمنون: الآيات (٦٨-٧٠).
(٢) سبأ: الآيتان (٧و٨).
(٣) سبأ: الآية (٤٦).
(٤) الحجر: الآيتان (٦و٧).
(٥) الصافات: الآية (٣٦).
(٦) الطور: الآية (٢٩).
(٧) القلم: الآيتان (١و٢).
(٨) القلم: الآيتان (٥١و٥٢).
(٩) التكوير: الآية (٢٢).

يشفع أحد عنده إلا بإذنه، من رضي له لمن رضي عنه، فلا استقلال لهؤلاء الآلهة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم، وشرعوا أنه لا يدعى مع اللَّه أحد من ملك كريم، ولا صالح عظيم، فضلًا عن صورهم وتماثيلهم المذكرة بهم، وقبورهم المشرفة برفاتهم، مع أن المذنب العاصي لا يليق به في رأي المشركين أن يدعو اللَّه تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدنسه بالذنوب، فيحتاج إلى من يقربه إليه من أولئك الطاهرين، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم إلا بإذن وزرائهم وحجابهم. ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين، حتى من أشرك من أهل الكتاب والمسلمين، الذين خالفوا نصوص الكتب الإلهية وسنة الرسل إلى أعمال الوثنيين. ولا يرون بأسًا في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين بالملوك الظالمين المستبدين.

وأما معنى الآية، فالاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، وهو داخل على فعل حُذف للعلم به من سياق القول، كما تقدم في أمثاله، والتقدير: أكذبوا الرسول، ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته، وفي حقيقة دعوته، ودلائل رسالته، وآيات وحدانية ربه، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك؛ فإن حذف معمول التفكر يؤذن بعموم ما يدل عليه المقام مما يقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني.

ألا فليتفكروا، فالمقام مقام تفكر وتأمل؛ إنهم إن تفكروا أوشك أن يعرفوا الحق، وما الحق؟ ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نفيًا وإثباتًا، فهي نافية لما رموه به من الجنون، كقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[(٢)]، ومثلها آية (سبأ): ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[(٣)]، ولذلك ختمنا بنفي كل صفة عنه في موضوع رسالته إلا كونه منذرًا مبلغًا عن ربه، فقال هنا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، الإنذار: تعليم وإرشاد مقترن بالتخويف من مخالفته؛ أي: ليس بمجنون، ليس إلا منذرًا ناصحًا ومبلغًا عن اللَّه مبيِّنًا، ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له، وقد

(١) القلم: الآية (٢).
(٢) التكوير: الآية (٢٢).
(٣) سبأ: الآية (٤٦).

دعاكم لما يحييكم في الدنيا بجمع كلمتكم، وإصلاح أفرادكم ومجتمعكم والسيادة على غيركم، ويحييكم في الآخرة بلقاء ربكم. وقال هنالك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وقد عبر عنه في هاتين الآيتين وفي آية (التكوير) بالصاحب لهم؛ لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكر في سيرته الشريفة المعقولة ليعلموا أن الشذوذ ومجافاة المعقول ليس من دأبه ولا مما عهد عنه، وكذلك الكذب، كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة: إن محمدًا لم يكذب قط على أحد من الناس، أفيكذب على الله؟ وقد قال تعالى في أولئك الزعماء: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

وقد بيّنّا في تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشرًا مع الرد عليها، كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها.

ولو تفكر مشركو مكة في نشأة النبي ﷺ وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أمانته وصدقه من صبوته إلى أن اكتهل، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد اللَّه بعبادته وحده، ومن كون حكمته في خلقه السموات والأرض بالحق تقتضي تنزهه عن العبث، ومنه أن يكون هذا الإنسان السميع البصير العاقل البحاث عن حقائق الأشياء من ماض وحاضر وآت، ينتهي وجوده بالعدم المحض الذي هو في نفسه محال، ثم لو تفكروا في سوء حالهم الدينية، كعبادة الأصنام، والأدبية والمدنية والاجتماعية، وما دعاهم إليه من إصلاحها كلها، لعلموا أن هذا الإصلاح الديني والأدبي والاجتماعي والسياسي لا يثمر إلا السيادة والسعادة، وأنه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا إليه، بل إذا كان فيه شيء غير معقول فهو أنه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالي والإصلاح الكامل من رأي محمد بن عبد اللَّه الأمي الناشئ بين الأميين، ولا أن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر في أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذي بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة، ولا ارتجل خطبة، وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعو إليه القرآن، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يتأتى أن تأتي فجأة من ذي عزلة لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحدًا فيما مضى من

(١) الأنعام: الآية (٣٣).

عمره كمحمد بن عبد اللَّه . فإذا تفكروا في هذا كله جزموا بأن هذا كله وحي من اللَّه تعالى ألقاه في روعه، ونزل من لدنه على روحه، وعلموا أن استبعادهم لذلك جهل منهم، فاللَّه تعالى القادر على كل شيء يختص برحمته من يشاء . لهذا حثهم على التفكر في هذا المقام من هذه السورة وغيرها ، وذكر بعدها كونه نذيرًا مبينًا ، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد»[1] .

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٥٣-٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ملكوت: الملكوت: الملك العظيم. وهو من أبنية المبالغة، كالجبروت، وهو مختص بملك اللَّه تعالى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم ينظر هؤلاء المكذّبون بآيات اللَّه في مُلك اللَّه وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق -جل ثناؤه- من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدّقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب اللَّه وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فبأيّ تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند اللَّه في آي كتابه يصدّقون، إن لم يصدّقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند اللَّه تعالى؟»[١].

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾: «وردت هذه الآية بنصها في آخر سورة (المرسلات)[٢] التي أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء، وتهديد المكذّبين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها. وورد في الآية الخامسة والثلاثين[٣] من سورة (الجاثية) بعد التذكير بآيات اللَّه للمؤمنين، وآياته لقوم يوقنون، وآياته لقوم يعقلون، قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٦). (٢) ١: الآية (٥٠).
(٣) بل وردت في الآية السادسة من (الجاثية).

وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)]، والحديث في الجميع كلام اللَّه الذي هو القرآن، يدل عليه هنا قوله تعالى في رسوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وفي آية (المرسلات) القرينة في تهديد المكذبين له. وفي آية (الجاثية) افتتاح السورة بذكر الكتاب، فيكون معناها: فبأيِّ حديث بعد كتاب اللَّه -المذكور في الآية الأولى وآياته المشار إليها بعدها- يؤمنون؟

والمراد أن محمدًا رسول اللَّه ﷺ نذير مبين عن اللَّه تعالى، وإنما أنذر الناس بهذا الحديث؛ أي: القرآن، كما أمره أن يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[(٢)]، وهو أكمل كتب اللَّه بيانًا، وأقواها برهانًا، وأقهرها سلطانًا، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في إيمانه بغيره، ومن لم يرو ظمأه الماء النقاح المبرد، فأيّ شيء يرويه؟! ومن لم يبصر في نور النهار، ففي أيّ نور يبصر؟!»[(٣)].

قال القرطبي: «استدل بهذه الآية -وما كان مثلها من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾[(٥)]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[(٦)] الآية، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(٧)]- من قال بوجوب النظر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته، قالوا: وقد ذم اللَّه تعالى من لم ينظر، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية»[(٨)].

قال محمد رشيد رضا: «واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلي مبدأ من مبادئ الفكر والتفكير، كما أن مبدأه هو النظر الحسي في الغالب؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[(٩)] إلخ، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾[(١٠)] إلخ. ومنه النظر في عاقبة الأمم برؤية آثارها في عدة آيات، والشواهد على ذلك في التنزيل معروفة، فلا نطيل في سردها. والآيات التي نحن

---

(١) الجاثية: الآية (٦).
(٢) الأنعام: الآية (١٩).
(٣) تفسير المنار (٩/ ٤٥٨-٤٥٩).
(٤) يونس: الآية (١٠١).
(٥) ق: الآية (٦).
(٦) الغاشية (١٧).
(٧) الذاريات: الآية (٢١).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٣٠-٣٣١).
(٩) الغاشية: الآية (١٧).
(١٠) ق: الآية (٦).

بصدد تفسيرها جمعت بين المبدإ الحسي، وهو ملكوت السموات والأرض، والمبدإ الفكري، وهو اقتراب الأجل، وهما وما في معناهما يدلان على بناء الدين الإسلامي على قاعدتي: النظر العقلي والتفكر اللذين يمتاز بهما الأفراد والأمم بعضها على بعض، والله أعلم وأحكم»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعمهون: أي: يتحيّرون. وقيل: يترددون. والعمه: التردد في الأمر من التحيّر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن إعراض هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج اللّه والفكر فيها؛ لإضلال اللّه إياهم، ولو هداهم اللّه لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن اللّه أضلهم فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن اللّه يدعهم في تماديهم في كفرهم، وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها اللّه لهم من عقوبته، وأليم نكاله»[١].

قال ابن كثير: «من كُتِب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئًا، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾[٢]، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «إن إسناد الإضلال إلى اللّه تعالى ليس معناه أنه أجبرهم على الضلال إجبارًا، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطرارًا لا اختيارًا؛ بل معناه أنهم مارسوا الكفر والضلال، وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه في الطغيان، ففقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان»[٥].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٣٧).
(٢) المائدة: الآية (٤١).
(٣) يونس: الآية (١٠١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥١٨).
(٥) تفسير المنار (٩/ ٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

★ غريب الآية:

الساعة: أي: وقت القيامة الكبرى.

أيان: معناها: متى؛ فهي سؤال عن الزمان.

مرساها: أي: وقت ثبوتها واستقرارها؛ مِنْ رَسَا الشَّيْءُ يَرْسُو: إذا ثبت.

حفيّ عنها: أي مُسْتَقْصٍ في السؤال عنها ومهتمّ بوقتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: المكذبون لك، المتعنتون ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى وقتها، الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: إنه تعالى المختص بعلمها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو، ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السموات والأرض، واشتد أمرها أيضًا عليهم فهم من الساعة مشفقون، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من حيث لا يشعرون، لم يستعدوا لها ولم يتهيؤوا لها، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه غير مبال بالسؤال الخالي من المصلحة، المتعذر علمه؛ فإنه لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصًا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا

سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه»[١].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله -جل وعلا-، وقد جاءت آيات أخر تدل على ذلك أيضًا، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٣]، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ، أنها الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٤] الآية»[٥].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك قوم رسول الله ﷺ من قريش، وكانوا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ.. وقال آخرون: بل عُنِيَ به قوم اليهود...

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قومًا سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة، فأنزل الله هذه الآية، وجائز أن يكون كانوا من قريش، وجائز أن يكونوا كانوا من اليهود، ولا خبر بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان»[٦].

ورجح ابن كثير القول الأول فقال: «والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٨]»[٩].

قال صديق حسن خان: «وظاهر الآية أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك»[١٠].

وقال محمد رشيد رضا: «وذكر الساعة أولًا، والاستفهام عن زمن وقوعها

---

(١) تفسير الكريم الرحمن (٣/ ١٢٥-١٢٦).
(٢) النازعات: الآيات (٤٢-٤٤).
(٣) الأنعام: الآية (٥٩).
(٤) لقمان: الآية (٣٤).
(٥) أضواء البيان (٢/ ٤٥).
(٦) جامع البيان (٩/ ١٣٧)..
(٧) يونس: الآية (٤٨).
(٨) الشورى: الآية (١٨).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥١٨).
(١٠) فتح البيان (٥/ ٩٢).

ثانيًا؛ على قاعدة تقديم الأهم، وهو المقصود بالذات»[١].

قال ابن كثير: «فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات اللَّه عليه وسلامه، نبي الرحمة ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب، والمقفي، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنه: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه: السبابة والتي تليها**»[٢]، ومع هذا كله قد أمره اللَّه تعالى أن يرد علمها إليه إذا سئل عنها فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ »[٣].

قال محمد رشيد رضا: «﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل أيها النذير: إن علم الساعة عند ربي وحده، ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه. وهذا يدل عليه لفظ (إنما) من الحصر؛ كما قال تعالى في الآية التي فسر بها النبي ﷺ مفاتيح الغيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾[٤] أي: عنده، لا عند أحد سواه. ومثله قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾[٥]الآية؛ أي: يرد إليه وحده، لا إلى غيره. وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم اللَّه تعالى بالساعة بآية (الأعراف) آيتان: آية (الأحزاب) -﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٦]-، وذكرناها آنفًا، وآية أواخر (النازعات) وما بعدها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[٧] أي: إلى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه منتهى أمر الساعة الذي يسألونك عنه، وإنما أنت منذر لأهل الإيمان الذين يخشونها ويستعدون لها، لا تعدو وظيفة الإنذار والتعليم والإرشاد.

فهذه الآيات كآية (الأعراف) سؤالًا وجوابًا. فالسؤال عن الساعة من حيث

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١٣٠)، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨-٢٢٦٩/ ٢٩٥١[١٣٥])، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤) وقال: «حسن صحيح».

(٣) أفاده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٣).

(٤) لقمان: الآية (٣٤).

(٥) فصلت: الآية (٤٧).

(٦) الآية (٦٣)

(٧) النازعات: الآيات (٤٢-٤٦).

إرساؤها ومنتهى أمرها، والجواب رد ذلك إلى الرب مضافًا إلى ضمير رسوله. فما أخبره به في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ هو ما أمره أن يجيب به في قوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾. وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب؛ لا يكون للعبد، فهو تعالى قد رباه ليكون منذرًا ومبشّرًا، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها. والإنذار إنما يناط بالإعلام بالساعة وأهوالها، والنار وسلاسلها وأغلالها، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها؛ ليخشى أهل كل زمن إتيانها فيه. والإعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة؛ بل فيه مفاسد أخرى، فلو قال الرسول للناس: إن الساعة تأتي بعد ألفي سنة من يومنا هذا مثلًا -وألفا سنة في تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجلًا قريبًا- لرأى المكذبين يستهزئون بهذا الخبر، ويلحون في تكذيبه، والمرتابين يزدادون ارتيابًا، حتى إذا ما قرب الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم، ويوقع الشلل في أعضائهم، والتشنج في أعصابهم، حتى لا يستطيعون عملًا، ولا يسيغون طعامًا ولا شرابًا، ومنهم من يخرج من ماله وما يملكه، من حيث يكون الكافرون آمنين، يسخرون من المؤمنين.

وقد وقع في أوربة أن أخبر بعض رجال الكنيسة الذين كان يقلدهم الجمهور بأن القيامة تقوم في سنة كذا، فهلعت القلوب، واختلت الأعمال، وأهمل أمر العيال، ووقف المصدقون ما يملكون على الكنائس والأديار، ولم تهدأ الأنفس ويَثُبْ إليها رشدها إلا بعد ظهور كذب النبأ بمجيء أجله دون وقوعه.

فالحكمة البالغة إذًا في إبهام أمر الساعة العامة للعالم، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس، أو بالأمم والأجيال، وجعلها من الغيب الذي استأثر اللَّه تعالى به، على ما سنذكر في إيضاحه، فلذلك قال بعد حصر أمرها في علمه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذي يكون إرساؤها فيه؛ يقال: جلا لي الأمر وانجلى، وجلاه فلان تجلية، بمعنى: كشفه وأظهره أتم الإظهار. و(اللام) الداخلة على (وقتها) تسمى لام التوقيت؛ كقولهم: وكتب هذا الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو بقين من صفر.

والمعنى: لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب تعالى إلا هو، فلا وساطة بينه وبين عباده في إظهارها، ولا الإعلام بميقاتها، وإنما وساطة الرسل عليهم السلام في الإنذار بها.

وقفى على هذا الإيئاس من علم أمرها، والإنباء بوقت وقوعها، بقوله في تعظيم شأنها، وسر إخفاء وقتها: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ثقل وقعها، وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلهما من الملائكة والإنس والجن؛ لأن اللّه تعالى نبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها. فهم يتوقعون أمرًا عظيمًا، لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه.

روي عن قتادة في تفسير الجملة أنه قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون.

وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

فهذان القولان تفسير لثقلها بفقد العلم بها؛ فإن المجهول ثقيل على النفس، ولاسيما إذا كان عظيمًا.

وروي عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[١] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾[٢] و﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾[٣] وغير ذلك مما وصفه اللّه تعالى من أمر قيامها.

وعن ابن عباس في ثقلها: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

ولكل رواية وجه صحيح. والمتبادر من الجملة ما ذكرناه أولًا، وهو يتفق مع جملة هذه الروايات.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا إشعار ولا إنذار. وقد تكرر هذا القول في التنزيل...

والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة. وأبلغ من هذا قوله تعالى في أول سورة (الحج): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٤].

---

(١) التكوير: الآية (١).
(٢) الانفطار: الآيتان (١و٢).
(٣) الواقعة: الآيات (٤-٦).
(٤) الحج: الآيتان (١و٢).

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم الخوف على مراقبة اللَّه تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق، ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال، والقيل والقال»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «ولا ينافي كون علم الساعة عند اللَّه أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمنا، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها»[(٢)].

قال أبو حيان: «قالوا: وحكمة إخفائها: أنهم يكونون دائمًا على حذر، فإخفاؤها أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص، وهو وقت الموت لذلك»[(٣)].

وقال محمد رشيد رضا: «وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان أو الميدان والاضطراب نكتة دقيقة، هي في أعلى درج البلاغة. وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم، وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بمن فيها من العوالم المتحركة المضطربة، فعبر بإرسائها عن منتهى أمرها، ووقوف سيرها. والساعة زمن وهو أمر مقدر، لا جسم سائر أو مسير، وما يقع فيها ويعبر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال، لا رسوًا ولا إرساءً، وهو أمر مستقبل لا حاصل، ومتوقع لا واقع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[(٤)] معناه: أنه سيقع حتمًا، ولذلك علق به بيان ما يقع فيه بقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[(٥)] فلم يبق لإرسائها معنىً إلا إرساء حركة هذا العالم فيها. وإنه لتعبير بليغ لم يعهد له في كلام البلغاء نظير، ولم أر أحدًا نَبَّهَ لهذا»[(٦)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أشراط الساعة

*** عن حذيفة قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن الساعة فقال: «﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ولكن أخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة**

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦٥-٤٦٨).
(٢) الفتاوى (٤/ ٢٨١).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٣٢).
(٤) الطور: الآيتان (٧و٨).
(٥) الطور: الآيات (٩-١١).
(٦) تفسير المنار (٩/ ٤٦٤-٤٦٥).

وهرجًا، قالوا: يا رسول الله! الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال: بلسان الحبشة: القتل، ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحدًا»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب، أن الذي أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن، أن ذلك يكون، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة، فلا يعلم أحد أي سنة هي، ولا أي شهر، أما أنها تكون في يوم جمعة في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي خلق اللَّه فيها آدم ﵇، ولكن أي جمعة؟ لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا اللَّه وحده لا شريك له، وكذلك ما يكون من الأشراط تعيين الزمان لها لا يعلم، واللَّه أعلم»(٢).

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: **«تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند اللَّه، وأقسم باللَّه ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة»**(٣).

* عن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٩)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠٩) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) التذكرة (ص: ٦٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٦)، ومسلم (٤/ ١٩٦٦/ ٢٥٣٨).

(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٢٨/ ٦٥٠٦) بهذا اللفظ، وأخرج طرفه الأول إلى قوله: «أو كسبت في إيمانها خيرا»: أحمد (٢/ ٢٣١)، والبخاري (٨/ ٣٧٧/ ٤٦٣٥-٤٦٣٦)، ومسلم (١/ ١٣٧/ ١٥٧)، وأبو داود (٤/ ٤٩٢/ ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣-٣٤٤/ ١١١٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٢/ ٤٠٦٨).

★ غريب الحديث:

اللِّقحة: بكسر اللام وسكون القاف بعدها مهملة: هي ذات الدر من النوق.

يُليط حوضه: بضم أوله: يقال: ألاط حوضَه: إذا مَدره؛ أي: جمع حجارة فصيّرها كالحوض ثم سد ما بينهما من الفرج بالمدْر نحوه لينحبس الماء، هذا أصله، وفي ذلك إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾»[1].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وحاصل هذا الحديث أن الساعة تقوم بغتة كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾»[2].

وقد تقدمت باقي فوائد الحديث في أواخر سورة (الأنعام) الآية (١٥٤).

* عن أنس أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله! متى الساعة قائمة؟ قال: ويلك وما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها إلا أني أحب اللّٰه ورسوله، قال: إنك مع من أحببت، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: نعم، ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا. فمر غلام للمغيرة -وكان من أقراني فقال: إن أخر هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»[3].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الإسماعيلي -بعد أن قرر أن المراد بالساعة ساعة الذين كانوا حاضرين عند النبي ﷺ، وأن المراد موتهم، وأنه أطلق على يوم موتهم اسم الساعة؛ لإفضائه بهم إلى أمور الآخرة-: ويؤيد ذلك أن اللّٰه استأثر بعلم قيام الساعة العظمى، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الكثيرة، قال: ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «حتى تقوم الساعة» المبالغة في تقريب قيام الساعة، لا التحديد.. قال: وهذا عمل شائع للعرب، يستعمل للمبالغة عند تفخيم الأمر،

(١) فتح الباري (١١/ ٤٣٤). (٢) المفهم (٧/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٢)، والبخاري (١٠/ ٦٧٧/ ٦١٦٧). وأخرجه: مسلم (٤/ ٢٠٣٢-٢٠٣٣/ ٢٦٣٩[١٦٣])، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٢٣٨٥) دون الطرف الأخير منه.

وعند تحقيره، وعند تقريب الشيء وعند تبعيده، فيكون حاصل المعنى أن الساعة تقوم قريبًا جدًّا. وبهذا الاحتمال الثاني جزم بعض شراح «المصابيح»، واستبعده بعض شراح «المشارق»، وقال الداودي: المحفوظ أنه ﷺ قال ذلك للذين خاطبهم بقوله: «**تأتيكم ساعتكم**» يعني بذلك موتهم؛ لأنهم كانوا أعرابًا، فخشي أن يقول لهم: لا أدري متى الساعة، فيرتابوا، فكلمهم بالمعاريض، وكأنه أشار إلى حديث عائشة الذي أخرجه مسلم[1]: «**كان الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ** سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم سنًّا، فيقول: إن يعش هذا حتى يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم»، قال عياض -وتبعه القرطبي-: هذه رواية واضحة، تفسر كل ما ورد من الألفاظ المشكلة في غيرها»[2].

قال الطيبي: «سلك مع السائل طريق الأسلوب الحكيم؛ لأنه سأل عن وقت الساعة وإبان إرسائها، فقيل له: فيم أنت من ذكراها؟ وإنما يهمّك أن تهتم بأهبتها، وتعتني بما ينفعك عند إرسائها من العقائد الحقة، والأعمال الصالحة»[3].

* * *

(١) في صحيحه (٤/ ٢٢٦٩/ ٢٩٥٢)، وكذا أخرجه البخاري (١١/ ٤٣٩-٤٤٠/ ٦٥١١).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٦٨١).

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٠١).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية، وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها. ومناسبتها لما قبلها: أن اللَّه تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند اللَّه تعالى وحده وأمرها بيده وحده، وأمره في هذه أن يبين للناس أن كل الأمور بيد اللَّه تعالى وحده، وأن علم الغيب كله عنده، وأن ينفي كلاً منهما عن نفسه ﷺ، وذلك أن الذين كانوا يسألونه ﷺ عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب، وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالإسلام أن الرسول قد يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب أو يشاء، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره أو بمن يشاء. فأمره اللَّه تعالى أن يبيّن للناس أن منصب الرسالة لا يقتضي ذلك، وإنما وظيفة الرسول التعليم والإرشاد، لا الخلق والإيجاد، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه اللَّه بوحيه، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن اللَّه تعالى بشرٌ كسائر الناس ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1].

قال ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: قل أيها الرسول للناس فيما تبلغه من أمر دينهم: إنني لا أملك لنفسي -أي: ولا لغيري بالأولى- جلب نفع ما في وقت ما، ولا دفع ضرر ما في وقت ما، فوقوع كلمتي النفع والضر نكرتين

---

(١) الكهف: الآية (١١٠).

منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة، ونفي عموم الفعل يقتضي نفي عموم الأوقات له. ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل إنسان سليم الأعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الأمور الكسبية ودفع بعض الضرر عنها، ولذلك حرمت الشريعة الضرر والضرار.

ويجاب عن هذا الإشكال من وجهين، أحدهما: أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا مستقلاً بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتمليك الرب الخالق جلت قدرته وهو المراد بالاستثناء أي: لا أملك منهما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ من نفع أقدرني على جلبه، وضر أقدرني على منعه، وسخر لي أسبابهما، أو إلا وقت مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك، فالمعنى المراد على هذا هو بيان عجز المخلوق الذاتي وكون كل شيء أوتيه فهو بمشيئة اللّه تعالى لا يستقل العبد بشيء منه استقلالًا مطلقًا، ولا هو يملكه بذاته لذاته؛ بل بمشيئة اللّه تعالى، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله، مخصص لعمومه، مقيد لإطلاقه.

الثاني: أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعًا ولا ضرًا لنفسه بمنطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الأولى، مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشريته وما أقدره اللّه تعالى عليه بمقتضى سنته في عالم الأسباب والمسببات، كما أنه لا يملك شيئًا من علم الغيب الذي هو شأن الخالق دون المخلوق، كما يأتي بيانه في تفسير الجملة التالية، والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكد لعمومه؛ أي: لكن ما شاء اللّه تعالى من ذلك كان، فهو كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[1] وقوله حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ﴾[2] وقوله في خطاب كليمه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾[3] الآية.

وهذا الوجه هو المختار عندنا؛ لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم اللّه ووفقهم لطاعته وولايته من الأنبياء، ومن دون الأنبياء من الصالحين، فجعلوهم شركاء لله تعالى فيما يرجوه عباده من نفع يسوقه إليهم، وما يخشونه من شر يمسهم

---

(١) الأعلى: الآيتان (٦و٧). (٢) الأنعام: الآية (٨٠).
(٣) النمل: الآيتان (١٠و١١).

فيدعونه ليكشفه عنهم، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالًا، وإما إشراكًا، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف في خلقه بما هو فوق الأسباب التي منحها اللَّه تعالى لسائر الناس، فصاروا يستقلون بالنفع والضر منحًا ومنعًا، وإيجابًا وسلبًا، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبي الأعلى الذي هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره، ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند اللَّه تعالى كوزراء الملوك وحجابهم وبطانتهم، وسطاء بينهم وبين من لم يصل إلى رتبتهم، فالملك المستبد بسلطانه يعطي هذا ويعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده، وكذلك رب العالمين يعطي ويمنع ويغفر ويرحم وينتقم بوساطة أنبيائه وأوليائه بزعمهم، فهم شفعاء للناس عنده تعالى يقربونهم إليه زلفى، كما حكاه التنزيل عن المشركين، وبيناه في مواضع من هذا التفسير.

وفي مثل هذا التشبيه الوثني وتمثيل تصرف الرب العظيم الغني عن عباده بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يحتاجون إلى وزرائهم وبطانتهم في حمله على ما ينبغي له فيهم؛ قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[1]، وبين في هذه الآية وأمثالها أن رسل اللَّه تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون اللَّه تعالى في صفة من صفاته، ولا تأثير لأحد منهم في علمه ولا في مشيئته؛ لأنها كاملة أزلية لا يطرأ عليها تغير، وأن الرسالة التي اختصهم اللَّه تعالى بها لا يدخل في معناها إقدارهم على النفع والضر بسلطان فوق الأسباب المسخرة لسائر البشر ولا منحهم علم الغيب، وإنما هي تبليغ وحي اللَّه تعالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم.

ودليلنا على اختيار هذا الوجه: أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود فيما يرجون من نفع ويخافون من ضر، فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالأسباب العادية كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[2]، وقوله في عجل بني إسرائيل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[3]، وقوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

---

(١) النحل: الآية (٧٤). (٢) المائدة: الآية (٧٦).
(٣) طه: الآية (٨٩).

نَفۡعًاۚ﴾[(١)]، وقوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّاۚ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا﴾[(٣)] الآية.

فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الإطلاق خاصًا برب العباد وخالقهم، وكان طلب النفع أو كشف الضر عبادة لا يجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله تعالى عظيمًا عليهم - أمر اللَّه رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في تقريره وتوكيده، فقال تعالى في سورة (يونس): ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾[(٤)] الآية، وقال في سورة (الجن): ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾[(٥)]، وهذه الآية أبلغ وأشمل مما في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بحذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين، وهما ضداهما بدلالتهما عليهما، والتقدير: لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا رشدًا ولا غواية، فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا.

ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلاً عليه بانتفاء أظهر منافعه القريبة، فقال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾، الخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوؤهم ويضرهم، ويراد بهما هنا الجنس الذي يصدق ببعض أفراده وهو الخير الذي يمكن تداركه وتحصيله، والسوء الذي يمكن الاستعداد لدفعه بعلم ما يأتي به الغد. والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب، كأنه يقول: لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا ولا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب، وأقربه ما يقع في مستقبل أيامي في الدنيا، لاستكثرت من الخير كالمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة ما يكون في المستقبل من عسرة وغلاء مثلًا وتغير الأحوال، ولما مسني السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب، كشدة الحاجة مثلًا، ومن أمثلته في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت،**

---

(١) الفتح: الآية (١١).
(٢) الرعد: الآية (١٦).
(٣) الفرقان: الآية (٣).
(٤) يونس: الآية (٤٩).
(٥) الجن: الآية (٢١).

ولولا أن معي الهدي لأحللت»[1] رواه الشيخان وغيرهما؛ يعني: لو أنه علم ﷺ ما يحصل من انفراده دون أصحابه بسوقه الهدي إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عمرة دونه؛ إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدي لما ساق الهدي ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج. ومن أمثلته في الإدارة وسياسة الحرب ما عاتبه اللَّه تعالى عليه من الإعراض عن الأعمى والتصدي للأغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر، ومن الإذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة، ولم أر أحدًا نَبَّهَ على هذا النوع من المفسرين.

وفيه وجه آخر أنه مستأنف غير معطوف على ما قبله، ومعناه: وما مسني الجنون كما زعم الجاهلون، فيكون حاصل معنى الآية نفي رفعه إلى رتبة الربوبية الذي افتتن بمثله الغلاة، ونفي وضعه في أدنى مرتبة البشرية الذي زعمته الغواة العتاة. وبيان حقيقة أمره، وما رفع اللَّه تعالى من قدره، بجعله فوق جميع البشر بوحيه، ووساطته بينه وبين خلقه، لكن في التبليغ والإرشاد، لا في الخلق والإيجاد، ولا في تدبير أمور العباد، فإن هذا شأن الربوبية، وإنما هو صلوات اللَّه عليه وسلامه في أعلى مقام العبودية.

ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيره في أخرى: تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيره وتقديم الضر عليه في آية سورة (يونس) المذكورة آنفًا. والفرق المحسن لذلك أن آية (الأعراف) جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها، فاقتضى ذلك البدء بنفي ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمنًا وعظم شأن، لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل، واتقى أسباب ما يمسه من السوء فيه، كالأمثلة التي ذكرناها.

وأما آية سورة (يونس) فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم اللَّه من

---

(١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٢٤٧)، والبخاري (١٣/ ٢٧٠/ ٧٢٢٩)، ومسلم (٢/ ٨٧٩/ ١٢١١[١٣٠])، وأبو داود (٢/ ٣٨٤/ ١٧٨٤).

العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستعجالهم إياه تهكمًا ومبالغة في الجحود، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضرًا كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعًا، كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب لهم في الدنيا، فقد أمره اللَّه تعالى أن يبلغهم أن أمر عذابهم تعجيلًا أو تأخيرًا لله تعالى وحده، كما أمره أن ينفي عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات، ومن ذلك ما ذكره تعالى من مقترحاتهم في سورة (الإسراء) من تفجير ينبوع في مكة وإيجاد جنة تنفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أو إسقاط السماء عليهم كسفًا، وهو من العذاب . . إلخ، ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[(١)]، وقال تعالى في هذه السورة أيضًا: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[(٢)]؛ أي: موكلًا بأمر ثوابهم وعقابهم منفذًا له، وقال تعالى في سورة (الرعد): ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[(٣)]»[(٤)].

قال الشنقيطي: «هذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه اللَّه، وقد أمره تعالى أن يقول إنه لا يعلم الغيب في قوله في (الأنعام): ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾[(٥)] الآية، وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[(٦)] الآية، وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[(٧)] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

والمراد بالخير في هذه الآية الكريمة قيل: المال، ويدل على ذلك كثرة ورود الخير بمعنى المال في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[(٨)]، وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[(٩)]، وقوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾[(١٠)] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: المراد بالخير فيها العمل الصالح؛ كما قاله مجاهد وغيره، والصحيح

---

(١) الإسراء: الآية (٩٣).
(٢) الإسراء: الآية (٥٤).
(٣) الرعد: الآية (٤٠).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٥٠٧-٥١٣).
(٥) الأنعام: الآية (٥٠).
(٦) الجن: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٧) النمل: الآية (٦٥).
(٨) العاديات: الآية (٨).
(٩) البقرة: الآية (١٨٠).
(١٠) البقرة: الآية (٢١٥).

الأول؛ لأنه ﷺ مستكثر جدًّا من الخير الذي هو العمل الصالح؛ لأن عمله ﷺ كان ديمة[(١)]، وفي رواية: كان إذا عمل عملًا أثبته[(٢)]»[(٣)].

قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: **قال محمد رشيد رضا**: «هذا بيان مستأنف لتعليل ما تقدم من نفي امتيازه ﷺ على البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن اللَّه في الخلق، ونفي امتيازه عليهم بعلم الغيب، عللهما ببيان حصر امتيازه عليهم بالتبليغ عن اللَّه ﷻ. والتبليغ قسمان: قسم مقترن بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي وهو الإنذار، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الإيمان والطاعة، وهو البشارة أو التبشير، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الإطلاق، والآيات فيه كثيرة، ويوجه أيضًا إلى من يؤمن وإلى من يصر على كفره وإجرامه مطلقًا، وإذا ذكر الفريقان جميعًا في سياق واحد يخصّ الكافرون بالإنذار، والمؤمنون الصالحون بالتبشير، وقد ذكر في أول سورة (الكهف) الإنذار المطلق بالقرآن، ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإنذار متخذي الولد لله تعالى من الكافرين. ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى في آخر سورة (مريم): ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[(٤)]، وفي معناهما آيات أخرى في المقابلة كما ترى في أوائل سورتي (البقرة) و(الإسراء)، ولكن دون ذكر لفظ الإنذار. والتبشير لا يوجه إلى الكافرين والمجرمين بلقبهم إلا بأسلوب التهكم كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٥)] على القول المشهور الذي عليه الجمهور، وأما الإنذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله في سورة (فاطر): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[(٦)]، وقوله في سورة (يس): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[(٧)].

بناءً على هذا قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٨)] متعلق

---

(١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٤٣-٥٥-١٨٩)، والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٦)، ومسلم (١/ ٥٤١/ ٧٨٣)، وأبو داود (٢/ ١٠٢/ ١٣٧٠).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: مسلم (١/ ٥١٥/ ٧٤٦[١٤١])، وأبو داود (٢/ ١٠١/ ١٣٦٨)، والنسائي (١/ ٤٠٢/ ٧٦١).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٤٠).

(٤) مريم: الآية (٩٧).

(٥) آل عمران: الآية (٢١).

(٦) فاطر: الآية (١٨).

(٧) يس: الآية (١١).

(٨) الأعراف: الآية (٥٢).

بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بإنذاره فيزيدهم خشية اللَّه واتقاءً لما يسخطه، وبتبشيره فيزدادون شكرًا له بعبادته وإقامة سننه. وقال بعضهم إنه متعلق بالثاني المتصل به، ويدل على حذف مقابله فيما قبله. والتقدير: ما أنا إلا نذير للكافرين وبشير للمؤمنين، ووجهه أن المقام مقام التبليغ، وهنالك وجه ثالث، وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصالها بهم، والإنذار عام لهم ولغيرهم، وقد عرف وجهه مما فصلناه.

وقد ورد في مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالإنذار والتبشير بلفظيهما معًا، أو بأحدهما، وبلفظ التبليغ الجامع لهما آيات كثيرة، بعضها بالإثبات بعد النفي كما هنا، وبعضها بـ(إنما)، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية الدلالة، ومع هذا التكرار والتوكيد كله يأبى غلاة الإطراء للرسل ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توهمًا إلا أن يشركوهم مع اللَّه ﷻ في صفات ربوبيته وأفعاله.

قال تعالى في سورة (سبأ): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال في سورتي (الإسراء) و(الفرقان): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[2]، وقال في سورتي (الأنعام) و(الكهف): ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[3]، وقال في سورة (النحل): ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[4]، وفي سورة (يس) حكاية عن الرسل: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[5]، وفي سورتي (النور) و(العنكبوت): ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[6].

فإن قيل: إن الحصر في هذه الآيات وأمثالها إضافي؛ فإن من وظائف الرسل بيان الوحي والحكم بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[7]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[8]، والبيان يكون بالأفعال كالأقوال، بل الأفعال أقوى دلالة وأعصى

---

(١) سبأ: الآية (٢٨). (٢) الإسراء: الآية (١٠٥)، الفرقان (٥٦).
(٣) الأنعام: الآية (٤٨)، الكهف (٥٦).
(٤) النحل: الآية (٣٥). (٥) يس: الآية (١٧).
(٦) النور: الآية (٥٤)، العنكبوت: الآية (١٨).
(٧) النساء: الآية (١٠٥). (٨) النحل: الآية (٤٤).

على تأويل المحرفين. وكما قد أمر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه، أمر بالتأسي به في هديه وسننه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[1].

قلنا: إن هذا لا ينافي الحصر الحقيقي؛ لأن التبليغ لدين اللّه وشرعه لا يتم إلا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه، فهو داخل في التبليغ وبيان الوحي.

وجملة القول: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون، لا يشاركونه في صفاته ولا في أفعاله، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره، وهم بشر كسائر الناس، لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وغرائزهم، وإنما يمتازون باختصاص اللّه تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالاته لعباده، وبما زكاهم وعصمهم فأهلهم لأن يكونوا أسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاؤوا به عن اللّه تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق»[2].

قلت: إذا تبين لك هذا، فاعلم أن ما يقع فيه الناس من الغلو في الرسول ﷺ وإطرائه يفضي إلى الوقوع في الشرك. فيصفون النبي ﷺ بالقدرة على النفع والضر، ويصفونه بعلم الغيب الذي نفاه عن نفسه في هذه الآية، ويتعصبون لهذه الضلالات، ويحاربون أهل التوحيد والمتبعين لسنة النبي ﷺ، ويكلونهم التهم الباطلة؛ من بغض النبي ﷺ، وبغض آله، وإنكار علو مكانته ﷺ.

ومعلوم أن محبة النبي ﷺ في لزوم أقواله واتباع أوامره واجتناب نواهيه. وقد نهى ﷺ عن إطرائه والغلو فيه. وهؤلاء الذين يدعون محبته قد أطروه، وغلوا فيه حتى قال شاعرهم البوصيري:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقد نبهنا على بعض ما وقع فيه هؤلاء الغلاة في كتاب «وقفات مع الكتاب المسمى دلائل الخيرات»، واللّه الموفق.

* * *

(١) الأحزاب: الآية (٢١).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥١٤-٥١٦).

قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ليسكن إليها: أي: ليأنس بها ويطمئن إليها.

فلما تغشّاها: كناية عن الوقاع.

فمرّت به: أي: استمرّت بذلك الحمل الخفيف تقوم وتقعد وتقلب ولا تكترث بحمله إلى أن ثقل. وقيل: المعنى: فاستمر بها الحمل فهو من المقلوب.

أثقلت: أي: صارت ذات ثقل، كما تقول: أتمر النخل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد، والأمر باتباع ما أنزل اللّه، والنهي عن اتباع أولياء من دونه. وتلاه التذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين، والعداوة بينه وبين الشيطان، ثم اختتمت بهذه المعاني، وهو التذكير بالنشأة الأولى، والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن»[١].

قال ابن كثير: «ينبّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥١٦).

(٢) الحجرات: الآية (١٣).

وَنِسَآءً﴾[1] الآية.

وقال في هذا الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2]، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وطئها، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألمًا، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه. وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال: لو كنت رجلًا عربيًا لعرفت ما هي، إنما هي: فاستمرت به. وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ واستبان حملها. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقعدت. وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت أم لا؟

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: بشرًا سويًا، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنسانًا. وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلامًا»[3].

قال ابن جرير: «و(الصلاح) قد يشمل معاني كثيرة: منها: الصلاح في استواء الخلق، ومنها: الصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير.

وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني (الصلاح) دون بعض، ولا فيه من العقل دليل وجب أن يعمّ كما عمه اللَّه، فيقال: إنهما قالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ بجميع معاني (الصلاح).

---

(١) النساء: الآية (١). (٢) الروم: الآية (٢١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٤-٥٢٥).

وأما معنى قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فإنه: لنكونَنّ ممن يشكرك ما وهبت له من الولد صالحًا»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «هذه الآية سيقت توبيخًا للمشركين في جنايتهم بالشرك، ونقضهم ميثاقهم، في جريهم على خلاف ما يعاهدون اللّٰه عليه. وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن، ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة، ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون، ليكونن من الشاكرين، ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم، التي امتن سبحانه بها عليهم، ونقضهم ميثاقهم في إفراده بالشكر، حيث أشركوا معه غيره في ذلك. ونظير هذه الآية، في الإخبار عن تبديل المشركين نعمة اللّٰه كفرًا، قوله تعالى في سورة (يونس): ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1]. وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثارًا تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى روايتها؛ لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسيره. وتقبّل ثلة من السلف لها وتلقيها، لا يجدي في صحتها شيئًا؛ إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الكتاب، كما برهن عليه ابن كثير. وتهويل بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة، إذ أخرجها فلان وفلان، من تنميق الألفاظ لتمزيق المعاني؛ فإن المشكاة النبوية أجل من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته.

---

(١) يونس: الآيتان (٢٢و٢٣).

إذا علمت ذلك، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها، آدم وحواء، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك، وأن ظاهر النظم يقتضيه، ثم أخذ يؤوله، إما بتقدير مضاف؛ أي: جعل أولادهما له شركاء، فيما آتى أولادهما، وإما بأن المراد جعل أحدهما، وهو حواء، من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك فإنه ذهب في غير مذهب.

وقد قرر ما ارتضيناه في معنى الآية غير واحد. قال الحسن البصري، فيما روى عنه ابن جرير: إن الآية عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. وفي رواية عنه: كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم»[1].

وقال ابن كثير: «وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رضي الله عنه، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث[2] عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم».

ثم قال -معلّقًا على الآثار الواردة عن السلف في تفسير هذه الآية-: «وهذه الآثار يظهر عليها -والله أعلم- أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣١٦-٣١٧).

(٢) يشير إلى حديث سمرة بن جندب المروي في هذا الباب من حديث الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث؛ فإنه يعيش، فسموه عبدالحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره». أخرجه: أحمد (٥/ ١١)، والترمذي (٥/ ٢٥٠/ ٣٠٧٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. ورواه بعضهم عن عبدالصمد، ولم يرفعه. عمر بن إبراهيم شيخ بصري»، والحاكم (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي. قال ابن كثير: «هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن عن سمرة مرفوعاً، فالله أعلم. الثاني: أنه قد روي من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه. وحدثنا ابن علية، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب، قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث. الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه». (تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٢٦).

رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم»(١)، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام، فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب اللَّه أو سنة رسوله، ومنها: ما علمنا كذبه، بما دُلّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا، ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله ﷺ: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»(٢)، وهو الذي لا يصدَّق ولا يكذَّب؛ لقوله: «فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم». وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا، واللَّه أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»(٣).

وفي ختم الآية بقوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بعد ذكر الخلق ونعمة الأولاد تنبيه على ما يقع في هذا الباب من الشرك.

قال محمد رشيد رضا: «أي: تعالى شأنه عن شركهم؛ فإنه هو معطي النسل بما خلقه لكل من الزوجين من أعضاء، وقدر لهما في العلوق والوضع من أسباب، لا فعل لغيره في ذلك ألبتة. وجمع الضمير هنا بعد تثنيته الأفعال قبله؛ لأن المراد فيه بالزوجين الجنس، لا فردين معينين. وقال الزمخشري: إن الضمير في ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾ و﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما. والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله، والجنس يصدق ببعض أنواعه وببعض أفراده.

فمثال الشرك الخفي في إنعام اللَّه عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب في سلامة الحامل من الأمراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه، وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض؛ كقولهم:

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري (٨/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٤٨٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٧٤)، وأبو داود (٤/ ٦٩-٧٠/ ٣٦٦٢) عن أبي هريرة. وفي الباب من حديث أبي سعيد وابن عمرو وغيرهما.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٧-٥٢٨).

لو لا أن فعلنا كذا لكان كذا، ولولا فلان أو فلانة -من طبيب أو مرشد أو قابلة- لهلك الولد أو لأجهضت أمه إجهاضًا، أو جاءت بسقط لم يستهل، أو لمات عقب إسقاطه لعدم استعداده للحياة. وينسون في هذه الأحوال فضل اللَّه تعالى عليهم بما من به من العافية والتوفيق وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها - ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم، أو نقمة يدفعها اللَّه تعالى عنهم، وهذا الشرك ليس خروجًا من الملة، ولكنه نقص في شكر المنعم، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب اللَّه تعالى، وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره، وإيثارهم لهم على طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد، لا نقض له، وغفلة عنه، لا جحد به.

ومثال الشرك الجلي: إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعونهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين، أو الأنبياء والمرسلين، أو ما يذكر بهم أو بمثلهم من القبور أو الأصنام والتماثيل، يقولون: لولا سيدي فلان، ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب، أو لكان كذا وكذا مما نكره، يعتقدون أن لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيرًا غيبيًّا يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب المذكورة عن القسم الأول»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (٩/ ٥١٩-٥٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إنكار من اللَّه على المشركين الذين عبدوا مع اللَّه غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا، ولا يستطيع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم الذبابة شيئًا من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يُعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الحج: الآيتان (٧٣و٧٤).

(٢) الصافات: الآيتان (٩٥و٩٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أيشرك هؤلاء المشركون في عبادة اللَّه ما لا يخلق شيئًا من خلق اللَّه، ولا يستطيع أن ينصرهم إن أراد اللَّه بهم سوءًا، أو أحل بهم عقوبة، ولا هو قادر إن أراد به سوءًا نصر نفسه، ولا دفع ضر عنها؟ وإنما العابد يعبد ما يعبده لاجتلاب نفع منه، أو لدفع ضر منه عن نفسه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة اللَّه، لا تنفعهم، ولا تضرهم، بل لا تجتلب إلى نفسها نفعًا، ولا تدفع عنها ضرًّا، فهي من نفع غير أنفسها، أو دفع الضر عنها أبعد، يُعَجِّب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم اللَّه غيره»[١].

قال ابن كثير في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: «يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل -عليه الصلاة والسلام- يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[٣]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شابّين قد أسلما لما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها، ويتلفانها، ويتخذانها حطبا للأرامل؛ ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح، وكان سيّدًا في قومه، كان له صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفًا، ويقول له: انتصر. ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضًا، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٠).

(٢) الصافات: الآية (٩٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٥٨).

ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تاللَّه لو كنت إلهًا مستدنْ   لم تك والكلب جميعًا في قرنْ

ثم أسلم، فحسُن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا ﷺ وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه»[١].

وقال ابن عاشور: «الظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم؛ إذ كان النصر أشد مرغوب لهم؛ لأن العرب كانوا أهل غارات وقتال وترات، فالانتصار من أهم الأمور لديهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[٣]، قال أبو سفيان يوم أحد: أعلُ هبل، وقال أيضًا: لنا العزّى ولا عزّى لكم[٤]، وأن اللَّه أعلم المسلمين بذلك تعريضًا بالبشارة بأن المشركين سيُغلبون، قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٥]، وأنهم سيمحقون الأصنام، ولا يستطيع أحد الذب عنها»[٦].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٩).
(٢) يس: الآيتان (٧٤و٧٥).
(٣) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).
(٤) أخرجه من حديث البراء بن عازب ﷺ: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٧/ ٤٤٣/ ٤٠٤٣)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٨٦٣٥٤).
(٥) آل عمران: الآية (١٢).
(٦) التحرير والتنوير (٩/ ٢١٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان الأندلسي: «الظاهر أن الخطاب للكفار. انتقل من الغيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات والتوبيخ على عبادة غير اللَّه. ويدلّ على أنّ الخطاب للكفار قوله بعد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1]، وضمير المفعول عائد على ما عادت عليه هذه الضمائر قبل وهو الأصنام. والمعنى: وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد، أو إلى أن يهدوكم كما تطلبون من اللَّه الهدى والخير، لا يتبعوكم على مرادكم ولا يجيبوكم. أي: ليست فيهم هذه القابلية؛ لأنها جماد لا تعقل. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: دعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سيّان. فكيف يعبد من هذه حاله؟!

وقيل: الخطاب للرسول والمؤمنين، وضمير النصب للكفار. أي: وإن تدعوا الكفار إلى الهدى لا يقبلوا منكم، فدعاؤكم وصمتكم سيّان. أي: ليست فيهم قابلية قبول ولا هدىً»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- في وصفه وعيبه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربهم إياه: ومن صفته أنكم أيها الناس إن تدعوهم إلى الطريق المستقيم، والأمر الصحيح السديد، لا يتبعوكم؛ لأنها ليست تعقل شيئًا، فتترك من الطرق ما كان عن القصد منعدلًا جائرًا، وتركب ما كان مستقيمًا سديدًا.

وإنما أراد اللَّه -جل ثناؤه- بوصف آلهتهم بذلك من صفتها تنبيههم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم، يقول -جل ثناؤه-: فكيف يهديكم إلى الرشاد من إن دعي إلى الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادًا من ضلال، وكان سواءً دعاء

---

(١) الآية (١٩٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٣٩).

داعيه إلى الرشاد وسكوته؛ لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له، يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يشكل عظيم جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهًا؟! وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الناصر وليه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه»[1].

قال ابن كثير: «يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾[2]»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٠).
(٢) مريم: الآية (٤٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان الأندلسي: «هذه الجملة على سبيل التوكيد لما قبلها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرة على شيء من نفع أو ضر»(١).

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان موبخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أيها المشركون آلهة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وتعبدونها شركًا منكم وكفرًا بالله، ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك، فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة؛ لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم؛ لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سئل سمع مسألة سائله، وأعطى وأفضل، ومن إذا شُكي إليه من شيء سمع فضر من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر»(٢).

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: «أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية من نفع أو ضر بذواتهم، فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منهم إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣)، وقولكم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾(٤)»(٥).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٣٩).
(٢) جامع البيان (٩/ ١٥١).
(٣) يونس: الآية (١٨).
(٤) الزمر: الآية (٣).
(٥) تفسير المنار (٩/ ٥٢٨-٥٢٩).

وفي الآية سؤال أورده الرازي، قال: «وهو أنه كيف يحسن وصفها بأنها عباد مع أنها جمادات؟ وجوابه من وجوه: الأول: أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع؛ وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة، فلا جرم وردت هذه الألفاظ على وفق معتقداتهم، ولذلك قال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، ولم يقل: فادعوهم فليستجبن لكم، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقل: التي.

والجواب الثاني: أن هذا اللغو أورد في معرض الاستهزاء بهم؛ أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياءً عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ولا فضل لهم عليكم، فلِمَ جعلتم أنفسكم عبيدًا وجعلتموها آلهة وأربابًا؟ ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالكم، فقال: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ﴾[1]، ثم أكد هذا البيان بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾. ومعنى هذا الدعاء: طلب المنافع وكشف المضار من جهتهم. واللام في قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ لام الأمر على معنى التعجيز. والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة؛ ظهر أنها لا تصلح للمعبودية. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾[2].

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: أي في ادعاء أنها آلهة ومستحقة للعبادة، ولما ثبت بهذه الدلائل الثلاثة اليقينية أنها لا تصلح للمعبودية، وجب على العاقل أن لا يلتفت إليها، وأن لا يشتغل إلا بعبادة الإله القادر العالم الحي الحكيم الضار النافع»[3].

* * *

(١) الآية (١٩٥).

(٢) مريم: الآية (٤٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٩٦).

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يبطشون بها: من البطش، وهو تناول الشيء بصولة وقهر. ويقال: هو سرعة الانتقام وعدم التؤدة في العفو.

ثم كيدونِ: الأصل: كيدوني، فحذفت الياء تخفيفًا؛ لأن الكسرة تدل عليها. والكيد: المكر، والكيد: الحرب.

فلا تُنظِرون: أي: فلا تؤخّرون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، معرّفهم جهل ما هم عليه مقيمون: ألأصنامكم هذه أيها القوم ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشرّ ومكروه، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ فيعرفوكم ما عاينوا، وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه، ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيخبروكم بما سمعوا دونكم، مما لم تسمعوه، يقول -جل ثناؤه-: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها، والمعظَّم من الأشياء إنما يعظَّم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا شركاءكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم

وهن، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ يقول: فلا تؤخرونِ بالكيد والمكر، ولكن عجّلوا بذلك، يُعلمه -جل ثناؤه- بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عصمه منهم، ويعرّف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء»[١].

قال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من الدليل في بيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام. وتقريره أنه تعالى ذكر في هذه الآية أعضاء أربعة، وهي الأرجل والأيدي والأعين والآذان، ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوى المحركة والمدركة؛ تكون أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى، فالرِّجل القادرة على المشي واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة الباصرة والسامعة وعن قوة الحياة. وإذا ثبت هذا؛ ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى فضل هذه الأصنام ألبتة، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة ألبتة، لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة. هذا هو الوجه في تقرير هذا الدليل الذي ذكره اللَّه تعالى في هذه الآية»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٩/ ١٥١-١٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٩٧-٩٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾

★ **غريب الآية:**

إن وليّي الله: أي: إن الذي يتولى نصري وحفظي هو اللَّه. ووليّ الشيء: هو الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه لمّا بيّن في الآيات المتقدمة أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضر؛ بيّن بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة اللَّه تعالى؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين ومنافع الدنيا: أما تحصيل منافع الدين؛ فبسبب إنزال الكتاب، وأما تحصيل منافع الدنيا؛ فهو المراد بقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾»[1].

قال ابن كثير: «أي: اللَّه حسبي وكافيّ، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2]، وكقول الخليل عليه السلام: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾[3]، الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[4]»[5].

قال أبو السعود: «وصفه تعالى بتنزيل الكتاب للإشعار بدليل الولاية والإشارة

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٩٨).
(٢) هود: الآيات (٥٤-٥٦).
(٣) الشعراء: الآيات (٧٥-٨٠).
(٤) الزخرف: الآيات (٢٦-٢٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٠).

إلى علة أخرى لعدم المبالاة، كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم؛ لأن وليي هو اللَّه الذي أنزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصري، وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فضلًا عن نصركم»[١].

وقال الرازي: «﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الذي يتولى حفظي ونصرتي هو اللَّه الذي أنزل الكتاب المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة في الدين. و﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ينصرهم، فلا تضرهم عداوة من عاداهم، وفي ذلك يأمن المشركين من أن يضره كيدهم. وسمعت أن عمر بن عبد العزيز ما كان يدخر لأولاده شيئًا، فقيل له فيه فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين، فإن كان من الصالحين فوليه اللَّه، ومن كان اللَّه له وليًا فلا حاجة له إلى مالي، وإن كان من المجرمين فقد قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[٢]، ومن رده الله؛ لم أشتغل بإصلاح مهماته»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ جهارًا غير سِرٍّ يقول: «ألا إن آل أبي (يعني فلانًا) ليسوا لي بأولياء، إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

ستأتي فوائد هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الآية (٣٤) من سورة (الأنفال).

* * *

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٠٧).
(٢) القصص: الآية (١٧).
(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٩٩).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٣)، والبخاري (١٠/ ٥١٣/ ٥٩٩٠)، ومسلم (١/ ١٩٧/ ٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضًا أمر من اللَّه -جل ثناؤه- لنبيه أن يقوله للمشركين بقوله -تعالى ذكره-: قل لهم: إن اللَّه نصيري وظهيري، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أنتم أيها المشركون من دون اللَّه من الآلهة، لا يستطيعون نصركم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرون على نصرة أنفسهم، فأيّ هذين أولى بالعبادة، وأحق بالألوهة؟ أمن ينصر وليه، ويمنع نفسه ممن أراده، أم من لا يستطيع نصر وليه، ويعجز عن منع نفسه ممن أراده، وبغاه بمكروه؟»[1].

قال أبو حيان: «وهذه الآية بيان لحال الأصنام وعجزها عن نصرة أنفسها، فضلًا عن نصرة غيرها. وتقدم قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾[2]، قال الواحدي: أعيد هذا المعنى؛ لأن الأول مذكور على جهة التقريع، وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لا تجوز، كأنه قيل: الإله المعبود يجب أن يكون يتولى الصالحين، وهذه الأصنام ليست كذلك، فلا تكون صالحة للإلهية»[3].

وفي الآية قول آخر، وإن كان لا يصل في القوة إلى القول الأول نُورِدُه، وهو أن المقصود بها المشركين الذين كان يدعوهم النبي ﷺ إلى التوحيد.

قال الرازي: «القول الثاني: إن هذه الأحوال المذكورة صفات لهؤلاء المشركين الذين يدعون غير اللَّه، يعني أن الكفار كانوا يخوفون رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام وأصحابه، فقال تعالى: إنهم لا يقدرون على شيء؛ بل إنهم قد

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٢).
(٢) الأعراف: الآية (١٩٢).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٤٣)، وانظر مفاتيح الغيب (١٥/ ٩٩).

بلغوا في الجهل والحماقة إلى أنك لو دعوتهم وأظهرت أعظم أنواع الحجة والبرهان؛ لم يسمعوا بعقولهم ذلك ألبتة.

فإن قيل: لم يتقدم ذكر المشركين، وإنما تقدم ذكر الأصنام، فكيف يصح ما ذكر؟

قلنا: قد تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾[1]»[2].

* * *

(١) الآية (١٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا -أيها المشركون- آلهتكم إلى الهدى، وهو الاستقامة إلى السداد، ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ﴾ يقول: لا يسمعوا دعاءكم، ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وهذا خطاب من اللَّه لنبيه ﷺ يقول: وترى -يا محمد- آلهتهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، ولذلك وحّد، ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين لقال: وترونهم ينظرون إليكم. . .

وقد كان مجاهد يقول في ذلك: . . . ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ما تدعوهم إلى الهدى. وكأن مجاهدًا وجه معنى الكلام إلى أن معناه: وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فهو وجه، ولكن الكلام في سياق الكلام على الآلهة، فهو بوصفها أشبه.

قال أبو جعفر: فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؟ وهل يجوز شيء ينظر إلى شيء ولا يراه؟

قيل: إن العرب تقول للشيء إذا قابل شيئًا أو حاذاه: هو ينظر إلى كذا، ويقال: منزل فلان ينظر إلى منزلي: إذا قابله. وحكي عنها: إذا أتيت موضع كذا وكذا، فنظر إليك الجبل، فخذ يمينًا أو شمالًا. وحدثت عن أبي عبيد قال: قال الكسائي: الحائط ينظر إليك: إذا كان قريبًا منك حيث تراه، ومنه قول الشاعر:

إذا نظرت بلاد بني تميم ... بعين أو بلاد بني صباح

يريد: تقابل نبتها وعشبها وتحاذى.

فمعنى الكلام: وترى -يا محمد- آلهة هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان،

يقابلونك ويحاذونك، وهم لا يبصرونك؛ لأنه لا أبصار لهم. وقيل: ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾، ولم يقل: وتراها؛ لأنها صور مصوّرة على صور بني آدم»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢]»[٣].

قال محمد رشيد رضا: «وفي الآية وجه آخر ذهب إليه بعضهم، وهو أن الخطاب فيها للمؤمنين والرسول في مقدمتهم؛ بناءً على أن الكلام في الأصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها؛ أي: وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الأغبياء من المشركين، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين، إلى هدى الله، وهو التوحيد والإسلام؛ لا يسمعوا دعوتكم سماع فهم واعتبار، وتراهم -أيها الرسول- ينظرون إليك وهم لا يبصرون ما أوتيت من سمت الجلال والوقار، الذي يميز به صاحب البصيرة بين أولي الجد والعزم، والصدق في القول والفعل، وبين أهل العبث والهزل. ولقد كان بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر إلى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسيماه في وجهه أنه حر صادق، غير مخادع ولا مماذق، فيقول: والله ما هذا الوجه وجه كاذب.

وما زال من المعهود بين الناس أن أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضًا بذلك من أول العهد بالتلاقي بما يتوسمون من ملامح الوجه ومعارفه، ثم من موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع، ثم يكمل ذلك بالمعاشرة. كما يعرفون حال الأشرار والمنافقين بذلك، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾[٤]. بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى عقائل قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثته، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره، بعد أن رفضت أناسًا من كبراء قريش خطبوها بعد موت

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٢-١٥٣).
(٢) فاطر: الآية (١٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٠).
(٤) محمد: الآية (٣٠).

زوجها الأول، ثم كانت أول من جزم برسالته عندما حدثها بأول ما رآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه. وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ أول رجل دعاه الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه إلى الإسلام بحسن فراسته فيه، فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن أجاب الدعوة منشرح الصدر قرير العين؛ لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا إليها. وأمثلة هذا كثيرة في كل زمان. . .

فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ على الوجه الأخير في تفسيرها، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا. ثم اقرأ في معناه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]»[2].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٤٢و٤٣).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٣١-٥٣٢).

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾

★ **غريب الآية:**

خذ العفو: أي: تعاط العفو مع الناس. وقيل: العفو: التجاوز عن الذنب.

العرف: أي: المعروف، خلافه: المنكر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو بكر بن العربي: «قال علماؤنا: هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيه حسنة إلا أوضحتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاثة أقسام الإسلام الثلاثة؛ فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تولى بالبيان جانب اللين، ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات؛ وإنهما ما عُرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي به يتأتى للعبد كل مراد في نفسه وغيره»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع، وهي التي تلي في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بأبلغ التوكيد، فقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية، والآداب النفسية، والأحكام العملية»[2].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: تأويله:

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٢٦).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٣٢-٥٣٣).

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم . . .

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خذ العفو من أموال الناس، وهو الفضل، قالوا: وأمر بذلك قبل نزول الزكاة، فلما نزلت الزكاة نسخ . . .

وقال آخرون: بل ذلك أمر من اللَّه نبيه ﷺ بالعفو عن المشركين، وترك الغلظة عليهم قبل أن يفرض عليه . . .

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقال: أمر بذلك نبي اللَّه ﷺ في المشركين.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن اللَّه -جل ثناؤه- أتبع ذلك تعليمه نبيه ﷺ محاجته المشركين في الكلام، وذلك قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1]، وعقبه بقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾[2]، فما بين ذلك بأن يكون من تأديبه نبيه ﷺ في عشرتهم به أشبه وأولى من الاعتراض بأخذ الصدقة من المسلمين.

فإن قال قائل: أفمنسوخ ذلك؟

قيل: لا دلالة عندنا على أنه منسوخ؛ إذ كان جائزًا أن يكون -وإن كان اللَّه أنزله على نبيه ﷺ في تعريفه عشرة من لم يؤمر بقتاله من المشركين- مرادًا به تأديب نبي اللَّه والمسلمين جميعًا في عشرة الناس وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل تعليمًا من اللَّه خلقه صفة عشرة بعضهم بعضًا، إذا لم يجب استعمال الغلظة والشدة في بعضهم، فإذا وجب استعمال ذلك فيهم استعمل الواجب، فيكون قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أمرًا بأخذه ما لم يجب غير العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة لما قد بينا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا.

وأما قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله . . .

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف، وهو المعروف في كلام العرب مصدر في معنى (المعروف)؛ يقال: أوليته

(١) الأعراف: الآية (١٩٥).

(٢) الأعراف: الآيتان (٢٠٢و٢٠٣).

عرفًا وعارفًا وعارفة، كل ذلك بمعنى (المعروف).

فإذ كان معنى (العرف) ذلك، فمن (المعروف) صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم، وكل ما أمر اللَّه به من الأعمال أو ندب إليه فهو من (العرف)، ولم يخصص اللَّه من ذلك معنى دون معنى، فالحق فيه أن يقال: قد أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فإنه أمر من اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يعرض عمن جهل، وذلك وإن كان أمرًا من اللَّه نبيه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق اللَّه، ولا بالصفح عمن كفر باللَّه وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب»[(١)].

قال أبو بكر بن العربي منقحًا ما قيل في مفردات هذه الآية من الأقوال، قال: «أما العفو فإنه عام في متناولاته، ويصح أن يُراد به: خُذْ ما خفّ وسهل مما تعطى، فقد كان رسول اللَّه ﷺ يقبل من الصدقة التمرة والقبضة والحبة والدرهم والسَّمَل، ولا يلمز شيئًا من ذلك ولا يعيبه، ولقد كان يُسقط من الحقوق ما يقبل الإسقاط حتى قالت عائشة في الصحيح: «**ما انتقم رسول اللَّه لنفسه قط**»[(٢)].

وأما الاحتمال فقد كان يصبر على الأذى، ويحتمل الجفاء، حتى قال ﷺ: «**يرحم اللَّه موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[(٣)].

وأما مخالفة الناس فهو كان أقدر الخلق عليها وأولاهم بها؛ فإنه كان يلقى كل أحد بما يليق به من شيخ وعجوز، وصغير وكبير، وبدوي وحضري، وعالم وجاهل، ولقد كانت المرأة توقفه في السكة من سكك المدينة، ولقد كان يقول لأخ لأنس صغير: «**يا أبا عمير! ما فعل النُّغير؟**»[(٤)].

ولقد كان يكلم الناس بلغاتهم. .

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٣-١٥٦).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري (١٠/ ٦٤٣/ ٦١٢٦)، ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥).

(٣) أخرجه من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﵁: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٦/ ٥٣٩/ ٣٤٠٥)، ومسلم (٢/ ٧٣٩/ ١٠٦٢).

(٤) أخرجه: البخاري (١٠/ ٧١٢/ ٦٢٠٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٥/ ٢٣١٠).

أما العرف فالمراد به ههنا المعروف من الدين المعلوم؛ من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، المتفق عليه في كل شريعة التي أمهاتها وأصولها الثلاث التي يقال: إن جبريل نزل بها: أن تصل من قطعك، فلا شيء أفضل من صلة القاطع؛ فإنه يدل على كرم النفس، وشرف الحلم، وخلق الصبر الذي هو مفتاح خيري الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها**»(١). وقال: «**أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح**»(٢).

والذي يبين ذلك الحديثُ الصحيح الذي خرجه الأئمة(٣) واللفظ للبخاري: قال علي بن أبي طالب: «بعث النبي ﷺ سرية استعمل عليها رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يُطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا حطبًا، فجمعوا، فقال: أوقدوا لي نارًا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضًا ويقولون: فرَرْنا إلى النبي ﷺ من النار. فما زالوا حتى خمدت النار، وسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: **لو دخلوها ما خرجوا منها؛ إنما الطاعة في المعروف**»، يريد الذي يجوز في الدين موقعُه ويثبت فيه حكمه..

وأما الإعراض عن الجاهلين فإنه مخصوص في الكفار الذين أمر بقتالهم، عام في كل الذي يبقى بعدهم. وقد قال سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾(٤).

وقالت أسماء: إن أمي قدمت عليّ راغبة وهي مشركة، أفأصلها؟ قال: «**نعم، صِلي أمك**»(٥)»(٦).

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٣)، والبخاري (١٠/ ٥١٨/ ٥٩٩١)، وأبو داود (٢/ ٣٢٣/ ١٦٩٧)، والترمذي (٤/ ٢٧٩/ ١٩٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٢) والطبراني (٣/ ٢٢٦/ ٣١٢٦) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٦): «رواه أحمد والطبراني في الكبير وإسناده حسن».

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٤)، ومسلم (٣/ ١٤٦٩/ ١٨٤٠[٤٠])، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢١/ ٨٧٢١-٨٧٢٢).

(٤) الممتحنة: الآية (٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٤)، والبخاري (١٠/ ٥٠٦/ ٥٩٧٨)، ومسلم (٢/ ٦٩٦/ ١٠٠٣)، وأبو داود (٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٦٦٨).

(٦) أحكام القرآن (٢/ ٨٢٤-٨٢٥).

قال القرطبي: «وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول اللّه ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن سليم أبو جري: ركبت قَعودي ثم أتيت إلى مكة، فطلبت رسول اللّه ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول اللّه ﷺ، فإذا هو جالس عليه بُرد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله! فقال: **وعليك السلام**، فقلت: إنّا معشر أهل البادية قوم فينا الجفاء، فعلّمني كلمات ينفعني اللّه بها. قال: ادنُ -ثلاثًا- فدنوت، فقال: **أعد عليّ**، فأعدت عليه، فقال: **اتّق اللّه، ولا تحقرنّ من المعروف شيئًا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط، وأن تُفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ سبّك بما لا يعلم منك، فلا تسبه بما تعلم فيه؛ فإن اللّه جاعل لك أجرًا وعليه وزرًا، ولا تسبّنّ شيئًا مما خوّلك اللّه تعالى**، قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيرًا»[1] أخرجه أبو بكر البزار في مسنده بمعناه. وروى أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق**»[2]. وقال ابن الزبير: ما أنزل اللّه هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وروى البخاري من حديث هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد اللّه بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل اللّه هذه الآية إلا في أخلاق الناس..

وقال جعفر الصادق: أمر اللّه نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقال ﷺ: «**بُعِثتُ لأتمّم مكارم**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٦٥)، وأبو داود (٤/ ٣٤٤-٣٤٥/ ٤٠٤٨). وأخرجه: الترمذي (٥/ ٦٨/ ٢٧٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٨٧/ ١٠١٤٩) دون ذكر موطن الشاهد، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أبو يعلى (١١/ ٤٢٨/ ٦٥٥٠)، والبزار (كشف الأستار ٢/ ٤٠٨-٤٠٩/ ١٩٧٧-١٩٧٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢) وقال: «فيه عبداللّه بن سعيد المقبري، وهو ضعيف»، وقال المنذري: «رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن جيد»، ورمز الشيخ الألباني بأنه حسن لغيره (انظر صحيح الترغيب ٣/ ١٣، ح: ٢٦٦١).

الأخلاق»[١]. وقال الشاعر:

كل الأمور تزول عنك وتنقضي	**إلا الثناء فإنه لك باقي**
ولو أنني خُيِّرتُ كل فضيلة	**ما اخترت غير مكارم الأخلاق**»[٢].

وقال الحافظ: «ووجّهوه (أي: قول جعفر الصادق بأنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها) بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القِوى الإنسانية: عقليّة، وشهوية، وغضبية؛ فالعقلية: الحكمة ومنها الأمر بالمعروف، والشهوية: العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية: الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال: أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم. الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة. الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعادٍ له معارض.

وعليه في كل واحد من هذه واجب، فواجبه في أمرهم ونهيهم أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده. وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختيارًا، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم. وواجبه عند جهل الجاهلين عليه الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه؛ فقد قال اللَّه تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال عبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما: «**أمر اللَّه نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس**»، وقال مجاهد: «**يعني: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو، والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم**»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم، وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[٤]، ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، وهو كل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٨) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح»، والحاكم (٢/ ٦٧٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والبيهقي (١٠/ ١٩٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٤-٣٤٦).

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٨٩).

(٤) البقرة: الآية (٢١٩).

معروف، وأعرفه التوحيد، ثم حقوق العبودية، وحقوق العبيد، ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾(١)، وعلى هذا فليست بمنسوخة؛ بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه»(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض العلماء: الناس رجلان؛ فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٤)؛ أي: هذه الوصية، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٥)، وقال في هذه السورة الكريمة أيضًا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٦)، فهذه الآيات الثلاث في (الأعراف) و(المؤمنون) و(حم السجدة) لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾»(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن هذه الآية محكمة غير منسوخة بآية السيف

* عن عبد الله بن الزبير ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: «ما

(١) الفرقان: الآية (٦٣).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٤-٣٠٥).
(٣) المؤمنون: الآيات (٩٦-٩٨).
(٤) فصلت: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٥) فصلت: الآية (٣٦).
(٦) الأعراف: الآية (٢٠٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٢-٥٣٣).

أنزل اللَّه إلا في أخلاق الناس»[١].

* عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ قال: «أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»[٢].

★ من فوائد الأثرين:

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إلى ما ذهب إليه ابن الزبير من تفسير الآية ذهب مجاهد وخالف في ذلك ابن عباس فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم؛ أي: ما فضل، وكان ذلك قبل فرض الزكاة، وبذلك قال السدي وزاد: نسختها آية الزكاة، وبنحوه قال الضحاك وعطاء وأبو عبيدة. ورجح ابن جرير الأول، واحتج له»[٣].

* عن ابن عباس قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس -وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا- فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي! لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا بن الخطاب! فواللَّه ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ به، فقال له الحُر: يا أمير المؤمنين! إن اللَّه تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وإنّ هذا من الجاهلين. واللَّه ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله»[٤].

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٨٨/ ٤٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ١٤٣/ ٤٧٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٨/ ١١١٩٥).

(٢) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٥/ ١٢٣٨)، والحاكم (١/ ١٢٤) واللفظ له، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، وقد احتج بالطفاوي، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٥) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٣٨٨/ ٤٦٤).

★ **غريب الأثر:**

القرّاء: العلماء العباد.

هي يا بن الخطاب: بمعنى التهديد له.

ما تعطينا الجَزْل: بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها لام؛ أي: الكثير، وأصل الجزل: ما عظم من الحطب.

★ **فوائد الأثر:**

قال ابن حجر رحمه الله: «ومعنى «ما جاوزها» ما عمل بغير ما دلت عليه، بل عمل بمقتضاها، ولذلك قال: «**وكان وقّافًا عند كتاب الله**» أي: يعمل بما فيه ولا يتجاوزه، وفي هذا تقوية لما ذهب إليه الأكثر أن هذه الآية محكمة»[1].

قال القرطبي: «فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية، واستدلال الحر بها؛ يدل على أنها محكمة لا منسوخة. وكذلك استعملها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما على ما يأتي بيانه. وإذا كان الجفاء على السلطان تعمدًا واستخفافًا بحقه، فله تعزيره، وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعفو كما فعل الخليفة العدل»[2].

قال ابن القيم: «فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم؛ فإن العفو ما عفى من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم»[3].

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٣٢٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٧).
(٣) الرسالة التبوكية (ص: ٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وإما ينزغنّك: أي: يصيبنّك، ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحلّ. والنزغ: الوسوسة. ويقال: نزغ به: استخفّ به. ونزغ بينهما: إذا أفسد. وقيل: النزغ: الإغراء والتسليط.

فاستعذ بالله: أي: اطلب النجاة من ذلك باللَّه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ يقول: فاستجر باللَّه من نزغه، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن اللَّه الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان، ﴿سَمِيعٌ﴾ لجهل الجاهل عليك، ولاستعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه»[1].

قال الشنقيطي: «بيّن في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن، فبيّن أن شيطان الإنس يعامل باللين وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته، وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة باللَّه منه، قال في الأول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، وقال في الثاني: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وبيّن أن هذا الذي ذكرنا في موضعين آخرين، أحدهما في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٥٦).

﴿أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[١]، وقال في الآخر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[٢]، والثاني في (حم السجدة)، قال فيه في شيطان الإنس: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٣] وزاد هنا أن ذلك لا يعطاه كل الناس، بل لا يعطيه اللَّه إلا لذي الحظ الكبير والبخت العظيم عنده، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٤]، ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٥]»[٦].

وقال الرازي: «هذا الخطاب وإن خص اللَّه به الرسول، إلا أنه تأديب عام لجميع المكلفين؛ لأن الاستعاذة باللَّه -على السبيل الذي ذكرناه- لطف مانع من تأثير وساوس الشيطان، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٧]، وإذا ثبت بالنص أن لهذه الاستعاذة أثرًا في دفع نزغ الشيطان، وجبت المواظبة عليه في أكثر الأحوال»[٨].

وقال الرازي أيضًا: «الاستعاذة باللَّه عند هذه الحالة أن يتذكر المرء عظيم نعم اللَّه عليه، وشديد عقابه فيدعوه كل واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطبع، والإقبال على أمر الشرع»[٩].

قلت: بل ينبغي أن يكون مصاحبًا لما ذكر أن يستعيذ باللَّه لفظًا كما صح عن النبي ﷺ في الغاضب، ولا شك أن الغضب من نزغ الشيطان، فقال له -وقد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه من الغضب-: «**إني لأعلم كلمة لو قالها هذا لذهب عنه ما يجد: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم**»[١٠].

(١) المؤمنون: الآية (٩٦).
(٢) المؤمنون: الآيتان (٩٧و٩٨).
(٣) فصلت: الآية (٣٤).
(٤) فصلت: الآية (٣٥).
(٥) فصلت: الآية (٣٦).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٤٧).
(٧) النحل: الآيتان (٩٨و٩٩).
(٨) مفاتح الغيب (١٥/ ١٠٣).
(٩) مفاتح الغيب (١٥/ ١٠٢).
(١٠) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩٤)، والبخاري (٦/ ٤١٥/ ٣٢٨٢)، ومسلم (٤/ ٢٠١٥/ ٢٦١٠)، وأبو داود (٥/ ١٤٠/ ٤٧٨١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٤/ ١٠٢٢٤) من حديث سليمان بن صرد ﷺ.

قال الرازي: «قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك، فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة القول اللساني بدون حضور القلب عديم الفائدة والأثر»[1].

قال محمد رشيد رضا: «وملخص ما يجب اعتقاده أنه ثبت في وحي اللَّه تعالى إلى رسله أن في عالم الغيب خلقًا خفيًّا اسمه الشيطان، لا تدركه حواسنا، له أثر في أنفسنا، فهو يتصل بها، ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحيُ وسواسًا ونزغًا ومسًّا، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره..

وحكمة إخبار اللَّه تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا، الضار بأرواحنا كضرر نسم الأمراض بأجسادنا: أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج، وخروج الصحة من الاعتدال، فنبادر إلى علاجه. فمتى فطنّا بميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل؛ عالجناه بما وصفه اللَّه تعالى لنا من العلاج في هذه الآية، وهو قوله ﷻ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فالجأ إلى اللَّه، وتوجه إليه؛ ليعيذك من شر هذا النزغ، فلا يحملنك على ما يزعجك إليه من الشر، الجأ إلى اللَّه بقلبك، وعبر عن ذلك بلسانك، فقل: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم؛ ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تتوجه إليه، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر. ومن المجرب أن الالتجاء إلى اللَّه تعالى وذكره بالقلب واللسان؛ يصرف عن القلب وسوسة الشيطان»[2].

قال ابن عطية: «وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله: إن الاستعاذة عند القراءة: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم»[3].

وقد تقدم الكلام على الاستعاذة وما يتعلق بها في تفسير سورة (الفاتحة).

---

(١) مفاتح الغيب (١٥/ ١٠٣) بتصرف.

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٤٠-٥٤١).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٤٩١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعاذة من الشيطان

* عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم ونفخه وهمزه ونفثه، قال: وهمزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبرياء»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللَّه ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ باللَّه ولينته»[٢].

* عن عبد اللَّه قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

أورد القرطبي هذه الأحاديث في تفسيره، وأشار إلى أنها نظيرة هذه الآية في بيان أن ما يصيب الإنسان ويعرض له من الوسوسة بما لا يحل، أن ذلك من الشيطان، ثم قال معلّقًا على هذه الأحاديث: «والصريح: الخالص، وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان؛ لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من اللَّه تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم، فكأنه قال: جزعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه؛ لصحة إيمانكم

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٤)، وابن ماجه (١/ ٢٦٦/ ٨٠٨)، وصححه ابن خزيمة (١/ ٢٤٠/ ٤٧٢) واللفظ له، والحاكم (١/ ٢٠٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، وقد استشهد البخاري بعطاء بن السائب» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣١)، والبخاري (٦/ ٤١٣-٤١٤/ ٣٢٧٦)، ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٤)، وأبو داود (٥/ ٩١-٩٢/ ٤٧٢١).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١١٩/ ١٣٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٥٦)، ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٢)، وأبو داود (٥/ ٣٣٦/ ٥١١١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٥٠٠).

وعلمكم بفسادها، فسمى الوسوسة إيمانًا لما كان دفعها والإعراض عنها والرد لها وعدم قبولها والجزع منها صادرًا عن الإيمان. وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها، والالتفات نحوها، فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به، وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي ﷺ: «**لا عدوى**»، فقال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها؟ فقال ﷺ: «**فمن أعدى الأول؟**»[(١)]، فاستأصل الشبهة من أصلها، فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد ﷺ بالإغراء والإضلال، أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك الألقيات والوساوس النزهات، فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاؤوا -كما في الصحيح- فقالوا: يا رسول الله! إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: «**ذلك صريح الإيمان**»؛ رغمًا للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[(٢)]، فالخواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تدفع بالإعراض عنها وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة، والله أعلم»[(٣)].

قال السعدي معلقًا على حديث أبي هريرة: «احتوى هذا الحديث على أنه لا بد أن يلقي الشيطان هذا الإيراد الباطل: إما وسوسة محضة، أو على لسان شياطين الإنس وملاحدتهم. وقد وقع كما أخبر، فإن الأمرين وقعا، ولا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل، ولا يزال أهل الإلحاد يلقون هذه الشبهة التي هي أبطل الشبه، ويتكلمون عن العلل وعن مواد العالم بكلام سخيف معروف.

وقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٢٩٥/ ٥٧٧٠)، ومسلم (٤/ ١٧٤٢/ ٢٢٢٠)، وأبو داود (٤/ ٢٣١/ ٣٩١١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحجر: الآية (٤٢).

(٣) جامع أحكام القرآن (٧/ ٣٤٨-٣٤٩).

بالانتهاء، والتعوذ من الشيطان، وبالإيمان.

أما الانتهاء -وهو الأمر الأول-: فإن اللَّه تعالى جعل للأفكار والعقول حدًّا تنتهي إليه، ولا تتجاوزه. ويستحيل لو حاولت مجاوزته أن تستطيع؛ لأنه محال، ومحاولة المحال من الباطل والسفه، ومن أمحل المحال التسلسل في المؤثرين والفاعلين؛ فإن المخلوقات لها ابتداء، ولها انتهاء، وقد تتسلسل في كثير من أمورها حتى تنتهي إلى اللَّه الذي أوجدها وأوجد ما فيها من الصفات والمواد والعناصر؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[1]، فإذا وصلت العقول إلى اللَّه تعالى وقفت وانتهت، فإنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. فأوّليته تعالى لا مبتدأ لها مهما فرضت الأزمان والأحوال، وهو الذي أوجد الأزمان والأحوال والعقول التي هي بعض قوى الإنسان. فكيف يحاول العقل أن يتشبث في إيراد هذا السؤال الباطل؟! فالفرض عليه المحتم في هذه الحال: الوقوف والانتهاء.

الأمر الثاني: التعوذ باللَّه من الشيطان؛ فإن هذا من وساوسه وإلقائه في القلوب؛ ليشكك الناس في الإيمان بربهم. فعلى العبد -إذا وجد ذلك- أن يستعيذ باللَّه منه، فمن تعوذ باللَّه بصدق وقوة أعاذه اللَّه وطرد عنه الشيطان، واضمحلت وساوسه الباطلة.

الأمر الثالث: أن يدفعه بما يضاده من الإيمان باللَّه ورسله، فإن اللَّه ورسله أخبروا بأنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه تعالى المتفرد بالوحدانية، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة واللاحقة.

فهذا الإيمان الصحيح الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضاده من الشبه المنافية له؛ فإن الحق يدفع الباطل، والشكوك لا تعارض اليقين.

فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ تبطل هذه الشبه التي لا تزال على ألسنة الملاحدة، يلقونها بعبارات متنوعة. فأمر بالانتهاء الذي يبطل التسلسل الباطل، وبالتعوذ من الشيطان الذي هو الملقي لهذه الشبه، وبالإيمان الصحيح الذي يدفع

---

(١) النجم: الآية (٤٢).

كل ما يضاده من الباطل، والحمد لله. فبالانتهاء: قطع الشر مباشرة، وبالاستعاذة: قطع السبب الداعي إلى الشر، وبالإيمان: اللجأ والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني الذي يدفع كل معارض.

وهذه الأمور الثلاثة هي جماع الأسباب الدافعة لكل شبهة تعارض الإيمان. فينبغي العناية بها في كل ما عرض للإيمان من شبهة واشتباه يدفعه العبد مباشرة بالبراهين الدالة على إبطاله، وبإثبات ضده، وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، وبالتعوذ بالله من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ليزلزل إيمانهم، ويواقعهم بأنواع المعاصي. فبالصبر واليقين ينال العبد السلامة من فتن الشهوات، ومن فتن الشبهات. والله هو الموفق الحافظ»[1].

* * *

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص: ٢٢-٢٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مَسَّهم: أي أَلَمَّ بهم وأصابهم.

طائف: أي: شيء من وسوسة الشيطان. والطائف في الأصل: اسم فاعل من طافَ يطوفُ حول الشيء: إذا دار من جميع جوانبه وأحاط به، ثم استعير للطائف من الجن والخيال والحوادث تخيلًا أن كلاً من هذه الأشياء قد طاف بالإنسان من جميع جهاته، وأحاط به إحاطة من يطوف به. فالطائف: من يدور حول الشيء يريد اقتناصه وأخذه.

مبصرون: أي: منتهون. وقيل: على بصيرة.

يمدّونهم في الغيّ: أي: في الجهل.

ثم لا يُقصِرون: أي: لا يتوبون ولا يرجعون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «هذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة باللَّه تعالى عن نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم»[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخبر اللَّه تعالى عن المتقين من عباده، الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم طيف، وقرأ آخرون: طائف، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٣٢٧).

بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: عقاب اللَّه وجزيل ثوابه ووعده ووعيده، فثابوا وأنابوا واستعاذوا باللَّه ورجعوا إليه من قريب، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه»[١].

وقال السعدي: «لما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطًا، ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب -بفعل محرم أو ترك واجب- تذكر من أي باب أُتِي، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب اللَّه عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر اللَّه تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي، ذنبًا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم سَلِسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة أن إخوان الشياطين يمدون الإنس في الغي، ثم لا يقصرون، وبين ذلك أيضًا في مواضع أخر، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٣]، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[٤]، وبين في موضع آخر أن بعض الإنس إخوان للشياطين، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٥]»[٦].

قال أبو حيان: «النزغ من الشيطان أخف من مس الطائف من الشيطان؛ لأن النزغ أدنى حركة، والمس الإصابة، والطائف ما يطوف ويدور عليه، فهو أبلغ لا

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٥-١٣٦).
(٣) مريم: الآية (٨٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٥) الإسراء: الآية (٢٧).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٤٧).

محالة، فحال المتقين تزيد في ذلك على حال الرسول، وانظر لحسن هذا البيان، حيث جاء الكلام للرسول كان الشرط بلفظ إن المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء بـ(إذا) الموضوعة للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزغ يمكن أن يقع ويمكن أن لا يقع، والمس واقع لا محالة، أو يرجح وقوعه، وهو إلصاق البشرة، وهو هنا استعارة، وفي تلك الجملة أمر هو ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط، وجاء الخبر ﴿تَذَكَّرُواْ﴾، فدل على تمكن مس الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه، والمعنى: تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم، فاجأهم إبصار الحق والسداد، فاتبعوه وطردوا عنهم مس الشيطان الطائف»[1].

واختلف العلماء في طيف الشيطان هذا ما هو؟ قال ابن جرير: «فقال بعضهم: ذلك الطائف هو الغضب.. وقال آخرون: هو اللمة والزلة من الشيطان.. وهذان التأويلان متقاربا المعنى؛ لأن الغضب من استزلال الشيطان، واللمة من الخطيئة أيضًا منه، وكان ذلك من طائف الشيطان، وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لخصوص معنى منه دون معنى، بل الصواب أنه يعم كما عمه -جل ثناؤه-، فيقال: إن الذين اتقوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشيطان ما كان ذلك العارض، تذكروا أمر الله، وانتهوا إلى أمره.

وأما قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فإنه يعني: فإذا هم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه، فمنتهون عما دعاهم إليه طائف الشيطان»[2].

قال محمد رشيد رضا: «والمعنى مع سابقه: أن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم، وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد؛ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ فأبصروا، فحذروا وسلموا، وإن زلوا تابوا وأنابوا. وأن إخوان الشياطين -وهم الجاهلون غير المتقين- يتمكن الشياطين من أهوائهم، فيمدونهم في غيهم وفسادهم؛ لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم بالنزوع إلى الشر والباطل والفساد في الأرض، ولا يستعيذون به سبحانه من

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٤٥).

(٢) جامع البيان (٩/ ١٥٨-١٥٩).

نزغ الشيطان ومسه، فيبصروا ويتقوا؛ إما لأنهم لا يؤمنون بالله، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطانًا من الجن يوسوس إليه، ويغريه بالشر. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم، فلذلك يصرّون على الشرور والفساد؛ لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي.

وفي هذا التفسير عود الضمير إلى الشيطان بالجمع؛ لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم، وهو استعمال عربي معروف، ومنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾[1].

وقيل: إن الضمير يعود على الجاهلين؛ أي: وإخوان أولئك الجاهلين من الإنس -وهم شياطينهم- يمدونهم في غيهم وفسادهم، فيكونون أعوانًا لشياطين الجن في ذلك»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصرع مس من طيف الشيطان

* عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: **«ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها»**[3].

★ غريب الحديث:

أتكشّف: بمثناة وتشديد المعجمة من التكشف، وبالنون الساكنة مخففًا من الانكشاف، والمراد أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٧). (٢) تفسير المنار (٩/ ٥٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٦-٣٤٧)، والبخاري (١٠/ ١٤١/ ٢٦٥٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤/ ٢٥٧٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٣/ ٧٤٩٠).

من الأخلاط الرديئة، والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه، وأما صرع الأرواح فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية، لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة، فتدافع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك بقراط في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج، وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ومن يعتقد بالزندقة فضيلة، فأولئك ينكرون صرع الأرواح، ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحس والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها، وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع المرض الإلهي، وقالوا: إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره فتأولوا عليهم هذه التسمية، وقالوا: إنما سموه بالمرض الإلهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس، فتضر بالجزء الإلهي الطاهر الذي مسكنه الدماغ، وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها وتأثيراتها، وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده، ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها، يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم.

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحًا في نفسه جيّدًا، وأن يكون الساعد قويًّا، فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل، فكيف إذا عدم الأمران جميعًا، يكون القلب خرابًا من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له، والثاني من جهة المعالج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: أخرج منه أو بقول بسم اللّٰه..

وبالجملة فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم،

وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه، وربما كان عريانًا فيؤثر فيه هذا، ولو كشف الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها، وبها الصرع الأعظم الذي لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة، وبالله المستعان.

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل، وأن تكون الجنة والنار نصب عينيه، وقبلة قلبه، ويستحضر أهل الدنيا وحلول المثلات والآفات بهم، ووقوعها خلال ديارهم كمواقع القطر، وهم صرعى لا يفيقون، وما أشد داء هذا الصرع، ولكن لما عمت البلية به، بحيث لا يرى إلا مصروعًا، لم يصر مستغربًا ولا مستنكرًا، بل صار لكثرة المصروعين عين المستنكر المستغرب خلافه، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أفاق من هذه الصرعة، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يمينًا وشمالًا على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من أطبق به الجنون، ومنهم من يفيق أحيانًا قليلة ويعود إلى جنونه، ومنهم من يفيق مرة ويجن أخرى، فإذا أفاق عمل عمل أهل الإفاقة والعقل، ثم يعاوده الصرع فيقع في التخبط. . .

وأما صرع الأخلاط فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعًا غير تام، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة، فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذًا تامًّا من غير انقطاع بالكلية، وقد تكون لأسباب أخرى كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح، أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء، أو كيفية لاذعة، فينقبض الدماغ لدفع المؤذي، فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصبًا، بل يسقط ويظهر في فيه الزبد غالبًا. . .

إذا عرف هذا، فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها كانت تصرع وتتكشف، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض، ودعا لها أن لا تتكشف، وخيرها بين الصبر والجنة وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان، فاختارت الصبر والجنة، وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة

والتداوي، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى اللَّه يفعل ما لا يناله علاج الأطباء، وأن تأثيره وفعله وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها، وقد جربنا هذا مرارًا نحن وغيرنا، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب، وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم، والظاهر أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع، ويجوز أن يكون من جهة الأرواح، ويكون رسول اللَّه ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء، فاختارت الصبر والستر، واللَّه أعلم»[1].

قال ابن بطال: «فيه فضل الصرع، وفيه أن اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنة، وإن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة، لمن علم من نفسه أنه يطيق التمادي على الشدة ولا يضعف عن التزامها»[2].

قال الأبي -نقلًا عن القاضي-: «فيه أن الأجر في الأمراض والمصائب إنما يكون لمن صبر، وفيه أن الصرع يثاب عليه أكثر الثواب. قلت: ودعاؤه لها بأن لا تنكشف لا ينافي صبرها، ولها الجنة»[3].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٦-٧١).

(٢) شرح البخاري (٩/ ٣٧٦).

(٣) شرح الأبي (٨/ ٥٣١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾[1]

★ **غريب الآية:**

اجتبيتها: أي: اختلقتها من نفسك؛ يقال: اجتبيت الكلام؛ أي: ارتجلته واختلقته واخترعته: إذا جئت به من عند نفسك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا لم تأت -يا محمد- هؤلاء المشركين بآية من اللَّه، ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: قالوا: هلاّ اخترتها واصطفيتها، من قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾[2] يعني: يختار ويصطفي. . .

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: هلاّ افتعلتها من قِبل نفسك واختلقتها؟ بمعنى: هلاّ اجتبيتها اختلاقًا، كما تقول العرب: لقد اختار فلان هذا الأمر وتخيره اختلاقًا. . .

وقال آخرون: معنى ذلك: هلاّ أخذتها من ربك، وتقبلتها منه. . .

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من قال: تأويله: هلاّ أحدثتها من نفسك! لدلالة قول الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، يبين ذلك أن اللَّه إنما أمر نبيه ﷺ بأن يجيبهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه، لا أنه يحدث من قِبل نفسه قولًا، وينشئه فيدعو الناس إليه.

وحكي عن الفراء أنه كان يقول: اجتبيت الكلام، واختلقته، وارتجلته: إذا افتعلته من قبل نفسك»[3].

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٣).

(٢) آل عمران: الآية (١٧٩).

(٣) جامع البيان (٩/ ١٦٠-١٦١).

قال عبد القادر شيبة الحمد: «وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِئَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ بيان لتعنت المشركين من قريش وسفاهتهم حيث كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات. . . كما قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1]، وكما قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٣).

(٢) العنكبوت: الآيتان (٥٠و٥١).

(٣) تهذيب التفسير (٥/ ٣٥٤-٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بصائر: أي: حجج واضحة وبراهين بينة تبصرون بها وتعتبرون. واحدتها: بصيرة، وأصلها من الظهور.

هدى: أي: رُشد وبيان.

ورحمة: أي: ونعمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل -يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: هلاّ أحدثتها من قبل نفسك!-: إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن اللَّه إنما أمرني باتباع ما يوحى إليّ من عنده، فإنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي؛ لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع، ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: هذا القرآن والوحي الذي أتلوه عليكم ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم، واحدتها: بصيرة، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

وإنما ذكر ﴿هَٰذَا﴾ ووحّد في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لما وصفت من أنه مراد به القرآن والوحي.

وقوله: ﴿وَهُدًى﴾ يقول: وبيان يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ رحم اللَّه به عباده المؤمنين، فأنقذهم به من الضلالة والهلكة، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: هو بصائر من اللَّه وهدى ورحمة لمن آمن، يقول: لمن صدق

(١) الجاثية: الآية (٢٠).

بالقرآن أنه تنزيل الله ووحيه، وعمل بما فيه دون من كذب به وجحده، وكفر به بل هو على الذين لا يؤمنون به غم وخزي»[1].

وقال الرازي: «معناه: ليس لي أن أقترح على ربي في أمر من الأمور، وإنما أنتظر الوحي، فكل شيء أكرمني به قلته، وإلا فالواجب السكوت وترك الاقتراح، ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحها لا يقدح في الغرض؛ لأن ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة، فإذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعنت، فذكر في وصف القرآن ألفاظًا ثلاثة: أولها: قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أصل البصيرة: الإبصار، ولما كان القرآن سببًا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد؛ أطلق عليه لفظ البصيرة؛ تسميةً للسبب باسم المسبب. وثانيها: قوله: ﴿وَهُدٗى﴾.

والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد قسمان:

أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين لها، وهم أصحاب عين اليقين.

والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد، إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين.

فالقرآن في حق الأولين -وهم السابقون- بصائر، وفي حق القسم الثاني -وهم المقتصدون- هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة. ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين؛ لا جرم قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٦٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وأنصتوا: الإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة؛ يقال: أَنْصَتَ للحديث وانتصت: إذا استمع له وسكت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب اللَّه يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات. والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع. فإن من لزم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب اللَّه، فإنه ينال خيرًا كثيرًا، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجدّدًا، وهدىً متزايدًا، وبصيرة في دينه. ولهذا رتب اللَّه حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[1].

قال القرطبي: «قال النقاش: أجمع أهل التفسير على أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة»[2].

قال الشوكاني: «قيل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا، والعام لا يقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة، وعلى أي صفة مما يجب على السامع، وقيل: هذا خاص بقراءة رسول اللَّه ﷺ للقرآن دون غيره، ولا وجه لذلك»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٤).
(٣) فتح القدير (٢/ ٣٩٤).

قال أبو المظفر السمعاني: «وفي الآية قول ثالث: أن المراد به النهي عن الكلام في الصلاة، قاله أبو هريرة، وهذا قول حسن»(١).

قال القاسمي: «ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها، وعليه أهل الظاهر، وهو قول الحسن البصري وأبي مسلم الأصفهاني»(٢).

قال شيخ الإسلام: «فلو كان الرجل مارًّا فسمع القرآن من غير أن يستمع إليه لم يؤجر على ذلك، وإنما يؤجر على الاستماع الذي يقصد»(٣).

قال محمد رشيد رضا: «ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قوم لا يستمعون له، فإن كان في المجلس كثير من الناس يستمعون وينصتون، فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب من غير تهويش على القارئ ولا على المستمعين كان الخطب في هذا هيّنًا لا يقتضي ترك القراءة ولا ينافي الاستماع، ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته، وأن يتأدب في مجلس التلاوة، وملاك هذا الأدب للقارئ أن لا يكون منه ولا من غيره، ولا من حال المكان ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافيًا للأدب. . .

واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه، فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار، ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسۡمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾(٤)، وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه، إلا

---

(١) تفسير القرآن (٢/ ٢٤٤).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢١٣).

(٤) فصلت: الآية (٢٦).

بهجر تدبر القرآن، وجعله كالرقى والتعاويذ، التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان، وجل فائدة الصلاة -وهي عماد الدين- بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع، فإذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة»[(١)].

وفي الآية قول حكاه الرازي وانتصر له؛ قال: «وهو أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ خطاب مع الكفار في ابتداء التبليغ، وليس خطابًا مع المسلمين، وهذا قول حسن مناسب. وتقريره أن اللَّه تعالى حكى قبل هذه الآية أن أقوامًا من الكفار يطلبون آيات مخصوصة ومعجزات مخصوصة، فإذا كان النبي ﷺ لا يأتيهم بها؛ قالوا: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾[(٢)]. فأمر اللَّه رسوله أن يقول جوابًا عن كلامهم: إنه ليس لي أن أقترح على ربي، وليس لي إلا أن أنتظر الوحي. ثم بين تعالى أن النبي ﷺ إنما ترك الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها في صحة النبوة؛ لأن القرآن معجزة تامة كافية في إثبات النبوة، وعبر اللَّه تعالى عن هذا المعنى بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)]. فلو قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ المراد منه قراءة المأموم خلف الإمام؛ لم يحصل بين هذه الآية وبين ما قبلها تعلق بوجه من الوجوه، وانقطع النظم، وحصل فساد الترتيب، وذلك لا يليق بكلام اللَّه تعالى، فوجب أن يكون المراد منه شيئًا آخر سوى هذا الوجه. وتقريره أنه لما ادعى كون القرآن بصائر وهدى ورحمة، من حيث إنه معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، وكونه كذلك لا يظهر إلا بشرط مخصوص، وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن على أولئك الكفار استمعوا له وأنصتوا حتى يقفوا على فصاحته، ويحيطوا بما فيه من العلوم الكثيرة؛ فحينئذ يظهر لهم كونه معجزًا دالاً على صدق محمد ﷺ، فيستعينوا بهذا القرآن على طلب سائر المعجزات، ويظهر لهم صدق قوله في صفة القرآن: إنه بصائر وهدى ورحمة، فثبت أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه؛ استقام النظم، وحصل الترتيب الحسن المفيد. ولو حملنا الآية على منع

---

(١) المنار (٩/ ٥٥٣-٥٥٥).

(٢) الآية (٢٠٣).

(٣) الآية (٢٠٣).

المأموم من القراءة خلف الإمام؛ فسد النظم، واختل الترتيب. فثبت أن حمله على ما ذكرناه أولى، وإذا ثبت هذا ظهر أن قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزًا على صدق نبوته، وعند هذا يسقط استدلال الخصوم بهذه الآية من كل الوجوه. ومما يقوي أن حمل الآية على ما ذكرناه أولى، وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1]. فلما حكى عنهم ذلك ناسب أن يأمرهم بالاستماع والسكوت؛ حتى يمكنهم الوقوف على ما في القرآن من الوجوه الكثيرة البالغة إلى حد الإعجاز.

والوجه الثاني: أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، فحكم تعالى بكون هذا القرآن رحمة للمؤمنين على سبيل القطع والجزم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ولو كان المخاطبون بقوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ هم المؤمنون؛ لما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنه جزم تعالى قبل هذه الآية بكون القرآن رحمة للمؤمنين قطعًا، فكيف يقول بعده من غير فصل: لعل استماع القرآن يكون رحمة للمؤمنين؟

أما إذا قلنا: إن المخاطبين بقوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ هم الكافرون؛ صح حينئذ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأن المعنى: فاستمعوا له وأنصتوا، فلعلكم تطلعون على ما فيه من دلائل الإعجاز، فتؤمنوا بالرسول فتصيروا مرحومين. فثبت أنا لو حملناه على ما قلنا؛ حسن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ولو قلنا: إن الخطاب خطاب مع المؤمنين؛ لم يحسن ذكر لفظ (لعل) فيه. فثبت أن حمل الآية على التأويل الذي ذكرناه أولى، وحينئذ يسقط استدلال الخصم به من كل الوجوه؛ لأنا بيّنّا بالدليل أن هذا الخطاب ما يتناول المؤمنين، وإنما تناول الكفار في أول زمان تبليغ الوحي والدعوة»[3].

* * *

(١) فصلت: الآية (٢٦).
(٢) الآية (٢٠٣).
(٣) مفاتيح الغيب (١٥/١٠٨-١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾

★ غريب الآية:

تضرّعًا: أي: تذلّلًا والتضرّع: التذلل والخضوع والاستكانة.

وخيفة: الخيفة: هي الحالة التي يكون الإنسان عليها من الخوف.

بالغدوّ: الغدوّ: جمع غدوة، وهي أول النهار.

والآصال: جمع أُصُل، والواحد: أصيل، وهو العشية، وهي ما بين العصر إلى المغرب. ويجمع أيضًا على أُصُل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر اللَّه عبده ورسوله محمدًا أصلًا، وغيره تبعًا، بذكر ربه في نفسه؛ أي: مخلصًا خاليًا، ﴿تَضَرُّعٗا﴾ بلسانك، مكررًا لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةٗ﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من اللَّه وجل القلب منه، خوفًا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به، ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: كن متوسطًا لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلًا، ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان فيهما مزية وفضيلة على غيرهما، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر اللَّه آناء الليل والنهار، خصوصًا طرفي النهار، مخلصًا خاشعًا متضرعًا، متذللًا ساكنًا، متواطئًا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم

غفلة؛ فإن اللَّه لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ»[١].

قال شيخ الإسلام: «قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾، فأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أُمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح، وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ الآية، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٢]، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

وخص الدعاء بالخُفْيَة لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخِيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولابد لمن أكثر من ذكر اللَّه أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على اللَّه، ومحبته له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل»[٣].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾: «فإن الجهر هو الإظهار الشديد، يقال: رجل جهوري الصوت ورجل جهير... فإن الدعاء كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[٤]، فالإخفاء قد يكون بصوت يسمعه القريب وهو المناجاة، والجهر مثل المناداة المطلقة، وهذا كقوله ﷺ -لما رفع أصحابه أصواتهم بالتكبير- فقال: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[٥].

ونظير قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾، قوله ﷺ فيما روى عن ربه: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[٦]،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٩-١٤٠).
(٢) الأعراف: الآية (٥٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٩-٢٠).
(٤) مريم: الآية (٣).
(٥) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥١)، والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٨-٢٠٦٩/ ٢٦٧٥[٢١])، والترمذي (٥/ ٥٤٢/ ٣٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) من حديث أبي هريرة.

وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه، فإنه جعله قسيم الذكر في الملأ، وهو نظير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، ومعلوم أن ذكر اللّه المشروع بالغدو والآصال في الصلاة، وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذكر المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي ﷺ وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال.

وقد يدخل في ذلك أيضًا ذكر اللّه بالقلب فقط، لكن يكون الذكر في النفس كاملًا وغير كامل، فالكامل باللسان مع القلب، وغير الكامل بالقلب فقط»[١].

وفي تخصيص الغدو والآصال من بين سائر الأوقات **يقول صديق حسن خان**: «وخص هذين الوقتين لشرفهما، ولأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت، فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر اللّه ﷻ، وأما وقت الآصال، وهو آخر النهار، فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت، فيستحب له أن يشغله بالذكر؛ لأنها حالة تشبه الموت، ولعله لا يقوم من تلك النومة، فيكون موته على ذكر اللّه ﷻ، وقيل إن أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره، فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر، ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب، فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه به، وقيل غير ذلك، والمراد دوام الذكر لله»[٢].

وبالجملة فهذه الآية أرشدت إلى أنواع من آداب الذكر. قال القاسمي:

«**الأول**: أن يكون في نفسه؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى الإجابة وأبعد من الرياء.

الثاني: أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية.

الثالث: أن يكون على وجه الخيفة؛ أي: الخوف والخشية من سلطان الربوبية، وعظمة الألوهية، من المآخذة على التقصير في العمل لتخشع النفس ويخضع القلب.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٣-٣٥) بتصرف.

(٢) فتح البيان (٥/ ١٢٣).

الرابع: أن يكون دون الجهر؛ لأنه أقرب إلى حسن التفكر، قال ابن كثير: فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداءً ولا جهرًا بليغًا..

الخامس: أن يكون باللسان، لا بالقلب وحده، وهو مستفاد من قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾؛ لأن معناه: ومتكلمًا كلامًا دون الجهر، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفًا على ﴿تَضَرُّعًا﴾، أو معطوف على ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ أي: اذكره ذكرًا في نفسك، وذكرًا بلسانك دون الجهر.

السادس: أن يكون بالغدو والآصال؛ أي: في البكرة والعشي، فتدل الآية على مزية هذين الوقتين؛ لأنهما وقت سكون ودعة، وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش.. فطلب الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر.

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض آداب الذكر والدعاء

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم؛ إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم، قال: وأنا خلفه، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: يا عبد الله بن قيس! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى، يا رسول الله! قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قد تقدم ما يتعلق بهذا الحديث، ونضيف هنا ما اختصره النووي في الأذكار من

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٣٣٢-٣٣٣) بتصرف.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤)، والبخاري (١١/ ٢٢٤/ ٦٣٨٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦/ ٢٧٠٤) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ١٨٢/ ١٥٢٦)، والترمذي (٥/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٣٤٦١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٨/ ٧٦٨٠)، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٦/ ٣٨٢٤) مختصراً.

كلام الغزالي عن آداب الدعاء؛ قال: «آداب الدعاء عشرة:

الأول: أن يترصد الأزمان الشريفة كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل، ووقت الأسحار.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة، كحالة السجود، والتقاء الجيوش، ونزول الغيث، وإقامة الصلاة، وبعدها. قلت: وحالة رقة القلب.

الثالث: استقبال القبلة، ورفع اليدين..

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر.

الخامس: أن لا يتكلف السجع، وقد فسر به الاعتداء في الدعاء، والأولى أن يقتصر على الدعوات المأثورة، فما كل أحد يحسن الدعاء، فيخاف عليه الاعتداء، وقال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق، ويقال: إن العلماء.. لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات، ويشهد له ما ذكره الله ﷻ في آخر سورة (البقرة): ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾[1] إلى آخرها؛ لم يخبر سبحانه في موضع عن أدعية عباده بأكثر من ذلك.

قلت: ومثله قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[2] إلى آخره.

قلت: والمختار الذي عليه جماهير العلماء أنه لا حَجْر في ذلك، ولا تكره الزيادة على السبع؛ بل يستحب الإكثار من الدعاء مطلقًا.

السادس: التضرع والخشوع والرهبة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[4].

السابع: أن يجزم بالطلب ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيها، ودلائله كثيرة مشهورة؛ قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يمنعنّ أحدكم من الدعاء ما يعلمه في نفسه؛ فإن الله تعالى أجاب شر المخلوقين إبليس إذ قال: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٢) البقرة: الآية (١٢٦).
(٣) الأنبياء: الآية (٩٠).
(٤) الأعراف: الآية (٥٥).

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾(١) .

الثامن : أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثًا ، ولا يستبطئ الإجابة .

التاسع : أن يفتتح الدعاء بذكر اللَّه تعالى . قلت : وبالصلاة على رسول اللَّه ﷺ بعد الحمد لله تعالى والثناء عليه، ويختمه بذلك كله أيضًا .

العاشر : وهو أهمها ، والأصل في الإجابة، وهو التوبة، ورد المظالم، والإقبال على اللَّه تعالى»(٢) .

* * *

---

(١) الأعراف : الآيتان (١٤و١٥).

(٢) الأذكار (٢/ ٩٥٦-٩٥٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ويسبّحونه: أي: يعظّمونه وينزّهونه.

وله يسجدون: قيل: يصلّون، وقيل: يذلّون، خلاف أهل المعاصي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا تستكبر -أيها المستمع المنصت للقرآن- عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعًا وخيفة، ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له، والتخشع، وذلك هو العبادة، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ يقول: ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ يقول: ولله يصلون، وهو سجودهم، فصلوا أنتم أيضًا له، وعظموه بالعبادة كما يفعله من عنده من ملائكته»[1].

قال أبو حيان: «لما أمر تعالى بالذكر ورغب في المواظبة عليه، ذكر مَنْ شأنُهم ذلك، فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة:

الأول: نفي الاستكبار عن عبادته، وذلك هو إظهار العبودية، ونفي الاستكبار، هو الموجب للطاعات كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأن المستكبر يرى لنفسه شفوفًا ومزية، فيمنعه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى، وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدسة.

والثالث: السجود له»[2].

(١) جامع البيان (٩/ ١٦٨).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٤٩-٤٥٠).

والآيات الدالة على كون الملائكة مستغرقين في العبودية كثيرة، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2].

وقال الخازن: «فإن قلت: التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ لأنهما من جملة العبادة، فكيف أفردهما بالذكر؟ قلت: أخبر اللَّه ﷻ عن حال الملائكة أنهم خاضعون لعظمته، لا يستكبرون عن عبادته، ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنهم يسبحونه وله يسجدون، ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين: أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب هي تنزيه اللَّه عن كل سوء، وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، وعبر عن أعمال الجوارح بقوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾. وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن، فيستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم»[3].

قال ابن عاشور: «ومقتضى السجدة هنا أن الآية جاءت للحض على التخلق بأخلاق الملائكة في الذكر، فلما أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم اللَّه وهو السجود لله، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبادر بالتشبه بهم تحقيقًا للمقصد الذي سيق هذا الخبر لأجله، وأيضًا جرى قبل ذلك ذكر اقتراح المشركين أن يأتيهم النبي ﷺ بآية كما يقترحون، فقال اللَّه له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾[4] وبأن يأمرهم بالاستماع للقرآن، وذكر أن الملائكة يسجدون لله، شرع اللَّه هذه الآية سجودًا ليظهر إيمان المؤمنين بالقرآن، وجحود الكافرين به، حين سجد المؤمنون، ويمسك المشركون الذين يحضرون مجالس نزول القرآن. وقد دل استقراء مواقع سجود القرآن أنها لا تعدو أن تكون إغاظة للمشركين، أو اقتداء بالأنبياء أو المرسلين، كما قال ابن عباس في سجدة ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[5]: إن اللَّه تعالى قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[6] فداود ممن أمر محمد ﷺ بأن يقتدي به»[7].

---

(١) الصافات: الآيتان (١٦٥و١٦٦).
(٢) الزمر: الآية (٧٥).
(٣) لباب التأويل (٢/ ١٦٤).
(٤) الأعراف: الآية (٢٠٣).
(٥) ص: الآية (٢٤).
(٦) الأنعام: الآية (٩٠).
(٧) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٤).

وقال أيضًا: «وليس في هذا التعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة أفضل من الرسل، كما يتوهمه المعتزلة؛ لأن التشبه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبقَ في هذا المعنى؛ لكونه حاصلًا منهم بالجِبِلّة، فهم مثل فيه، ولا شبهة في أن الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة، إذا تخلقوا بمثل خلق الملائكة؛ كان سُموهم إلى تلك المرتبة أعجب، واستحقاقهم الشكر والفضل له أجدر»[1].

فصل في إثبات العندية لله تعالى

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على اختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده سبحانه، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾[3]، وقوله تعالى في شأن أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[4]، وإثبات هذه العندية -**يقول الشيخ الهراس**-: «من أعظم الأدلة على علوه تعالى على خلقه، فتكون بعض مخلوقاته أقرب إليه من بعض؛ إذ لو لم يكن كذلك لما كان هناك معنى لاختصاص بعضها بالقرب منه، بل تكون جميعًا عنده سواء، بل يكون أقربها وهو جبريل عليه السلام بمنزلة أبعدها وهو إبليس في تلك العندية، وهذا لازم للجهمية الذين نفوا علوه تعالى ومنعوا نسبة العباد إليه بالقرب والبعد، وجعلوا نسبتهم إليه نسبة واحدة، وزعموا أن محبته عين إرادته، وأن كل ما أراده اللَّه فقد أحبه، فلزمهم على هذا أن يكون كل من جبريل وإبليس مرادًا له ومحبوبًا، وأن يكون كلاهما سواء عنده والحق أن محبته سبحانه غير إرادته للأشياء بالإرادة الكونية القدرية؛ لأن المحبة إنما تتعلق بما يأمر اللَّه به عباده ويريده منهم شرعًا، وهذا ليس بلازم أن يقع؛ فقد لا يريده اللَّه كونًا وقدرًا، وأما الإرادة الكونية فتتعلق بكل كائن، سواء كان مما يحبه اللَّه ويرضاه، أو كان مما يبغضه ويسخطه.. وإذا بطل تفسير العندية على هذين الوجهين -أي: عندية التكوين

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٣).
(٢) الأنبياء: الآية (١٩).
(٣) فصلت: الآية (٣٨).
(٤) القمر: الآيتان (٥٤و٥٥).

وعندية التقريب والمحبة- فالحق ما ذهب إليه السلف من أن العندية هنا على حقيقتها، فهي تجمع لمن ثبتت له حب الإله ﷻ وقربه من ذاته وكرامته بإحسانه، وذلك لأن لفظ العند واضح في معنى القرب، وهو قرب ذات ومحبة وإحسان، ولا يلزم من قرب المحبة عموم ذلك لكل كائن؛ لأن الحب غير المشيئة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضل السجود ومقاصده وأحكامه

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[٢].

* عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل يقول في السجدة مرارًا: «**سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته**»[٣].

★ **فوائد الحديثين:**

فضيلة سجود التلاوة وأنه للاستحباب:

قال ابن عبدالبر: «اختلفوا في وجوب سجود التلاوة.

فقال أبو حنيفة وأصحابه: هو واجب.

وقال مالك والشافعي والأوزاعي والليث: هو مسنون وليس بواجب. وذكر عبد الرزاق... عن ربيعة بن عبد اللَّه بن الهذيل أنه حضر عمر بن الخطاب يوم الجمعة، فقرأ على المنبر سورة (النحل)، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأها حتى إذا جاء السجدة قال: «يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود، فمن سجد فقد أصاب وأحسن، ومن لم يسجد فلا إثم

---

(١) شرح نونية ابن القيم (١/ ٢١٦-٢١٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٣)، ومسلم (١/ ٨٧/ ٨١)، وابن ماجه (١/ ٣٣٤/ ١٠٥٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٠-٣١و٢١٧)، وأبو داود (٢/ ١٢٦-١٢٧/ ١٤١٤)، والترمذي (٢/ ٤٧٤/ ٥٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٥٧١/ ١١٢٨).

عليه، قال: ولم يسجد عمر ﵁. قال ابن جريج: وأخبرنا نافع عن ابن عمر ﵄: لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء»[1].

قال أبو عمر: «أيّ شيء أبين من هذا عن عمر وابن عمر، ولا مخالف لهما من الصحابة فيما علمت، وليس قول من أوجبها بشيء، والفرائض لا تجب إلا بحجة لا معارض لها، وبالله التوفيق. وقال الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل يُسأل عن الرجل يقرأ السجدة في الصلاة فلا يسجد؟ فقال: جائز أن لا يسجد، وإن كنا نستحب أن يسجد، فإن شاء سجد، واحتج بحديث عمر: «**ليست علينا إلا أن نشاء**»، قيل له: فإن هؤلاء يشددون، يعني أصحاب أبي حنيفة؟ فنفض يده وأنكر ذلك»[2].

وقال الحافظ في «الفتح»: «وأقوى الأدلة على نفي الوجوب حديث عمر المذكور»[3].

قال الشيخ ابن باز معلقًا على كلام الحافظ: «أقوى منه وأوضح في الدلالة على عدم وجوب سجود التلاوة حديث ابن عباس... في قراءة زيد بن ثابت على النبي ﷺ سورة (النجم) فلم يسجد فيها[4]، ولم يأمره النبي ﷺ بالسجود، ولو كان واجبًا لأمره به. والله أعلم»[5].

عدد سجدات القرآن:

قال الحافظ: «قد أجمع العلماء على أنه يسجد في عشرة مواضع، وهي متوالية»[6].

وقال الطحاوي: «السجود المتفق عليه هو عشر سجدات:

منهن في (الأعراف)، وموضع السجود فيها منها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ٧٠٩/ ١٠٧٧)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٣/ ٣٤١/ ٥٨٨٩).

(٢) التمهيد (فتح البر ٤/ ٧١٤-٧١٥).

(٣) فتح الباري (٢/ ٧١١).

(٤) أخرجه من حديث زيد بن ثابت ﵁: أحمد (٥/ ١٨٦)، والبخاري (٢/ ٧٠٦/ ١٠٧٣)، ومسلم (١/ ٤٠٦/ ٥٧٧)، وأبو داود (٢/ ١٢١/ ١٤٠٤)، والترمذي (٢/ ٤٦٦/ ٥٧٦)، و النسائي (٢/ ٤٩٩/ ٩٥٩).

(٥) حاشية «فتح الباري» (٢/ ٧١١).

(٦) فتح الباري (٢/ ٧٠١).

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ۩﴾ .

ومنهن في (الرعد)، وموضع السجود عند قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ۩﴾[1] .

ومنهن في (النحل)، وموضع السجود منها عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾[2] .

ومنهن في سورة (بني إسرائيل)، وموضع السجود منها عند قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ إلى قوله: ﴿خُشُوعًا﴾[3] .

ومنهن في سورة (مريم)، وموضع السجود منها عند قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[4] .

ومنهن في سورة (الحج)، فيها سجدة في أولها عند قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[5] إلى آخر الآية.

ومنهن في سورة (الفرقان)، وموضع السجود منها عند قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾[6] إلى آخر الآية.

ومنهن في سورة (النمل)، فيها سجدة عند قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾[7]، إلى آخر الآية.

ومنهن في (ألم تنزيل السجدة)، فيها سجدة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ﴾[8] إلى آخر الآية.

ومنهن في (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)، وموضع السجود منها فيه اختلاف، فقال بعضهم: موضعه: ﴿تَعْبُدُونَ﴾[9]، وقال بعضهم: موضعه: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ۩﴾[10][11] .

---

(١) الرعد: الآية (١٥).

(٢) النحل: الآيتان (٤٩و٥٠).

(٣) الإسراء: الآيات (١٠٧-١٠٩).

(٤) مريم: الآية (٥٨).

(٥) الحج: الآية (١٨).

(٦) الفرقان: الآية (٦٠).

(٧) النمل: الآية (٢٥).

(٨) السجدة: الآية (١٥).

(٩) فصلت: الآية (٣٧).

(١٠) فصلت: الآية (٣٨).

(١١) شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٩).

واختلفوا في غيرها من المواضع:

الموضع الأول: سجدة (ص):

قال ابن عبد البر: «ذهب مالك والثوري وأبو حنيفة إلى السجود فيها، وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وجماعة من التابعين، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور، واختلف في ذلك عن ابن عباس.

وذهب الشافعي إلى أن لا سجود في (ص)، وهو قول ابن مسعود وعلقمة»(١).

قال النووي: «قال أصحابنا: سجدة (ص) ليست من عزائم السجود، معناه: ليست سجدة تلاوة ولكنها سجدة شكر، هذا هو المنصوص وبه قطع الجمهور، وقال أبو العباس بن سريج وأبو إسحاق المروزي: هي سجدة تلاوة من عزائم السجود؛ والمذهب الأول قال أصحابنا: إذا قلنا بالمذهب فقرأها في غير الصلاة استحب أن يسجد.. وإن قرأها في الصلاة ينبغي أن لا يسجد، فإن خالف وسجد ناسيًا أو جاهلًا لم تبطل صلاته؛ ولكن يسجد للسهو، وإن سجدها عامدًا عالمًا بالتحريم بطلت صلاته على أصح الوجهين»(٢).

وهذا التفصيل مردود؛ لثبوت ما يخالفه. والصحيح مشروعية السجود في (ص) في الصلاة وفي غير الصلاة؛ للحديث الذي أخرجه أبو يعلى في مسنده، والطبراني في «الأوسط»(٣) عن أبي سعيد الخدري قال: «رأيت فيما يرى النائم كأني تحت شجرة، وكانت الشجرة تقرأ (ص) فلما أتت على السجدة سجدت، فقالت في سجودها: اللهم اكتب لي بها أجرًا، وحط عني بها وزرًا، وأحدث لي بها شكرًا، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته. فلما أصبحتُ غدوتُ على النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال: **سجدت أنت يا أبا سعيد؟** فقلت: لا، قال: **أنت كنت أحق بالسجود من الشجرة**، فقرأ رسول اللَّه ﷺ سورة (ص) حتى أتى على السجدة فقال في سجوده ما قالت الشجرة في سجودها».

---

(١) التمهيد (٤/ ٧١٠) فتح البر.

(٢) المجموع (٣/ ٥١٢-٥١٣).

(٣) أبو يعلى (٢/ ٣٣٠/ ١٠٦٩)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٨٦/ ٤٧٦٥)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة. انظر تخريجه مستوفى مع الذي بعده في المجلد (٦/ ٤٧٠-٤٧٥/ ٢٧١٠).

- سجدات المفصل:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن في المفصل ثلاث سجدات:

الأولى: في آخر (النجم).

الثانية: في سورة (الانشقاق).

الثالثة: في آخر سورة (العلق).

آخر النجم:

عن ابن عباس قال: «سجد رسول اللَّه ﷺ فيها -يعني (النجم)- والمسلمون والمشركون والجن والإنس»[1].

قال ابن حزم: «وبالسجود فيها يقول عبدالرحمن بن أبي ليلى وسفيان وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وداود وغيرهم»[2].

قال أبو عمر: «أما مالك وأصحابه وطائفة من أهل المدينة، فإنهم لا يرون السجود في المفصل، وهو قول ابن عمر وابن عباس، وروي ذلك عن أبي بن كعب، وهو قول سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وعكرمة ومجاهد وطاوس، وعطاء كل هؤلاء يقول: ليس في (المفصل) سجود، بالأسانيد الصحاح عنهم، وقال يحيى بن سعيد: أدركنا القراء لا يسجدون في شيء من (المفصل)، وكان أيوب السختياني لا يسجد في شيء من (المفصل)»[3].

وقال ابن حزم: «واحتج المقلدون لمالك بخبر رويناه من طريق يزيد بن عبد اللَّه بن قسيط عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت قال: «**قرأت على رسول اللَّه ﷺ** (والنجم) فلم يسجد فيها»[4] قال أبو محمد: لا حجة لهم في هذا فإنه لم يقل إن النبي ﷺ قال: لا سجود فيها، وإنما في هذا الخبر حجة على من قال: إن السجود فرض فقط، وهكذا نقول: إن السجود ليس فرضًا، لكن إن سجد فهو أفضل، وإن ترك فلا حرج ما لم يرغب عن السنة»[5].

---

(١) الترمذي (رقم: ٥٨٠).

(٢) المحلى (٥/ ١٠٩).

(٣) التمهيد (فتح البر ٤/ ٦٩٨).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) المحلى (٥/ ١٠٩).

الانشقاق وآخر (اقرأ):

عن أبي هريرة ﷺ قال: «**سجدنا مع رسول الله ﷺ في** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»[١].

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم يرون السجود في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

قال ابن حزم بعد أن أورد حديث أبي هريرة: «رويناه من طرق كثيرة متواترة كالشمس، اكتفينا منها بهذا، وبهذا يأخذ عامة السلف»[٢].

٣- سجدة الحج:

قال ابن عبدالبر: «واختلفوا في السجدة الثانية من (الحج) بعد إجماعهم على أن السجدة الأولى منها ثابتة يسجد التالي فيها في صلاة وفي غير صلاة إذا شاء»[٣].

ورجح ابن قدامة في «المغني» مذهب أحمد والشافعي ومن قال بقولهما قائلًا: «لأنه قول من سمَّينا من الصحابة ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم فكان إجماعًا، وقال أبو إسحق: أدركت الناس منذ سبعين سنة يسجدون في (الحج) سجدتين، وقال ابن عمر: «**لو كنت تاركًا إحداهما لتركت الأولى**». وذلك لأن الأولى إخبار، والثانية أمر، واتباع الأمر أولى، وذِكر الركوع لا يقتضي ترك السجود، كما ذكر البكاء في قوله: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٤]، وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[٥]»[٦].

وبالجملة فيستفاد مما تقدم أن عدد سجود القرآن خمس عشرة سجدة، وهو الذي ذهب إليه أحمد وإسحاق والطبري.

وقد روي عن عمرو بن العاص ﷺ ما يؤيد هذا، فروى أبو داود وابن ماجه[٧]

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٦١)، ومسلم (١/ ٤٠٦/ ٥٧٨[١٠٨])، وأبو داود (٢/ ١٢٣/ ١٤٠٧)، والترمذي (٢/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٥٧٣)، والنسائي (١/ ٥٠٠/ ٩٦٢)، وابن ماجه (١/ ٣٣٦/ ١٠٥٨).

(٢) المحلى (٥/ ١١١).

(٣) فتح البر (٤/ ٧١١-٧١٢).

(٤) مريم: الآية (٥٨).

(٥) الإسراء: الآية (١٠٩).

(٦) (٢/ ٣٥٦-٣٥٧).

(٧) أبو داود (٢/ ١٢٠/ ١٤٠١)، وابن ماجه (١/ ٣٣٥/ ١٠٥٧).

وغيرهما عنه «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في (المفصل)، وفي (الحج) سجدتان»، قال الحافظ في «التلخيص»: «حسنه المنذري والنووي، وضعفه عبدالحق وابن القطان، وفيه عبد اللّه بن منين، وهو مجهول، والراوي عنه الحارث بن عبد اللّه العتقي، وهو لا يعرف أيضًا، وقال ابن ماكولا: ليس له غير هذا الحديث»[1].

لكنّ «الحديث -مع ضعف إسناده- قد شهد له اتفاق الأمة على العمل بغالبه، ومجيء الأحاديث الصحيحة شاهدة لبقيته، إلا سجدة (الحج) الثانية، فلم يوجد ما يشهد لها من السنة والاتفاق، إلا أن عمل بعض الصحابة على السجود فيها قد يستأنس بذلك على مشروعيتها»[2].

هل يشرع سجود التلاوة في الصلاة المكتوبة؟

* عن أبي رافع قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه»[3].

ترجم البخاري في صحيحه لهذا الحديث بقوله: «باب من قرأ السجدة في الصلاة فسجد بها».

قال الحافظ: «أشار بهذه الترجمة إلى من كره السجدة في الصلاة المفروضة، وهو منقول عن مالك وعنه كراهته في السرية دون الجهرية، وهو قول بعض الحنفية أيضًا وغيرهم»[4].

وقال: «وقد اختلف تعليل المالكية بكراهة قراءة السجدة في الصلاة، فقيل لكونها تشتمل على زيادة سجود في الفرض، قال القرطبي: وهو تعليل فاسد بشهادة هذا الحديث، وقيل لخشية التخليط على المصلين، ومن ثم فرق بعضهم بين

---

(١) (٢/ ١٨).

(٢) تمام المنة للعلامة الألباني (ص: ٢٧٠).

(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٧١٢/ ١٠٧٨)، ومسلم (١/ ٤٠٧/ ٥٧٨)، وأبو داود (٢/ ١٢٣/ ١٤٠٨)، والنسائي (٢/ ٥٠١-٥٠٢/ ٩٦٧).

(٤) فتح الباري (٢/ ٧١٢).

الجهرية والسرية؛ لأن الجهرية يؤمن معها التخليط. . ومنهم من علل الكراهة بخشية اعتقاد العوام أنها فرض، قال ابن دقيق العيد: أما القول بالكراهة مطلقًا فيأباه الحديث، لكن إذا انتهى الحال إلى وقوع هذه المفسدة، فينبغي أن تترك أحيانًا لتندفع، فإن المستحب قد يترك لدفع المفسدة المتوقعة، وهو يحصل بالترك في بعض الأوقات، اهـ. وإلى هذا أشار ابن العربي بقول: ينبغي أن يفعل ذلك في الأغلب للقدوة»[١].

قال ابن بطال: «في هذا الحديث حجة لقول الشافعي والثوري أنه من قرأ سجدة في صلاة مكتوبة أنه لا بأس أن يسجد فيها، إلا الذين لا يرون السجود في (المفصل) لا يرون السجود في هذه السورة، فإن فعل فلا حرج عندهم في ذلك. . . قال الطبري: وحديث أبي هريرة شاهد بخلاف قول أبي مجلز، ودليل كاف يقضي بصحة قول الجماعة، وبه عمل السلف من الصحابة وعلماء الأمة»[٢].

قال أبو عمر: «وفيه السجود في (المفصل)، والسجود في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ معينة، والسجود في الفريضة، وهذه فصول كلها مختلف فيها، وهذا الحديث حجة لمن قال به، وحجة على من خالف ما فيه»[٣].

هل تشترط الطهارة لسجود التلاوة؟

ذهب الشافعي إلى اشتراط الطهارة في سجود التلاوة، وجعلوا حكمه حكم صلاة النفل:

قال النووي: «قال أصحابنا: حكم سجود التلاوة في الشروط حكم صلاة النفل، فيشترط فيها طهارة الحدث، والطهارة عن النجس في البدن والثوب والمكان»[٤].

هذا قول أحمد كما في «المغني»[٥]، وأبي حنيفة كما في «فتح القدير»[٦]،

---

(١) فتح الباري (٢/ ٤٨٠-٤٨١).
(٢) شرح ابن بطال (٣/ ٦٣).
(٣) التمهيد (٤/ ٧٠٣) (فتح البر).
(٤) المجموع (٣/ ٥١٥-٥١٦).
(٥) (٢/ ٣٥٨).
(٦) (٢/ ٢٦).

ومالك كما في «المدونة»[١]. والصحيح عدم اشتراط الطهارة.

قال البخاري: «وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسجد على غير وضوء»[٢].

وروى ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال: «كان ابن عمر ينزل عن راحلته فيهريق الماء، ثم يركب فيقرأ السجدة، فيسجد وما يتوضأ»[٣].

وفي المصدر نفسه عن الشعبي قال في الرجل يقرأ السجدة وهو على غير وضوء قال: «يسجد حيث كان وجهه».

«وأما ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن الليث عن نافع عن ابن عمر قال: لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر، فيجمع بينهما بأنه أراد بقوله طاهر: الطهارة الكبرى، أو الثاني على حالة الاختيار، والأول على الضرورة»[٤].

وقال الصنعاني: «الأصل أنه لا تشترط الطهارة إلا بدليل، وأدلة وجوب الطهارة وردت للصلاة، والسجدة لا تسمى صلاة، فالدليل على من شرط ذلك»[٥].

وقال شيخ الإسلام: «سجود القرآن لا يشرع فيه تحريم ولا تحليل، هذا هو السنة المعروفة عن النبي ﷺ وعليه عامة السلف، وهو المنصوص عن الأئمة المشهورين وعلى هذا فليست صلاة، فلا تشترط لها شروط الصلاة؛ بل تجوز على غير طهارة، كما كان ابن عمر يسجد على غير طهارة، لكن هي بشروط الصلاة أفضل، ولا ينبغي أن يُخل بذلك إلا لعذر، فالسجود بلا طهارة خير من الإخلال به». وقال: «ومعلوم أن جنس العبادة لا تشترط له الطهارة؛ بل إنما تشترط للصلاة، فكذلك جنس السجود يشترط لبعضه، وهو السجود الذي لله؛ كسجود الصلاة، وسجدتي السهو، بخلاف سجود التلاوة وسجود الشكر»[٦].

ما يلزم المستمع للسجدة:

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: سجود القوم بسجود القارئ:

---

(١) (١/ ١٠٩).
(٢) فتح الباري (٢/ ٧٠٤).
(٣) المصنف (١/ ٣٧٥/ ٤٣٢٢).
(٤) فتح الباري (٢/ ٧٠٤).
(٥) سبل السلام (١/ ٤٠٣).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦٥-١٦٦).

* عن عبد اللَّه بن عمر قال: «كان النبي ﷺ يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا مكانًا لموضع جبهته»[(١)].

قال النووي: «فسجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع بلا خلاف، وسواء كان القارئ في صلاة أم لا»[(٢)].

وبوب البخاري في كتاب سجود القرآن: «باب من سجد لسجود القارئ، وقال ابن مسعودٍ لتميم بن حَذْلَم -وهو غلام- فقرأ عليه سجدةً فقال: اسجد، فأنتَ إمامنا فيها»[(٣)].

المسألة الثانية: هل يسجد المستمع أم السامع غير القاصد للسماع؟

روى عبدالرزاق عن عثمان أنه مر بقاص فقرأ سجدة ليسجد معه عثمان فقال عثمان: «**إنما السجود على من استمع**»، ثم مضى ولم يسجد[(٤)].

وروي عن عمران بن حصين أنه قال: «**إنما السجدة على من جلس لها**»[(٥)].

وقال ابن عباس: «إنما السجدة على من جلس لها، فإن مررت فسجدوا فليس عليك سجود»[(٦)].

وروي نحو هذا القول عن سلمان وسعيد بن المسيب والحسن والنخعي وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي[(٧)].

وأما الشافعي فقال: «لا أؤكد عليه السجود، وإن سجد فحسن»[(٨)].

قال ابن بطال: «أجمع فقهاء الأمصار أن التالي إذا سجد في تلاوته لزم الجالس

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧)، والبخاري (٢/ ٧١٢-٧١٣/ ١٠٧٩)، ومسلم (١/ ٤٠٥/ ٥٧٥)، وأبو داود (٢/ ١٢٥/ ١٤١٢).

(٢) المجموع (٣/ ٥٠٩).

(٣) فتح الباري (٢/ ٧٠٨).

(٤) مصنف عبدالرزاق (٣/ ٣٤٤/ ٥٩٠٦)، قال الحافظ في «الفتح» (٢/ ٥٥٨): «إسناده صحيح».

(٥) مصنف عبدالرزاق (٣/ ٣٤٥/ ٥٩١٠)، وصححه الحافظ في «الفتح» (٢/ ٥٥٨).

(٦) مصنف عبدالرزاق (٣/ ٣٤٥/ ٥٩٠٨) بسند صحيح.

(٧) ينظر الأوسط لابن المنذر (٥/ ٢٨١)، والمغني لابن قدامة (٢/ ٣٦٦-٣٦٧)، والمصنف لابن أبي شيبة (١/ ٣٦٧).

(٨) المغني (٢/ ٣٦).

إليه المستمع له أن يسجد بسجوده»[١].

المسألة الثالثة: هل يسجد المستمع إذا لم يسجد القارئ؟

مذهب الشافعي أنه يسجد؛ لأن الاستماع موجود.

قال النووي: «سواء سجد القارئ أو لم يسجد يسن للمستمع أن يسجد هذا هو الصحيح وبه قطع الجمهور، وقال الصيدلاني: لا يسن له السجود إذا لم يسجد القارئ، واختاره إمام الحرمين»[٢].

ومذهب أحمد أن التالي إذا لم يسجد لم يسجد المستمع[٣].

قال ابن حبيب المالكي: «لأن القارئ لو كان في صلاة ولم يسجد لم يسجد من معه، فكذلك هذا»[٤].

هل يشترط له استقبال القبلة؟

لا يشترط فيها استقبال القبلة؛ بل يسجد كما تيسر؛ لأن ذلك شرط في الصلاة، وسجدة التلاوة ليس بصلاة. قال ابن حزم رحمه الله: «وأما سجودها على غير وضوء وإلى غير القبلة كيف ما يمكن فلأنها ليست صلاة، وقد قال ﷺ: «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى»[٥]، فما كان أقل من ركعتين فليس صلاة إلا أن يأتي نص بأنه صلاة، كركعة الخوف والوتر وصلاة الجنازة، ولا نص في أن سجدة التلاوة صلاة»[٦].

التكبير والتسليم في سجود التلاوة:

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «وأما اختلافهم في التكبير لسجود التلاوة والتسليم منها؛ فقال الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو حنيفة: يكبر التالي إذا سجد ويكبر إذا رفع رأسه في الصلاة وفي غير الصلاة، وروي ذلك عن جماعة من

---

(١) شرح ابن بطال (٣/ ٦٠).

(٢) المجموع (٣/ ٥٠٩).

(٣) المغني (٢/ ٣٦٨).

(٤) شرح ابن بطال (٣/ ٦٠).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦) وأبو داود (٢/ ٦٥/ ١٢٩٥) والترمذي (٢/ ٤٩١/ ٥٩٧) والنسائي (٣/ ٢٥١/ ١٦٦٥) وابن ماجه (١/ ٤١٩/ ١٣٢٢) وصححه ابن حبان (٦/ ٢٣١-٢٣٢/ ٢٤٨٢-٢٤٨٣) كلهم من حديث ابن عمر ﷺ.

(٦) المحلى (٥/ ١١١).

التابعين، وكذلك قال مالك إذا كان في صلاة، واختلف عنه إذا كان في غير الصلاة»[١].

وذهب شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى إيجاب التكبير في سجود التلاوة إذا كان في الصلاة. قال: «أما إذا كان سجود التلاوة في الصلاة فإنه يجب فيه التكبير عند الخفض؛ لأن النبي ﷺ يفعل ذلك في الصلاة في كل خفض ورفع[٢]، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٣]»[٤].

وهذا هو مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ[٥].

السجود في الأوقات المنهي عنها:

كره مالك قراءة السجدة في وقت النهي، وهو رواية عن أحمد، وذهب في رواية إلى أنه يسجد، وهو قول الشافعي، وروي ذلك عن الحسن والشعبي وسالم والقاسم وعطاء وعكرمة[٦].

قال البيهقي: «ويذكر عن عطاء وسالم والقاسم وعكرمة أنهم رخصوا في السجود بعد الصبح وبعد العصر، وثبت عن كعب بن مالك أنه سجد للشكر بعد صلاة الفجر لما سمع البشرى، وكان ذلك في زمان النبي ﷺ»[٧].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يسجد لها في الصلاة الفريضة والتطوع، وفي غير الصلاة في كل وقت، وعند طلوع الشمس وغروبها واستوائها»[٨].

---

(١) التمهيد (فتح البر ٤/ ٧١٥).

(٢) كما في حديث وائل بن حجر رضي الله عنه: «أنه صلى مع رسول الله ﷺ فكان يكبر إذا خفض وإذا رفع ويرفع يديه عند التكبير» رواه أحمد (٤/ ٣١٦) وغيره بسند صحيح.

(٣) أخرجه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٥٣)، والبخاري (٢/ ١٤٢/ ٦٣١). وبغير لفظ الشاهد أخرجه: مسلم (١/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٦٧٤)، وأبو داود (١/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٩)، والترمذي (١/ ٣٩٩/ ٢٠٥)، والنسائي (٢/ ٣٣٦/ ٦٣٤)، وابن ماجه (١/ ٣١٣/ ٩٧٩).

(٤) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن باز (٤/ ٣٣٦-٣٣٧).

(٥) المدونة (١/ ١١١).

(٦) ينظر المغني (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٧) السنن الكبرى ٢/ ٣٢٧).

(٨) المحلى (٥/ ١٠٦).

ما يقال في سجود التلاوة:

* عن عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل: «**سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته**»[(١)].

* عن ابن عباس ﵄ قال: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ** فقال: رأيتني الليلة وأنا نائم كأني كنت أصلي خلف شجرة، فسجدت الشجرة لسجودي، وسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود». قال ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، قال ابن عباس: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبر الرجل من قول الشجرة»[(٢)].

قال الشوكاني: «الحديثان يدلان على مشروعية الذكر في سجود التلاوة بما اشتملا عليه»[(٣)].

وقال الشيرازي: «المستحب أن يقول في سجوده ما روت عائشة ﵂... وإن

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٠-٣١)، وأبو داود (٢/ ١٢٣-١٢٧/ ١٤١٤)، والترمذي (٢/ ٤٧٤/ ٥٨٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٢٢٢)، وفي الكبرى (١/ ٢٣٩/ ٧١٤)، والحاكم (١/ ٢٢٠)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
قال الحافظ في «نتائج الأفكار» (٢/ ١١٧-١١٨): «هذا حديث حسن، أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة كلهم عن بندار محمد بن بشار عن عبدالوهاب الثقفي. وأخرجه ابن خزيمة والحاكم من رواية وهيب بن خالد وخالد بن عبدالله الواسطي كلاهما عن خالد الحذاء. قال ابن خزيمة: إنما أخرجته لئلا يغتر بعض الطلبة فيظنه صحيحاً، وليس كذلك، فإن خالداً الحذاء لم يسمعه من أبي العالية، بل بينهما فيه رجل. قلت: كأنه يشير إلى رواية إسماعيل بن علية قال: حدثنا خالد الحذاء عن رجل عن أبي العالية عن عائشة الحديث. وبالسند الذي أشرت إليه إلى الإمام أحمد ثنا إسماعيل فذكره. وهكذا أخرجه أبو داود عن مسدد عن إسماعيل. وخفيت علته على الترمذي فصححه، واغتر ابن حبان بظاهره فأخرجه في صحيحه عن ابن خزيمة. وتبعه الحاكم في تصحيحه. وكأنهما لم يستحضرا كلام إمامهما فيه. وذكر الدارقطني في «العلل» الاختلاف فيه، وقال: الصواب رواية إسماعيل. قلت: وإنما قلت: حسن؛ لأن له شاهداً من حديث علي كما تقدم، وإن كان في مطلق السجود، والله أعلم».

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٣٤٢٤) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه (١/ ٣٣٤/ ١٠٥٣)، والحاكم (١/ ٢١٩-٢٢٠) وقال: «صحيح رواته مكيون لم يذكر واحد منهم بجرح وهو من شرط الصحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي بقوله: «صحيح ما في رواته مجروح»، وابن حبان (٦/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٢٧٦٨)، وابن خزيمة (١/ ٢٨٢-٢٨٣/ ٥٦٢). والحديث حسنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٢/ ١١٣).

(٣) نيل الأوطار (٣/ ١٢٧) دار الفكر.

قال: «**اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وضع عني بها وزرًا، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود** عليه السلام» فهو حسن؛ لما روى ابن عباس رضي الله عنهما»[١].

قال النووي: «ولو قال ما يقوله في سجود الصلاة جاز وكان حسنًا وسواء فيه التسبيح والدعاء. ونقل الأستاذ إسماعيل الضرير في تفسيره أن اختيار الشافعي رحمه الله أن يقول في سجود التلاوة: «**سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا**»، وظاهر القرآن يقتضي مدح هذا، فهو حسن»[٢].

وقال ابن علان: «قال الحافظ: سبق الشافعي إلى ذلك سعيد بن أبي عروبة، وكان أحد فقهاء البصرة وأدرك بعض الصحابة، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريقه، ولا يعترض بالنهي عن القراءة في السجود؛ لأنه يحمل على إرادة التلاوة»[٣].

* * *

(١) المجموع شرح المهذب (٣/ ٥١٧).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥١٨).
(٣) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (٢/ ٢٧٨).

فهرس الموضوعات

سورة الأعراف

* * *